

في أصول التَّفسير

شرح رسالة السعدي

أصول وكليَّات من أصول التفسير وكلِّياته لا يستغني عنها مفسِّر القرآن

للإمام السعدي عبدالرَّحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي 1307 – 1376 هـ

الجزء الأوَّل

شرح

الدكتور: عصام الدِّين إبراهيم النُّقيلي

تمهيدُ البدايةِ

فِي أصولِ التَّفسيرِ

شرح رسالة السعدي

أصول وكليَّات من أصول التفسير وكلِّياته لا يستغني عنها مفسِّر القرآن

للإمام السعدي عبدالرَّحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي 1307 – 1376 هـ

الجزء الأوَّل

شرح

الدكتور: عصام الدِّين بن إبراهيم النُّقيلي

غفر الله له ولوالديه ومشايخه والمسلمين

آمين

تمهيد البداية

في

أصول التفسير

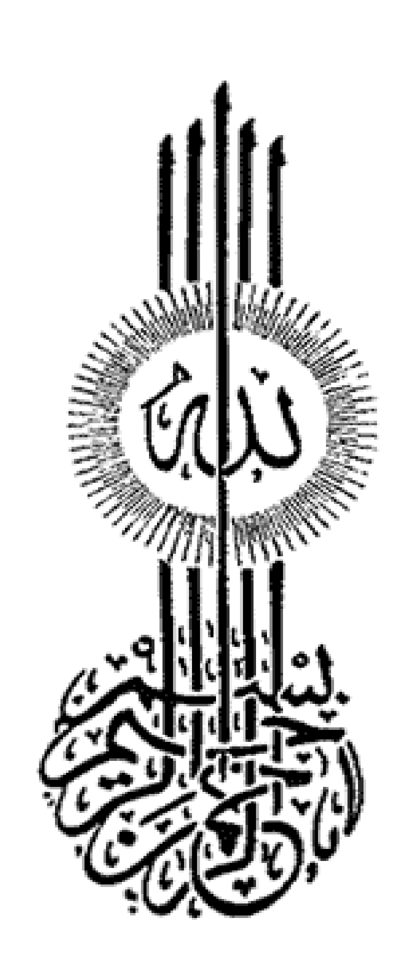
يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعــــــــذرُ

واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ

فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــــــدرُ

ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى * كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعـــــــذِّرُ[1]

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد".



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}

[النساء: 82]

الحمدُ للهِ العليمِ يسَّـــــــرَا * فهمَ الكتابِ للَّذِي تبصَّـرَا

وأكملُ الصَّلاةِ والسَّـــــلامِ * علَى النَّبيِّ صفوةِ الأنـــامِ

والآلِ والصَّحبِ وكلِّ مقتـدِ * بهمْ وللدِّينِ الحنيفِ مهتدِ[1].

([1]) الأرجوزة المنظَّمة لخلاصة المقدِّمة لأبي سهيل أنور عبد الله بن عبد الرَّحمن الفضفري.

الباب الأوَّل

وفيه أربعة فصول:

1) مقدمة

2) ترجمة الإمام السعدي

3) الأصل المشروح

4) تمهيد

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيّئاتَ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

{يَا أَيُّهَا الذّينَ ءَامَنُوا اتَّقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[آل عمرن: 102].

{يَا أَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَذِي خَلَقكُمْ مَنْ نَّفسٍ وَّاحدةٍ وَّخلقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كثيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النّساء: 1].

{يَا أَيَّهَا الذَينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزًا عَظِيمًا}[الاحزاب: 71].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وخيرُ الهديِ هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

وبعد:

فإنَّ علم تفسير القرآن من أجلِّ العلوم قدرا لتعلُّقه بخير الكتب، وبما أنَّ لكل علم أصول كالفقه والحديث وغيرها، فكذلك علم التفسير له أصول يبني عليها سائر جزئيَّاته، وهو ما يُسمَّى بعلم أصول التفسير، وهو من أجل العلوم؛ لأنَّه آلة لأصل من أصول العلوم الثلاثة وهي: التفسير، والفقه، والحديث، وقد كتب في علم أصول التفسير جمع كبير من أهل العلم سيأتي تفصيلهم في بابه، وكان للإمام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى السبق في تأسيس هذا العلم، حيث بيَّن كثيرا من مجمله، وأسس بعض أسسه وقواعده، وبه كذلك كتب فيه تلميذه ابن القيم رحمه الله تعالى كتابات متفرِّقة ذات قيمة جمَّة، وكذلك كتب إمامنا السعدي رسالة المعروفة باسم: أصول وكليَّات من أصول التفسير وكلِّياته لا يستغني عنها مفسِّر القرآن، فكانت رسالة سهلة تساعد المبتدئ على فهم هذا العلم، فرأيت أن أشرحها شرحا مطوَّلا، بحيث يكون هذا الشرح تمهيد للمبتدئ في هذا العلم الجليل، وقد اقتصرت على شرح الجزء الأوَّل من الرِّسالة، وهو ما يهمنا؛ لأنَّ الجزء الثاني كلُّه شروحات لأسماء الله الحسنى، وهذا الجزء تحديدًا نلت بشرحه درجة العالمية (الدكتوراة) في أصول التَّفسير، برسالة تحت اسم: "تمهيد البداية في أصول التَّفسير"، كما هو اسم الكتاب، هذا وإني أنصح طلاب العلم المبتدئين أن يستفتحوا في طلب هذا العلم الجليل بهذا الشرح المفصَّل، هذا لأنَّ غالب المبتدئين في طلب العلم لم يسمعوا عن رسالة السعدي "أصول وكلِّيات..."، كما أنَّ كل من أراد الاشتغال بأصول التفسير استفتح برسالة الإمام ابن تيميَّة المسمَّاة بـ: "مقدَّمة في أصول التفسير"، نعم، لا يخفى على أحد أنَّ رسالة شيخ الإسلام هي مرجع من مراجع علم أصول التفسير، لكنَّها ليست للمبتدئين، فإنَّ

المبتدئ يستفتح بدراسة علم مشتركات القرآن، وشيء من علوم القرآن؛ كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغيره، وهو على خلاف علم أصول التَّفسير؛ فعلم أصول التفسير هو: الأسس والقواعد التي يعرف بها تفسير كلام الله تعالى، ويرجع إليها عند الاختلاف فيه[1].

طبعًا منهم من جعل علم أصول التفسير من جملة علوم القرآن؛ كالزركشي والسيوطي، ولكن استقرَّ الأمر على استقلال علم أصول التَّفسير كعلم برأسه، ثمَّ بعد ذلك يستفتح الطالب بدراسة قواعد التفسير وأصوله، وأحسن ما يستفتح به الطالب هو رسالة إمامنا السعدي رحمه الله تعالى وجزاه عنَّا كل خير؛ هذا لسهولتها وبساطتها، طبعًا يلزمها شرح على يدي شيخ مختص، كما شرحناها في هذا الكتاب؛ لكن شرحها لن يكون بتلك الصعوبة، على خلاف رسالة ابن تيميَّة للمبتدئ؛ فإنَّ شرحها له مع قلَّة درايته بهذا الفنِّ يأخذ وقتًا، وعلى هذا لزمَ على الطالب أن يأخذ رسالة السعدي أخذًا جيدًا، ثمَّ ينتقل إلى رسالة الإمام ابن تيميَّة.

وأمَّا الشروحات على رسالة السعدي:

فلم أتوقَّف على شروحات كتابيَّة لها، إلَّا الشروحات الصوتيَّة.

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعل لي السبق في شرحها، وأن يجعل هذا الشرح خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعي به وقارئه والمسلمين آمين.

وكتب

الدكتور: عصام الدين إبراهيم النقيلي

[1] للمزيد يُنظر: فصول في أصول التفسير؛ للشيخ مساعد الطيَّار.

ترجمة مختصرة للإمام السعدي

هو الإمام العلامة الشيخ أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر السعدي الناصري التميمي، ويعرف اختصارًا ابن سعدي ت: 1376 هجري

وُلد في بلدة عنيزة، في القصيم يوم 12 محرم سنة ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وتوفيت أمه وله من العمر أربع سنوات، وتوفي والده وهو في السابعة، فتربى يتيمًا ولكنه نشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في التعلم، قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب، وأتقنه وعمره أحد عشر عامًا، ثم اشتغل في التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم، ولما بلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم، ويقضي جميع أوقاته في ذلك، حتى إنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعًا إليه، ومعول جميع الطلبة في التعلم[2].

من أشهر طلابه:

الشيخ محمد بن صالح العثيمين، رحمه الله تعالى.

[2] للمزيد يُنظر: صفحات من حياة علامة القصيم عبدالرحمن بن ناصر السعدي، لعبدالله بن محمد بن أحمد الطيار.

من أشهر مؤلَّفاته:

- تفسيره القرآن الكريم المسمى "تيسير الكريم الرحمن"، أكمله في عام ألف وثلاث مائة وأربع وأبعين هجري، وقد نال هذا التفسير الكثير من الاهتمام؛ حيث طبع له طبعات عديدة.
- إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، رتبه على السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقي في دمشق عام ألف وثلاثمة مائة وخمس وستين هجري على نفقته الخاصة، ووزعه مجانًا.
- الدرة المختصرة في محاسن الإسلام، طبع في مطبعة أنصار السنة عام ألف وثلاثة مائة وست وستين هجري، الخطب العصرية القيمة، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت في الموضوعات الجليلة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته، ووزعها مجانًا[3].
- القواعد الحسان لتفسير القرآن، طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ألف وثلاثة مائة وست وستين هجري، ووزع مجانًا.

[3] الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، وليد عبدالله المنيس، ط1، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ص 14.

- **تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز نصير السنة؛ الشيخ محمد نصيف عام ألف وثلاثة مائة وست وستين هجري.**

- **الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.**

- **توضيح الكافية الشافية، وهو كالشرح لنونية ابن القيم.**

- **وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة السلفية على نفقته ووزعها مجانًا.**

- **القول السديد في مقاصد التوحيد، طبع في مصر بمطبعة الإمام على نفقة عبدالمحسن أبا بطين عام ألف وثلاثة مائة وسبع وستين هجري.**

- **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين بمطبعة الإمام، ووزع مجانًا.**

- **وغير ذلك.**



الأصل المشروح من رسالة السعدي

أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته، لا يستغني عنها مفسر القرآن

• النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط – تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفردًا مضافًا إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن "العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب".

• وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

• ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

• ومن كليات القرآن أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

• ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه، ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

• ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين، ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

• ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقه للسماوات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، ويذكر أيضًا أيامه في الأمم، ووقوع المَثُلَات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

• ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة، وأن من تفرد بالكمال المطلق والنعم كلها هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيز وحُقق، وُجد شرًّا وباطلًا، وعواقبه وخيمة.

• ومن أصول التفسير إذا فهمت ما دلت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمنًا، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به، فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة اللائقة بها، وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها، يدل على

تعميم المعنى؛ لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

• إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص، كان إثباتًا للكمال المنافي لذلك النقص، وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

• ومن الكليات أنه إذا وضح الحق وظهر ظهورًا جليًّا، لم يبقَ للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

• ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

• الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

• ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة، رتَّب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئًا كثيرًا؛ فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

• والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال

المكروهات، والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما، وتصديق خبرهما.

- **وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسمًا لتوقي جميع المعاصي، والبر اسمًا لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.**

- **وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.**

- **فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.**

- **أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة، وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.**

- **وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.**

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم، وجميع أحوالهم؛ بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضًا يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد.

والإفساد قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

• أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

• أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعًا، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

• وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة.

وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

• وذكر الله الخوف والخشية في مواضع كثيرة، أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المنتفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به، فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

• وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه، وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضًا: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع].

• أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص.

وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه، وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

• نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وألَّا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك، وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه؛ فيقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد، فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصًا الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصًا له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق، والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعًا وعقلًا، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأمور المحرمة.

النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي.

• القرآن كله محكم، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن، وكله متشابه، من جهة اتفاقه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاقه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني، ومحكمه واضح مبين صريح في معناه، إذا رد إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه نوعان:

معية العلم والإحاطة؛ وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة؛ وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللطف، والتأييد.

• الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.

ودعاء المسألة؛ وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.

• الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب، والمكاسب، والخبيث ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

• النفقة تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

• التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.

وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

- **العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حجر، ولُب، ونُهى؛ لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.**

- **العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.**

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.

- **لفظ "الأمة" في القرآن على أربعة أوجه: يراد به "الطائفة من الناس" وهو الغالب، ويراد به "المدة"، ويراد به "الدين" و "الملة"، ويراد به "الإمام" في الخير.**

- **لفظ "استوى" في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عدي بـ "على"، كان معناه العلو والارتفاع: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.**

وإن عدي بـ "إلى"، فمعناه قصد؛ كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾.

وإن لم يعدَّ بشيء، فمعناه "كَمُل"؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾.

- **"التوبة" ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدْح التائبين وثوابهم؛ وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا.**

• الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

• الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله؛ من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.



تمهيدٌ

اعلمْ أيُّها المباركُ وفَّقني اللهُ تعالَى وإيَّاكَ لمَا يحبُّ ويرضَى، أنَّ لكلِّ فنٍّ عشرةُ مبادئ ينبغِي لطالبِ ذلكَ العلمِ أنْ يدرسهَا، وهذَا كيْ يتصوَّرَ ذلكَ الفنَّ قبلَ الشُّروعِ فيهِ، وقدْ جمعهَا الصبَّانُ[1] رحمهُ اللُّه تعالَى فِي أبياتٍ ثلاثٍ وقالَ:

إنَّ مبـــادِي كلِّ فنٍّ عشـــرهْ * الحـــدُّ والموضوعُ ثمَّ الثَّمـــرهْ

نسبةٌ وفضلهُ والواضـــــــعْ * والاسمُ الاستمدادُ حكمُ الشَّـارعْ

مسائلٌ والبعضُ بالبعضِ اكتفَى* ومنْ درَى الجميعَ حازَ الشَّرفَـــا

وقالَ الشيخُ أحمدُ بنِ يحيَى[2]:

مَــنْ رامَ فنَّـــا فلْيُقـــــدِّمَ أوَّلَا * علمًا بحدِّهِ وموضوعٍ تـــــلَا

وواضـــعٍ ونِسْبةٍ ومَا استمـــــدْ * منهُ وفضلِه وحكمٍ يُعتمــــــدْ

واسمٍ ومَا أفادَ والمســــــــائلْ * فتلكَ عشرٌ للمُنَى وســـائلْ

وبعضُهمْ منهَا علَى البعضِ اقتصرْ * ومَنْ يكنْ يدرِي جميعَهَا انتصرْ

وعليه؛ فإنَّ ضَبْطَ طالبِ العلمِ لهذهِ المبادئِ والأصولِ يُيَسِّرُ عليهِ فهمَ المسائلِ والفروعِ فِي فنِّهِ، ويعينهُ فِي إرجاعِ كلَّ فرعٍ إلَى أصلهِ، وذلكَ لارتكازهِ علَى ركنٍ شديدٍ فلَا بيتَ لمنْ لَا أساسَ لهُ.

---

(1) محمد بن علي الصبان، أبو العرفان، المصري، المتوفى في القاهرة سنة 1206 هـ، وهو صاحب الحاشية على شرح الأشموني في النحو، والحاشية على شرح السعد التفتازاني في المنطق، وله عدة كتب ومنظومات.

(2) الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس، المقّري، التّلمساني، المالكي، المؤرخ الأديب المتوفى سنة 1040 هـ، وهو صاحب الكتاب القيم المشهور "نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرطيب".

وتتمحورُ هذهِ المبادئُ العشرةُ فِي التَّعريفِ بحدِّ علمٍ بعينهِ لغةً واطلاحًا، فحدُّ العلمِ لوْ ضُبطَ يقطعُ علَى الطَّالبِ نصفَ المسافةِ، غمن المعلوم أنَّ حدود العلوم تجمع كل شوارده، وكذلكَ موضوعهُ، هذا ليفهمَ الطَّالبُ لُبَّ هذَا العلمِ، ثمَّ ثمرتهُ، وهكذَا إلَى بقيَّةِ المبادئِ العشرةِ.

1) فالحدُّ: هوَ التَّعريفُ بعلمٍ بعينهِ وتمييزهُ عنْ غيرهِ.

2) والموضوعُ: هوَ فهمُ موضوعِ هذَا العلمِ، أيْ عنْ أيِّ شيءٍ يحكِي، هلْ فِي الحديثِ أمِ الفقهِ أمِ الأصولِ أمِ التَّفسيرِ؟

3) الثمرةُ: أيْ الاستفادةُ والنَّتيجةُ منْ تعلُّمِكَ لهذَا العلمِ، فلَابدَّ للطَّالبِ ألَّا يشغلَ نفسهُ بشيءٍ لَا ثمرةَ فيهِ، ثمَّ إنَّهُ بعلمِ الطَّالبِ بثمرةِ علمٍ معيَّنٍ يزدادُ حرصًا علَى تعلُّمهِ، وتعلُو همَّتهُ.

4) النِّسبةُ: أيْ معرفةُ نسبةِ هذَا العلمِ إلَى غيرهِ، هلْ ينتسبُ للعلمِ الشَّرعِي، أوْ لعلمِ الطبِّ أوِ الهندسةِ أوْ غيرهِ، وكلُّ هذَا يعينُ طالبَ العلمِ علَى فهمِ مَا يريدُ أنْ يتعلَّمهُ.

5) الفضلُ: وهوَ فضلُ هذَا العلمِ وفضلُ تعلُّمهِ والخيرِ الذِي ينجرُّ عنْ ذلكَ، وفضلهُ بينَ سائرِ الفنونِ الأخرَى، وهذَا يُشجِّعُ طالبَ العلمِ علَى الاستزادِ منهُ.

6) الواضعُ: أيْ منْ وضعَ هذَا العلمَ وأسَّسهُ، وهذَا لازمٌ أيضًا، فكيفَ لعالمٍ أنْ يُدرِّسَ علمًا لَا يعرفُ واضعهُ، ولَا يردُّ الفضلَ لهُ فِي ذلكَ، فهذَا نوعٌ منَ الجحودِ.

7) الاسمُ: أيْ مَا هيَ أسماءُ هذَا الفنِّ، ومَا الاسمُ الذِي يُطلقُ عليهِ عندَ المتقدِّمينَ وعندَ المتأخِّرينَ منْ أهلِ الصَّنعةِ، وهذَا مفيدٌ جدًّا وهوَ منْ معرفةِ مصطلحاتِ أهلِ الصَّنعةِ فِي بابهمْ.

8) الاستمدادُ: أيْ منْ أينَ يستمدُّ هذَا العلمُ أصولهُ، ومادَّتهُ، فكلُّ علمٍ لَا بدَّ لهُ منْ أصولٍ يستمدُّ منهَا أحكامهُ، وهوَ عبارةٌ عنْ دليلٍ لهذَا العلمِ.

9) حكمُ الشَّارعِ: أيْ معرفةُ مَا حكمُ الشَّريعةِ فِي تعلُّمِ هذَا العلمِ، هلْ هوَ منَ الفروضِ الأعيانِ، كالمعلومِ منَ الدِّينِ بالضَّرورة، أمْ منْ فروضِ الكفاياتِ، ومَا الحدُّ الذِي يسقطُ بهِ الواجبُ الفرديُّ والإثمُ الجماعيُّ، ويَعلمُ أيضًا هلْ هذَا العلمُ محرَّمٌ تعلُّمهُ أوْ لَا، فالسِّحرُ يحرمُ تعلُّمهُ، وكثيرٌ منَ العلومِ يُكرهُ تعلُّمهَا كعلومِ الصُّوفيَّةِ ومنْ سارَ علَى دربهمْ.

10) المسائلُ: أيْ معرفةُ مسائلِ هذَا العلمِ إجمالًا، وهوَ يساعدُ علَى فهمِ فروعِ العلمِ، فبمعرفتكَ لمسائلِ علمٍ، فقدْ حوْصَلتهُ ومَا بقيَ إلَّا التَّفريعُ.



مبادئُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ

ليشمل مبادئ التفسير

(1) الحدُّ أيِ التَّعريفُ:

أوَّلًا لفظُ أصولُ التَّفسيرِ مركَّبٌ إضافِي، وهوَ فِي ذاتهِ، اسمٌ لعلمٍ خاصٍ، ولكنَّ تركيبهُ الإضافِي هوَ جزءٌ منْ حقيقتهِ، فهوَ ليسَ اسماً خالصاً، فقدِ انقطعَ عنْ أصلِ الإضافةِ التِي تتكوَّنُ منَ مضافٍ ومضافٍ إليهِ، ولذَا كانَ لابدَّ منْ تعريفهِ تعريفُ جزأيهِ، ولهذَا السَّببِ نتَّجهُ إلَى تعريفِ هذينِ الجُزأينِ[1]:

أ) الأصولُ لغةً:

فالأصولُ جمعُ أصلٍ، والأصلُ فِي اللُّغةِ يطلقُ باطلاقاتٍ متعدِّدةٍ، وأهمُّهَا أمرانِ همَا:

1) مَا يبنَى عليهِ غيرهُ حسًّا أوْ معنىً، أوْ مَا يرتكزُ عليهِ الشَّيءُ ويبنَى، فالأوَّلُ كبناءِ الحائطِ علَى الأساسِ، والثَّانِي كبناءِ الحكمِ علَى الدَّليلِ، فكلٌّ منَ الأساسِ والدَّليلِ أصلٌ، لأنَّهُ يبنَى عليهِ غيرهُ.

2) منشَأُ الشَّيءِ، مثلَ القطنِ فإنَّهُ أصلُ المنسوجاتِ لأنَّهَا تنشأُ منهُ، والبرتقالُ أصلُ العصير، وهكذَا.

---

(1) الإتقان – ج 2 – ص 489.



ب) الأصلُ فِي الاصطلاحِ:

فإنَّهُ يطلقُ بإطلاقاتٍ أربعةٍ وهيَ:

1) الصُّورةُ المقيسُ عليهَا:

كقولكَ الخمرُ أصلُ النَّبيذِ، أيْ بمعنَى أنَّ الخمرَ مقيسٌ عليهَا النَّبيذُ فِي الحرمةِ.

2) القاعدةُ: كقولهِ تعالَى:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبَرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}[البقرة: 127] وقواعدُ البيتِ هيَ أساسهُ وأساسهُ هوَ أصلهُ.

3) الرَّاجحُ:

ومثالهُ الأصلُ فِي الكلامِ الحقيقةُ، أيِ الرَّاجحُ عندَ السَّامعِ هوَ المعنَى الحقيقِي دونَ المعنَى المجازِي لعدمِ القرينةِ الدَّالةِ عليهِ.

4) الدَّليلُ:

كقولكَ الأصلُ فِي تحريمِ الرِّبَا قولهُ تعالَى:

{وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}[البقرة:275].

أوالأصلُ فِي تحريمِ الزِّنَا قولهُ تعالَى:

{وَلَا تقربُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً}[الإسراء:32] أيْ أنَّ الدَّليلَ علَى تحريمِ كلٍّ منَ الرِّبَا والزِّنَا، النَّصُّ القرآنِي الذِي يُعدُّ دليلًا لكلٍّ منهمَا.

ومنْ هذَا يتبيَّنُ أنَّ المعنَى اللُّغوِي للأصلِ، متسِّقٌ معَ المعنَى الاصطلاحِي، وذلكَ لأنَّ علمَ أصولِ التَّفسيرِ عندَ الأصوليينَ هوَ مَا يُبنَى عليهِ التَّفسيرُ حسبَ قواعدهِ ومناهجهِ.

قالَ ابنُ فارسٍ:الأسُّ هوَ الأصلُ...ووردتْ فِي لفظةِ الأسِّ آيةٌ قالَ تعالَى {أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ}[التوبة:109].

وقالَ عنِ القاعدةِ: هيَ تدلُّ علَى ثبوتِ الشَّيءِ علَى الشَّيءِ، ومنهُ قواعدُ البيتِ، وردَ فِي القرآنِ آياتٌ عنْ مادةِ القواعدِ بهذَا المعنَى قالَ تعالَى {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}[1][البقرة:127].

ج) التَّفسيرُ لغةً:

مصدرٌ علَى وزنِ "تفعيلٌ"، وهوَ منَ الفسْرِ وهوَ البيانُ والكشفُ، ويقالُ هوَ مقلوبُ السَّفرِ، تقولُ أسفرَ الصُّبحُ إذَا أضاءَ، (وبان كل شيء)، (وأسفرت المرأة عن وجهها، إذا بان وجهها وعُرفت) وقيلَ مأخوذٌ منَ التَّفسرةِ وهيَ اسمٌ لمَا يعرفُ بهِ الطَّبيبُ المرضَ[2].

فالتَّفسيرُ مأخوذٌ منَ الفسْرِ الذِي هوَ كشفُ المغطَّى[3]

أوِ اظهارُ المعنَى المعقولِ[4]، وبينَ المادَّتينِ "الكشفُ" و"الإظهارُ" تلازمٌ، إلَّا أنَّ الرَّاغبَ الأصفهانِي أضافَ أنَّ الفسرَ يكونُ فِي بيانِ المعنَى المعقولِ.

قالَ فِي القاموسِ: "الفسرُ أيِ الإبانةُ وكشفُ المغطَّى".

يقالُ: أسفرَ الصُّبحُ إذَا أضاءَ[5] .

ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}[الفرقان:33].

---

(1) مقاييس اللغة عن الأساس لابن فارس.

(2) لسان العرب حرف الراء فصل الفاء ج5 ص55

(3) المفردات ص381

(4) قاموس المعاني. وانظر تفسير الضَّحَّاك المجلد الأوَّل، المقدمة صـ 15.

(5) السابق.

د) التَّفسيرُ اصطلاحًا:

بيانُ كلامِ الله تعالَى؛ أوْ تقولُ:علمٌ يعرفُ بِهِ فهمُ كلامِ اللهِ تعالَى، وبيانُ معانيهِ، واستخراجُ أحكامهِ وحكَمهِ[1].

وقدْ عرَّفهُ بعضُ العلماءِ كمَا نقلَ السُّيوطِيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ "الإتقانُ" بأنَّهُ: علمُ نزولِ الآياتِ وشؤونهَا وأقاصيصهَا، والأسبابِ النَّازلةِ فيهَا، ثمَّ ترتيبُ مكيِّهَا ومدنيِّهَا، ومحكمهَا ومتشابههَا، وناسخهَا ومنسوخهَا، وخاصِّهَا وعامِّهَا، ومطلقهَا ومقيَّدهَا، ومجملهَا ومفسَّرهَا، وحلالهَا وحرامهَا، ووعدهَا ووعيدهَا، وأمرهَا ونهيهَا، وعِبَرِهَا وأمْثَالِهَا[2].

وقالَ الزُّرقانيُّ فِي تعريفهِ للتَّفسيرِ: هوَ علمٌ يُبْحثُ فيهِ عنْ أحوالِ القرآنِ الكريمِ، منْ حيثُ دلالتهِ علَى مرادِ اللهِ تعالَى بقدرِ الطَّاقةِ البشريَّةِ[3].

ه) أصولِ التَّفسيرِ بالمعنَى الإضافِي:

بعدَ أنِ انتهينَا منَ الكلامِ علَى اللَّفظينِ المتضَايفينِ فِي لفظِ (أصولِ التَّفسيرِ)، ننتقلُ إلَى توضيحِ مدلولِ هذَا المصطلحِ الذِي هوَ فِي ذاتهِ اسمٌ لعلمٍ خاصٍ.

فإنَّ الفارقَ بينَ التَّفسيرِ وأصولهِ، هوَ أنَّ الأصولَ هيَ القواعدُ والضوابطُ التِي تحدُّ وتبيِّنُ الطَّريقَ الذِي يلتزمهُ المفسِّرُ فِي تفسيرِ الآياتِ الكريمةِ، وأمَّا التَّفسيرُ فهوَ إيضاحهَا وبيانهَا معَ التَّقيُّدِ بهذهِ القواعدِ والضَّوابطِ.

---

(1) كتاب التَّفسير – مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية – إشراف: محمد صالح المنجد.

(2) الإتقان ج2 ص491.

(3) مناهل العرفان ج1 ص423.

ويفرِّقُ العلماءُ بينَ القواعدِ والضَّوابطِ، بأنَّ الأولَى تجمعُ فروعاً منْ أبوابٍ شتَّى، بينمَا الثَّانيةُ تجمعُ فروعاً منْ بابٍ واحدٍ، لذلكَ تقعُ جملةٌ منَ الضَّوابطِ تحتَ القاعدةِ الواحدةِ.

مثالُ ذلكَ: القاعدةُ تقولُ: يفسَّرُ القرآنُ بالقرآنِ ثمَّ بالسُّنَّةِ ثمَّ بأقوالِ الصَّحابةِ ثم بأقوالِ التَّابعينَ ثمَّ بعلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، ثمَّ تأتِي الضَّوابطُ بعدَ ذلكَ فتقولُ: لَا يجوزُ تفسيرُ القرآنِ بالقراءةِ الشَّاذَّةِ المضادَّةِ لمَا تواترَ، ولَا يجوزُ تفسيرهُ بالسُّنَّةِ غيرِ الثَّابتةِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، ولَا يجوزُ تفسيرهُ بقولِ الصَّحابِي إنْ خالفَ القرآنَ أوِ السُّنَّةِ الثَّابتةِ، أو جمعًا منَ الصَّحابةِ.

و) التَّدبُّرُ:

وهوَ نوعٌ منَ التَّفسيرِ، قالَ اللهُ تعالَى فِي حقِّهِ: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء: 82]، والمتدبِّرُ فِي قولهِ تعالَى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ}[الصافات: 65]، فمنْ تدبَّرَ قولهُ (رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) ولمْ يكنْ أحدٌ رآهَا منَ الإنسِ، فسوفَ يدركُ بشاعةَ وقبحَ تلكَ الرُّؤُوسِ بحيثُ لوْ تخيَّلَ شكلهَا لتخيَّلَ أبشعَ صورةٍ ممكنةٍ، وتصوُّرهُ صحيحٌ لذلكَ يكونُ التدبُّرُ نوعًا منَ التَّفسيرِ، ويُمنعُ هذَا النَّوعُ منَ التدبُّرِ الذِي يقودُ إلَى التَّصَوُّرِ فِي ذاتِ اللهِ تعالَى وصفاته خاصةً.

فائدة: لَا يكونُ التَّدبُّر إلَّا بعدَ تعلُّمِ التَّفسيرِ، فلَا يجوزُ عقلًا أنْ تتدبَّر رسالةً لا تعلم ضوابطها، فالأصلُ أنْ تفسِّرَ الرِّسالةَ بعد تعلم ضوابطها ثمَّ بعدَ ذلكَ تتدبَّرُ معانيهَا.

وبعدَ مَا سبقَ يمكننَا تعريفُ علمِ "أصولِ التَّفسيرِ" بأنَّهُ:

العلمُ الذِي يُبيِّنُ المناهجَ التِي انتهجهَا وسارَ عليهَا المفسِّرونَ الأوائلُ فِي استنباطِ الأسرارِ القرآنيَّةِ، والتَّعرُّفِ علَى الأحكامِ الشَّرعيَّةِ منَ النُّصوصِ القرآنيَّةِ التِي تُبنَى عليهَا، وتلمسُ المصالحَ التِي قصدَ إليهَا القرآنُ الكريمُ.

فهوَ مجموعةٌ منَ القواعدِ والضَّوابطِ التِي تبيِّنُ للمفسِّرِ طُرُقَ استخراجِ أسرارِ هذَا الكتابِ الحكيمِ، بحسبِ الطَّاقةِ البشريَّةِ، وتُظهرُ مواطنَ العبرةِ منْ أنبائهِ، وتكشفُ مراتبَ الحججِ والأدلَّةِ منْ آياتهِ، فعلَى هذَا تعينُ علومُ أصولِ التَّفسيرِ علَى فهمِ معانيهِ وإدراكِ عبرِهِ وأسرارِه، وترسمُ المناهجَ لتعرُّفهَا، وتضعُ القواعدَ والضَّوابطَ ليسيرَ المفسِّرُ علَى منهاجهَا القويمِ فِي سيرِهِ أثناءَ تفسيرِه.

واختصارًا فعلمُ أصولِ التَّفسيرِ هوَ مجموعةٌ منَ القواعدِ والضَّوابطِ أوِ المرتكزاتِ الأساسيَّةِ التِي تحكمُ المفسِّرَ فِي عمليَّةِ تفسيرِ القرآنِ الكريمِ.

وإنَّ مثلَ علمِ أصولِ التَّفسيرِ بالنِّسبةِ للتَّفسيرِ، كمثلِ علمِ النَّحوِ بالنِّسبةِ للنُّطقِ العربِي، فهوَ ميزانٌ يضبطُ اللِّسانَ والقلمَ، ويمنعهمَا منَ الخطأِ فِي آخرِ الكلمِ، فكذلكَ علمُ أصولِ التَّفسيرِ فهوَ ميزانٌ للمفسِّرِ فيضبطهُ ويمنعهُ منَ الخطأِ فِي التَّفسيرِ، ولأنَّهُ ميزانٌ فإنَّهُ يتبيَّنُ بهِ التَّفسيرُ الصَّحيحُ منَ التَّفسيرِ الفاسدِ، كمَا يُعرفُ بالنَّحوِ الكلامُ الصَّحيحُ منَ الكلامِ غيرِ الصَّحيحِ.

(2) موضوعه:

موضوعُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ هوَ: كلامُ اللهِ تعالَى[1] منْ حيثُ كيفيَّةِ بيانِ معانيهِ، والأصولِ والقواعدِ المُرْتَكَزِ عليهَا فِي ذلكَ.

(3) ثمرتهُ أيْ فائدتهُ:

الثَّمرةُ المرجوَّةُ منْ تعلُّمِ علمِ أصولِ التَّفسيرِ هوَ:

أوَّلًا: التَّفسيرُ الصَّحيحُ لكلامِ اللهِ تعالَى.

(1) الإتقان ج2 ص496.

ثانيًا: التذكُّرُ والإعتبارُ، ومعرفةُ هدايةِ اللهِ تعالَى فِي العقائدِ والعباداتِ والمعاملاتِ والأخلاقِ، ليفوزَ الأفرادُ والمجاميعُ بخيرِ العاجلةِ والآجلةِ[1].

ثالثًا: حصولُ القدرةِ والملكةِ لاستنباطُ الأحكامِ منهُ للحوادثِ التِي لمْ ينزلْ فيهَا حكمٌ مسبقًا، قالَ الطَّبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي قولهِ تعالَى: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ}[النساء: 83]، وكلُّ مستخرجٍ شيئًا كانَ مستترًا عنْ أبصارِ العيونِ أوْ عنْ معارفِ القلوبِ، فهوَ لهُ: "مستنبطٌ"، يقالُ: "استنبطتَ الرَّكية "[2]، إذَا استخرجتَ ماءهَا،"ونَبَطتهَا أنبطهَا"، و"النَّبَطُ"، الماءُ المستنبطُ منَ الأرضِ، ومنهُ قولُ الشَّاعرِ:[3]

قَرِيبٌ ثَرَاهُ مَا يَنَالُ عَدُوُّهُ * لَهُ نَبَطًا آبِي الهَوَانِ قَطُوبُ[4].

يعني: بِ " النَّبطِ"، الماءُ المستنبطُ[5].

---

(1) مناهل العرفان ج1 ص429.

(2) "الركية": البئر تحفر.

(3) هو كعب بن سعد الغنوي، أو: غريقة بن مسافع العبسي، وانظر تفصيل ذلك في التعليق على الأصمعيات.

(4) الأصمعيات: 103، وتخريجه هناك. وقوله: "قريب الثرى"، يريدون كرمه وخيره. و"الثرى": التراب الندي ، كأنه خصيب الجناب. وقوله: "ما ينال عدوه له نبطًا" ، أي لا يرد ماءه عدو ، من عزه ومنعته ، / إذا حمى أرضًا رهب عدوه بأسه."آبى الهوان" لا يقيم على ذل. و"قطوب": عبوس عند الشر.

(5) تفسير الطبري: سورة النساء آية 83.

(4) فضلهُ:

قالَ الأصبهانِيُّ: أشرفُ صناعةٍ يتعاطاهَا الإنسانُ، تفسيرُ القرآنِ الكريمِ، ذلكَ أنَّ شرفَ الصِّناعةِ يكونُ إمَّا بشرفِ موضوعهَا أوْ بشرفِ غرضهَا أوْ بشدَّةِ الحاجةِ إليهَا، والتَّفسيرُ قدْ حازَ الشَّرفَ منَ الجهاتِ الثَّلاثِ، فموضوعهُ كلامُ اللهِ تعالَى، والغرضُ منهُ الوصولُ إلَى السعادةِ الحقيقيَّةِ التِي لَا تفنَى، وأمَّا منْ جهةِ شدَّةِ الحاجةِ، فلأنَّ كلَّ كمالٍ دينِيٍّ أوْ دنياوِيٍّ عاجلٍ أوْ آجلٍ مفتقرٌ إلَى العلومِ الشَّرعيَّةِ والمعارفِ الدِّينيَّةِ، وهيَ متوقفَّةٌ علَى العلمِ بكتابِ اللهِ تعالَى[1] اهـ، وكلُّ هذَا لَا يتمُّ إلَّا بتعلُّمِ أصولِ هذَا الفنِّ.

وقالَ الطَّبرِيُّ مبيِّنًا فضلَ هذَا العلمِ: اعلمُوا عبادَ اللهِ أنَّ أحقَّ مَا صُرفتْ إلَى علمهِ العنايةُ وبلغتْ فِي معرفتهِ الغايةُ، مَا كانَ للهُ فِي العلمِ بهِ رضًا، وللعالمِ بهِ إلَى سبيلِ الرُّشدِ هدًى، وأنَّ أجمعَ ذلكَ لِبَاغِيهِ، كتابُ اللهِ تعالَى الذِي لَا ريبَ فيهِ، وتنزيلهُ الذِي لَا مريةَ فيهِ، الفائزِ بجزيلِ الذُّخرِ وسنَى الأجرِ تاليهِ، الذِي لَا يأتيهِ الباطلُ منْ بينِ يديهِ ولَا منْ خلفهِ، تنزيلٌ منْ حكيمٍ حميدٍ[2].

(5) نسبتهُ:

علمُ التَّفسيرِ منَ العلومِ الشَّرعيَّةِ، وهوَ منَ العلومِ بمنزلةِ الإنسانِ منَ العينِ، والعينِ منَ الإنسانِ[3].

---

(1) الإتقان ج2 ص496 باختصار.
(2) تفسير الطبري ج1 ص5.
(3) غرائب القرآن ج1 ص5.

(6) واضعهُ:

واضع علم أصول التفسير والتفسير هو النَّبيُّ ﷺ، فقدْ كانَ أولَّ مفسِّرٍ لكتابِ اللهِ تعالَى، يبيِّنُ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ علَى قلبهِ[1]، لقولهِ تعالَى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل:44] وهوَ الذِي قعَّدَ القواعدَ لهذَا العلمِ حيثُ فسَّرَ القرآنَ بالقرآنِ أوَّلًا، ثمَّ بمَا أوحَى اللهُ تعالَى إليهِ فِي تفسيرِ بعضِ الآياتِ وهوَ مَا يُسمَّى "التَّفسيرُ بالسَّنةِ".

وإن قلت أنَّ أوَّل من فسَّر القرآن ووضع قواعده هو الله تعالى لصدقت، فقد فسَّر لنا الله تعالى القرآن بالقرآن في العديد من الآيات، وأحال غيرها إلى النبي ﷺ ليُفسرها للناس، ومع ذلك فدكان تفسير النبي ﷺ للقرآن بوحي من الله تعالى، وعليه فأوَّل من فسَّر القرآن وضع أُسس التفسير هو الله تعالى.

(7) اسمهُ:

علمُ أصولِ التَّفسيرِ، وعلمُ قواعدِ التَّفسيرِ، وعلمُ التَّفسيرِ، ويُسمَّى علمُ أصولِ التَّفسيرِ بالتَّفسيرِ، لأنَّ التَّفسيرَ فرعٌ منهُ فالأصلُ أولَى بالتَّسميةِ، وسميَّ بعلمِ التَّفسيرِ لمَا فيهِ منَ الكشفِ والتَّبيينِ، واختصَّ بهذَا الاسمِ دونَ بقيِّةِ العلومِ، معَ أنَّهَا مشتملةٌ علَى الكشفِ والتَّبيينِ، لجلالةِ قدرهِ، وقصدهِ إلَى تبيينِ مرادِ اللهِ تعالَى منْ كلامهِ، فكانَ كأنَّهُ هوَ التَّفسيرُ وحدهُ دونَ مَا عداهُ[2].

ومنْ أسمائهِ: علمُ التَّأويلِ، والتَّأويلُ مأخوذٌ منَ الأولِ وهوَ الرُّجوعُ[3].

قالَ فِي القاموسِ: آلَ إليهِ أولًا ومآلًا: رجعَ، وآلَ عنهُ: ارتدَّ، يُقالُ: أوَّلَ الكلامَ تأوُّلًا وتأوَّلهُ: دبَّرهُ وفسَّرهُ[4].

---

(1) الوحي والقرآن لسرحان ص126.

(2) مناهل العرفان ج1 ص429.

(3) مجموعة زاد للعوم الشَّرعية –كتاب التَّفسير – محمد صالح المنجد.

(4) قاموس المعاني.

ومنهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ فِي ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ يدعُو لهُ: "اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ"[1].

ولكنَّ هذَا التَّعريفُ للتَّأويلِ كانَ لسلفنَا الصَّالحِ، فخلفَ منْ بعدهمْ خلفٌ، حرَّفُوا الكلمَ عنْ مواضعهِ، ونسُوا حظًّا ممَّا ذُكِّرُوا بهِ، فصارَ بعدَ ذلكَ لفظُ التَّأويلِ علَى ثلاثةِ أقسامٍ، قسمانِ ممدوحانِ وقسمٌ مذمومٌ مردودٌ؛

فائدةٌ: التَّأويلِ وأقسامهِ:

يطلقُ التَّأْويلُ فِي اللُّغةِ علَى عدَّةِ معانٍ: منهَا تأويلُ الكلامِ تفسيرهُ وبيانُ معناهُ[2].

والمرجعُ، تقولُ: أَوَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ ضَالَّتَكَ أي أَرْجَعَهَا، وأَعَادَهَا إِلَيْكَ[3].

والمصيرُ والعاقبةُ، وتلكَ المعانِي موجودةٌ فِي القرآنِ والسنَّةِ، قالَ اللهُ تعالَى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ}[الأعراف: 53]، أيْ: عاقبته[4]، وقالَ الرَّسولُ ﷺ فِي دعائهِ لابنِ عبَّاسَ: "اللَّهمَّ فقِّههُ في الدِّينِ وعلِّمهُ التأويلَ"[5]، أيْ: علمهُ التَّفسيرَ.

أنواعِ التَّأويلِ وتعريفهُ فِي اصطلاحِ السَّلفِ:

التَّأويلُ: لهُ معنيانِ ممدوحانِ:

1 – أمَّا المعنَيانِ الممدوحانِ: فيُطلقُ التَّأويلُ بمعنَى التَّفسيرِ والبيانِ وإيضاحِ المعانِي المقصودةُ منَ الكلامِ، فيقالُ: تأويلُ الآيةِ كذَا؛ أيْ معناهَا.

2 – ويطلقُ بمعنَى المآلِ والمرجعِ والعاقبةِ وتحقُّقِ الأمرِ، فيقالُ هذهِ الآيةُ مضَى تأويلُهَا، كقولِهِ تعالَى: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حقًّ}[يوسف: 100].

التَّأويلِ في اصطلاحِ أهلِ الكلامِ ولهُ معنى واحد مذمومٌ:

3 – عندَ الخلفِ من علماء الأصولِ والفقهِ الذِينَ ينتسبونَ لعلمِ الكلامِ: هوَ صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ لدليل يقترن به[6].

---

(1) رواه البخاري.

(2) معجم المعاني.

(3) السَّابق.

(4) الطَّبري.

(5) رواه البخاري.

(6) يُنظر علوم القرآن للقطَّان.

وهذَا التَّأويلُ مرفوضٌ عندَ السَّلفِ واعتبروهُ تحريفًا باطلاً فِي بابِ الصفاتِ الإلهيةِ، وقدْ ظهرَ هذَا المعنَى للتَّأويلِ متأخِّرًا عنْ عصرِ الرَّسولِ ﷺ والصَّحابةِ، بل ظهرَ معَ ظهورِ الفرقِ ودخلُوا منهُ إلَى تحريفِ النُّصوصِ تحريفًا معنويًّا، وكانتْ لهُ نتائجُ خطيرةٌ؛ إذْ كلَّمَا توغَّلُوا فِي تأويلِ المعانِي وتحريفهَا بعدُوا عنِ المعنَى الحقِّ الذِي تهدفُ إليهِ النُّصوصُ[1].

وخلاصةً أنواعُ التَّأويلِ ثلاثةٌ:

اثنانِ منهَا تأويلاتٌ صحيحةٌ ممدوحةٌ وهيَ:

1 – تأويلُ الأمرِ وقوعهُ.

2 – والتَّأويلُ بمعنَى التَّفسيرُ.

والنَّوعُ الثَّالثُ منَ التَّأويلِ هوَ التَّأويلُ الباطلُ الفاسدُ وهوَ:

3 – صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ.

وهوَ مَا يُعبَّرُ عنهُ بالتَّحريفِ المعنوِيِّ.

والتَّحريفُ لغةً:

التَّغييرُ والتَّبديلُ، وتحريفُ الكلامِ عنْ مواضعهِ: تغييرهُ[2].

واصطلاحًا:

العدولُ باللَّفظِ عنْ جهتهِ إلَى غيرهَا.

وهوَ علَى ثلاثةِ أنواعٍ:

1 – التَّحريفُ الإملائِيُّ.

2 – والتَّحريفُ اللَّفظِيُّ.

3 – والتَّحريفُ المعنوِيُّ.

---

(1) انظر مجموع الفتاوي 4/68 – 70، والصَّواعق المرسلة 1/175 – 233، وشرح الطَّحاوية 231 – 236.

(2) مختار الصحاح 131.

1) التَّحريفُ الإملائيُّ هوَ: تغييرُ اللَّفظِ كتابةً، وهذَا لَا يكونُ طبعًا إلَّا فِي الكتبِ، ويستحيلُ علَى المعطِّلةِ فعلهُ(1).

2) وأمَّا التَّحريفُ اللَّفضي فهوَ: تحريفُ الإعرابِ، فيكونُ بالزِّيادة أوِ النُّقصان فِي اللَّفظِ، أوْ بتغييرِ حركةٍ إعرابيَّةٍ، كقولهمْ:

وكَلَّمَ اللهَ موسَى تَكْلِيمًا، بنصبِ الهاءِ فِي لفظِ الجلالةِ، والآيةُ فِي حقيقتهَا، {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}[النساء: 164]، وأرادُوا بذلكَ نفيَ صفةِ الكلامِ عنِ اللهِ تعالَى بجعلِ اسمهِ تعالى مفعولًا منصوبًا لَا فاعلًا مرفوعًا، أيْ أنَّ موسَى هوَ منْ كلَّمَ اللهَ تعالى، ولم يكلمهُ اللهُ تعالَى، ولمَّا حرَّفهَا بعضُ الجهميَّةِ(2) هذَا التَّحريفَ، قالَ لهُ بعضُ أهلِ التَّوحيدِ: فكيفَ تصنعُ بقولهِ: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}[الأعراف: 143]، فبهتَ المحرِّفُ.

3) وأمَّا التَّحريفُ المعنويُّ فهوَ: صرفُ اللَّفظِ عنْ معناهُ الصَّحيحِ إلَى غيرهِ معَ بقاءِ صورةِ اللَّفظِ(3).

أو تقولُ: هوَ العدولُ بالمعنَى عنْ وجهِ حقيقتهِ، وإعطاءِ اللَّفظِ معنَى لفظٍ آخرٍ بقدرٍ مشتركٍ بينهمَا. كتأويلهمْ معنَى "استوَى" بـ "استولَى" فِي قولهِ تعالَى: {الرَّحْمَنُ عَلَى العَرشِ اسْتَوَى}[طه:5].ومعنَى اليدِ بالقدرةِ والنِّعمةِ فِي قولهِ تعالَى:{بَلْ يَدَاهُ مَبسُوطَتَانِ}[المائدة: 64].

ففِي التَّحريفِ الإملائي يكون التغيير في الكلمة نفسها كتابة، وفي التحريف اللَّفظِيِّ يكون النُّطقُ بالكلمةِ معَ إعرابها، وفِي التَّحريفُ المعنويِّ يكونُ النطق سليما موافقا للرسم، لكن بإعطاءِ الكلمةِ معنًى آخرَ مخالفًا لحقيقتهَا، وهوَ المرَادُ بالتَّأويلِ الفاسدِ الذِي هوَ صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ، وبهذًا تدركُ شرَّ هذَا النَّوعِ منَ التَّأويلِ.

(1) الجهمية والمعتزلة.

(2) الجهمية أو المُعَطِّلَة هي فرقة كلامية تنتسب إلى الإسلام، ظهرت في الربع الأول من القرن الهجري الثاني، على يد مؤسسها الجهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية، ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية.

(3) الصَّواعقُ المنزلة 1/201.

أقول العلماء في نبذ التأويل الفاسد

1 – قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: كان الزهري ومكحول يقولان: أمروا هذه الأحاديث كما جاءت[1].

وقراءتها: تفسيرها، كما قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في القرآن، فقراءته تفسيره، لا كيف، ولا مثل[2].

2 – وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه، واليد، والنفس، فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفة بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته – تعالى – بلا كيف[3].

3 – وقال محمد بن الحسن رحمه الله تعلى في أحاديث الصفات كالنزول ونحوه: إن هذه الأحاديث قد روتها الثقات، فنحن نرويها، ونؤمن بها، ولا نفسرها[4].

5 – وقال الوليد بن مسلم: سألت مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والليث ابن سعد، والأوزاعي عن الأخبار التي في الصفات، فقالوا: أمروها كما جاءت[5].

6 – وقال أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين رحمهما الله: وأثبتنا علو ربنا سبحانه، وفوقيته، واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته، والحق واضح في ذلك، والصدور تنشرح له، فإن التحريف تأباه العقول الصحيحة، مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره...[6].

---

(1) رواه ابن قدامة في ذم التأويل ص 18، واللالكائي في شرح أصول السنة 3/430، 431 وذكر الترمذي نحوه 3/24 وانظر جامع بيان العلم 2/118.

(2) رواه الدارقطني في الصفات 41 وابن قدامة في ذم التأويل 19، ونحوه عند البيهقي في الصفات 409 وصححه ابن حجر في الفتح 13/407.

(3) كتاب ((الفقه الأكبر)) (ص: 185).

(4) ((ذم التأويل)) (ص: 14) وشرح أصول السنة – اللالكائي – (3/433) برقم: 741، و((العلو للذهبي)) (ص: 89، 90).

(5) الشريعة للآجري 314 والأسماء والصفات للبيهقي 453 والاعتقاد للبيهقي 118 والانتقاء لابن عبد البر 36 وذم التأويل 20.

(6) ((رسالة في إثبات الاستواء والفوقية))... لأبي محمد الجويني (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية) (1/181).

7 – وقال القاضي أبو يعلى رحمه الله: لا يجوز رد هذه الأخبار (على ما ذهب إليه جماعة من المعتزلة) ولا التشاغل بتأويلها (على ما ذهب إليه الأشعرية) والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله تعالى، لا تشبه سائر الموصوفين بها من الخلق، ولا نعتقد التشبيه فيها، لكن على ما روي عن شيخنا وإمامنا أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، وغيره من أئمة أصحاب الحديث[1].

8 – وقال أبو بكر الخطيب البغدادي رحمه الله: أما الكلام في الصفات، فإن ما روي عنها في السنن الصحاح، مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها... ولا نقول: معنى اليد: القدرة، ولا إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا أن نقول إنها جوارح... ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: 11] {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[الإخلاص: 4][2].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرح الواسطية: وأهل السنة والجماعة إيمانهم بما وصف الله به نفسه خال من التحريف، يعني: تغيير اللفظ أو المعنى.

وتغيير المعنى يسميه القائلون به تأويلاً، ويسمون أنفسهم بأهل التأويل، لأجل أن يصبغوا هذا الكلام صبغة القبول، لأن التأويل لا تنفر منه النفوس ولا تكرهه، لكن ما ذهبوا إليه في الحقيقة تحريف، لأنه ليس عليه دليل صحيح، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقولوا: تحريفاً! ولو قالوا: هذا تحريف، لأعلنوا على أنفسهم برفض كلامهم.

---

(1) كتاب ((إبطال التأويلات)) (ص: 4) (مخطوط).

(2) رواه أحمد (266/1) (2397)، والطبراني (263/10)، والحاكم (615/3). من حديث ابن عباس رضي الله عنه. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (2589): صحيح.

ولهذا عبر المؤلف (يعني ابن تيمية) رحمه الله – تعالى – بالتحريف دون التأويل مع أن كثيراً ممن يتكلمون في هذا الباب يعبرون بنفي التأويل، يقولون: من غير تأويل، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة:

الوجه الأول: أنه اللفظ الذي جاء به القرآن، فإن الله تعالى قال: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ[النساء: 46]، والتعبير الذي عبر به القرآن أولى من غيره، لأنه أدل على المعنى.

الوجه الثاني: أنه أدل على الحال، وأقرب إلى العدل، فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن تسميه مؤولاً، بل العدل أن نصفه بما يستحق وهو أن يكون محرفاً.

الوجه الثالث: أن التأويل بغير دليل باطل، يجب البعد عنه والتنفير منه، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيراً من التأويل، لأن التحريف لا يقبله أحد، لكن التأويل لين، تقبله النفس، وتستفصل عن معناه، أما التحريف، بمجرد ما نقول: هذا تحريف. ينفر الإنسان منه، إذا كان كذلك، فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل.

الوجه الرابع: أن التأويل ليس مذموماً كله، قال النبي ﷺ: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل"[1]، وقال الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}[آل عمران: 7]، فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل.

---

(1) رواه البخاري (817)، ومسلم (484). من حديث عائشة رضي الله عنها.

والتأويل ليس كله مذموماً، لأن التأويل له معان متعددة، يكون بمعنى التفسير، ويكون بمعنى العاقبة والمآل، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره.

أ) يكون بمعنى التفسير، كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية، يقولون: تأويل قوله تعالى كذا وكذا، ثم يذكرون المعنى، وسمي التفسير تأويلاً، لأننا أوّلنا الكلام، أي: جعلناه يؤول إلى معناه المراد به.

ب) تأويل بمعنى: عاقبة الشيء، وهذا إن ورد في طلب، فتأويله فعله إن كان أمراً وتركه إن كان نهياً، وإن ورد في خبر، فتأويله وقوعه.

مثاله في الخبر قوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}[الأعراف: 53]، فالمعنى: ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومآل ما أخبروا به، يوم يأتي ذلك المخبر به، يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق.

ومنه قول يوسف لما خرَّ له أبواه وإخوته سجداً قال: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ}[يوسف: 100]، هذا وقوع رؤياي، لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له.

ومثاله في الطلب قول عائشة رضي الله عنها: "كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده بعد أن أنزل عليه قوله تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}[النصر: 1]، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن"[1]، أي: يعمل به.

ج) المعنى الثالث للتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره، وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم، فإن دل عليه دليل، فهو محمود النوع ويكون من القسم الأول، وهو التفسير، وإن لم يدل عليه دليل، فهو مذموم، ويكون من باب التحريف، وليس من باب التأويل.

(1) رواه البخاري (142)، ومسلم (375). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وهذا الثاني هو الذي درج عليه أهل التحريف في صفات الله عز وجل.

مثاله قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: 5] ظاهر اللفظ أن الله تعالى استوى على العرش: استقر عليه، وعلا عليه، فإذا قال قائل: معنى (اسْتَوَى): استولى على العرش، فنقول: هذا تأويل عندك لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره، لكن هذا تحريف في الحقيقة، لأنه ما دل عليه دليل، بل الدليل على خلافه، كما سيأتي إن شاء الله.

فأما قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}[النحل: 1]، فمعنى: أَتَى أَمْرُ اللّهِ، أي: سيأتي أمر الله، فهذا مخالف لظاهر اللفظ لكن عليه دليل وهو قوله: فَلا تَسْتَعْجِلُوه.

وكذلك قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[النحل: 98]، أي: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعنى: إذا أكملت القراءة، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لأننا علمنا من السنة أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أرد أن يقرأ، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، لا إذا أكمل القراءة، فالتأويل صحيح.

وكذلك قول أنس بن مالك: "كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء، قال: أعوذ بالله من الخبث والخبائث"[1]، فمعنى (إذا دخل): إذا أراد أن يدخل، لأن ذكر الله لا يليق داخل هذا المكان، فلهذا حملنا قوله: (إذا دخل) على إذا أراد أن يدخل: هذا التأويل الذي دل عليه صحيح، ولا يعدو أن يكون تفسيراً.

---

(1) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد لعثمان بن علي بن حسن – 2/ 572.

ولذلك قلنا: إن التعبير بالتحريف عن التأويل الذي ليس عليه دليل صحيح أولى، لأنه الذي جاء به القرآن، ولأنه ألصق بطريق المحرف، ولأنه أشد تنفيراً عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السلف، ولأن التحريف كله مذموم، بخلاف التأويل، فإن منه ما يكون مذموماً ومحموداً، فيكون التعبير بالتحريف أولى من التعبير بالتأويل من أربعة أوجه[1].

وكلُّ هذا العرض قدَّمناه تعزيزا لقولنا بأنَّ التأويل الفاسد هو عين التَّحريف المعنوي، فيجب الحذر من هذا.

---

(1) شرح العقيدة الواسطية لمحمد بن صالح بن عثيمين – 87/1.

(8) استمدادهُ:

يستمدُّ علمُ أصولِ التَّفسيرِ مادَّتهُ منْ علومِ القرآنِ، والسُّنَّةِ، وآثارِ الصَّحابةِ[1] واللُّغةِ، والنَّحوِ، والتَّصريفِ، وعلمِ البلاغةِ، وقواعدِ التَّرجيحِ، والقراءاتِ، وأسبابِ النُّزولِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ[2].

(9) حكمهُ:

قدْ أجمعَ العلماءُ أنَّ علمَ أصولِ التَّفسيرَ منْ فروضِ الكفاياتِ، "بحيثُ لوْ تعلَّمهُ منْ يكفِي منَ الأمَّةِ سقطَ الإثمُ عنِ البقيَّةِ" ولمَّا كانَ علمُ أصولِ التَّفسيرِ أصلَ التَّفسيرِ، كانَ منْ أجلِّ العلومِ الثَّلاثةِ الشَّرعيَّةِ[3]، وهيَ: الحديثُ، والفقهُ، والتَّفسيرُ، وقيلَ أنَّ الحديثَ أجلُّهَا لأنُّهُ أعمُّ منْ التَّفسيرِ والفقهِ.

(10) مسائلهُ:

مسائلُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ هيَ: القواعدُ والضَّوابطُ التِي يُبنَى عليهَا التَّفسيرُ، ليُفهمَ القرآنُ فهمًا صحيحًا.

---

(1) مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية، كتاب التَّفسير، محمد صالح المنجد.

(2) البرهان ج1 ص13.

(3) الإتقان ج2 ص495 – بتصرُّف.



البابُ الثَّانِي

وفيهِ أربعةُ فصولٍ:

1) نشأةُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ وتطوُّرِهِ.

2) ذكرُ بعضِ المؤلَّفاتِ المفردةِ فِي علمِ أصولِ التَّفسيرِ.

3) أشهرُ المفسِّرينَ وكتبِهِمْ، معَ بيانِ منهجِهِمْ.

4) تفاسيرٌ يجبُ التَّنبُّهُ لهَا.

نشأةُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ وتطوُّرِه

مرَّ علمُ أصولِ التَّفسيرِ فِي نشأتِهِ بخمسِ مراحلَ وهيَ:

أوَّلًا: تفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ:

ارتبطَ علمُ أصولِ التَّفسيرِ بالضَّرورةِ بالقرآنِ الكريمِ، فنشأَ بدايةً معَ نزولِهِ، فكانَ منهُ مَا هوَ مفصَّلٌ واضحٌ، ومنهُ مَا كانَ مجملًا ويحتاجُ إلَى بيانٍ، فتأتِي الكلمةُ أوِ الجملةُ مجملةً فتفسِّرهَا كلماتٌ بعدهَا.

كقولهِ تعالَى: {الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}، ثمَّ قالَ تعالَى: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}[القارعة: 1 – 4] فَفُسَّرَ لفظُ القارعةِ بمَا بعدهُ.

ومثلَ قولهِ تعالَى: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا}[المعارج: 19 – 21] فَفُسِّرَ لفظةَ "هلوعًا" بمَا بعدهَا منَ الكلامِ.

وبيانُ القرآنِ الكريمِ بعضهُ بعضًا هوَ أوَّلُ طُرُقِ التَّفسيرِ، ولهُ أمثلةٌ كثيرةٌ منْ كتابِ اللهِ تعالَى.

ثانيًا: تفسيرُ النَّبِيِّ ﷺ للقرآنِ الكريمِ:

كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يفسِّرُ مَا نزَلَ مجملًا منْ كتابِ اللهِ تعالَى، ويُقيِّدُ مطلقهُ، ويُخصِّصُ عمومهُ، كمَا فِي قولهِ تعالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءاتُوا الزَّكَاةَ}[النِّساءِ: 77] فهذِهِ آيةٌ مجملةٌ، ففسَّرهَا النَّبِيُّ ﷺ بالصَّلواتِ الخمسِ، وهيئةِ وعددِ ركعاتهَا، حتَّى قالَ ﷺ: "صلُّوا كمَا رأيتمونِي أصلِّي"(1).

وفسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيادةَ فِي قولهِ تعالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوْا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}[يونس: 26] بأنَّهُ النَّظرُ إلَى وجهِ اللهِ الكريمِ، كمَا فِي مسلمٍ(2).

ثالثًا: تفسيرُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ:

فمنْ أعظمِ التَّفاسيرِ تفسيرُ الصَّحابةِ رضي اللهُ عنهم، وكانَ منهجهُمُ البدءُ أوَّلًا بتفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ، ثمَّ بسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ بالنَّظرِ فِي غيرِ ذلكَ، كبيانِ أسبابِ النُّزولِ ونحوهِ، وكانُوا يُفسِّرونهُ باجتهادٍ منهمْ، أوْ بمَا يدلُّ عليهِ اللَّفظُ فِي كلامِ العربِ وبيانهِ(3).

---

(1) أخرجهُ البخاري.

(2) تفسيرُ ابن كثيرٍ قال: وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟ "، قال: " فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم ".
وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به .

(3) مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية كتاب التَّفسيرِ – محمد صالح المنجد.

رابعًا: تفسيرُ التَّابعينَ:

ثمَّ تلقَّى التَّابعونَ هذَا العلمَ عنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ففسَّروهُ علَى نحوِ تفسيرِ الصَّحابةِ، كمَا فِي قولهِ تعالَى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ}[الطور:21] قالَ سعيدُ بنُ جبير: أيْ ألحقَ اللهُ تعالَى الذُّريَّةَ بآبائهمْ فِي الدَّرجاتِ، معَ استحقاقهمْ دونَ درجاتِ الأباءِ فِي الجنَّةِ، تكريمًا للأباءِ وفضلًا منهُ سبحانهُ.

وقدِ استفادَ هذَا منِ ابنِ عبَّاسٍ فِي قولهِ: إنَّ اللهَ ليرفعُ ذريَّةَ المؤمنِ فِي درجتهِ، وإنْ كانُوا دونهُ فِي العملِ، لتقرَّ بهمْ عينهُ[1].

وهذَا الحديثُ اختُلِفَ فِي رفعهِ ووقفهِ، والأقربُ أنَّهُ مرفوعٌ، لأنَّ الصَّحابيَّ الذِي لَا يُحدِّثُ بالإسرائيليَّات إذَا تكلَّمَ عنْ أمورِ الغيبِ يأخذُ حديثهُ حكمَ الرَّفعِ، هذَا فِي مَا قرَّرهُ أهلُ الحديثِ.

لأنَّ إخبارَهُ بذَلِكَ يَقْتَضِي مُخْبِرًا لهُ، ومَا لَا مجالَ للاجْتِهَادِ فيهِ يَقْتَضِي مُوقِفًا لِلقَائِلِ بِهِ، ولا مَوقِفَ لِلصَّحَابَةِ فِي أمورِ الآخرةِ إلاَّ النَّبِيُّ ﷺ، وإذَا كانَ كذَلِكَ فلهُ حُكْمُ مَا لوْ قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ، فهوَ مرفوعٌ سواءٌ سمعَهُ منهُ أوْ بواسِطَةٍ[2].

---

(1) مجموعة زاد للعوم الشرعية –كتاب التفسير – محمد صالح المنجد.

(2) قال القرطبي: واختلف في معناه ; فقيل عن ابن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، وتلا هذه الآية. ورواه مرفوعا النحاس في "الناسخ والمنسوخ" له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه ثم قرأ " والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان " الآية. قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعا عن النبي ﷺ وكذا يجب أن يكون ; لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ: لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه.

خامسًا: تفسيرُ العلماءِ:

ثمَّ درجَ علماءُ أهلِ السُّنَّةِ علَى نهجِ السَّابقينَ، يُفسِّرونَ القرآنَ بالقرآنِ والسُّنَّةِ، فأقوالِ الصَّحابةِ ثمَّ التَّابعينَ، فإنْ لمْ يجدُوا شيأً منْ ذلكَ، فسَّروهُ بالنَّظرِ فِي اللُّغةِ ومعانيهَا[1] ومنْ ثمَّ دُوِّنت أصولُ هذَا العلمِ الجليلِ فِي مؤلَّفاتٍ بناءً علَى طريقةِ السَّلفِ فِي أصولِ تفسيرهِمْ للقرآنِ، ومنْ أبرزِ المؤلَّفاتِ والمؤلِّفينَ فِي فنِّ أصولِ التَّفسيرِ والتَّفسيرِ مَا سيأتِي ذكرهمْ فِي الفصولِ التَّاليةِ:

---

(1) مجموعة زاد للعلوم الشَّعية كتاب التَّفسير – محمد صالح المنجد.



المؤلَّفاتُ المفردةُ فِي علمِ أصولِ التَّفسيرِ معَ بيانِ شيءٍ منْ مناهجِ مؤلِّفيهَا

1) «مقدمِّةٌ فِي أصولِ التَّفسيرِ»، لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيمية رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 728 هـ).

وقدْ تناولَ فيهَا مسألةَ بيانِ النَّبيِّ ﷺ للقرآنِ، واختلافِ التَّنوُّعِ والتَّضادِ فِي تفسيرِ السَّلفِ، وسببِ الاختلافِ فِي التَّفسيرِ منْ جهةِ النَّقلِ ومنْ جهةِ الاستدلالِ، وأحسنِ طرقِ التَّفسيرِ، وبعضِ المسائلِ العلميَّةِ ذاتِ الصِّلةِ بأصولِ التَّفسيرِ، وهيَ مقدِّمةٌ وجيزةٌ ليستْ بطويلةٍ، ولكنَّهَا فتحتِ البابَ للتَّأليفِ فِي أصولِ التَّفسيرِ علَى جهةِ الاستقلالِ بعدَ ذلكَ، وقدْ حظيَتْ بشروحٍ كثيرةٍ منْ عددٍ منَ العلماءِ المعاصرينَ، فشرحهَا الشَّيخُ محمَّدٌ بنُ عثيمينَ رحمهُ اللهُ تعالَى، والدُّكتورُ مساعدُ الطيَّارُ، وشرحهُ مطبوعٌ وهوَ منْ أجودِ شروحهَا، وشرحهَا أيضًا الشَّيخُ صالحٌ بنُ عبدِ العزيزِ آلِ الشَّيخِ وهوَ شرحٌ جيِّدٌ كذلكَ، ولهَا شروحٌ أخرَى.

2) «الفوزُ الكبيرُ فِي أصولِ التَّفسيرِ»، لأحمدَ بنِ عبدِ الرَّحيمِ الدَّهلوِي رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 1176 هـ)

وهيَ رسالةٌ وجيزةٌ كتبهَا المؤلِّفُ بالفارسيَّةِ فلمْ تشتهرْ عندَ الباحثينَ، ثمَّ نقلهَا سلمانُ النَّدوِي للعربيَّة وطُبعتْ، ولكنَّ الكتابَ ليسَ دقيقًا فِي أصولِ التَّفسيرِ، فمعظمهُ بعيدٌ عنْ أصولِ التَّفسيرِ وغالبهُ كلامٌ فِي مسائلِ علومِ القرآنِ، وقليلٌ منهُ فِي أصولِ التَّفسيرِ، وقدْ شُرِحَتْ هذهِ الرِّسالةُ تحتَ عنوانِ «العونُ الكبيرُ شرحُ الفوزِ الكبيرِ».

3) «التَّكميلُ فِي أصولِ التَّأويلِ»، لعبدِ الحميدِ الفراهِي رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 1349 هـ)

وهوَ مؤلَّفٌ وجيزٌ غيرُ مكتملٍ، وفيهِ فوائدُ واجتهاداتٌ قيِّمةٌ للفراهِي، ويصلحُ للمتخصِّصينَ، لكنَّ طبعتهُ نادرةٌ ولَا تكادُ توجدُ فِي المكتباتِ.

وقدْ ذكرَ فيهِ صاحبهُ أصولًا راسخةً لتأويلِ القرآنِ إلَى صحيحِ معناهُ، منهَا: "موضوعهُ: الكلمةُ والكلامُ منْ حيثُ دلالتهِ علَى المعنَى المرادِ، وغايتهُ: فهمُ الكلامِ وتأويلهِ إلَى المعنَى المرادِ المخصوصِ، بحيثُ أنْ ينجلِي عنهُ الاحتمالاتُ، وهذَا منْ جهةِ العمومِ، فإنَّ قواعدَ التَّأويلِ تجرِي فِي كلِّ كلامٍ، ونفعهَا عامٌ وهوَ متعلِّقٌ بفهمِ معنَى الكلامِ منْ أيِّ لسانٍ كانَ، ولكنَّ النَّفعَ الأعظمَ منهُ فهمُ كتابِ اللهِ تعالَى ومعرفةُ محاسنهِ للاعتصامُ بهِ".

4) رسالة «أصولٌ فِي التَّفسيرِ»، للشَّيخِ العلَّامةِ محمَّدٍ بنِ عثيمينَ رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 1421 هـ)

وهيَ رسالةٌ وجيزةٌ جمعَ فيهَا الشَّيخُ بعضَ قواعدِ أصولِ التَّفسيرِ وبعضَ أنواعِ علومِ القرآنِ، وهيَ مقرَّرةٌ فِي بعضِ المعاهدِ، وتدرَّسُ فِي بعضِ الدَّوراتِ العلميَّةِ، وقدْ شرحهَا الكثير.

5) «تفسيرُ القرآنِ أصولهُ وضوابطهُ»، للدُّكتورِ عليِّ بنِ سليمانَ العبيدِ[1].

وقدْ تناولَ فيهِ مؤلِّفهُ أهمَّ مسائلِ أصولِ التَّفسيرِ باختصارٍ، وهوَ كتابٌ جيِّدٌ فِي الموضوعِ، اشتملَ علَى خمسةِ فصولٍ هيَ:

أ) مدخلٌ فِي معنَى التَّفسيرِ وأصولهِ.

ب) مصادرُ التَّفسيرِ، وذكرَ منهَا تفسيرَ القرآنِ بالقرآنِ، وتفسيرَ القرآنِ بالسُّنَّةِ، وتفسيرَ القرآنِ بأقوالِ الصَّحابةِ، وتفسيرَ القرآنِ بأقوالِ التَّابعينَ، وتفسيرَ القرآنِ باللُّغةِ العربيَّةِ.

ج) ضوابطُ التَّفسيرِ، وذكرَ تحتهُ موضوعاتٍ مثلَ: معرفةِ موضوعِ القرآنِ وهدفِهِ، ودراسةِ القرآنِ قبلَ البدءِ فِي تفسيرِهِ، والإلمامِ بعاداتِ العربِ فِي الجاهليَّةِ، وأهميَّتِ التَّفسيرِ، ومعرفةِ عرفِ القرآنِ والمعهودِ منْ معانيهِ، ومراعاةِ دلالاتِ الألفاظِ ولوازمِهَا، ومراعاةِ معرفةِ معانِي الأفعالِ منْ خلالِ مَا تتعدَّى بهِ، ومعرفةِ سياقِ الآيةِ والآياتِ التِي قبلهَا وبعدهَا، والنَّظرِ فِي مجموعِ الآياتِ ذاتِ الموضوعِ الواحدِ قبلَ البدءِ فِي تفسيرِهَا وغيرِ ذلكَ منَ الضوابطِ المهمّةِ.

د) قواعدُ التَّفسيرِ، وذكرَ فيهَا إحدَى وعشرينَ قاعدةً.

هـ) شروطُ المفسِّرِ وآدابِهِ، وذكرَ تحتهَا معظمهَا.

وخلاصةً الكتابُ لطيفُ الحجمِ حيثُ يقعُ فِي (182) صفحةٍ، وقد تمَّ نشرهُ عام (1418هـ)، الطَّبعةُ الثَّانيةُ عام (1430هـ).

(1) أستاذ بقسم القرآن وعولومه بكليَّةِ أصولِ الدِّينِ – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّةِ.



أشهرُ المفسِّرينَ وكتبهم

وأحسنُ منْ كتبَ فِي علمِ التَّفسيرِ علَى هذَا النَّحوِ، حيثُ جمعَ فيهَا أصحابهَا مَا رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعينَ ومَا اجتهدُوا فيهِ بأنفسهِمْ، همْ:

1) الإمامُ محمَّدٌ بنُ جريرٍ الطَّبرِيِّ (رحمه الله تعالى):

وهوَ محمَّدٌ بنُ جريرِ بنُ يزيدٍ بنُ كثيرٍ بنُ غالبٍ، الشَّهيرُ بالإمامِ أبِي جعفرَ الطبرِيِّ، (224 هـ – 310 هـ)، وهوَ مفسِّرٌ ومؤرِّخٌ وفقيهٌ، ولُقِّبَ بإمامِ المفسِّرينَ، ولدَ بآمُلَ، عاصمةُ إقليمِ طبرستانَ، وارتحلَ إلَى الرَّي وبغدادَ والكوفةَ والبصرةَ، وذهبَ إلَى مصرَ فسارَ إلَى الفسطاطِ فِي سنةِ (253 هـ) وأخذَ علَى علمائهَا علومَ مالكٍ والشَّافعِي وابنِ وهبٍ، ورجعَ واستوطنَ بغدادَ[1].

قالَ الخطيبُ البغدادِيُّ: "كانَ حافظًا لكتابِ اللهِ، عارفًا بالقراءاتِ، بصيرًا بالمعانِي، فقيهًا فِي أحكامِ القرآنِ، عالمًا بالسُّننِ وطرقهَا، وصحيحهَا وسقيمهَا، وناسخهَا ومنسوخهَا، عارفًا بأقوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، ومنْ بعدهمْ منَ المخالفين فِي الأحكامِ، ومسائلِ الحلالِ والحرامِ، عارفًا بأيَّامِ النَّاسِ وأخبارهمْ"[2]، عُرِضَ عليهِ القضاءُ فامتنعَ، والمظالمُ فأبَى[3].

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) جـ 6، صـ 2448.

(2) تاريخ بغداد وذيوله، للخطيب البغدادي، طبعة المكتبة العلمية، جـ 2، صـ 161.

(3) تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

ولهُ العديدُ منَ التَّصانيفِ:

يقولُ ياقوتُ الحمويُّ:"وجدنَا فِي ميراثهِ منْ كتبهِ أكثرَ منْ ثمانينَ جزءًا بخطِّهِ الدَّقيقِ"[1]، ومنهَا: اختلافُ علماءِ الأمصارِ، وهوَ أوَّلُ كتابٍ ألَّفهُ، وكانَ يقولُ رحمهُ اللهُ تعالَى: لِي كتابانِ لَا يستغنِي عنهمَا فقيهٌ: الاختلافُ واللَّطيفُ"[2]، وألَّفَ رحمهُ اللهُ تعالَى "جامعَ البيانِ فِي تأويلِ القرآنِ"، المعروفِ بِ "تفسيرِ الطَّبرِيِّ" وتاريخِ الأممِ والملوكِ، المعروفِ بتاريخِ الطَّبرِيِّ وتهذيبِ الآثارِ، وذيلِ المذيلِ، ولطيفِ القولِ فِي أحكامِ شرائعِ الإسلامِ، وبسيطِ القولِ فِي أحكامِ شرائعِ الإسلامِ، وكتابِ القراءاتِ[3]، وصريحِ السَّنَّةِ، والتَّبصيرِ فِي معالمِ الدِّينِ، وتوفِّيَ فِي شهرِ شوَّالَ سنَةَ (310 ه)، ودفن ببغدادَ[4][5].

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ج 6، صـ 2460.

(2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ج 6، صـ 2458.

(3) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، الطبقة العاشرة، ترجمة محمد بن جرير الطبري.

(4) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، الطبقة السابعة عشر، محمد بن جرير، ج 14، صـ 267: 282.

(5) الأعلام – خير الدين الزركلي – ج 6 – الصفحة 69.



2) إسماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرٍ (رحمه الله تعالى):

وهوَ عمادُ الدِّينِ أبُو الفداءِ إسماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرٍ بنِ ضَوْ بنِ درعٍ[1] القرشِيِّ الحَصْلِيِّ، البصروِيِّ، الشَّافعِيِّ[2]، ثمَّ الدِّمشقِيِّ، مُحدِّثٌ ومفسِّرٌ وفقيهٌ[3]، ولدَ بمجدلَ منْ أعمالِ بصرَى منْ منطقةِ سهلِ حورانَ (درعَا حاليًّا) فِي جنوبِ دمشقَ سنةَ (701 هـ)، و ماتَ أبُوه سنةَ (703 هـ)،[4] ثمَّ انتقلَ إلَى دمشقَ معَ أخيهِ كمالُ الدِّينِ سنةَ (707 هـ) بعدَ موتِ أبيهِ، وحفظَ القرآنَ الكريمَ وختمَ حفظهُ فِي سنةِ (711 هـ)، وقرأَ القراءاتِ وجمعَ التَّفسيرَ، وحفظَ متنَ "التَّنبيهِ" فِي فقهِ الشَّافعِيِّ سنةَ (718 هـ)، وحفظَ مختصرَ ابنِ الحاجبِ، وتفقَّهَ علَى الشَّيخينِ: برهانُ الدِّينِ الفزارِي، وكمالُ الدِّينِ بنِ قاضِي شهبةَ[5]، وسمعَ الحديثَ منْ ابنِ الشَّحنةَ، وابنِ الزَّرادِ، وإسحاقَ الآمدِي، وابنِ عساكرَ، والمزِّي، وابنِ الرِّضَى، وشرعَ فِي شرحِ صحيحِ البُخارِي ولازمَ المزِّي، وقرأَ عليهِ تهذيبَ الكمالِ، وصاهرهُ علَى ابنتهِ، وصاحبَ ابنَ تيميةَ[6](أ)، ووُلِّيَ العديدَ منَ المدارسِ العلميَّةِ فِي ذلكَ العصرِ، منهَا: دارُ الحديثِ الأشرفيَّةِ، والمدرسةُ الصَّالحيَّةِ، والمدرسةُ النَّجيبيَّةِ، والمدرسةُ التَّنكزيَّةِ، والمدرسةُ النُّوريَّةِ الكبرَى[7].

تُوفِّيَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شعبانَ سنةَ (774 هـ)، وَكَانَ قدْ أضرَّ فِي أَوَاخِرِ عمرهِ[8]، ودفنَ بجوارِ ابنِ تيميَّةَ فِي مقبرةِ الصوفيَّةِ خارجَ بابِ النَّصرِ منْ دمشقَ[9].

ولهُ عدَّةُ تصنيفاتٍ أشهرهَا:

"تفسيرُ القرآنِ العظيمِ"، والبدايةُ والنِّهايةُ، وطبقاتُ الشَّافعيَّةِ، والباعثُ الحثيثُ شرحِ اختصارِ علومِ الحديثِ، والسِّيرةُ النَّبويَّةُ، ولهُ رسالةٌ فِي الجهادِ، وشرعَ

فِي كتابٍ كبيرٍ للأحكامِ ولمْ يكملهُ، ولهُ شرحُ صحيحِ البخارِيِّ وهوَ مفقودٌ.[10] [11]-

(1) طبقات المفسرين للدودي (1/11) وإنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر (1/45). والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة؛ لابن حجر (1/399).

(2) البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الأول – الصفحة 16 الطبعة الثانية لدار بن كثير".

(3) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (1/ 67)، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (414/2)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/ 445)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص: 534)، والأعلام للزركلي (320/1)

(4) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (1/445-446)

(5) معجم المحدثين (56/1)

(6) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (1/445-446)

(أ) جاء في تذكرة الحفاظ: "وصحب الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وكانت له به خصوصية، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك وأوذي".

(7) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (1/ 67)، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (414/2)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/ 445)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص: 534)، والأعلام للزركلي (320/1)

(8) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (1/445-446)

(9) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (1/ 68)

(10) ترجمة ابن كثير في مقدمة تحقيق كتاب "البداية والنهاية" بإشراف د. عبد الله التركي (1/13-33)

(11) د. محمد الزحيلي: ابن كثير الدمشقي ص:150- 152.



3) الحسينُ بنُ مسعودٍ البغوِيُّ (رحمه الله تعالى):

وهوَ أبُو محمَّدٍ الحُسينُ بنُ مسعودٍ بنِ محمَّدٍ الفرَّاءُ البغوِيُّ، ويلقَّبُ أيضًا بركنِ الدِّينِ ومحيِي السُّنَّةِ، أحدُ العلماءِ الذينَ خدمُوا القرآنَ والسُّنةَ النَّبويَّةَ، دراسةً وتدريسًا، وتأليفًا[1]. والفرَّاءُ: نسبةً إلَى عملِ الفرَاءِ وبيعهَا.

والبغوِيُّ: نسبةً إلَى بلدةٍ يقالُ لهَا: (بغ) وبَغْشورَ، وهيَ بلدةٌ بخراسانَ بينَ مرو الروذَ وهراةَ[2].

وولدَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بغشورٍ وإليهَا نسبتهُ وهذهِ البلدةُ، أنجبتْ كثيرًا منَ المحدِّثينَ والفقهاءِ وأهلِ العلمِ.

ومعظمُ المصادرِ التِي ترجمتْ لهُ رحمهُ الله تعالَى لمْ تشرْ إلَى السَّنةِ التِي ولدَ فيهَا، غيرَ أنَّ ياقوتَ الحموِي قالَ فِي معجمِ البلدانِ: إنَّهُ ولدَ سنةَ (433 هـ)[3] أمَّا الزَّركلِي فأشارَ فِي الأعلامِ إلَى أنَّهُ ولدَ سنةَ (436 هـ)[4].

وجميعُ منْ ترجمَ لهُ أرَّخُوا أنَّهُ توفِّيَ سنةَ (516 هـ) سوَى ابنِ خلكانَ فأرَّخَ وفاتهُ سنةَ (510 هـ)[5]، وقدْ وافقَ تقديرُ ابنُ خلكانَ فِي وفاةِ الإمامِ البغوي تقديرَ الإمامِ الذَّهبِي، وقالُوا إنَّهُ قدْ بلغَ الثَّمانينَ أوْ تجاوزهَا، فيغلبُ الظَّنُّ أنَّهُ وُلدَ فِي أوائلِ العقدِ الرَّابعِ منَ القرنِ الخامسِ الهجرِي.

---

(1) فضائل النبى وشمائله من كتاب شرح السنة (ترجمة المؤلف).

(2) مجلة البيان . العدد [5].

(3) معجم البلدان – لياقوت الحموي.

(4) الأعلام – لخير الدين الزركلي.

(5) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان – لشمس الدين بن خلكان.

قالَ الإمامُ الذَّهبِيُّ فِي ترجمتهِ: (الشَّيخُ الإمامُ، العلَّامةُ القدوةُ الحافظُ شيخُ الإسلامِ، مُحيِي السُّنةِ أبُو محمَّدٍ الحُسينُ بنُ مسعودٍ بنِ محمَّدٍ بنِ الفرَّاءِ البغوِيُّ الشَّافعِيُّ المفسِّرُ صاحبُ التَّصانيفِ (كشرحِ السَّنَّةِ) و(معالمِ التَّنزيلِ) و(الجمعُ بينَ الصَّحيحينِ) وأشياءٌ، وكانَ البغويُّ يُلقَّبُ بمحيِي السُّنَّةِ وبركنِ الدِّينْ، وكانَ سيِّدًا إمامًا عالمًا علَّامةً زاهدًا، ولهُ القدمُ الرَّاسخُ فِي التَّفسيرِ والباعِ المديدِ فِي الفقهِ[1].

ومنْ مؤَلَّفاتهِ:

شرحُ السُّنَّةِ، ومجموعةُ الفتاوَى، والتَّهذيبُ فِي فقهِ الإمامِ الشَّافعِي، و"معالمُ التَّنزيلِ"، ومصابيحُ السُّنَّةِ، والأنوارُ فِي شمائلِ المختارِ، والجامعُ بينَ الصَّحيحينِ، والأربعونَ حديثًا.

قالَ الذَّهبِي: وتوفِّي بمرو الروذَ وهيَ مدينةٌ منْ مدائنِ خراسانَ فِي شوَّالَ، سنةَ ستَّ عشرةَ وخمسمائةٍ، ودفنَ بجنبِ شيخهِ القاضِي حسينٌ، وعاشَ بضعًا وسبعينَ سنةً[2].

---

(1) سير أعلام النبلاء – للذهبي [439/19].

(2) سير أعلام النبلاء (ص: 442).



4) ابنُ أبِي حاتمٍ (رحمه الله تعالى):

وهوَ أبُو محمَّدٍ عبدُ الرَّحمنِ بنِ أبِي حاتمٍ محمَّدٌ بنُ إدريسَ الرَّازي[1]: وُلدَ ابنُ أبِي حاتمٍ سنةَ أربعينَ ومائتينِ (240 ه) ونشأَ بينَ أهلِ العلمِ والرِّواياتِ، وتربَّى بالمذاكرةِ معَ أبيهِ وأبِي زُرْعَةَ الحافظَيْنِ الكبيرَيْنِ، وكانَا يعتنياتِ بهِ، فاجتمعَ لهُ معَ علوِّ همَّتهِ كثرةُ عنايتهمَا بهِ.

قالَ عليٌّ بنُ أحمدَ الخوارزمِيِّ: "عبدُ الرَّحمنِ بنِ أبِي حاتمٍ إمامٌ ابنُ إمامٍ، قدْ رُبِّي بينَ إمامَيْنِ: أبِي حاتمٍ، وأبِي زُرْعةَ؛ إمامَيْ هُدًى"[2]، وقالَ عنْ نفسهِ: "لمْ يدعنِي أبِي أشتغلُ بالحديثِ حتَّى قرأتُ القرآنَ عنِ الفضلِ بنِ شاذانَ، ثمَّ كتبتُ الحديثَ"[3].

ومنْ مؤلَّفاتهِ:

قالَ الخليلِي: "لهُ منَ التَّصانيفِ مَا هوَ أشهرُ منْ أنْ يُوصفَ فِي الفقهِ والتَّواريخِ واختلافِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وعلماءِ الأمصارِ"[4].

وقالَ الرَّافعِي: "وجمعَ وصنَّفَ الكثيرَ حتَّى وقعَتْ ترجمةُ مصنَّفاتهِ الكبارِ والصِّغارِ فِي أوراقٍ"[5].

ولقدْ كانَ الإمامُ ابنُ أبِي حاتمٍ رحمهُ اللهُ تعالَى مُسَدَّدًا فِي التَّصنيفِ، ورُزقَ فِي مصنَّفاتهِ القبولَ، وعمَّ النَّفعُ بهَا، فكتابهُ "تفسيرُ القرآنِ العظيمِ" أصلٌ لَا يُستغنَى عنهُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ.

وكتابهُ "تقدمةُ الجرحِ والتَّعديلِ" أصلٌ لَا يُستغنَى عنهُ فِي معرفةِ كبارِ الحُفَّاظِ الأوائلِ، منْ سِيَرهِمْ وأخبارهِمْ وفضلهِمْ.

---

(1) مصادر ترجمته كثيرةٌ، منها: «الإرشاد» للخليلي (2/683)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (35/357-366)، و«التدوين في أخبار قزوين» للرافعي (3/153-155)، و«سير أعلام النبلاء» (13/263-269)، و«تاريخ الإسلام»

(2) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (35/361).

(3) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (35/360).

(4) «الإرشاد» (2/683).

(5) «التَّدوين» (3/155).

وكتابهُ "الجرحُ والتَّعديلُ" أصلٌ لَا يُستغنَى عنهُ فِي معرفةِ الرِّجالِ.

قالَ ابنُ عساكرَ: "صنَّفَ كتابَ (الجرحِ والتَّعديلِ) فأكثرَ فائدتهُ"[1].

وقالَ عنهُ الذَّهبِيُّ: "كتابٌ نفيسٌ"[2].

وقالَ: يدلُّ علَى سعةِ حفظِ الرَّجُلِ وإمامتهِ"[3].

وقالَ ابنُ كثيرٍ: وهوَ منْ أَجَلِّ الكتبِ المصنَّفةِ فِي هذَا الشَّأنِ[4].

وكتابُ "عللِ الحديثِ"، وكتابُ "المراسيلَ"، وكتابُ "آدابِ الشَّافعِيِّ ومناقبهِ"، وهوَ كثيرُ الفوائدِ معَ صغرِ حجمهِ[5].

وتُوفِّيَ رحمهُ اللهُ تعالَى سنةَ سبعٍ وعشرينَ وثلاثمائةَ (327 هـ) [6].

---

(1) «تاريخ دمشق» (35/357)

(2) «سير أعلام النبلاء» (13/264).

(3) «تاريخ الإسلام» (7/534).

(4) موقع طريق الإسلام – مركز تفسير للدراسات القرآنية – حسين عكاشة.

(5) السابق.

(6) طبقات الحنابلة (105/3).

فائدةٌ:

ابنُ أبِي حاتمٍ الرَّازي الذِي سبقَ ذكرهُ، ليسَ هوَ نفسهُ فخرُ الدِّينِ الرَّازِي، فابنُ أبِي حاتمٍ إمامٌ منْ أئمَّةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأمَّا فخرُ الدِّينِ الرَّازي فقدْ كانَ أشعريًّا متكلِّمًا قالَ عنهُ الذَّهبِي: "العلَّامةُ الكبيرُ ذُو الفنونِ فخرُ الدِّينِ محمَّدُ بنُ عمرَ بنِ الحسينِ القرشِيِّ البكرِيِّ الطبرستانِي الأصولِي المفسِّر، كبيرُ الأذكياءِ والحكماءِ والمصنِّفينَ، ولدَ سنةَ أربعٍ وأربعينَ وخمسَ مئةٍ، واشتغلَ علَى أبيهِ الإمامِ ضياءِ الدِّينِ خطيبُ الرَّي، وانتشرتْ تواليفهُ فِي البلادِ شرقًا وغربًا، وكانَ يتوقَّدُ ذكاءً، وقدْ سقتُ ترجمتهُ علَى الوجهِ فِي تاريخِ الإسلامِ.

وقدْ بدتْ منهُ فِي تواليفهِ بلايَا وعظائمُ، وسحرٌ وانحرافاتٌ عنِ السُّنَّةِ، واللهُ يعفُو عنهُ، فإنَّهُ تُوفِّي علَى طريقةٍ حميدةٍ، واللُّه يتولَّى السرائرَ، ماتَ بهراةَ يومَ عيدِ الفطرِ سنةَ ستٍّ وستِّ مئةٍ، ولهُ بضعٌ وستُّونَ سنةً.

وقدِ اعترفَ فِي آخرِ عمرهِ حيثُ يقولُ: " لقدْ تأمَّلتُ الطُّرقَ الكلاميَّةَ، والمناهجَ الفلسفيَّةَ، فمَا رأيتهَا تشفِي عليلًا، ولَا تروِي غليلًا، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآنِ؛ أقرأُ فِي الإثباتِ: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ)، وأقرأُ فِي النَّفي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)؛ ومنْ جرَّبَ مثلَ تجربتِي، عرفَ مثلَ معرفتِي"[1]. (رحمَ اللهُ فخرَ الدِّينِ الرَّازي رحمةً واسعةً، فقدْ بيَّنَ وأوضحَ قبلَ أن يموتَ، وماتَ علَى النَّهجِ السَّليمِ القويمِ، فرحمهُ اللهُ تعالَى بمَا بيَّنَ وأوضحَ).

(1) سير أعلام النبلاء (500/21).



5) محمَّدٌ بنُ أحمدَ القرطبِي (رحمه الله تعالى):

هوَ محمَّدٌ بنُ أحمدَ بنِ أبِي بكرٍ بنِ فَرْحٍ، وكنيتهُ: أبُو عبدِ اللهِ، ولدَ بقرطبةَ بـ (الأندلسِ) أوائلَ القرنِ السَّابعِ الهجرِيِّ (مَا بينَ 600 – 610هـ)[1] حيثُ تعلَّمَ القرآنَ، وقواعدَ اللُّغةِ العربيَّةِ، وتوسَّعَ بدراسةِ الفقهِ والقراءاتِ والبلاغةِ وعلومِ القرآنِ وغيرِهَا، كمَا تعلَّمَ الشِّعرَ أيضًا، وانتقلَ إلَى مصرَ واستقرَّ بمنية بنِي خصيبٍ (المنيَا) حتَّى وافتهُ المنيَّةُ فِي (9 شوَّالٍ 671 هـ)، وهوَ يعتبرُ منْ كبارِ المفسِّرينَ، وكانَ فقيهًا ومحدِّثًا، ورعًا وزاهدًا متعبِّدًا[2].

ومنْ مؤلَّفاتِ الإمامِ القرطبِيِّ:

ذكرَ المؤرِّخونَ للقرطبِيِّ رحمهُ اللهُ تعالَى عدَّةَ مؤلَّفاتٍ غيرَ تفسيرِهِ العظيمِ المسمَّى بـ (الجامعِ لأحكامِ القرآنِ)[3].

ومنْ هذهِ المؤلَّفاتِ: التَّذكرةُ فِي أحوالِ الموتَى وأمورِ الآخرةِ، وهوَ مطبوعٌ متداولٌ[4]، التِّذكارُ فِي أفضلِ الأذكارِ، وهوَ أيضًا مطبوعٌ متداولٌ[5]، الأسنَى فِي شرحِ أسماءِ اللهِ الحسنَى وصفاتِهِ العليَا[6]، الإعلامُ بمَا فِي دينِ النَّصارَى منَ المفاسدِ والأوهامِ وإظهارِ محاسنِ دينِ الإسلامِ[7]، قمعُ الحرصِ بالزُّهدِ والقناعةِ وردِّ ذُلِّ السُّؤالِ بالكسبِ والصِّناعةِ[8].

(1) الداودي: طبقات المفسرين 65/2، 66 – والسيوطي: طبقات المفسرين ص79 – الصفدي: الوافي بالوفيات 122/2، 123.

(2) كتاب عظماء الإسلام – محمد سعيد مرسي.

(3) ابن رشيد الفهري: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة 425/3.

(4) السابق.

(5) مشهور حسن محمود سلمان: الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير ص98.

(6) السابق.

(7) السابق نفسه ص135.

(8) رحمة الله الكيرانوي: إظهار الحق 395/2– 397. والبغدادي: هدية العارفين 56/2– 326.

وقدْ أشارَ القرطبِيُّ فِي تفسيرهِ إِلَى مؤلَّفاتٍ لهُ، منهَا: المقتبسُ فِي شرحِ موطأِ مالكٍ بنِ أنسٍ[1]، واللُّمعُ اللُّؤلؤيَّةُ فِي شرحِ العشريناتِ النَّبويَّةِ[2]، وغيرهَا منَ التَّصانيفِ.

(1) رحمة الله الكيرانوي: إظهار الحق 2/395– 397. والبغدادي: هدية العارفين 2/56– 326.
(2) السابق 1/173.



6) جلالُ الدِّينِ بنُ أبِي بكرٍ السُّيوطِي (رحمه الله تعالى):

وهوَ عبدُ الرَّحمنِ بنِ أبِي بكرِ بنِ محمَّدٍ، جلالُ الدِّينِ أبُو الفضلِ ابنِ العلَّامةِ كمالُ الدِّينِ السُّيوطِي، الشَّافعِي[1]، وُلدَ مستهلَّ رجبٍ سنةَ تسعٍ وأربعينَ وثمانمائةَ (849 هـ)[2]، طلبَ العلمَ وهوَ صغيرٌ؛ حيثُ لازمَ أعيانَ عصرهِ منَ العلماءِ، ككمالِ الدِّينِ ابنِ الهمامِ، والعلمِ البلقينِي، والشَّرفِ المناوِي، والعزِّ الحنبلِي، فأخذَ عنهمْ وعنْ غيرهمْ الحديثَ والفقهَ والعربيَّةَ وسائرَ العلومِ[3].

ولمَّا بلغَ أربعينَ سنةً منَ عمرهِ أخذَ فِي التَّجرُّدِ للعبادةِ والانقطاعِ إلَى اللهِ تعالَى، والاشتغالِ بِهِ صرفًا، والإعراضِ عنِ الدُّنيَا وأهلهَا كأنَّهُ لمْ يعرفْ أحدًا منهمْ، وشرعَ فِي تحريرِ مؤلَّفاتِهِ، وتركَ الإفتاءَ والتَّدريسَ، واعتذرَ عنْ ذلكَ فِي مؤلَّفٍ ألَّفهُ فِي ذلكَ وسمَّاهُ "بالتَّنفيسِ"، وأقامَ فِي روضةِ المقياسِ فلمْ يتحوَّلْ منهَا إلَى أنْ ماتَ، وكانتْ وفاتهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي سحرِ ليلةِ الجمعةِ تاسعِ عشرَ جمادَى الأولَى سنةَ إحدَى عشرةَ وتسعمائةَ (911 هـ) فِي منزلِهِ بروضةِ المقياسِ، بعدَ أنْ تمرَّضَ سبعةَ أيَّامٍ بورمٍ شديدٍ فِي ذراعهِ الأيسرِ، وقدْ استكملَ منَ العمرِ إحدَى وستينَ سنةً، ودفنَ فِي حوشِ قوصونَ خارجَ بابِ القرافةِ، وصُلِّيَ عليهِ غائبةً بدمشقَ بالجامعِ الأمويِّ يومَ الجمعةِ ثامنِ رجبٍ سنةَ إحدَى عشرةَ المذكورةَ[4].

(1) السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (472/1).

(2) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (335/1)،)، الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (337) الحنبلي، محمد ابن العماد العكري، أبوالفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (51/7)، والكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للغزي.

(3) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن –حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (336/1). وابن إياس كتاب "تاريخ مصر".

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (336/1).

من مؤلفاته:

قدْ ألَّفَ جلالُ الدِّينِ السُّيوطِي عددًا كبيرًا منَ الكتبِ والرَّسائلِ، إذْ يذكرُ ابنُ إيَّاسٍ فِي "تاريخِ مصرَ" أنَّ مصنَّفاتِ السُّيوطِي بلغتْ ستِّ مائةٍ مصنَّفٍ، وقدْ ألَّفَ فِي طيفٍ واسعٍ منَ المواضيعِ تشملُ التَّفسيرَ والفقهَ والحديثَ والأصولَ والنَّحوَ والبلاغةَ والتَّاريخَ والأدبَ وغيرهَا، ومنْ هذهِ المصنَّفاتِ:

الدُّرُّ المنثورُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ، والدُّررُ المنتثرةُ فِي الأحاديثِ المشتهرةِ، والديباجُ علَى صحيحِ مسلمٍ بنِ الحجَّاجِ،

والرَّوضُّ الأنيقُ فِي فضلِ الصدِّيق، والعرفُ الوردِيُّ فِي أخبارِ المهدِيِّ، والغررُ فِي فضائلِ عمرَ، وألفيةُ الحديثِ،

والكاوِي علَى تاريخِ السَّخاوِي، واللآلئُ المصنوعةُ فِي الأحاديثِ الموضوعةِ، والمَدْرَجُ إلَى المُدْرَجِ، المزهرُ فِي علومِ اللُّغةِ وأنواعهَا، و المهذَّبُ فيمَا وقعَ فِي القرآنِ منَ المعربِ، والإتقانُ فِي علومِ القرآنِ، وإسعافُ المبطأِ برجالِ الموطَّأِ، والجامعُ الصَّغيرُ منْ حديثِ البشيرِ النَّذيرِ، والأشباهُ والنَّظائرُ[1][2].

(1) انظر: كتاب السيوطي النحوي، د/ السلمان ص 11.

(2) انظر، مؤرخو مصر الإسلامية ص 145- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (231/1).- الحنفى القاهرى، ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (63/3)، (79/4).

*كتاب الثغور الباسمة نسخة محفوظة 13 سبتمبر 2016 على موقع واي باك مشين.



7) محمَّدٌ بنُ علِيٍّ الشَّوكانِي (رحمه الله تعالى):

هوَ محمَّدٌ بنُ علِيٍّ بنِ محمَّدٍ الشَّوكانِي، الملقَّبِ ببدرِ الدِّينِ الشَّوكانِي، أحدُ أبرزِ علماءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وفقهائهَا، ومنْ كبارِ علماءِ اليمنِ، ولدَ فِي هجرةِ شوكانَ فِي اليمنِ سنةَ (1173 هـ)[1] ونشأَ بصنعاءَ، وتلقَّى العلمَ علَى شيوخهَا، واشتغلَ بالقضاءِ والإفتاءِ سنةَ (1229 هـ)[2]، وماتَ حاكمًا بهَا فِي سنةِ (1250 هـ)[3].

من مؤلَّفاتهِ رحمهُ الله تعالَى:

فتحُ القديرِ فِي التَّفسيرِ، ونيلُ الأوطارِ فِي الحديثِ، والبدرُ الطَّالعُ بمحاسنِ منْ بعدِ القرنِ التَّاسعِ، وإرشادُ الفحولُ إلَى تحقيقِ الحقِّ منْ علمِ الأصولِ، وإبطالُ دعوَى الإجماعِ علَى تحريمِ مطلقِ السَّماعِ، وشرحُ الصُّدورِ بتحريمِ رفعِ القبورِ، وإرشادُ الثِّقاتِ إلَى إتِّفاقِ الشَّرائعِ علَى التَّوحيدِ والمعادِ والنبوَّاتِ، وتحفةُ الذَّاكرينَ بعدَّةِ الحصنِ الحصينِ منْ كلامِ سيِّدِ المرسلينَ، ورفعُ الباسِ عنْ حديثِ النَّفسِ والهمِّ والوسواسِ، والبدرُ الطَّالعُ بمحاسنِ منْ بعدِ القرنِ السَّابعِ، والسيلُ الجرَّارُ المتدفِّق علَى حدائقِ الأزهارِ، والأدلَّةُ الرَّضيَّةُ لمتنِ الدُّررِ البهيَّةِ فِي المسائلِ الفقهيَّةِ، وإرشادُ الغبِي إلَى مذهبِ أهلِ البيتِ فِي صحبِ النَّبي ﷺ، وبلوغُ المنَى فِي حكمِ الاستمناءِ، والدَّرارِي المضيَّةِ شرحُ الدُّررِ البهيَّةِ، والقولُ الجليُّ فِي حكمِ لبسِ النِّساءِ للحليِّ.

---

(1) موقع الشوكاني: ترجمة حياة الإمام القاضي محمد بن علي بن محمد الشوكاني.

(2) المكتبة الشاملة: الشوكاني نسخة محفوظة 15 يوليو 2017 على موقع واي باك مشين.

(3) ترجمة الشوكاني – الموسوعة الإسلامية.



8) محمَّدٌ بنُ ناصرٍ السَّعدِي (رحمه الله تعالى):

وهوَ أبُو عبدِ اللهِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ بنِ عبدِ اللهِ بنِ ناصرٍ السَّعدِي التَّميمِي[1][2]، ويعرفُ اختصارًا بابنِ سعدِي، ولدَ فِي بلدةِ عنيزةَ فِي القصيمِ فِي ثنتَيْ عشرَ يومًا مرَّتْ منْ محرَّمٍ عامَ ألفٍ وثلاثمائةَ وسبعٍ منَ الهجرةِ النَّبويَّةِ، وتوفِّيتْ أمُّهُ ولهُ منَ العمرِ أربعُ سنواتٍ، وتوفِّي والدهُ وهوَ فِي السَّابعةِ، فتربَّى يتيمًا ولكنَّهُ نشأَ نشأةً حسنةً، وكانَ قدْ استرعَى الأنظارَ منذُ حداثةِ سنِّهِ بذكائهِ ورغبتهِ الشَّديدةِ فِي التعلُّمِ، وهوَ مصنِّفٌ وكاتبٌ، وأشهرُ كتبهِ كتابُ "تيسيرِ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ".

منْ مؤلَّفاتهِ رحمهُ اللهُ تعالَى:

صنَّفَ السَّعدِيُّ كتبًا كثيرةً أهمُّها تفسيرهُ للقرآنِ الكريمِ المسمَّى بـ:"تيسيرِ الكريمِ الرَّحمنِ" فِي ثماني مجلَّداتٍ أكملهُ فِي عامِ (1344 هـ)، وقدْ نالَ هذَا التَّفسيرُ الكثيرَ منَ الاهتمامِ حيثُ طبعَ لهُ طبعاتٌ عديدةٌ.

ولهُ أيضًا حاشيةٌ علَى الفقهِ استدراكًا علَى جميعِ الكتبِ المستعملةِ فِي المذهبِ الحنبلِي ولمْ تطبعْ.

ولهُ أيضًا "إرشادُ أولِي البصائرِ والألبابِ لمعرفةِ الفقهِ بأقربِ الطُّرقِ وأيسرِ الأسبابِ"، ورتَّبهُ علَى شكلِ سؤالٍ جوابٍ، وطبعَ فِي دمشقَ عامَ (1365هـ)، علَى نفقتهِ الخاصةِ ووزَّعهُ مجَّانًا.

---

(1) "الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله".

(2) "الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي".

و"الدرَّةُ المختصرةُ فِي محاسنِ الإسلامِ"، وطبعَ عامَ (1366 هـ).
و"الخطبُ العصريَّةُ القيِّمةُ"، وكتبَ هذَا لمَا آلَ إليهِ أمرُ الخطابةِ فِي بلدهِ، فاجتهدَ أنْ يخطبَ فِي كلِّ عيدٍ وجمعةٍ بمَا يناسبُ الوقتَ فِي الموضوعاتِ الجليلةِ التِّي يحتاجُ النَّاسُ إليهَا، ثمَّ جمعهَا وطبعهَا معَ "الدرَّةِ المختصرةِ" علَى نفقتهِ ووزَّعهَا مجَّانًا.
و"القواعدُ الحسانُ المتعلقة بتفسير القرآنِ"، وطبعهُ عامَ (1366هـ) ووُزِّعَ مجَّانًا.
و"تنزيهُ الدِّينِ وحملتهِ ورجالهِ ممَّا افتراهُ القصيمِي فِي أغلالهِ"، وطبعَ عامَ (1366هـ).
و"الحقُّ الواضحُ المبينُ فِي شرحِ توحيدِ الأنبياءِ والمرسلينَ".
و"توضيحُ الكافيةِ الشافيةِ"، و"وجوبُ التَّعاونِ بينَ المسلمينَ"، و"موضوعُ الجهادِ الدِّينِي".
وهذهِ الثَّلاثةُ الأخيرةُ طبعتْ بالقاهرة علَى نفقتهِ ووزَّعهَا مجانًا.
و"القولُ السَّديدُ فِي مقاصدِ التَّوحيدِ"، طبعَ عامَ (1367هـ)[1].
و"مختصرٌ فِي أصولِ الفقهِ"، لمْ يطبعْ.
و"تيسيرُ اللَّطيفِ المنَّانِ فِي خلاصةِ تفسيرِ القرآنِ"، طبعَ علَى نفقةِ المؤلِّفِ وجماعةٍ منَ المحسنينَ، وزِّعَ مجانًا.
و"الرِّياضُ النَّاضرةُ".
ونظمٌ فِي "القواعدِ الفقهيَّةِ" وهذا الأخيرُ نالَ قبولًا عندَ طلَّابِ العلمِ.

(1) الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، وليد عبدالله المنيس، ط1، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، 1423هـ/2002م، ص14.

وفاتهُ:

وتوفِّي رحمهُ اللهُ تعالَى بعدَ مَا أُصيبَ عامَ(1371هـ)بمرضِ ضغطِ الدَّمِ وضيقِ الشَّرايينِ، عنْ عمرٍ ناهزَ (69 عامًا) فِي خدمةِ العلمِ، وادركتهُ الوفاةُ قربَ طلوعِ الفجرِ منْ يومِ الخميسِ الموافقِ 22 جمادَى الآخرةِ عامَ (1376هـ)[1]، فِي مدينةِ عنيزةَ فِي القصيمِ، رحمهُ اللهُ تعالَى[2].

(1) علماء نجد خلال ثلاثة قرون (250/3)

(2) حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي في سطور، أحمد القرعاوي، ط2، 1414هـ، ص32.

*كتاب علماء نجد خلال ستة قرون، للشيخ عبد الله بن عبدالرحمن البسام.

*كتاب روضة الناظرين عن علماء نجد وحوادث السنين، للشيخ محمد بن عثمان القاضي.

*كتاب تراجم لسبعة علماء، للشيخ محمد الحمد.



أشهرُ كتبِ التَّفسيرِ

وكلُّ واحدٍ منَ الأئمَّةِ السَّابقِ ذكرهمْ لهُ كتابُ تفسيرٍ للقرآنِ الكريمِ كمَا سبقَ وأشرنَا، ونكتفِي بأشهرِ كتبِ التَّفسيرِ لأشهرِ المفسِّرينَ السَّابقينَ:

1) جامعُ البيانِ فِي تأويلِ القرآنِ، لأبِي جعفرٍ محمَّدٍ بنِ جريرٍ الطَّبريِّ:

وهذَا التَّفسيرُ منْ أعظمِ التَّفاسيرِ بالمأثورِ وأجلِّهَا وأرفعهَا قدرًا، وقدْ ذكرَ فيهِ صاحبهُ مَا رُوِيَ فِي التَّفسيرِ عنِ النَّبيِّ ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وأتباعهمْ رضيَ اللهُ عنهمْ[1].

سُئلَ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ أيِّ التَّفاسيرِ أقربُ إلَى الكتابِ والسُّنةِ: الزَّمخشرِي، أمِ القرطبِي، أمِ البغوِي، أمِ غيرِ هؤلاءِ؟

فأجابَ تغمَّدهُ اللهُ برحمتهِ: الحمدُ للهِ، أمَّا التَّفاسيرُ التِي فِي أيدِي النَّاس فأصحُّهَا تفسيرُ محمَّدٍ بنِ جريرٍ الطَّبرِي، فإنَّهُ يذكرُ مقالاتِ السَّلفِ بالأسانيدِ الثَّابتةِ، وليسَ فيهِ بدعةٌ، ولَا ينقلُ عنِ المتَّهمينَ كمقاتلٍ بنِ بكيرٍ، والكلبِي[2].

---

(1) كتاب التَّفسير أكاديمية زاد للعلوم الشَّرعيَّة – محمد صالح المنجد. – مجموع الفتاوى صـ 385.

(2) مقدِّمة في أصول التَّفسير ص : 41.

منهجُ الطَّبرِيِّ فِي التَّفسيرِ:

كانَ منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي استقصاءِ الوجوهِ المحتملةِ للآياتِ، يعتمدُ علَى التَّفسيرِ بالمأثورِ بالأساسِ، ثمَّ القراءاتِ، فاهتمَ بالقراءاتِ القرآنيَّةِ، وكانَ لهُ اعتناءٌ ببعضِ وجوهِ اللُّغةِ، فضلًا عنْ آرائهِ الفقهيَّةِ واجتهاداتهِ التِي أودعهَا فِي التَّفسيرِ، فمنِ منهجهِ فِي التفسيرِ:

أ) اعتمدَ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى التَّفسيرِ بالمأثورِ، وهوَ التَّفسيرُ بالأحاديثِ الثَّابتةِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ أقوالِ الصَّحابةِ ثمَّ التَّابعينَ فِي تفسيرِ معانِي الآياتِ؛ وقدْ كانَ يُنكرُ بشدَّةٍ علَى منْ يُفسِّرُ القرآنَ بمجرَّدِ الرَّأيِ وحسب، ولكنَّهُ يُرجِّحُ أوْ يصوِّبُ أوْ يوجِّهُ قولًا لدليلٍ معتبرٍ لديهِ، حيثُ قالَ: "أنَّ مَا كانَ منْ تأويلِ آيِ القرآنِ الذي لَا يدركُ علمهُ إلَّا بنصِّ بيانِ رسولِ اللهِ ﷺ أوْ بنصبهِ الدَّلالةِ عليهِ؛ فغيرُ جائزٍ لأحدٍ القيلُ فيهِ برأيهِ، بلِ القائلُ فِي ذلكَ برأيهِ "وإنْ أصابَ الحقَّ فيهِ فمخطئٌ فيمَا كانَ منْ فعلهِ بقيلهِ فيهِ برأيهِ، لأنَّ إصابتهُ ليستْ إصابةَ موقنٍ أنَّهُ محقٌّ، وإنَّمَا هوَ إصابةُ خارصٍ وظانٍّ، والقائلُ فِي دينِ اللهِ بالظنِّ، قائلٌ علَى اللهِ مَا لمْ يعلمْ، وقدْ حرَّمَ اللهُ جلَّ ثناؤهُ ذلكَ فِي كتابهِ علَى عبادهِ، فقالَ تعالَى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون}[سورة الأعراف: 33]، فالقائلُ فِي تأويلِ كتابِ اللهِ الذِي لَا يُدركُ علمهُ إلَّا ببيانِ رسولِ اللهِ ﷺ، الذِي جعلَ اللهُ إليهِ بيانهُ، قائلٌ بمَا لَا يعلمُ وإنْ

وافقَ قيلهُ ذلكَ فِي تأويلهِ مَا أرادَ اللهُ بهِ منْ معناهُ، لأنَّ القائلَ فيهِ بغيرِ علمٍ، قائلٌ علَى اللهِ مَا لَا علمَ لهُ بِه"[1].

ب) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يقفُ علَى الأسانيدِ، فيشتملُ تفسيرهُ علَى عددٍ كبيرٍ منَ الأحاديثِ والآثارِ المسندةِ، منهَا الصَّحيحُ والضعيفُ، وقدْ أشارَ جلالُ الدِّينِ السُّيوطِي فِي كتابهِ الإتقانُ فِي علومِ القرآنِ إلَى مواضعِ الأحاديثِ والآثارِ الضَّعيفةِ فِي التَّفسيرِ[2].

ج) يقدِّرُ رحمهُ اللهُ تعالَى الإجماعَ، ويعطيهِ اعتبارًا كبيرًا فِي اختيارِ مَا يذهبُ إليهِ ويرتضيهِ.

د) اهتمامهُ رحمهُ اللهُ تعالَى بالقراءاتِ القرآنيَّةِ، فقدْ كانَ يردُّ القراءاتِ التِي لمْ تردْ عنْ أئمَّةِ القراءاتِ المشهودِ لهمْ، وأمَّا القراءاتُ الثَّابتةُ فكانَ لهُ اختيارٌ فيهَا؛ فهوَ أحيانًا يرفضُ بعضهَا لمخالفتهَا الإجماعِ، وأحيانًا أخرَى يفضِّلُ قراءةً علَى أخرَى لوجهٍ يراهُ، ويكتفِي حينًا بالتَّسويةِ بينَ تلكَ القراءاتِ دونَ ترجيحٍ.

هـ) لمْ يكنْ يهتمُّ بتفسيرِ مَا لَا فائدةَ فِي معرفتهِ، ومَا لَا يترتَّبُ عليهِ عملٌ؛ كمعرفةِ أسماءِ أصحابِ الكهفِ، ومعرفةِ نوعِ الطَّعامِ فِي المائدةِ التِي نزلتْ علَى رسولِ اللهِ عيسَى عليهِ السَّلامُ ونحوِ ذلكَ.

(1) تفسير الطبري ج1، فصل: الأخبار في النهي عن تأويل القرآن بالرأي، صـ78،79، على موقع إسلام ويب نسخة محفوظة 22 أغسطس 2016 على موقع واي باك مشين.

(2) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، الدكتور محمد لطفي الصباغ، صـ275.

و) اهتمامهُ باللُّغةِ وعلومهَا، فقدْ كانَ يحتكمُ كثيرًا فِي تفسيرهِ عندَ التَّرجيحِ والاختيارِ إلَى المعروفِ منْ كلامِ العربِ، ويعتمدُ علَى أشعارهِمْ، ويرجعُ إلَى مذاهبهِمْ النَّحويَّةِ واللُّغويَّةِ، حيثُ قالَ فِي تفسيرهِ: "أنَّ منْ أوجهِ تأويلِ القرآنِ، مَا كانَ علمهُ عندَ أهلِ اللِّسانِ الذِي نزلَ بهِ القرآنُ".

ز) اهتمامهُ بالأحكامِ الفقهيَّةِ، فقدْ كانَ الطَّبريُّ صاحبَ مذهبٍ فقهِيٍّ، فكانَ يتعرَّضُ لآياتِ الأحكامِ ويناقشهَا ويعالجهَا، ثمَّ يختارُ منَ الأحكامِ الفقهيَّةِ مَا يراهُ أقوَى دليلًا.

ح) كانَ يتعرَّضُ لكثيرٍ منْ مسائلِ العقيدةِ، ويردُّ علَى كلِّ منْ خالفَ فيهَا مَا عليهِ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، فقالَ عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾:[1] "بمعنَى: أنَّهُ مشاهدهمْ بعلمهِ، وهوَ علَى عرشهِ"، وقالَ عندَ تفسير قولهِ تعالَى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾: "وأولَى المعانِي بقولِ اللهِ جلَّ ثناؤهُ علَا عليهنَّ وارتفعَ، فدبَّرهنَّ بقدرتهِ، وخلقهنَّ سبعَ سماواتٍ، والعجبُ ممَّنْ أنكرَ المعنَى المفهومَ منْ كلامِ العربِ فِي تأويلِ قولِ اللهِ تعالَى: "ثُمَّ اِسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ" الذِي هوَ بمعنَى العلُوُّ والارتفاعُ، هربًا عندَ نفسهِ منْ أنْ يلزمهُ بزعمهِ – إذَا تأوَّلهُ بمعناهُ المفهمِ كذلكَ – أنْ يكونَ إنَّمَا علَا وارتفعَ بعدَ أنْ كانَ تحتهَا – إلَى أنْ تأوَّلهُ بالمجهولِ منْ تأويلهِ المستنكرِ، ثمَّ لمْ ينجُ ممَّا هربَ منهُ! فيقالُ لهُ: زعمتَ أنَّ تأويلَ قولهِ "اِسْتَوَى" أقبلَ، أفكانَ مدبرًا عنِ السَّماءِ فأقبلَ إليهَا؟ فإنْ زعمَ أنَّ ذلكَ ليسَ بإقبالِ فعلٍ، ولكنَّهُ إقبالُ تدبيرٍ، قيلَ لهُ: فكذلكَ فقلْ: علَا عليهَا علوَّ ملكٍ وسلطانٍ،

(1) تفسير الطبري ، تفسير سورة المجادلة، الآية 7.

لَا علوَّ انتقالٍ وزوالٍ، ثمَّ لنْ يقولَ فِي شيءٍ منْ ذلكَ قولًا إلَّا أُلزمَ فِي الآخرِ مثلهُ، ولولَا أنَّا كرهنَا إطالةَ الكتابِ بمَا ليسَ منْ جنسهِ، لأنبأنَا عنْ فسادِ قولِ كلِّ قائلٍ قالَ فِي ذلكَ قولًا لقولِ أهلِ الحقِّ فيهِ مخالفًا، وفيمَا بيَّنَّا منهُ مَا يشرفُ بذِي الفهمِ علَى مَا فيهِ لهُ الكفايةُ إنْ شاءَ اللهُ تعالَى"[1][2]، وكانَ يردُّ علَى كثيرٍ منْ آراءِ المعتزلةِ وغيرهمْ، فيقولُ عبدُ العزيزِ بنُ محمَّدٍ الطبرِي:

"كانَ أبُو جعفرٍ يذهبُ فِي جلِّ مذاهبهِ إلَى مَا عليهِ الجماعةُ منَ السَّلفِ، وطريقِ أهلِ العلمِ المتمسِّكينَ بالسُّننِ، شديدًا عليهِ مخالفتهمْ، ماضيًا علَى منهاجهمْ، لَا تأخذهُ فِي ذلكَ ولَا فِي شيءٍ لومةَ لائمٍ، وكانَ يذهبُ إلَى مخالفةِ أهلِ الاعتزالِ فِي جميعِ مَا خالفُوا فيهِ الجماعةَ منَ القولِ بالقدرِ، وخلقِ القرآنِ وإبطالِ رؤيةِ اللهِ تعالَى فِي القيامةِ، وفِي قولهمْ بتخليدِ أهلِ الكبائرِ فِي النَّارِ، وإبطالِ شفاعةَ رسولِ اللهِ ﷺ وفِي قولهمْ إنَّ استطاعةَ الانسانِ قبلَ فعلهِ"[3].

ط) موقفهُ منَ الإسرائيلياتُ: كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يسوقُ فِي تفسيرهِ أخبارًا منَ القصصِ الإسرائيلِيَّةِ، وكانَ يتعقَّبُهَا أحيانًا بالنَّقدِ والتَّمحيصِ، وقالَ محمودُ محمَّدٌ شاكرٌ عنْ ذلكَ: "ولمَّا رأيتُ أنَّ كثيرًا منَ العلماءِ كانَ يعيبُ علَى الطَّبرِيِّ أنَّهُ حشدَ

كثيرًا منْ الرِّوايةِ عنِ السَّالفينَ الذينَ قرؤُوا الكُتبَ وذكرُوا فِي معانِي القرآنِ مَا ذكرُوا منَ الرِّواياتِ عنْ أهلِ الكتابينِ السابقينَ كالتوراةُ والإنجيلُ، أحببتُ أنْ

(1) تفسير الطبري، سورة البقرة، القول في تأويل قوله تعالى " ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ".

(2) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جـ 12، صـ 516، 517.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) جـ 6، صـ 2462.

أكشفَ عنْ طريقةِ الطبريِّ فِي الاستدلالِ بهذهِ الرِّواياتِ روايةً روايةً، وأبيِّنَ عندَ كلِّ روايةٍ مقالةَ الطبريِّ فِي إسنادهَا، وأنَّهُ إسنادٌ لَا تقومُ بهِ الحجَّةُ فِي دينِ اللهِ ولَا فِي تفسيرِ كتابهِ، وإنَّ استدلالهُ بهَا كانَ يقومُ مقامَ الاستدلالِ بالشِّعرِ القديمِ"[1].

ي) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يُجزِّئُ الآيةَ التِي يُريدُ تفسيرَهَا إلَى أجزاءٍ، فيفسِّرهَا جملةً جملةً، ويعمدُ إلَى تفسيرِ هذهِ الجملةَ، فيذكرُ المعنَى الجملِيِّ لهَا بعدهَا، أوْ يذكرهُ أثناءَ ترجيحهِ إنْ كانَ هناكَ خلافٌ فِي تفسيرهَا؛

وإذَا لمْ يكنْ هناكَ خلافٌ بينَ أهلِ التَّأويلِ فسَّرَ تفسيرًا جُمْلِيًّا، ثمَّ قالَ: "وبنحوِ الذِي قلنَا فِي ذلكَ قالَ أهلُ التَّأويلِ".

وإذَا كانَ بينَ أهلِ التَّأويلِ خلافٌ، فقدْ يذكرُ التَّفسيرَ الجمليَّ، ثمَّ ينصُّ علَى وجودِ الخلافِ، ويقولُ: "واختلفَ أهلُ التَّأويلِ فِي تأويلِ ذلكَ، فقالَ بعضهمْ فيهِ نحوَ الذِي قلنَا فيهِ".

وقدْ يذكرُ اختلافَ أهلِ التَّأويلِ بعدَ المقطعِ المفسَّرِ مباشرةً، ثمَّ يذكرُ التَّفسيرَ الجمليَّ أثناءَ ترجيحهِ.

---

(1) مقدمة محمود شاكر من تفسير الطبري، 1: 16–17، وتعليقه في 1 : 453–454.



المآخذُ علَى تفسيرِ الطَّبرِيِّ:

إنَّ الطبرِيَّ رحمهُ اللهُ تعالَى ليسَ معصومًا منَ الخطأِ، كمَا قالَ ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ رضيَ اللهُ عنهمَا: وليسَ أحدٌ بعدَ النَّبِيِّ ﷺ إلَّا يؤخذُ منْ قولهِ ويتركُ إلَّا النَّبيُّ ﷺ[1].

وكتابُ الطَّبرِيِّ الذِي بلغَ ستَّةَ آلافِ صفحة ليسَ غريبًا أنْ تردَ عليهِ بعضُ المآخذِ، وأنْ تصدرَ منهُ أخطاءٌ، والرَّسولُ ﷺ يقولُ: "كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ..."[2].

ولذلكَ لمْ يسلمْ تفسيرُ الطبرِيِّ منَ النَّقدِ، وكشفِ الأخطاءِ التِي وقعَ فيهَا، ويمكنُ إجمالهَا فيمَا يلِي:

1) لمْ يطبِّقْ الطَّبرِيُّ منهجهُ النَّقدِيَّ الكاملَ للأسانيدِ علَى جميعِ مَا جاءَ فِي التَّفسيرِ، وإنَّمَا فعلَ ذلكَ فِي بعضِ الرِّواياتِ النَّادرةِ، وتركَ غيرهَا معَ مَا فيهَا منْ أسانيدَ ضعيفةٍ، وكانَ جديرًا بهِ أنْ ينبِّهَ عليهَا.

---

(1) قال الإمام البخاري في القراءة خلف الإمام ص: 213

والوجه الثالث اذا ثبت الخبر عن النبي ﷺ وأصحابه فليس في الأسود ونحوه حجة قال ابن عباس ومجاهد ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ .

وقال أبو نعيم في حلية الأولياء ج: 3 ص: 300

حدثنا محمد بن احمد بن موسى العدوي ثنا اسماعيل بن سعيد ينوي أخبرنا سفيان عن عبدالكريم عن مجاهد قال ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ.

وقال البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى ج: 1 ص: 107

30 أخبرنا أبو بكر بن الحارث أبنا أبو محمد بن حيان ثنا ابراهيم بن محمد بن الحسن ثنا عبد الجبار ثنا سفر عن عبدالكريم عن مجاهد قال ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك من قوله إلا النبي ﷺ.

(2) «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطَّائين التوّابون ».

أخرجه ابن أبي شيبة 187/13 , وأحمد 198/3, والترمذي (2499), وابن ماجه (4251) والحاكم 272/4 وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه, والبيهقي في شعب الإيمان 420/5, والدارمي 392/2, وأبو يعلى 301/5 وعبد بن حميد 360/1.

2) حشدَ الطَّبريُّ فِي تفسيرهِ كثيرًا منَ الرِّواياتِ الإسرائيليَّةِ والنَّصرانيَّةِ، وقصصِ الوعظِ، ولَا حرجَ فِي ذلكَ، ولكنْ كانَ المفروضُ أنْ ينبِّهَ عليهَا.

3) وردَ فِي تفسيرِ الطَّبريِّ بعضُ الرِّواياتِ المتناقضةِ لابنِ عبَّاسَ رضيَ اللهُ عنهمَا، ولمْ يرجِّحْ روايةً منهَا علَى الأخرَى، ولمْ يتعرَّضْ لبيانِ الصَّوابِ منْ ذلكَ، كمَا اعترضَ بعضُ العلماءِ علَى الطَّبريِّ فِي نقدهِ لبعضِ القراءاتِ، وإبهامهِ لأسماءِ بعضِ علماءِ العربيَّةِ الذينَ أخذَ منهمْ، وأشارَ إلَى أسمائهمْ إشارةً.

وهذهِ الأخطاءُ لَا تعدُّ أخطاءً جسيمةً، والأصحُّ هيَ لَا تعدُّ أخطاءً أصلًا، فمثلَ مَا أسلفناهُ لَا ينقدهُ فيهِ إلَّا الأئمَّةُ أمثالهُ، وهيَ والحمدُ للهِ ليستْ أخطاءً فِي العقيدةِ، ولَا فِي أصولِ الدِّينِ جملةً، ولَا فِي أركانِ الإسلامِ، ولَا فِي قواعدِ الدِّينِ، ولَا فِي الأحكامِ القطعيَّةِ، ولَا فِي النُّصوصِ الثَّابتةِ ولَا فِي معاقدِ الإجماعِ.

ويبقَى تفسيرُ الطبريِ ثروةً عظيمةً، وذخيرةً منْ ذخائرِ الإسلامِ، ومصدرًا أصيلًا لكلِّ مفسِّرٍ وعالمٍ مجتهدٍ، ومرجعًا مهمًّا فِي جميعِ العلومِ اللُّغويَّةِ والعلومِ الشَّرعيَّةِ منْ علومِ القرآنِ، إلَى علومِ السُّنَّةِ، إلَى علومِ الفقهِ والعقيدةِ، والمذاهبِ الفقهيَّةِ، والتَّفسيرِ بالمأثور والاجتهاد.

فرحمَ اللهُ الإمامَ الطَّبرِي رحمةً واسعةً.



2) تفسيرُ القرآنِ العظيمِ، لمؤلِّفهِ: عمادُ الدِّينِ أبِي الفداءِ إسماعيلُ بنِ عمرَ بنِ كثيرٍ:

قالَ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ ابنِ كثيرٍ: لمْ يؤلَّفْ علَى نمطهِ مثلهُ[1].

وتفسيرهُ رحمهُ اللهُ تعالَى منَ التَّفسِيرِ بالمأثورِ، يفسِّر الآيةَ بالآيةِ فبالحديثِ فبقولِ الصَّحابةِ، وشهرتهُ تعقبُ شهرةَ الطَّبرِيِّ عندَ المتأخِّرينَ.

وتفسيرهُ سهلُ العبارةِ، جيِّدُ الصِّياغةِ، ليسَ بالطَّويلِ المملِّ، ولَا بالقصيرِ المخلِّ.

يفسِّرُ الآيةَ بالآيةِ، ويسوقُ الآياتِ المتناسبةِ معَ مَا يفسِّرهُ منَ الآياتِ، ثمَّ يسردُ الأحاديثَ الواردةَ فِي موضوعِ الآيةِ، ويسوقُ بعضَ أسانيدهَا وبخاصَّةٍ مَا يرويهِ الإمامُ أحمدُ فِي مسندهِ، وهوَ رحمهُ اللهُ تعالَى منْ حفظةِ المسندِ، ويتكلَّمُ علَى الأحاديثِ تصحيحًا وتضعيفًا غالبًا، وهيَ ميزةٌ عظيمةٌ فِي تفسيرهِ، ثمَّ يذكرُ أقوالَ السَّلفِ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، ويوفِّقُ بينَ الأقوالِ، ويستبعدُ الخلافَ الشَّاذَّ[2].

قالَ عنهُ محمَّدٌ بنُ جعفرَ الكتَّانِي: إنَّهُ مشحونٌ بالأحاديثِ والآثارِ بأسانيدِ مخرجيهَا معَ الكلامِ عليهَا صحَّةً وضعفًا[3].

---

(1)" تذكرة الحفاظ " (ص 534).

(2) موقع الاسلام سؤال وجواب محمد صالح المنجد.

(3) " الرسالة المستطرفة " (ص 195).

منهجُ ابنِ كثيرٍ فِي التَّفسيرِ:

إنَّ النَّاظرَ فِي تفسيرِ هذَا الإمامِ الحافظِ رحمهُ اللّٰهُ تعالَى، يعلمُ رسوخهُ فِي العلمِ، فقدِ امتازَ هذَا التَّفسيرُ بميزاتٍ متعدِّدةٍ توضِّحُ منهجَ الحافظِ فِي كتابهِ فمنهَا:

أ) امتازَ هذَا التَّفسيرُ بسهولةِ العبارةِ وجزالتهَا، بأسلوبٍ مختصرٍ.

ب) يذكرُ الرِّواياتِ بأسانيدهَا فِي الغالبِ، ويحكمُ علَى الرِّواياتِ فِي الغالبِ، فإنْ كانتْ ضعيفةً بيَّنَ علَّتهَا، ويسكتُ عنْ بعضِ الرِّواياتِ فلَا يذكرُ لهَا حكمًا.

ج) يفسِّرُ القرآنَ بالقرآنِ، حتَّى يتبيَّنَ المرادُ، وأحيانًا يذكرُ الآياتِ المتشابهةِ، ويذكرُ القراءاتِ، وأسبابِ النُّزولِ.

د) ثمَّ إنَّهُ فِي آياتِ الصِّفاتِ سلكَ مسلكَ الحقِّ والصَّوابِ بخلافِ كثيرٍ منَ المفسِّرينَ.

هـ) إنْ لمْ يجدْ ماَ يفسِّرهُ بالقرآنِ فسَّرهُ بسنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وينقلُ أقوالَ الصَّحابةِ رضيَ اللّٰهُ عنهمْ، ويذكرُ أقوالَ التَّابعينَ ثمَّ أتباعِ التَّابعينَ، بلْ إنَّهُ ينقلُ حتَّى عنِ الإمامِ الطَّبرِي رحمهُ اللّٰهُ تعالَى.

وقدْ بيَّنَ رحمهُ اللّٰهُ تعالَى منهجهُ فِي التَّفسيرِ فقالَ: "إنَّ أصحَّ الطُّرقِ فِي ذلكَ أنْ يفسَّرَ القرآنُ بالقرآنِ، فمَا أجملَ فِي مكانٍ فإنَّهُ قدْ فسِّرَ فِي موضعٍ آخرَ، فإنْ أعياكَ ذلكَ فعليكَ بالسُّنَّةِ فإنَّهَا شارحةٌ للقرآنِ وموضحةٌ لهُ...، وحينئذٍ، إذَا لمْ نجدِ التَّفسيرَ فِي القرآنِ ولَا فِي السُّنَّةِ، رجعنَا فِي ذلكَ إلَى أقوالِ الصَّحابةِ، فإنَّهمْ أدرَى بذلكَ، لمَا شاهدُوا منَ القرائنِ والأحوالِ التِي اختصُوا

بهَا، ولمَا لهمْ منَ الفهمِ التَّامِّ، والعلمِ الصَّحيحِ، والعملِ الصَّالحِ، لَا سيَّمَا علماؤهمْ وكبراؤهمْ، كالأئمَّةِ الأربعةِ والخلفاءِ الرَّاشدينَ، والأئمَّةِ المهديِّينَ، وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، رضيَ اللهُ عنهمُ أجمعينَ"[1].

وبيَّنَ منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى منَ الإسرائيليَّاتِ فقالَ: "هذهِ الأحاديثُ الإسرائيليَّةُ تُذكرُ للاستشهادِ، لَا للاعتضادِ، فإنَّهَا علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدهَا: مَا علمنَا صحتَّهُ ممَّا بأيدينَا ممَّا يشهدُ لهُ بالصِّدقِ، فذاكَ صحيحٌ.

والثَّانِي: مَا علمنَا كذبهُ بمَا عندنَا ممَّا يخالفهُ.

والثَّالثُ: مَا هوُ مسكوتٌ عنهُ لَا منْ هذَا القبيلِ ولَا منْ هذَا القبيلِ، فلَا نؤمنُ بهِ ولَا نكذِّبهُ، وتجوزُ حكايتهُ لمَا تقدَّمَ، وغالبُ ذلكَ ممَّا لَا فائدةَ فيهِ تعودُ إلَى أمرٍ دينِيٍّ؛ ولهذَا يختلفُ علماءُ أهلِ الكتابِ فِي هذَا كثيرًا، ويأتِي عنِ المفسِّرينَ خلافٌ بسببِ ذلكَ، كمَا يذكرونَ فِي مثلِ هذَا أسماءَ أصحابِ الكهفِ، ولونَ كلبهمْ، وعدَّتهمْ، وعصَا موسَى منْ أيِّ الشَّجرِ كانتْ؟ وأسماءَ الطُّيورِ التِي أحياهَا اللهُ لإبراهيمَ، وتعيينِ البعضِ الذِي ضُربَ بهِ القتيلُ منَ البقرةِ، ونوعِ الشَّجرةِ التِي كلَّمَ اللهُ منهَا موسَى، إلَى غيرِ ذلكَ ممَّا أبهمهُ اللهُ تعالَى فِي القرآنِ، ممَّا لَا فائدةَ فِي تعيينهِ تعودُ علَى المكلَّفينَ فِي دنياهمْ ولَا دينهمْ، ولكنَّ نقلَ الخلافِ عنهمْ فِي ذلكَ جائزٌ... فهذَا أحسنُ مَا يكونُ فِي حكايةِ الخلافِ: أنْ تستوعبَ الأقوالَ فِي ذلكَ المقامِ، وأن تُنبِّهَ علَى الصَّحيحِ منهَا وتُبطلُ الباطلَ، وتذكرُ فائدةَ الخلافِ وثمرتهِ؛ لئلَّا يطولَ النِّزاعُ والخلافُ فيمَا لَا فائدةَ تحتهُ، فتشتغلُ بهِ عنِ الأهمِّ فالأهمِّ، فأمَّا منْ حكَى خلافًا فِي مسألةٍ ولمْ يستوعبْ أقوالَ النَّاسِ فيهَا فهوَ ناقصٌ، إذْ قدْ يكونُ الصَّوابُ فِي

(1) تفسير ابن كثير (1/ 7)، بتصرف يسير.

الذِي تركهُ، أوْ يحكِي الخلافَ ويطلقهُ ولَا ينبِّهُ علَى الصَّحيحِ منَ الأقوالِ، فهوَ ناقصٌ أيضًا، فإنْ صحَّحَ غيرَ الصَّحيحِ عامدًا فقدْ تعمَّدَ الكذبَ، أوْ جاهلًا فقدْ أخطأَ، وكذلكَ منْ نصبَ الخلافَ فيمَا لَا فائدةَ تحتهُ، أوْ حكَى أقوالاً متعدِّدةً لفظًا ويرجعُ حاصلهَا إلَى قولٍ أوْ قولينِ معنًى، فقدْ ضيَّعَ الزَّمانَ، وتكثَّرَ بمَا ليسَ بصحيحٍ، فهوَ كلابسِ ثوبَيْ زورٍ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ"[1].

ثمَّ بيَّنَ أنَّهُ إذَا لمْ يجدِ التَّفسيرَ فِي القرآنِ ولَا فِي السُّنَّةِ ولَا وجدهُ عنِ الصَّحابةِ فإنَّهُ يرجعُ إلَى أقوالِ التَّابعينَ، خاصَّةً كبارهمْ، فقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: إذَا لمْ تجدِ التَّفسيرَ فِي القرآنِ ولَا فِي السُّنَّةِ ولَا وجدتهُ عنِ الصَّحابةِ، فقدْ رجعَ كثيرٌ منَ الأئمَّةِ فِي ذلكَ إلَى أقوالِ التَّابعينَ، كمجاهدِ بنِ جبرٍ فإنَّهُ كانَ آيةً فِي التَّفسيرِ...، ولهذَا كانَ سفيانُ الثَّورِيُّ يقولُ: إذَا جاءكَ التَّفسيرُ عنْ مجاهدٍ فحسبكَ بهِ"، وكسعيدِ بنِ جبيرٍ، وعكرمةَ مولَى ابنِ عبَّاسَ، وعطاءِ بنِ أبِي رباحٍ، والحسنِ البصرِيُّ، ومسروقِ ابنِ الأجدعِ، وسعيدِ بن المسيَّبِ، وأبِي العاليةَ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، وقتادةَ، والضحَّاكِ بنِ مزاحمٍ،

وغيرهمْ منَ التَّابعينَ وتابعيهمْ ومنْ بعدهمْ، فتذكرُ أقوالهمْ
فِي الآيةِ فيقعُ فِي عباراتهمْ تباينٌ فِي الألفاظِ، يحسبهَا منْ لَا علمَ عندهُ اختلافًا فيحكيهَا أقوالًا وليسَ كذلكَ، فإنَّ منهمْ منْ يعبِّرُ عنِ الشَّيءِ بلازمهِ أوْ بنظيرهِ، ومنهمْ منْ ينصُّ علَى الشَّيءِ بعينهِ، والكلُّ بمعنًى واحدٍ فِي كثيرٍ منَ الأماكنِ، فليتفطَّنُ اللَّبيبُ لذلكَ، واللهُ الهادِي"[2].

(1) تفسير ابن كثير (1/ 9).

(2) تفسير ابن كثير (10/1)، بتصرف يسير.

ثمَّ ذكرَ قولَ شعبةَ بنِ الحجَّاجِ وغيرِهِ بأنَّ "أقوالَ التَّابعينَ فِي الفروعِ ليستْ حجَّةً" يعنِي: أنَّهَا لَا تكونُ حجَّةً علَى غيرهِمْ ممَّنْ خالفهمْ، وهذَا صحيحٌ، أمَّا إذَا أجمعُوا علَى الشَّيءِ فلَا يرتابُ فِي كونهِ حجَّةً، فإنِ اختلفُوا فلَا يكونُ بعضهمْ حجَّةً علَى بعضٍ، ولَا علَى منْ بعدهمْ، ويُرجعُ فِي ذلكَ إلَى لغةِ القرآنِ أوِ السُّنَّةِ أوْ عمومِ لغةِ العربِ، أوْ أقوالِ الصَّحابةِ فِي ذلكِ"[1].

وبيَّنَ رأيهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ القرآنِ بمجرَّدِ الرَّأيِ وأنَّ هذَا حرامٌ لَا يجوزُ[2].

(1) تفسير ابن كثير (10/1)، بتصرف يسير.

(2) انظر: المصدر السابق (10/1).

المآخذُ علَى تفسيرِ ابنِ كثيرٍ:

تفسيرُ الحافظِ ابنِ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى منْ أنفعِ التَّفاسيرِ وأحسنهَا، فقدْ قالَ العلَّامةُ أحمدُ شاكرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى عنهُ: " فإنَّ تفسيرَ الحافظِ ابنِ كثيرٍ أحسنُ التَّفاسيرِ التِي رأينَا، وأجودهَا وأدقّهَا بعدَ تفسيرِ إمامِ المفسِّرينَ أبِي جعفرٍ الطبرِي"[1].

إلَّا أنَّ ابنَ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى غيرُ معصومٍ وقدْ صدقَ قولُ العلَّامةِ ابنُ رجبٍ رحمهُ اللهُ تعالَى حينَ قالَ: " ويأبَى اللهُ العصمةَ لكتابٍ غيرَ كتابهِ"[2].

وقدْ وهمَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مواقعَ فِي تفسيرهِ منهَا قولهُ:" فأمَّا الحديثُ الآخرُ فِي الصَّحيحينِ "ألَا أخبركمْ بشرِّ الشهداءِ؟ الذينَ يشهدونَ قبلَ أنْ يستشهدُوا".

هكذَا قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى، وهذَا وهمٌ منهُ، فهذَا الحديثُ ليسَ موجودًا فِي الصَّحيحينِ، ولذلكَ علّقَ العلَّامةُ الألبانِيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى ذلكَ حيثُ قالَ: "وقدْ وهمَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ وهمًا فاحشًا فِي آخرِ تفسيرِ سورةِ "البقرةِ"؛ فذكرَ أنَّهُ "فِي الصَّحيحينِ"[3].

وهذهِ الأخطاءُ يقعُ فيهَا كلُّ عالمٍ، فالمآخذُ التِي فِي كتابِ ابنِ كثيرٍ منْ هذَا النَّوعِ، ويبقَى كتابُ ابنِ كثيرٍ كتابُ تفسيرٍ بالمأثورِ موازيًا لتفسيرِ الطَّبرِيِّ أوْ بعدهُ، وهوَ ثروةٌ إسلاميَّةٌ لَا يُستغنَى عنهَا بحالٍ، فرحمَ الله ابنَ كثيرٍ.

(1) عمدة التفسير (1/ 9)، الطبعة الثانية، 1426هـ – 2005م، نشر دار الوفاء، دار ابن حزم.

(2) القواعد لابن رجب.

(3) السلسلة الظَّعيفة.



3) معالمُ التَّنزيلِ لمؤلِّفهِ الحسينُ بن مسعودٍ بن محمَّدٍ المعروفِ بالفرَّاءِ البغوِي:

سُئِلَ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميَّةُ ... أيُّ التَّفاسيرِ أقربُ إلَى الكتابِ والسُّنَّةِ؟ الزَّمخشرِي؟ أمِ القرطبِي؟ أمِ البغوِي؟ أوْ غيرِ هؤلاءِ؟

قالَ: ... وأمَّا التَّفاسيرُ الثَّلاثةُ المسئولُ عنهَا فأسلمهَا منَ البدعةِ والأحاديثِ الضَّعيفةِ "البغوِي"، لكنَّهُ مختصرٌ منْ تفسيرِ الثَّعلبِي وحذفَ منهُ الأحاديثَ الموضوعةَ، والبدعَ التِي فيهِ، وحذفَ أشياءَ غيرَ ذلكَ[1].

(1) مجموع الفتاوى صـ 385.

منهجُ البغويِّ فِي تفسيرِه، والباعثُ علَى تأليفهِ لكتابِ (معالمِ التَّنزيلِ):

كتابُ معالمِ التَّنزيلِ يُعدُّ منْ أشهرِ كتبِ التَّفسيرِ بالمأثورِ، وهوَ تفسير لكلِّ القرآنِ معَ مقدمَّةٍ للمؤلِّفِ يستهلُّهَا بحمدِ اللهِ والصَّلاةِ والسَّلامِ علَى رسولهِ، ثمَّ يبيِّنُ مهمَّةَ إرسالِ الرَّسولِ ﷺ وإنزالِ الكتابِ المعجزِ عليهِ، ثمَّ يذكرُ مَا اشتملَ عليهِ القرآنُ منَ الأمورِ عقيدةً وفقهًا وقصصًا وحكمًا.

ثمَّ ينتقلُ إلَى دواعِي تأليفهِ لتفسيرهِ فيقولُ: (فسألنِي جماعةٌ منْ أصحابِي المخلصينَ وعلَى اقتباسِ العلمِ مقبلينَ، كتابًا فِي معالمِ التَّنزيلِ وتفسيرهِ، فأجبتهمْ إليهِ معتمدًا علَى فضلِ اللهِ تعالَى وتيسيرهِ ممتثلًا وصيَّة رسولِ اللهِ ﷺ فيهمْ، فيمَا يرويهِ أبُو سعيدِ الخدرِي أنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ: (إنَّ رجالاً يأتونكمْ منْ أقطارِ الأرضِ يتفقَّهونَ فِي الدِّينِ، فإذَا أتوكمْ فاستوصُوا بهمْ خيرًا)[1].

ويقدِّمُ البغويُّ بعدَ ذلكَ الطَّريقةَ التِي اختارهَا وجعلَ عليهَا تفسيرهُ وهيَ التَّوسُّطُ والاعتدالُ فيقولُ: (فجمعتُ بعونِ اللهِ تعالَى وحسنِ توفيقهِ فيمَا سألُوا كتابًا متوسِّطًا بينَ الطَّويلِ المملِّ والقصيرِ المخلِّ، أرجُو أنْ يكونَ مفيدًا لمنْ أقبلَ علَى تحصيلهِ).

ثمَّ يبيِّنُ البغويُّ معنَى التَّفسيرِ والتَّأويلِ والفرقِ بينهمَا ومعنَى نزولِ القرآنِ علَى سبعةِ أحرفٍ، ثمَّ ينطلقُ إلَى تفسيرِ كتابِ اللهِ تعالَى سورةً سورةً، منْ سورةِ الفاتحةِ حتَّى سورةِ النَّاسِ[2].

---

(1) تحفة الأحوذي 346

(2) (البغوي ومنهجه في التفسير) عفاف عبدالغفور.

وللبغويِّ منهجٌ متميِّزٌ فِي التَّفسيرِ، حيثُ يعتمدُ علَى عناصرَ أساسيَّةٍ وهيَ: اعتمادهُ علَى المأثورِ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ وأقوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، معَ عنايتِهِ بالقراءاتِ واللُّغةِ والنَّحوِ بإيجازٍ يحقِّقُ فهمَ الآياتِ، وذكرِهِ لمسائلِ العقيدةِ والأحكامِ الفقهيَّةِ بطريقةٍ مختصرةٍ، وهذَا تفصيلُ منهجِهِ فِي التَّفسيرِ.

أ) تفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ:

يعتمدُ تفسيرُ (معالمِ التَّنزيلِ) علَى كتابِ اللهِ تعالَى اعتمادًا كبيرًا، وهناكَ منَ الأمثلةِ فِي تفسيرِهِ الكثيرُ.

ب) تفسيرُ القرآنِ بالسُّنَّةِ:

يُعتبرُ الإمامُ البغويُّ محيي السُّنَّةِ وأبرزِ أعلامِ عصرِهِ فِي ميدانِ الحديثِ والسُّنَّةِ، ولمْ يزلْ كذلكَ فِي العصورِ التَّاليةِ لمَا تركهُ منْ آثارٍ ومؤلَّفاتٍ نفيسةٍ فِي السُّنَّةِ النَّبويَّةِ وعلَى رأسهَا (مصابيحُ السُّنَّةِ) و(شرحُ السُّنَّةِ).

ويتميَّزُ البغويُّ فِي تفسيرِهِ بجودةِ اختيارِهِ وانتخابِهِ لنصوصِ الحديثِ التِي يوردهَا فِي مطاوِي التَّفسيرِ وتحرِّيهِ، وحرصِهِ علَى الصَّحيحِ منهَا، وبُعدِهِ وإعراضِهِ عنِ الضَّعيفِ والمنكرِ منَ الأحاديثِ ممَّا لَا يتناسبُ ولَا يتفِّقُ معَ تفسيرِ كتابِ اللهِ تعالَى، وحولَ هذَا يقولُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مقدِّمةِ تفسيرِهِ: (ومَا ذكرتُ منْ أحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فِي أثناءِ الكتابِ علَى وفاقِ آيةٍ أوْ بيانِ حكمٍ، فهيَ منَ الكتابِ المسموعةِ للحفَّاظِ وأئمَّةِ الحديثِ، وأعرضتُ عنْ ذكرِ المناكيرِ ومَا لَا يليقُ بحالِ التَّفسيرِ)[1].

(1) مقدِّمة تفسير البغوي.

ج) حرصهُ فِي تفسيرهِ علَى المأثورِ منْ أقوالِ الصَّحابةِ والتابعينَ:

جاءَ تفسيرُ الإمامِ البغوِيِّ فضلاً عنِ اعتمادهِ علَى الكتابِ والسُّنَّةِ اعتمادًا ظاهرًا، معتمدًا علَى المأثورِ منْ تفسيرِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وهوَ اعتمادٌ يكادُ يكونُ مطلقًا،

ومقدِّمةُ تفسيرهِ تكشفُ لنَا بوضوحٍ عنِ اتِّجاههِ النقلِيِّ فِي تفسيرِ آياتِ كتابِ اللهِ تعالَى، فمصادرُ تفسيرهِ فِي المقامِ الأوَّلِ: كتبُ التَّفسيرِ بالمأثورِ وقدْ بلغتْ مصادرهُ فِي المأثورِ والأخبارِ خمسةَ عشرَ مصدرًا، منهَا: ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدُ بنُ جبرٍ، وعطاءُ بنُ أبِي رباحٍ، والحسنُ البصرِيِّ، وقتادةُ، وأبُو العاليةَ، والقُرظِي، وزيدِ بنِ أسلمٍ، والكلبِيِّ، والضَّحاكِ، ومقاتلِ بنِ سليمانَ...

المآخذُ علَى تفسيرِ البغويِّ:

تقريبًا أشادَ بتفسيرِ البغويِّ جميعُ العلماءِ، منهمُ الإمامُ الذهبِي[1] إلَّا أنَّ الانتقادَ الأساسِيَّ علَى تفسيرِهِ كانَ بأخذهِ بالإسرائيليَّاتِ فِي بعضِ المواضعِ.

ولأهميَّةِ الكتابِ فِي علمِ التَّفسيرِ قامَ بعضُ العلماءِ باختصارهِ، وآخرونَ اقتبسُوا منهُ أجزاءً لكتبهِمْ.

ومنْ ذلكَ أنْ قامَ علاءُ الدِّينِ عليٌّ بنُ إبراهيمَ (المعروفِ بالخازنِ، المتوفِّي سنةَ 725) بكتابةِ تفسيرهِ "لبابُ التَّأويلِ" مختصرًا منْ كتابِ معالمِ التَّنزيلِ للبغوِيِّ، وقدْ أضافَ عليهِ مَا كانَ يراهُ ملائمًا.

كمَا استفادَ منهُ برهانُ الدِّينِ الزَّركشِي عندَ كتابةِ كتابهِ "البرهانُ".

---

(1) طبقات الحفاظ، ص 457.



4) تفسيرُ القرآنِ العظيمِ، لمؤلِّفهِ ابنِ أبِي حاتمٍ الرَّازِي:

قدِ احتلَّ تفسيرُ الإمامِ ابنُ أبِي حاتمٍ مكانةً مرموقةً بينَ كتبِ التَّفسيرِ بالمأثورِ، وأثنَى عليهِ أهلُ العلمِ ثناءً عطرًا، ومنْ أقولهمْ فيهِ:

قالَ الإمامُ الذَّهبِي: "قلَّ أنْ يُوجدَ مثلهُ"[(1)].

ونعَتهُ أيضًا بأنَّهُ: "منْ أحسنِ التَّفاسيرِ"[(2)].

وقالَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ: "ولهُ (التَّفسيرُ) الحافلُ الذِي اشتملَ علَى النَّقلِ الكاملِ، الذِي يُرْبِي فيهِ علَى (تفسيرِ ابنِ جريرٍ) وغيرهِ منَ المفسِّرينَ"[(3)].

وقالَ العلَّامةُ ابنُ قاضِي شهبةَ: "صنَّفَ الكتبَ المهمَّةَ، كالتَّفسيرِ الجليلِ المقدارِ"[(4)] (يقصدُ تفسيرَ القرآنِ العظيمِ).

وقالَ الإمامُ الزَّرْكَشِي: "ثُمَّ إنَّ محمَّدَ بنِ جريرٍ الطَّبرِي جمعَ علَى النَّاسِ أشتاتَ التَّفاسيرِ وقرَّبَ البعيدَ، وكذلكَ عبدُ الرَّحمنِ بنِ أبِي حاتمٍ الرَّازِي"[(5)].

---

(1) «تاريخ الإسلام» (7/534).

(2) «سير أعلام النبلاء» (13/264).

(3) «البداية والنهاية» (15/113).

(4) «طبقات الشَّافعية» (1/79).

(5) «البرهان في علوم القرآن» (2/159).

منهجُ ابن أبي حاتمٍ فِي تفسيرِه:

فسَّرَ ابنُ أبِي حاتمٍ القرآنَ كلَّهُ، محاولًا أنْ يجعلَ منْ تفسيرِه مدوَّنةً كبيرةً للتَّفسيرِ المأثورِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، والصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهمْ، والتَّابعينَ وأتباعِ التَّابعينَ وتبعِ أتباعِ التَّابعينَ، وقدِ اقتصرَ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى المرويَّاتِ التَّفسيريَّةِ المأثورةِ بأصحِّ الأسانيدِ التِي بلغتهُ.

ومنْ هنَا يمكننَا اعتبارُ تفسيرِ ابنِ أبِي حاتمٍ موسوعةً للتَّفسيرِ المأثورِ المُسندِ، كمَا يعتبرُ مصدرًا مهمًّا للتُّراثِ التَّفسيرِي المفقودِ، حيثُ أنَّهُ عملَ علَى جمعِ تفاسيرِ أعلامِ المفسِّرينَ منَ السَّلفِ الصَّالحِ الذينَ ضاعتْ أصولهمْ التَّفسيريَّةُ، ليصبحَ تفسيرُ ابنِ أبِي حاتمٍ منَ المصادرِ القليلةِ التِي احتفظتْ بهذهِ الدُّررِ النَّفيسةِ.

وفضلًا عنِ التَّفسيرِ فابنُ أبِي حاتمٍ هوَ صاحبُ المؤلَّفِ الشَّهيرِ فِي الجرحِ والتَّعديلِ، الذِي طبعَ بالهندِ.

يقولُ ابنُ أبِي حاتمٍ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ أسبابِ تأليفهِ لهذَا التَّفسيرِ، والطَّريقةِ التِي سلكهَا فيهِ: "سألنِي جماعةٌ منْ إخوانِي إخراجَ تفسيرِ القرآنِ مختصرًا بأصحِّ الأسانيدِ، وحذفِ الطُّرقِ والشَّواهدِ والحروفِ والرِّواياتِ، وتنزيلِ السُّورِ، وأنْ نقصدَ لإخراجِ التَّفسيرِ مجرَّدًا دونَ غيرهِ، متقصٍّ تفسيرَ الآيِ حتَّى لَا نتركَ حرفًا منَ القرآنِ يوجدُ لهُ تفسيرٌ إلَّا أخرجَ ذلكَ، فأجبتهمْ إلَى مُلتمسهمْ، وباللهِ التَّوفيقُ، وإيَّاهُ نستعينُ، ولَا حولَ ولَا قوَّة إلَّا باللهِ.

فتحرَّيتُ إخراجَ ذلكَ بأصحِّ الأخبارِ إسنادًا، وأشبعهَا متنًا، فإذَا وجدتُ التَّفسيرَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لمْ أذكرْ معهُ أحدًا منَ الصَّحابةِ ممَّنْ أتَى بمثلِ ذلكَ، وإذَا وجدتهُ عنِ الصَّحابةِ فإنْ كانُوا متَّفقينَ ذكرتهُ عنْ أعلاهمْ درجةً بأصحِّ الأسانيدِ، وسمَّيتُ موافقيهمْ بحذفِ الإسنادِ، وإنْ كانُوا مختلفينَ ذكرتُ اختلافهمْ وذكرتُ لكلِّ واحدٍ منهمْ إسنادًا، وسمَّيتُ موافقيهمْ بحذفِ الإسنادِ، فإنْ لمْ أجدْ عنِ الصَّحابةِ ووجدتهُ عنِ التَّابعينَ عملتُ فيمَا أجدُ عنهمْ مَا ذكرتهُ منَ المثالِ فِي الصَّحابةِ، وكذَا أجعلُ المثالَ فِي أتباعِ التَّابعينَ وأتباعهمْ، جعلَ اللهُ ذلكَ لوجههِ خالصًا ونفعَ بهِ"[1] .

كمَا استدركَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مقدِّمةِ تفسيرهِ سندَ بعضَ أعلامِ التَّفسيرِ الذينَ كثرتْ الرِّوايةُ عنهمْ، ومنْ ثمَّ فإنَّهُ لمْ يذكرْ سندهمْ عندَ ورودِ كلِّ مرويَّةٍ منْ مرويَّاتهمْ، وذلكَ توخيًّا للاختصارِ وعدمِ التِّكرارِ فقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى:

"فأمَّا مَا ذكرنَا عنْ أبِي العاليةِ فِي سورةِ البقرةِ بلَا إسنادٍ فهوَ مَا حدَّثنَا عصامُ بنِ روادٍ العسقلانِي ثنَا آدمُ عنْ أبِي جعفرٍ الرَّازِي عنِ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ عنْ أبِي العاليةِ.

ومَا ذكرنَا فيهِ عنِ السَّدِي بلَا إسنادٍ فهوَ مَا حدَّثنَا أبُو زرعةَ ثنَا عمرٌو بنِ حمَّادَ بنِ طلحةَ ثنَا أسباطٌ عنِ السَّدِي.

ومَا ذكرنَا عنِ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ بلَا إسنادٍ فهوَ مَا حدَّثنَا أحمدُ بنِ عبدِ الرَّحمنِ الدَّشتكِي ثنَا عبدُ اللهِ بنِ أبِي جعفرٍ عنِ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ.

(1) (مقدمة تفسير ابن أبي حاتم الرازي).

ومَا ذكرنَا فيهِ عنْ مقاتلٍ فهوَ مَا قرأتُ علَى محمَّدٍ بنِ الفضلِ بنِ موسَى عنْ محمَّدٍ بنِ عليٍّ بنِ الحسينِ بنِ شقيقٍ عنْ محمَّدٍ بنِ مزاحمٍ عنْ بكيرٍ بنِ معروفٍ عنْ مقاتلٍ[1].

ويمكننَا أنْ نوجزَ منهجَ ابنِ أبِي حاتمٍ الرَّازِي فِي الخطواتِ المنهجيَّةِ التَّاليةِ:

أ) يذكرُ الآيةَ موضوعَ التَّفسيرِ.

ب) يذكرُ السَّندَ كاملًا.

ج) يذكرُ المرويَّةَ التَّفسيريَّةَ.

د) كمَا أنَّ لهُ طريقةً لَا تكادُ تتخلفُ فِي ترتيبِ المرويَّاتِ التَّفسيريَّةِ، حيثُ يبدأُ بالأحاديثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ، ويعقبهَا بمرويَّاتِ الصَّحابةِ فالتَّابعينَ فأتباعِ التَّابعينَ، فتبعِ أتباعِ التَّابعينَ.

---

(1) (مقدمة تفسير ابن أبي حاتم الرازي).

مِنَ المآخذِ علَى تفسيرِ ابنِ أبِي حاتمٍ:

أنَّهُ لَا يبدأُ بتفسيرِ الآيةِ ثمَّ يوردُ الأحاديثَ النَّبويَّةَ الشَّريفةَ ومرويَّاتِ السَّلفِ فِي التَّفسيرِ الموافقةِ للمعنَى الذِي يراهُ، كمَا أنَّهُ لَا يرجِّحُ بينَ هذهِ المرويَّاتِ، ولَا يذكرُ أحوالَ السَّندِ، ممَّا جعلَ بعضَ مرويَّاتهِ تتَّسمُ بالضَّعفِ، وأحيانًا بالضَّعفِ الشَّديدِ، ومنهَا الضَّعيفُ الذي لَا ينجبرُ، ممَّا يحتِّمُ النَّظرَ فِي أحوالِ السَّندِ توخيًّا لأصحِّ المرويَّاتِ التَّفسيريَّةِ.

ومعَ هذَا فقدْ تقدَّمَ جهابذةُ العلمِ منَ المعاصرينَ فحقَّقوا تلكَ الأسانيدِ، فميَّزوا الصَّحيحَ منهَا منَ الضَّعيفِ، والمحفوظَ منهَا منَ الشَّاذِ، والمعلولَ منهَا منَ السَّليمِ، فكانَ تفسيرُ ابنُ أبِي حاتمٍ بذلكَ تفسيرًا آيةً فِي الإبداعِ، وتعرفُ منهُ تمكينَ صاحبهِ منْ هذَا الفنِّ، ومنَ القلمِ تعرفُ صاحبَهُ.



5) الجامعُ لأحكامِ القرآنِ، والمبيِّنِ لمَا تضمَّنَ منَ السُّنَّةِ وأحكامِ الفرقانِ لمؤلِّفهِ: محمَّدٌ بنُ أحمدَ بنِ أَبِي بكرٍ بنِ فرْحٍ القرطبِيِّ:

سُئِلَ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ أيِّ التَّفاسيرِ أقربُ إلَى الكتابِ والسُّنَّةِ: الزَّمخشرِي، أَمِ القرطبِي، أَمِ البغوِي، أمْ غيرِ هؤلاءِ؟

فأجابَ رحمهُ اللهُ تعالَى: .... وأمَّا الزَّمخشرِيُّ فتفسيرهُ محشوٌّ بالبدعةِ، وعلَى طريقةِ المعتزلةِ منْ إنكارِ الصِّفاتِ، والرُّؤيةِ، والقولِ بخلقِ القرآنِ، وأنكرَ أنَّ اللهَ مريدٌ للكائناتِ، وخالقٌ لأفعالِ العبادِ، وغيرَ ذلكَ منْ أصولِ المعتزلةِ ... وتفسيرُ القرطبِي خيرٌ منهُ بكثيرٍ، وأقربُ إلَى طريقةِ أهلِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وأبعدَ عنِ البدعِ وإنْ كانَ كلٌّ منْ هذهِ الكتبِ لَا بدَّ أنْ يشتملَ علَى مَا يُنقدُ، لكنْ يجبُ العدلُ بينهَا وإعطاءُ كلُّ ذِي حقٍّ حقَّهُ ...[1].

ويمتازُ القرطبِي فِي تفسيرهِ: بعدمِ التَّعصُّبِ لمذهبٍ فقهِيٍّ معيَّنٍ، خاصَّةً مَا يتعلَّقُ بالمذهبِ المالكِي، فنجدُهُ فِي بعضِ المسائلِ يسوقُ رأيَ الإمامِ مالكٍ ثمَّ يرجِّحُ غيرهُ ممَّا يدلُّ عليهِ الدَّليلُ[2].

(1) مقدمة في أصول التفسير، صفحة41.

(2) كتاب التَّفسير مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية/محمد صالح المنجد.

منهجُ القرطبِي فِي التَّفسيرِ:

قدَّمَ المؤلِّفُ لتفسيرِهِ مقدِّمةً حافلةً ببيانِ فضائلِ القرآنِ وآدابِ حملتهِ، ومَا ينبغِي لصاحبِ القرآنِ أنْ يأخذَ نفسهُ بهِ، ثمَّ أوضحَ مقصدهُ وباعثهُ علَى كتابةِ هذَا التَّفسيرِ بقولهِ: "وعملتهُ تذكرةً لنفسِي، وذخيرةً ليومِ رَمْسِي، وعملاً صالحًا بعدَ موتِي"[1]، وقدِ التزمَ القرطبِيُّ فِي هذَا التَّفسيرِ الأمانةَ العلميَّةَ، والموضوعيَّةَ فِي الإفادةِ منْ أسلافهِ؛ فقالَ: "وشرطِي فِي هذَا الكتابِ إضافةُ الأقوالِ إلَى قائليهَا، والأحاديثِ إلَى مصنِّفيهَا، فإنَّهُ يقالُ: منْ بركةِ العلمِ أنْ يضافَ القولُ إلَى قائلهِ"[2]، وكانَ لَا يقفُ فِي تفسيرِ القرآنِ عندَ حدِّ مَا رُوِيَ منْ ذلكَ عنِ الرَّسولِ ﷺ والسَّلفِ الصَّالحِ، بلْ يتَّخذُ مَا أُوتيهُ منْ أدواتِ العلمِ وسيلةً يستعينُ بهَا علَى فهمهِ، وكانَ يقصدُ إلَى تفسيرِ القرآنِ الكريمِ ببيانِ التَّعبيرِ القرآنِي وأسرارهِ ومنزلتهِ منَ الكلامِ العربِي، ومنْ هنَا عُنِيَ باللُّغاتِ والإعرابِ والقراءاتِ؛ فكانَ يوردُ الآيةَ أوِ الآياتِ ويفسِّرهَا بمسائلَ يجمعهَا فِي أبوابٍ، فيقولُ مثلاً: تفسيرُ سورةِ الفاتحةِ، وفيهِ أربعةُ أبوابٍ؛ البابُ الأوَّلُ: فِي فضلهَا وأسمائهَا، وفيهِ سبعُ مسائلَ ويذكرهَا، البابُ الثَّانِي: فِي نزولهَا وأحكامهَا، وفيهِ عشرونَ مسألةً، البابُ الثَّالثُ: فِي التَّأمينِ، وفيهِ ثمانِي مسائلَ، البابُ الرَّابعُ: فيمَا تضمَّنتهُ الفاتحةُ منَ المعانِي والقراءاتِ والإعرابِ، وفضلِ الحامدينَ، وفيهِ ستٌّ وثلاثونَ مسألةً، وهكذَا، وتارةً يكونُ التَّفسيرُ بمسائلَ يعدُّهَا علَى نحوِ مَا تقدَّمَ منْ دونِ فتحِ بابٍ، ولَا ذكرِ عنوانٍ.

---

(1) رحمة الله الكيرانوي: إظهار الحق 2/395– 397. والبغدادي: هدية العارفين 2/56– 326.

(2) السَّابق.

وكانَ القرطبِيُّ فِي هذهِ المباحثِ أوِ المسائلِ ينتقلُ منْ تفسيرِ المفرداتِ اللُّغويَّةِ وإيرادِ الشَّواهدِ الشِّعريَّةِ، إلَى بحثِ اشتقاقِ الكلماتِ ومآخذهَا، إلَى تصريفهَا وإعلالهَا، إلَى تصحيحهَا وإعرابهَا، إلَى مَا قالهُ أئمَّةُ السَّلفِ فيهَا، إلَى مَا يختارهُ المؤلِّفُ أحيانًا منْ معانيهَا، وأحسنَ المؤلِّفُ كلَّ الإحسانِ بعزوِ الأحاديثِ إلَى مخرِّجيهَا منْ أصحابِ الكتبِ السِّتَّةِ وغيرهِمْ، وقدْ يتكلَّمُ علَى الحديثِ متنًا وسندًا، قبولاً وردًّا[1].

وكانَ القرطبِيُّ يبيِّنُ أسبابَ النُّزولِ، ويذكرُ القراءاتِ واللُّغاتِ ووجوهِ الإعرابِ، وتخريجِ الأحاديثِ، وبيانِ غريبِ الألفاظِ، وتحديدِ أقوالِ الفقهاءِ، وجمعِ أقاويلِ السَّلفِ، ومنْ تبعهمْ منْ الخلفِ؛ ثمَّ أكثرَ منَ الاستشهادِ بأشعارِ العربِ، ونقلِ عمَّنْ سبقهُ فِي التَّفسيرِ، معَ تعقيبهِ علَى مَا يُنقلُ عنهُ، مثلَ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيَّةَ، وابنِ العربِي، وإلْكِيَا الهرَّاسِي، وأبِي بكرٍ الجصَّاصِ، وأضْربَ عنْ كثيرٍ منْ قصصِ المفسِّرينَ، وأخبارِ المؤرِّخينَ والإسرائيلياتِ، وذكرَ جانبًا منهَا أحيانًا؛ كمَا ردَّ علَى الفلاسفةِ والمعتزلةِ وغلاةِ المتصوِّفةِ وبقيَّةِ الفرقِ، ويذكرُ مذاهبَ الأئمَّةِ ويناقشهَا، ويمشِي معَ الدَّليلِ، ولَا يتعصَّبُ لمذهبهِ المالكِي، وقدْ دفعهُ الإنصافُ إلَى الدِّفاعِ عنِ المذاهبِ والأقوالِ التِي نالَ منهَا ابنُ العربِي المالكِي فِي تفسيرهِ، فكانَ القرطبِي حُرًّا فِي بحثهِ، نزيهًا فِي نقدهِ، عفيفًا فِي مناقشةِ خصومهِ، وفِي جدلهِ، معَ إلمامهِ الكافِي بالتَّفسيرِ منْ جميعِ نواحيهِ، وعلومِ الشَّريعةِ.

---

(1) مشهور حسن محمود سلمان: الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير ص104– 109.

المآخذُ علَى تفسيرِ القرطبِي:

تفسيرُ القرطبِي اجمالًا هوَ أصلٌ منْ أصولِ أهلِ السُّنَّةِ، إلَّا أنَّ البعضَ رفضَ اعتمادهُ، هذَا لنزعةِ القرطبِي الأشعريَّةِ، ولكنْ هذَا لَا يردُّ كتابهُ فقدْ سُئِلَ الإمامُ ابنُ بازٍ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ تفسيرِ القرطبِي فقالَ: ... كذلكَ تفسيرُ القرطبِي، تفسيرٌ مفيدٌ وجيِّدٌ، ولكنْ مثلَ غيرهِ، يؤخذُ منْ قولهِ ويتركُ، مَا خالفَ الدَّليلَ يتركُ، منْ كلامِ القرطبِي أوِ ابنِ جريرٍ أوِ ابنِ كثيرٍ أوْ غيرهمْ، كلُّ مفسِّرٍ قدْ يقعُ لهُ بعضُ الأخطاءِ، قدْ يصحِّحُ بعضَ الأحاديثِ الضَّعيفةِ، قدْ يضعفُ بعضَ الأحاديثِ الصَّحيحةِ، إمَّا لكونهِ تكلَّمَ منْ حفظهِ فغلطَ، أوْ لأنَّهُ نسيَ مَا سبقَ لهُ أنْ علمهُ فِي شأنِ هذَا الحديثِ أوْ شأنِ هذَا الحكمِ، فأهلُ العلمِ يعرضونَ مَا ذكرهُ علماءُ التَّفسيرِ وغيرهمْ علَى الكتابِ والسُّنَّةِ، فمَا وافقَ الحقَّ قُبلَ منَ القرطبِي وغيرهِ ومَا خالفهُ رُدَّ، وليسَ بمعصومٍ لَا هوَ ولَا غيرهُ منْ أهلِ العلمِ منْ أهلِ التَّفسيرِ وغيرهمْ، ولكنَّ كتابهُ مفيدٌ جدًّا كثيرُ الفائدةِ قدْ عنِيَ فيهِ بالأدلَّةِ والأحكامِ، وهوَ كتابٌ مفيدٌ جدًّا، وهوَ مفسِّرٌ ملهمٌ موفَّقٌ لكنَّهُ ليسَ بمعصومٍ، كلٌّ يؤخذُ منْ قولهِ ويتركُ.

وهنَا قدْ أشارَ الشيخُ أنَّ منْ أخطاءِ القرطبِي تصحيحُ بعضِ الأحاديثِ الظَّعيفةِ لنسيانهِ أوْ غيرِ ذلكَ لكنَّهُ أقرَّ أنَّهُ تفسيرٌ جيِّدٌ ومفيدٌ.

ويبقَى تفسيرُ القرطبِي تفسيرًا محمودًا حتَّى وإنْ كانَ صاحبهُ أشعريًّا، فالكلُّ يؤخذُ منهُ ويردُّ إلَّا رسولَ اللهِ ﷺ.



6) الدُّر المنثورُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ، لمؤلِّفهِ: جلالُ الدِّينِ بنُ أبي بكرٍ بنِ محمَّدٍ السُّيوطي:

الدُّر المنثورُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ هوَ كتابٌ منْ كتبِ التَّفسيرِ الضَّخمةِ بلْ يعدُّ موسوعةً تفسيريَّةً ضخمةً، ألَّفهُ الحافظُ السُّيوطِي، وحشدَ فيهِ مَا أُثرَ عنِ النَّبيِ ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعينَ منْ تفاسيرَ لآياتِ وسورِ القرآنِ، مقتصرًا فِي الرِّوايةِ علَى متونِ الأحاديثِ حاذفًا منهَا أسانيدهَا، مدوِّنًا كلَّ مَا ينقلهُ بالعزوِ والتَّخريجِ إلَى كلِّ كتابٍ رجعَ إليهِ، وجمعَ السُّيوطِي فِي كتابهِ مَا وردَ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ فِي تفسيرِ الآياتِ، وضمَّ لهَا مَا وردَ فيهَا منَ الأحاديثِ المخرجةِ منْ كتبِ الصِّحاحِ والسُّنَّنِ وبقيَّةِ كتبِ الحديثِ، وحذفَ الأسانيدَ للاختصارِ، مقتصرًا علَى متنِ الحديثِ[1].

وقدِ اختصرَ السُّيوطِي هذَا التَّفسيرَ منْ كتابهِ (ترجمانُ القرآنِ) الذِي توسَّعَ فيهِ فِي ذكرِ الأحاديثِ المسندةِ مَا بينَ مرفوعٍ وموقوفٍ حتَّى بلغتْ بضعةَ عشرَ ألفَ حديثًا[2].

وجمعَ السُّيوطِي الرِّواياتِ التِي أوردهَا فِي تفسيرهِ منْ عدَّةِ مصادرَ منهَا: البخارِي، ومسلمٍ، والنَّسائِي، والتِّرمذِي، وأحمدَ، وأبِي داودَ، وابنِ جريرٍ، وابنِ أبِي حاتمٍ، وعبدٍ بنِ حميدٍ، وابنِ أبِي الدُّنيَا، وغيرهمْ منَ المتقدِّمينَ[3].

---

(1) المشكاة الإسلامية:الدر المنثور في التفسير بالمأثور–جلال الدين السيوطي.

(2) التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي،ج 1 :ص 253.

(3) التفسير والمفسرون للذهبي،ج 1:ص 245.

منهجُ السُّيوطِي فِي تفسيرِهِ:

يذكرُ الإمامُ السُّيوطِي الآيةَ أوِ الآيتينِ فِي السُّورِ المدنيَّةِ الطوالِ، أوْ مجموعةٍ منَ الآياتِ فِي السُّورِ المكيَّةِ القصارِ، ثمَّ يفسِّرُ الكلمةَ أوِ الجملةَ بمَا هوَ مأثورٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ منْ بيانِ المعنَى، أوْ بمَا هوَ منقولٌ فِي كتبِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وهوَ فِي ذلكَ يفيضُ إفاضةً شاملةً بكلِّ الرِّواياتِ المحكيَّةِ، بتخريجِ ذلكَ فِي الصِّحاحِ والمسانيدِ والمصنّفاتِ والسُّننِ والآثارِ عامَّةً، ففِي تفسيرِهِ مثلًا لجملةِ: "الحَمْدُ لِلهِ" منَ الفاتحةِ يذكرُ سبعاً وثلاثينَ روايةً متقاربةَ منهَا قولهُ: المعنَى، فالحمدُ: الشكرُ للهِ، أوِ الثَّناءُ على اللهِ، وفيهَا بيانُ فضيلةِ الحمدِ الخ... ويفسِّرُ كلمةَ "حَنِيفاً" بثمانِ رواياتٍ، منهَا: حنيفاً: حاجاً أوْ متَّبعاً أوْ مستقيماً أوْ مخلصاً، وفيهَا إيرادُ حديثٍ: "بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ" أوْ"أحبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ: الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ"، دونَ بيانِ درجةِ صحَّةِ الحديثِ أوْ ضعفهِ. كمَا فسَّرَ جملةَ "ثَانِي عطفهِ" بثمانِ رواياتٍ، منهَا أنَّهُ المعرضُ منَ العظمةِ، أوْ لاوِي رأسهُ، أوْ لاوِي عنقهُ، أوِ المعرضُ عنِ الحقِّ، أوْ عنْ ذكرِ اللهِ تعالَى، معَ بيانِ منْ نزلتْ فْي شأنهِ (وهوَ النَّضرُ بنُ الحارثِ)، ويذكرُ فِي أوائلِ كلِّ سورةٍ، أوْ فِي أثناءِ بيانِ بعضِ آياتهَا، فضلهَا أوْ منزلتهَا وثوابَ تاليهَا وقارئهَا، كفضائلِ سورةِ البقرةِ وآلِ عمرانَ، وسورةِ الإخلاصِ والفلقِ والنَّاسِ وغيرِ ذلكَ، ويبيِّنُ صفةَ السُّورةِ ومكانِ نزولهَا، فهيَ مكيَّةٌ أوْ مدنيَّةٌ أوْ تشتملُ علَى كلتَا الصِّفتينِ، لوجودِ آياتٍ منهَا مدنيَّةٌ وأخرَى مكيَّةٌ، مثلَ سورةِ البقرةِ مدنيَّةٌ إلَّا آيةَ (281)،

وهيَ (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ....)، فنزلتْ فِي حجَّةِ الوداعِ، وأوردَ أنَّهَا آخرُ آيةٍ نزلتْ فِي القرآنِ علَى النَّبيِّ ﷺ، وكانَ بينَ نزولهَا وبينَ موتِ النَّبيِّ ﷺ أحدَ وثمانونَ يوماً، أوْ تسعَ ليالٍ.

وأسلوبهُ رحمهُ اللهُ تعالَى: تاريخيٌّ محضٌّ، فيذكرُ كلَّ روايةٍ معَ سردِ أسماءِ المخرِّجينَ لهَا فِي الكتبِ السِّتَّةِ أوْ مسندِ أحمدَ أوْ مسانيدِ الطَّبرانِي أوْ سننِ البَّيهقِي، أوْ صحيحِ الحاكمِ وابنِ خزيمةَ وابنِ حبَّانَ، أوْ مصنَّفِ ابنِ أبِي شيبةَ، أوِ الكتبِ المشتملةِ علَى الضُّعفاءِ أحياناً، كتاريخِ الخطيبِ ومسندِ الديلمِي (الفردوسُ) وابنِ عساكرَ فِي تاريخهِ، والحليةِ لأبِي نعيمٍ، ويعتمدُ كثيراً علَى مَا أخرجهُ الطَّبرِي فِي تفسيرهِ، وسعيدِ بنِ منصورٍ فِي سننهِ، وابنِ المنذرِ.

المآخذُ علَى تفسيرِ السُّيوطِي:

منَ المآخذِ علَى تفسيرِهِ رحمهُ اللهُ تعالَى: أنَّهُ لَا يُبيِّنُ مدَى صحَّةِ الرِّوايةِ أوْ ضعفهَا فِي غالبِ الأحيانِ، ملقياً بذلكَ علَى صاحبِ الرِّوايةِ، فهوَ مجرَّدُ سردٍ فِي الغالبِ، أوْ حكايةُ رواياتٍ أوْ وصفِ المنقولاتِ، وتركَ الأمرَ للقارئِ ليأخذَ بمَا شاءَ ويستحسنَ مَا يريدُ، ويرجِّحُ مَا يختارُ، فهوَ حقيقةً أوسعُ وأشملُ تفسيرٍ للآياتِ بالمأثورِ، لكنْ بالرَّغمِ منْ كثرةِ الرِّواياتِ لَا يجدُ القارئُ ضالَّتهُ المنشودةَ بنحوٍ حاسمٍ، مثلاً: يصعبُ علَى القارئِ إصدارُ الحكمِ علَى السُّيوطِي بأنَّهُ سلفِيُّ الاعتقادِ، أوْ أشعرِيُّهُ، فتراهُ فِي بيانِ المرادِ منَ الأحرفِ الهجائيَّةِ المقطَّعةِ فِي أوائلِ السُّورِ، مثلَ: (الَم) ومَا بعدهَا فِي أوائلِ تفسيرِ سورةِ البقرةِ، لَا يذكرُ مَا يقنعُ أوْ مَا هوَ راجحٌ عندَ المفسِّرينَ، وإنَّمَا ينقلُ عنِ ابنِ جريرٍ وغيرِهِ عنِ ابنِ عبَّاسَ: أنَّ هذهِ الأحرفَ قسمٌ أقسمهُ اللهُ، وهوَ منْ أسماءِ اللهِ.

وكذلكَ لمْ يفسِّرِ المرادَ بوصفِ المسيحِ عليهِ السَّلامُ بأنَّهُ كلمةُ اللهِ فِي آيةِ آلِ عمرانَ (45)، والنِّساءُ (171)، واكتفَى بإيرادِ حديثٍ مطابقٌ لظاهرِ القرآنِ بأنَّ عيسَى كلمةُ اللهِ ألقاهَا إلَى مريمَ، وهكذَا لَا نجدُ أنَّ السُّيوطِي يأتِي بمَا يشفِي الغليلَ فِي تفسيرِ آياتِ الصَّفاتِ، ولعلَّهُ يكتفِي بمَا ذكرهُ فِي كتابهِ الإتقانُ فِي علومِ القرآنِ.

وكذلكَ سردَ السُّيوطِي الرِّواياتِ عنِ السَّلفِ فِي التَّفسيرِ ولمْ يعقِّبْ عليهَا، ولمْ يرجِّحْ منْ بينِ الأقوالِ القولَ الأصحِّ، ولمْ يتحرَّى الصِّحَّةَ فيمَا جمعَ فِي هذَا التَّفسيرِ، ولمْ يبيِّنِ الصحيحَ منَ الضعيفِ[1]، ممَّا يجعلُ الكتابَ محتاجًا إلَى تنقيحٍ وتحقيقٍ وتمييزِ الصَّحيحِ منَ الضَّعيفِ، وقدْ قامَ علَى تحقيقهِ الشَّيخُ عبدُ اللهِ التُّركِي فِي 17 مجلداً[2].

ويبقَى تفسيرُ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالَى مرجعًا فِي التَّفسيرِ لهذهِ الأمَّةِ، وهوَ منْ كنوزِ علمِ التَّفسيرِ حسبَ مرتبتهِ، وزادهُ تحقيقُ الشَّيخِ عبدُ اللهِ التُّركِي شرفًا ومرتبتًا.

(1) الدر المنثور للسيوطي.

(2) السابق.



7) فتحُ القديرِ، لمؤَلِّفهِ: محمَّدٌ بنُ علِي بنِ محمدٍ بنِ عبدِ اللهِ الشَّوكانِي:

يعتبرُ تفسيرُ فتحِ القديرِ للشَّوكانِي أصلاً منْ أصولِ التَّفسيرِ بالمأثورِ، ومرجعاً منْ مراجعهِ، لأنَّهُ جمعَ بينَ التَّفسيرِ بالرِّوايةِ والتَّفسيرِ بالدِّرايةِ، حيثُ أجادَ فيهِ مؤلِّفهُ فِي بابِ الرِّوايةِ، وتوسَّعَ فِي بابِ الدِّرايةِ، وقدِ استدركَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى علَى علماءِ المسلمينَ فِي تفسيرهِ، والنَّاظرُ لتفسيرهِ يلحظُ ذلكَ بيِّنًا، ممَّا جعلَ بعظهمْ يقدِّمُ أطروحةً فِي هذَا البابِ[1].

وقدْ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي جمعهِ بينَ الرِّوايةِ والدِّرايةِ فِي تفسيرهِ: فإنَّ غالبَ المفسِّرينَ تفرَّقُوا فريقينِ وسلكُوا طريقينِ، الفريقُ الأوَّلُ اقتصرُوا فِي تفاسيرهمْ علَى مجرَّدِ الرِّوايةِ وقنعُوا برفعِ هذهِ الرَّايةِ، والفريقُ الآخرُ جرَّدُوا أنظارهمْ إلَى مَا تقتضيهِ اللُّغةُ العربيَّةُ، ومَا تفيدهُ العلومُ الآليَّةُ، ولمْ يرفعُوا إلَى الرِّوايةِ رأسًا وإنْ جاؤُوا بهَا لمْ يصحِّحُوا لهَا أساسًا، ثمَّ قالَ: ... وبهذَا تعرَفُ أنَّهُ لَا بدَّ منَ الجمعِ بينَ الأمرينِ وعدمِ الاقتصارِ علَى مسلكِ أحدِ الفريقينِ، وهذَا هوَ المقصودُ الذِي وطَّنتُ عليهِ نفسِي والمسلكُ الذِي عزمتُ علَى سلوكهِ[2].

---

(1) استدراكات الشوكاني على العلماء والمفسرين في فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية – المؤلف: جميلة محمد البدوي بابكر.

(2) "رسالة ماجستير" لـ عبد الرحيم يوسف – إشراف الشيخ د/ محمد بن العزيز الفالح.

منهجُ الشَّوكانِي فِي تفسيرِهِ:

يتَّضحُ منْ عنوانِ هذَا التَّفسيرِ أنَّ منهجَ الشَّوكانِي الأساسِي هوَ الجمعُ بين الرِّوايةِ والدِّراية، لكنْ طريقتهُ فِي هذَا الجمعِ كانتْ مختلفةً عمَّنْ قبلهُ، حيثُ يفصِّلُ بينَ النَّوعينِ فيبدأُ بالدِّرايةِ ثمَّ بالرِّوايةِ، ومنهجهُ بشكلٍ عامٍ عندَ تعرُّضهِ للسُّورةِ أوِ الآيةِ، أنَّهُ غالبًا يذكرُ فضائلَ السُّورةِ والقراءةِ واللُّغةِ والإعرابِ والشَّواهدِ وأسبابِ النُّزولِ والنَّسخِ والمعنَى الإجمالِي وترجيحِ بعضِ الأقوالِ علَى بعضٍ، والأحكامِ المستنبطةِ منَ الآيةِ والرِّواياتِ منَ الأحاديثِ النَّبويَّةِ والآثارِ عنِ الصَّحابة والأخبارِ عنِ التَّابعينَ فمنْ بعدهمْ، وأنَّهُ كثيرًا مَا يقدِّمُ خلاصةً لمَا تضمَّنتهُ السُّورةُ منْ موضوعاتٍ قبلَ الشُّروعِ فيهَا[1].

ومنْ خلالِ مَا سبقَ يمكنُ تقسيمُ منهجِ الشَّوكانِي إلَى قسمينِ، قسمٌ فِي الرِّوايةِ وقسمٌ فِي الدِّرايةِ.

1) منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي الرِّوايةِ:

اعتمدَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرهِ بالرِّوايةِ، حيثُ بدأَ فِي تفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ، والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ، وآثارِ الصَّاحابةِ وأخبارِ التَّابعينَ ومنْ بعدهمْ، ومثالُ ذلكَ.

أ) قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي الآيةِ رقمِ (5) منْ سورةِ التَّحريمِ (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرَ مِنْكُنَّ) "أيْ: يعطيهِ بدلكنَّ أزواجًا أفضلَ منكنَّ، وقدْ علمَ اللهُ سبحانهُ أنَّهُ لَا يطلِّقهنَّ ولكنْ أخبرَ عنْ قدرتهِ علَى أنَّهُ إنْ وقعَ منهُ

---

(1) انظر الإمام الشَّوكاني مفسِّرا 165:166.

الطَّلاقُ أبدلهُ خيرًا منهنَّ، تخويفًا لهنَّ، وهوَ كقولهِ: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}[محمد:38] فإنَّهُ اخبارٌ عنِ القدرةِ وتخويفٌ لهمْ" فقدْ بيَّنَ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ اللهَ تعالَى أرادَ بالآيةِ رقمِ (5) منْ سورةِ التَّحريمِ الاخبارَ عنِ القدرةِ والتَّخويفِ، مستدلًّا بالآيةِ رقمِ (38) منْ سورةِ محمَّدٍ.

ب) إيرادُ الأحاديثِ النَّبويَّةِ المتعلِّقةِ بالآياتِ، وعزوهَا إلَى منْ رواهَا، والحكمِ عليهَا أحيانًا منهُ أوْ منْ بعضِ أهلِ العلمِ، أوِ الكلامِ علَى بعضِ رجالِ السَّندِ، فمنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ قولهِ سبحانهُ: {وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ}[المجادلة: 8]: "وقدْ أخرجَ أحمدُ وعبدُ بنُ حميدٍ والبزَّارُ وابنُ المنذرِ والطَّبراني وابنُ مردويهِ والبيهقِي فِي الشُّعبِ، قالَ السُّيوطِي بسندٍ جيِّدٍ عنِ ابنِ عمرَ: إنَّ اليهودَ كانُوا يقولونَ لرسولِ اللهِ ﷺ: السَّامُ عليكَ، يريدونَ بذلكَ شتمهُ، ثمَّ يقولونَ فِي أنفسهمْ: (لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ)، فنزلتْ هذهِ الآيةُ: (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ)".

ج) إيرادُ أقوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ عندَ تعرُّضهِ للآيةِ لتقويةِ رأيٍ يراهُ، أوْ قولٍ يذهبُ إليهِ، ومنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}[الحشر: 2]: "وذلكَ أنَّهمْ لمَّا أيقنُوا بالجلاءِ حسدُوا المسلمينَ أنْ يسكنُوا منازلهمْ فجعلُوا يخربونهَا منَ الدَّاخلِ، والمسلمونَ منَ الخارجِ، قالَ قتادةُ والضحَّاكُ: كانَ المؤمنونَ يخربونَ منْ خارجٍ كيْ يدخلُوا، واليهودُ (بنِي النَّضير) منْ داخلٍ ليبنُوا بهِ مَا خُرِّبَ منْ حصنهمْ".

2) منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي الدِّرايةِ:

أ) كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يبدأُ كلَّ سورةٍ بذكرِ عددِ آياتهَا، وهلْ هيَ مكيَّةٌ أمْ مدنيَّةٌ، والآياتِ المختلفِ فِي كونهَا مكيَّةً أوْ مدنيَّةً، ثمَّ يعقبُ بذكرِ الرِّواياتِ فِي ذلكَ، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بدايةِ سورةِ المجادلةِ: "هيَ ثنتانِ وعشرونَ آيةً، وهيَ مدنيَّةٌ، قالَ القرطبِي: فِي قولِ الجميعِ (أيْ فِي قولِ جيمع أهلِ العلمِ) "أنَّ سورةَ المجادلةِ مدنيَّةٌ إلَّا روايةٌ عنْ عطاءٍ أنَّ العشرَ الأوَّلَ منهَا مدنيٌّ وباقيهَا مكيٌّ"، وقالَ الكلبِيُّ: "نزلتْ جميعهَا بالمدينةِ غيرَ قولهِ: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ}[المجادلة: 7] نزلتْ بمكَّةَ"، وأخرجَ ابنُ الضُّريسِ والنَّحَّاسُ وأبُو الشَّيخِ فِي "العظمةِ" وابنُ مردويهِ عنِ ابنِ عبَّاسَ قالَ: نزلتْ سورةُ المجادلةِ بالمدينةِ، وأخرجَ ابنُ مردويهِ عنِ ابنِ الزُّبيرِ مثلهُ".

ب) كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يذكرُ مَا وردَ فِي فضائلِ السُّورِ قبلَ تفسيرهَا منَ الآثارِ والأقوالِ، ومنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ سورةِ الملكِ: "وأخرجَ أحمدُ وأبُو داودَ والتِّرمذِي والنَّسائِي وابنُ ماجةْ وابنُ الضُّريسِ والحاكمُ وصحَّحهُ وابنِ مردويهِ والبيهقِي فِي الشُّعبِ عنْ أبِي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ سورةً منَ كتابِ اللهِ مَا هيَ إلَّا ثلاثونَ آيةً، شفعتْ لرجلٍ حتَّى غُفِرَ لهُ "تباركَ الذِي بيدهِ الملكِ"، قالَ التِّرمذِي: "هذَا حديثٌ حسنٌ"، وأخرجَ الطَّبرانِي فِي الأوسطِ، وابنُ مردويهِ، والضِّياءُ فِي المختارةِ عنْ أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "سورةٌ فِي القرآنِ خاصمتْ عنْ صاحبهَا حتَّى أدخلتهُ الجنَّة "تباركَ الذِي بيدهِ الملكُ".

ج) كانَ فِي الغالبِ رحمهُ اللهُ تعالَى يُقطِّعُ السُّورةَ إلَى مجموعةِ مقاطعَ، يشتملُ كلُّ مقطعٍ علَى عدَّةِ آياتٍ ذاتِ موضوعٍ واحدٍ.

د) كانَ يجعلُ تفسيرَ كلِّ آيةٍ مستقلًّا، فإذَا انتهَى منْ آيةٍ بدأَ بمَا بعدهَا قائلًا: "قولهُ...." أوْ يربطُ بينهمَا بِ "ثمَّ"، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ سورةِ المجادلةِ: "إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" يسمعُ كلَّ مسموعٍ ويبصرُ كلَّ مُبصَرٍ، ومنْ جملةِ ذلكَ مَا جادلتكَ بهِ هذهِ المرأةُ. (ثمَّ يربطُ رحمهُ اللهُ تعالَى تفسيرَ الآيةِ التِي بعدهَا بِ "ثمَّ" ويقولُ): ثمَّ بيَّنَ سبحانهُ شأنَ الظِّهارِ فِي نفسهِ، وذكرَ حكمهُ، فقالَ: "الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ".

ه) كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يفسِّرُ الآيةَ تفسيرًا تحليليًّا، ويقفُ معَ كلِّ كلمةٍ أوْ جملةٍ بمفردهَا حسبَ الحاجةِ، فيُوضِّحُ غريبهَا ويُبيِّنُ أصلهَا ومَا يتعلَّقُ بهَا، وربَّمَا توسَّعَ فِي اللُّغةِ وذكرَ أقوالَ أهلهَا، مدعمًا ذلكَ بالشَّواهدِ الشِّعريَّةِ المناسبةِ، متطرِّقًا خلالَ ذلكَ للإعرابِ دونَ إطالةِ، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى: {وَمَا أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}[الحشر: 6]

"وَمَا أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ" أيْ: ما ردَّهُ عليهِ منْ أموالِ الكفَّارِ، يُقالُ: فاءَ يفيءُ، إذَا رجعَ، والضَّميرُ فِي "مِنْهُمْ" عائدٌ إلَى بنِي النَّضيرِ. "فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ" يُقالُ: وجفَ الفرسُ والبعيرُ يجِفُ وجفًا وهوَ سُرعة السَّير، وأوجفَ صاحبهُ إذَا حملهُ على السَّيرِ السَّريعِ، ومنهُ قولُ تميمٍ بنِ مقبلٍ:

مَذَاويدُ بالبيضِ الحديدِ صقالهَا * عنِ الرَّكبِ أحيانًا إذَا الرَّكبُ أوجفُوا

وقال نُصيْب:

ألَا رُبَّ ركبٍ قدْ قطعتُ وجيفهمْ * إليكَ ولولَا أنتِ لمْ يوجفِ الرَّكبُ.

و(مَا) فِي "فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ" نافيةٌ والفاءُ جوابُ الشَّرطِ، إنْ كانت (مَا) في قولهِ: "مَآ أَفَاءَ اللهُ" شرطيَّةٌ وإنْ موصولةً، فالفاء زائدةٌ، و(مِنْ) في قولهِ: "مِنْ خَيْلٍ" زائدةٌ للتَّأكيدِ، والرِّكابُ: مَا يُركبُ منَ الإبلِ خاصَّةً.

و) اهتمَّ رحمهُ الله تعالَى بالقراءاتِ وأولاهَا عنايةً فائقةً وأكثرَ منهَا فِي تفسيرِهِ، كمَا اهتمَّ أيضًا بتوجيهاتِ بعضِ هذهِ القراءاتِ وتبينِ أثرهَا على المعنَى، سواءٌ أكانتْ متواترةً أمْ شاذَّةً، فمنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى في قولهِ تعالَى "قَدْ سَمِعَ اللهُ": قرأَ أبُو عمرو، وحمزةُ والكسائيُّ بإدغامِ الدَّالِ فِي السِّينِ، وقرأَ الباقونَ بالإظهارِ.

ز) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يُحيلُ كثيرًا إلَى مواضعَ أخرَى منْ تفسيرهِ، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ بدايةِ سورة الحشرِ، قولهُ "سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ": قدْ تقدَّمَ تفسيرُ هذَا فِي سورةِ الحديدِ.

ح) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يذكرُ أقوالَ أئمَّةِ التَّفسيرِ، فأحيانًا يكتفِي بمجرَّدِ النَّقلِ دونَ تعليقٍ لمَا يرَى مَا فيهِ منْ كفايةٍ، وقدْ يردُّ بعضَ الأقوالِ مبيِّنًا سببَ الرَّدِّ، وقدْ يؤيِّدُ بعضهَا ويدعمهُ بالأدلَّةِ ويختارُ مَا يراهُ مرجَّحًا، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى:"قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلَكَ فِي زَوجِهَا وَتَشْتَكِي إلَى اللهِ" قالَ رحمهُ اللهُ: قالَ الواحدِي: قالَ المفسِّرونَ: نزلتْ هذهِ الأيةُ فِي خولةَ بنتِ ثعلبةَ وزوجهَا أوسُ بنِ الصَّامتِ.... وقيلَ: هيَ خولةُ بنتِ حكيمٍ، وقيلَ اسمهَا جميلةٌ، والأوَّلُ أصحُّ وقيلَ: هيَ بنتُ خويلدٍ، قالَ الماورديُّ: إنَّهَا نُسبت تارةً إلى أبيهَا وتارةً إلَى جدِّهَا، وأحدهمَا أبوهَا، والآخرُ جدُّهَا، فهيَ: "خولةُ بنتُ ثعلبةَ بنتُ خويلدٍ.

ط) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يذكرُ أسبابَ النُّزولِ للسُّورةِ أوِ الآيةِ.

ي) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يُوردُ المسائلَ الفقهيَّةَ المتعلِّقةَ بالآياتِ وأحكامهَا، فيذكرُ المذاهبَ واختلافهمْ فيهَا[1].

(1) "رسالة ماجستير" لـ عبد الرحيم يوسف – إشراف الشيخ د/ محمد بن العزيز الفالح.

المآخذُ علَى تفسيرِ الشَّوكانِي:

ممَّا يؤخذُ علَى الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى كعالمٍ منْ أهلِ الحديثِ أنَّهُ يذكرُ كثيراً منَ الرِّواياتِ الموضوعةِ أوِ الضَّعيفةِ، ويمرُّ عليهَا دونَ أنْ ينبِّهَ عليهَا، فمثلاً نجدهُ عندَ تفسيرهِ لقولهِ تعالَى فِي الآيةِ (55) منْ سورةِ المائدةِ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ ...الآيةُ، وقولهُ تعالَى فِي الآيةِ (67) منهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ....الآيةُ، يذكرُ منَ الرِّواياتِ مَا هوَ مذكورٌ علَى ألسنةِ الشِّيعةِ، ولَا ينبِّهُ علَى أنَّهَا موضوعةٌ، معَ أنَّهُ يقرِّرُ عدمَ صلاحيَّةِ هذهِ الرِّواياتِ للاستدلالِ علَى إمامةِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ، ففِي الآيةِ الأولَى يروِي عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ: تصدَّقَ عليٌّ بخاتمٍ وهوَ راكعٌ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ للسَّائلِ:" منْ أعطاكَ هذَا الخاتمَ"؟ قالَ: ذلكَ الرَّاكعُ، فأنزلَ اللهُ تعالَى فيهِ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾... الآيةُ، ثمَّ يمرُّ علَى الرِّوايةِ الموضوعةِ باتِّفاقِ العلماءِ ولَا ينبِّهُ علَى مَا فيهَا، وفِي الآيةِ الثَّانيةِ تجدهُ يروِي عنْ أبِي سعيدٍ الخدرِي أنَّهُ قالَ: نزلتْ هذهِ الآيةُ ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ علَى رسولِ اللهِ ﷺ يومَ "غدير خُم" فِي عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ، ويروِي عنِ ابنِ مسعودٍ أنَّهُ قالَ: "كنَّا نقرأُ علَى عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ: "يَا أيهَا الرَّسولُ بلِّغْ مَا أنزلَ إليكَ منْ ربِّكَ أنَّ عليًا مولَى المؤمنينَ، فإنْ لَّمْ تفعلْ فمَا بلَّغتَ رسالتهُ، واللهُ يعصمكَ منَ النَّاسِ"، ثمَّ يمرُّ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى هاتينِ الرِّوايتينِ دونَ أنْ يبيِّنَ ضعفهمَا[1] ولمْ أفهمْ حقيقةً كيفَ وقعَ إمامنَا الشَّوكانِي فِي مثلِ هذَا الخطأِ.

(1) التَّفسير والمفسِّرون – الجزء الثَّاني "بتصرُّف" للدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى.

وقدْ أشارَ الألبانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي السِّلسلةِ لشيءٍ منَ الأحاديثِ الظَّعيفةِ التِي أوردهَا الشَّوكانِي فِي تفسيرهِ[1].

ثمَّ إنَّ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى استفادَ استفادةً كبيرةً منْ تفسيرِ القرطبِي، إلَّا أنَّهُ لمْ يتوسَّعْ توسُّعَ القرطبِي فيمَا يتعلَّقُ في الأحكامِ، وزادَ فِي تفسيرهِ علَى الجوانبِ الموجودةِ فِي تفسيرِ القرطبِي بشكلٍ واضحٍ جداً وتوسُّعٍ منْ كتابِ "الدُّرِّ المنثورِ" وهوَ ذكرَ هذَا فِي تفسيرِ الكتابِ، ولَا يردُّ كلَّ مَا أوردهُ السُّيوطِي فِي التَّفسيرِ ويحيلُ أحياناً، فيقولُ:

"وفيمَا ذكرناهُ كفايةٌ ومنْ أرادَ التَّوسُّعَ فِي هذَا يرجعُ إلَى الدُّرِّ المنثورِ"، والدُّرُّ المنثورُ محذوفةٌ منهُ الأسانيدُ، وفيهِ الصَّحيحُ والضَّعيفُ، ومنْ ثمَّ فالشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى كانَ ينقلُ الصَّحيحَ والضَّعيفَ منَ الرِّواياتِ المرفوعةِ وغيرِ المرفوعةِ ممَّا ينقلهُ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وطريقتهُ فِي ذلكَ أنَّهُ حينمَا يوردُ المعانِي بعدَ ذلكَ يوردُ تفسيرَ الآياتِ منْ كتابِ الدُّرِّ المنثورِ، فكأنَّهُ يعيدُ التَّفسيرَ منْ جديدٍ، وفِي كلِّ مقطعٍ يذكرُ تفسيرهُ منْ جهةِ مَا يسمَّى بالدِّرايةِ؛ لأنَّهُ جعلَ الكتابَ بهذَا العنوانِ "فتحُ القديرِ الجامعِ بينَ فنَّي الرِّوايةِ والدِّرايةِ منْ علمِ التَّفسيرِ" فيوردُ الدِّرايةَ أوَّلاً، فهوَ يشبهُ تفسيرَ ابنِ عطيَّةَ، والقرطبِي استفادَ منِ ابنِ عطيةَ وزادَ عليهِ، والشَّوكانِي استفادَ استفادةً كبيرةً منْ تفسيرِ القرطبِي إلَّا أنَّهُ لخَّصَ الأحكامَ منْ غيرِ توسُّعٍ كمَا ذكرنَا، ولَا يذكرُ الرِّواياتِ أثناءَ التَّفسيرِ، وإنَّمَا يذكرهَا بعدَ الفراغِ منْ تفسيرِ المقطعِ، فينتقلُ بعدهَا إلَى إيرادِ المرويَّاتِ منْ أوَّلِ آيةٍ شرعَ يفسِّرهَا فِي هذَا المقطعِ إلَى آخرِ آيةٍ، وهذهِ الطَّريقةُ متعبةٌ للقارئِ، ويبقَى تفسيرُ الشَّوكانِي كنزًا منْ كنوزِ التَّفسيرِ وذخيرةً لأهلِ السُّنَّةِ والجماعة ومرجعًا لهمْ فرحمَ اللهُ إمامنَا الشَّوكاني وجزاهُ عنِ الأمَّةِ كلَّ خيرٍ.

(1) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة صـ(387) محمد ناصر الدين الألباني.



8) تيسيرُ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ، لمؤلِّفهِ: عبدُ الرَّحمنِ بن ناصرٍ السَّعدِي:

يعدُّ تفسير السَّعدِي رحمهُ اللّٰهُ تعالَى منْ أجلِّ التَّفاسيرِ، هذَا لسهولةِ عباراتهِ وتجنُّبِ الخلافِ فيهِ، فقدْ قالَ الشَّيخُ

ابنُ عثيمينَ رحمهُ اللّٰهُ تعالَى: فإنَّ تفسيرَ شيخنَا عبدُ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السَّعدِي رحمهُ اللّٰهُ تعالَى المسمَّى "تيسيرِ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ" منْ أحسنِ التَّفاسيرِ حيثُ كانَ لهُ ميزاتٌ كثيرةٌ: منهَا سهولةُ العبارةِ ووضوحهَا، حيثُ يفهمهَا الرَّاسخُ فِي العلمِ ومنْ دونهِ.

ومنهَا تجنُّبُ الحشوِ والتَّطويلِ الذِي لَا فائدةَ منهُ إلَّا إضاعةُ وقتِ القارئِ وتبلبلِ فكرهِ.

ومنهَا تجنُّبُ ذكرِ الخلافِ إلَّا أنْ يكونَ الخلافُ قويًّا تدعُو الحاجةُ إلى ذكرهِ، وهذهِ ميزةٌ مهمَّةٌ بالنِّسبةِ للقارئِ حتَّى يثبتَ فهمهُ علَى شيءٍ واحدٍ.

ومنهَا السَّيرُ علَى منهجِ السَّلفِ فِي آياتِ الصِّفاتِ، فلَا تحريفَ ولَا تأويلَ يخالفُ مرادَ اللّٰهِ تعالَى بكلامهِ، فهوَ عمدةٌ فِي تقريرِ العقيدةِ.

ومنهَا دقَّةُ الاستنباطِ فيمَا تدلُّ عليهِ الآياتُ منَ الفوائدِ والأحكامِ والحكمِ، وهذَا يظهرُ جليًّا فِي بعضِ الآياتِ، كآيةِ الوضوءِ فِي سورةِ المائدةِ؛ حيثُ استنبطُ منهَا خمسينَ حكماً، وكمَا فِي قصَّةِ داودَ وسليمانَ فِي سورةِ ص.

ومنهَا أنَّهُ كتابُ تفسيرٍ وتربيةٍ علَى الأخلاقِ الفاضلةِ، كمَا يتبيَّنُ فِي تفسيرِ قولِهِ تعالَى فِي سورةِ الأعرافِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: 199].

ومنْ أجلِ هذَا أشيرُ علَى كلِّ مريدِ اقتناءِ كتبِ التَّفسيرِ ألَّا تخلُو مكتبتهُ منْ هذَا التَّفسيرِ القيِّمِ[1].

وقالَ الشَّيخُ عبدُ اللهِ بنُ عقيلٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: كانَ لشيخنَا العلَّامةُ الشَّيخُ عبدُ الرحمنِ بنِ ناصرٍ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى منْ ذلكَ حظٌ وافرٌ وذلكَ بتفسيرهِ المسمَّى: (تيسيرُ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ) حيثُ جاءَ هذَا التَّفسيرُ سهلَ العبارةِ، واضحَ الإشارةِ، وصاغهُ علَى نمطٍ بديعٍ بعباراتٍ قريبةٍ لَا خفاءَ فيهَا ولَا غموضَ، فهوَ يعتنِي بإيضاحِ المعنَى المقصودِ منَ الآيةِ بكلامٍ مختصرٍ مفيدٍ، مستوعبٍ لجميعِ مَا تضمَّنتهُ الآيةُ منْ معنَى أوْ حكمٍ، سواءٌ منْ منطوقهَا أوْ مفهومهَا، دونَ إطالةٍ أوِ استطرادٍ أوْ ذكرِ قصصٍ أوْ إسرائيلياتٍ، أوْ حكايةِ أقوالٍ تخرجُ عنِ المقصودِ، أوْ ذكرِ أنواعِ الإعرابِ إلَّا فِي النَّادرِ الذِي يتوقَّفُ عليهِ المعنَى، بلْ يركِّزُ علَى المعنَى المقصودِ منَ الآيةِ بعبارةٍ واضحةٍ يفهمهَا كلُّ منْ يقرؤهَا مهمَا كانَ مستواهُ العلمِي، فهوَ فِي الحقيقةِ سهلٌ ممتنعٌ يُفهمُ معناهُ منْ مجرَّدِ تلاوةِ لفظِهِ، وقدِ اهتمَّ بترسيخِ العقيدةِ السَّلفيَّةِ، والتوجُّهِ إلَى اللهِ تعالَى، واستنباطِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، والقواعدِ الأصوليَّةِ، والفوائدِ الفقهيَّةِ إلَى غيرِ ذلكَ منَ الفوائدِ[2].

(1) ذكره عبد الرحمن اللويحق محقق تفسير السعدي في مقدمته للتفسير (ص11).

(2) ذكره عبد الرحمن اللويحق محقق تفسير السعدي في مقدمته للتفسير (ص10).

منهجُ السَّعدِي فِي تفسيرِهِ:

أ) اهتمامهُ رحمهُ اللهُ تعالَى بضربِ الأمثالِ فِي القرآنِ الكريمِ: ومنْ الأمثلةِ علَى ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[يونس: 24]

قالَ: "وهذَا المثلُ منْ أحسنِ الأمثلةِ، وهوَ مطابقٌ لحالةِ الدُّنيَا، فإنْ لذَّاتهَا وشهواتهَا وجاههَا ونحوِ ذلكَ يزهُو لصاحبهِ إنْ زهَا وقتًا قصيرًا، فإذَا استكملَ وتمَّ اضمحلَّ، وزالَ عنْ صاحبهِ، أوْ زالَ صاحبهُ عنهُ، فأصبحَ صفرَ اليدينِ منهَا، ممتلئَ القلبِ منْ همِّهَا وحزنهَا وحسرتهَا[1].

ب) ذكرُ العبرِ والعظاتِ منَ القصصِ:

ومنهُ تفسيرهُ لقولهِ تعالَى: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا}[الكهف: 16] حتَى وصلَ للآيةِ رقمِ (21) فقالَ: وفِي هذهِ القصَّةِ، دليلٌ علَى أنَّ منْ فرَّ بدينهِ منَ الفتنِ، سلَّمهُ اللهُ منهَا، وأنَّ منْ حرصَ علَى العافيةِ عافاهُ اللهُ تعالَى ومنْ أوَى إلَى اللهِ تعالَى، آواهُ اللهُ وجعلهُ هدايةً لغيرهِ، ومنْ تحمَّلَ الذُّلَّ فِي سبيلهِ وابتغاءَ مرضاتهِ، كانَ آخرَ أمرهِ وعاقبتهِ العزُّ العظيمُ منْ حيثُ لَا يحتسبُ[2].

---

(1) تفسير السعدي سورة يونس.

(2) تفسي السعدي سورة الكهف.

ج) الاهتمامُ بالنَّحوِ والإعرابِ والاستعانةِ بهَا في التَّفسيرِ:

ومنْ ذلكَ تفسيرهُ لقولهِ تعالَى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة: 5] فقالَ: أيْ نخصُّكَ وحدكَ بالعبادةِ والاستعانةِ، لأنَّ تقديمَ المعمولِ يفيدُ الحصرَ، وهوَ إثباتُ الحكمِ للمذكورِ ونفيهُ عمَّا عداهُ[1].

د) سهولةُ الألفاظِ ويُسرُ العبارةِ:

حيثُ يعتمدُ رحمهُ اللهُ تعالَى شرحًا بسيطًا يفهمهُ الإنسانُ العادِي بسهولةٍ ويسرٍ فيكونُ أقربَ للفهمِ، معَ حفاظهِ علَى الدِّقَّةِ.

هـ) موضوعيَّةُ التَّفسيرِ:

فلَا يشحنُ رحمهُ الله تعالَى تفسيرهُ بكثرةِ الإسرائيليَّاتِ التِي قدْ تكونُ خاطئةً وقدْ تكونُ صحيحةً، ومنْ ذلكَ عدمُ تطرُّقهِ لإسرائيليَّاتِ قصَّةِ هاروتَ وماروتَ فِي سورةِ البقرةِ.

و) اهتمامهُ بالجانبِ الفقهِي:

فقدْ تحدَّثَ فِي تفسيرهِ عنْ أحكامٍ مختلفةٍ عديدةٍ، ومنَ الأمثلةِ علَى ذلكَ النَّفقةُ الواجبةُ عندَ مرورهِ بالآيةِ حيثُ قالَ عندَ قولهِ تعالَى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[التوبة: 35] أنْ يمسكوهَا عنِ النَّفقةِ الواجبةِ، كأنْ يمنعَ الزَّكاةَ أوِ النَّفقاتِ الواجبةِ للزَّوجاتِ أوِ الأقاربِ أوِ النَّفقةِ فِي سبيلِ اللهِ إذَا وجبتْ[2].

---

(1) تفسير السعدي سورة الفاتحة.

(2) تفسير السعدي سورة التوبة.

المآخذُ علَى تفسيرِ السَّعدِي:

حقيقةً لَا توجدُ مآخذٌ علَى تفسيرِ السَّعدِي أوْ تقولُ لَا توجدُ مآخذُ معتبرةٌ علَى تفسيرِهِ رحمهُ اللهُ تعالَى، إلَّا أنَّ الشَّيخَ محمَّدٌ بنُ جميلٍ زينُو رحمهُ اللهُ تعالَى المدرِّسِ بدارِ الحديثِ الخيريَّةِ بمكَّةَ المكرمَّةَ حرسهَا اللهُ تعالَى، قدْ عدَّ عليهِ مآخذَ عدَّةٍ، أذكرُ بعضهَا معَ عدمِ الجزمِ بأنَّهَا مآخذٌ، لأنَّ مَا سيذكرهُ الشَّيخُ محمَّدٌ بنُ جميلٍ ليسَ مقطوعًا بصحَّتهِ.

قالَ الشَّيخُ محمَّدٍ بنُ جميلٌ زينُو فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى:

1) {رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}[ص:33].

قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى:"أيْ جعلَ يعقرهَا بسيفهِ فِي سوقهَا وأعناقهَا".

قالَ الشَّيخُ جميلٌ: قلتُ: هذَا التَّفسيرُ منَ الإسرائيلياتِ والصَّحيحُ مَا ثبتَ فِي صحيحِ البُخارِي عنِ ابنِ عبَّاسَ رضيَ اللهُ عنهُ:"أيْ يمسحُ سوقهَا وأعناقهَا حباً لهَا"[1].اهـ

وأقولُ أنَّ مَا اختارهُ الشَّيخُ جميلٌ زينُو ليسَ مجزومًا بهِ فالأمرُ فيهِ قولانِ وهوَ مَا اختارهُ الشَّيخُ السَّعدِي أوْ رجَّحهُ والآخرُ مَا اختارهُ الشَّيخُ جميلٌ، فقدْ قالَ الطَّبري: واختلفَ أهلُ التَّأويلِ فِي معنَى مسحَ سليمانُ بسوقِ هذهِ الخيلِ الجيادِ وأعناقهَا، فقالَ بعضهمْ: معنَى ذلكَ أنَّهُ عقرهَا وضربَ أعناقهَا، منْ قولهمْ: مَسَحَ علاوتهُ: إذَا ضربَ عنقهُ[2].

---

(1) إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري صـ 373 شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد/القسطلاني.

(2) تفسير الطبري.

2) {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ}[سورة ص:34]

قالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى:"أيْ ابتليناهُ واختبرناهُ بذهابِ ملكهِ وانفصالهِ عنهُ بسببِ خللٍ اقتضتهُ الطَّبيعةُ البشريَّةُ!!

{وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً}: أيْ شَيْطَاناً قَضَى اللهُ تعالَى وقدرَ أنْ يجلسَ علَى كرسيِّ ملكهِ ويتصرَّفَ فِي الملكِ فِي مدَّةِ فتنةِ سليمانَ".اهـ (!!).

قالَ الشيخُ زينُو، قلتُ: وهذهِ منَ الإسرائيليَّاتِ المكذوبةِ(!) بلْ ثبتَ فِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: "قالَ سليمانُ بنُ داودَ عليهمَا السَّلامُ: لأطوفنَّ اللَّيلةَ علَى مائةِ امرأةٍ أوْ تسعٍ وتسعينَ كلهنَّ يأتِي بفارسٍ يجاهدُ فِي سبيلِ اللهِ فقالَ لهُ صاحبهُ قلْ إنْ شاءَ اللهُ فلمْ يقلْ إنْ شاءَ اللهُ فلمْ يحملْ منهنَّ إلَّا امرأةً واحدةً جاءتْ بشقِّ رجلٍ والذِي نفسُ محمَّدٍ بيدهِ لوْ قالَ إنْ شاءَ اللهُ لجاهدُوا فِي سبيلِ اللهِ فرساناً أجمعونَ".

وهوَ واضحٌ أنَّ اللهَ جلَّ وعلَا ابتلاهُ بشقِّ الولدِ وهوَ الجسدُ المذكورُ فِي الآيةِ الكريمةِ وإلَى هذَا ذهبَ جمعٌ منَ المفسِّرينَ أخذاً بالحديثِ وطرحاً للرِّواياتِ المكذوبةِ.اهـ

وبهِ أيضًا فإنَّ مَا رواهُ الشيَّخُ السعدِي قالَ بهِ ابنُ عبَّاسَ، فعنِ الطَّبريِّ قالَ: ... عنِ ابنِ عبَّاسَ قولهُ (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا) قالَ: هوَ صخرٌ الجنيّ تمثَّلَ علَى كرسيِّهِ[1].

(1) ينظر: تفسير الطبري.

وشقُّ الرَّجلِ هذَا ليسَ ببعيدٍ أنْ يكونَ شيطَانًا علَى الحقيقةِ تمثَّل فِي ذلكَ الشَّكلِ، فلَا نقولُ قدْ أخطأَ السَّعديُّ فِي هذَا، لأنَّ الحديثَ السَّابقِ ذكرهُ لمْ يخفَى علَى صغارِ طلَّابِ العلمِ، فكيفَ بالعلَّامةِ أنْ يخفَى عنهُ ذلكَ، إذًا كانَ شرحُ السَّعدِي للآيةِ استنباطًا واضحًا، أنَّ شقَّ الرَّجلِ هوَ شيطانٌ فِي شكلِ نصفِ رجلٍ، واللهُ أعلمُ.

3) {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الْسُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف:24]

قالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى:"...لأنَّهُ قدْ همَّ فيهَا همًّا(!!)تركهُ للهِ وقدَّمَ مرادَ اللهِ علَى مرادِ النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ(!!!)...".اهـ

قالَ الشيخُ زينُو، قلتُ: الصَّحيحُ منْ أقوالِ المفسِّرينَ أنَّهُ عليهِ السَّلامُ لمْ يهمْ بهَا أصلاً، فلولَا أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأَى برهانَ ربِّهِ لهمَّ بهَا، وهذَا الموافقُ لعصمةِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهمْ أجمعينَ, كيفَ وقدْ ذكرهُ ربُّهُ تباركَ وتعالَى مادحاً لهُ ومثنياً عليهِ بأعلَى صفاتِ النُّفوسِ التقيَّةِ النَّقيَّةِ المطمئنَّةِ فقالَ سبحانهُ: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} وقدْ ذكرهُ خاتمُ الأنبياءِ ﷺ بذكرٍ عَطِرٍ فوَّاحٍ مادحاً لهُ مثنيًا عليهِ بأعلَى صفاتِ النُّفوسِ المطمئنَّةِ فقالَ: "إنَّ الكريمَ بنَ الكريمِ بنَ الكريمِ بنَ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليهمُ السَّلامُ"[1].

(1) رواه البخاري (3210).

وإذَا كانتْ نفوسُ أفضلِ الخلقِ الأصفياءُ الخيارُ، أمَّارةٌ بالسُّوءِ ولوْ فِي وقتٍ دونَ وقتٍ! فأيُّ محلٍّ للعصمةِ بقِي؟! وهلْ أحدٌ بعدهمْ صلواتُ اللهُ وسلامهُ عليهمْ جميعاً تكونُ نفسهُ مطمئنَّةً؟؟!! واللهُ أعلمُ. (صدقَ الشَّيخُ زينُو)

وانظرْ لزاماً: (الإسرائيليَّاتِ فِي كتبِ التَّفسيرِ) لأبِي شهبةَ فإنَّهُ قدْ أجادَ وأفادَ.

انتهَى

ومَا ذكرتهُ منْ كلامِ الشَّيخِ جميلٍ هوَ الشَّيئُ اليسيرُ منْ تعليقاتهِ علَى تفسيرِ السَّعدِي، لكنْ ليسَ كلُّ تعليقاتهِ مجزومًا بصحَّتهَا، فقدْ ردَّ بعضُ المشايخِ معظمَ مَا سبقَ ذكرهُ بأدلَّةٍ كافيةٍ وافيةٍ وأثبتَ بعظهَا[1] وبهذَا نخرجُ أنَّ تفسيرَ السَّعدِي فيهِ أقلُّ مآخذًا بلْ لَا تعدُّ مآخذًا هذَا إنْ كانَ دارسُ الكتابِ طالبًا لَا باحثًا مختصًّا، وتفسيرُ السَّعدِي منْ أكثرِ كتبِ التَّفسيرِ قبولًا وتزكيةً منَ العلماءِ، ثمَّ إنَّ هذَا الكتابَ هوَ بدايةُ كلِّ مختصٍّ فِي التَّفسيرِ، فرحمَ اللهُ إمامنَا السَّعدِي رحمةً واسعةً وجزاهُ عنِ الأمَّةِ كلَّ خيرٍ.

(1) انظر مدونة أبي جعفر عبد الله بن فهد الخليفي – نقض انتقادات محمد جميل زينو على تفسير عبد الرحمن السعدي.



9) المختصرُ فِي التَّفسيرِ لجماعةٍ منْ علماءِ المسلمينَ:

يُعدُّ كتابُ المختصرِ فِي التَّفسيرِ منْ أصحِّ الكتبِ علَى جميعِ الأوجهِ، كمَا إنَّهُ يناسبُ جميعَ فئاتِ المجتمعِ الإسلامِي بكلِّ شرائحهِ، فقدْ كتبَ متنَ هذَا التَّفسيرِ:

1) "الشَّيخُ محمَّدٌ المختارُ الشِّنقيطِي" كتابةً أوَّليَّةً

2) وكتبَ السَّابقُ نفسهُ معَ "الشَّيخِ الدُّكتورِ زيدٌ بنِ عمرَ العيصِ" (أستاذُ الدِّراساتِ القرآنيَّةِ بجامعةِ الملكِ سعودٍ سابقًا) فوائدَ الآياتِ وهدايتهَا فتقاسماهَا مناصفةً.

3) وكتبَ "الشَّيخُ الدُّكتورُ محمَّدٌ بنُ عبدِ اللهِ الرَّبيعةَ" (الأستاذُ المشاركُ فِي القرآنِ وعلومهِ بجامعةِ القصيمِ) مقاصدَ السُّورِ[1].

ثمَّ كلَّفَ مركزُ تفسيرٍ للدِّراساتِ القرآنيَّةِ جماعةً منْ علماءِ التَّفسيرِ المشهودِ لهمْ بالكفاءةِ والعلمِ بهذَا الفنِّ منْ مختلفِ دولِ العالمِ الإسلاميِّ بمراجعةِ التَّفسيرِ وتقويمهِ أثناءَ الكتابةِ مرحلةً مرحلةً، وتحكيمِ منهجهِ، فقامَ كلُّ واحدٍ منهمْ بتحكيمِ أجزاءٍ متفرِّقةٍ منْ هذَا التَّفسيرِ حتَّى اكتملَ، وهمْ:

1) أ. د. "أحمد خالد شكري" الجامعةُ الأردنيَّةُ – الأردن.

2) أ. د. "أحمد سعد الخطيب" جامعةُ الأزهرِ – مصر.

3) أ. د. "أحمد بزوي الضاوي" جامعةُ شعيبُ الدُّكالِي – المغرب.

4) د. "حسين بن علي الحربي" جامعةُ جازانَ – السعوديَّةُ.

5) د. "خالد بن عثمان السبت" جامعةُ الدمامِ – السعوديَّةِ.

6) أ. د. "سعيد الفلاح" جامعةُ الزَّيتونةِ – تونس.

7) أ. د. "صالح بن يحيى صواب" جامعةُ صنعاءَ – اليمن.

8) أ. د. "غانم قدوري الحمد" جامعةُ تكريتَ – العراق.

9) د. "محمد بن عبد الله القحطاني" جامعة الملك خالد – السعودية.

---

(1) مقدِّمة المختصر في التَّفسير الطَّبعة الثَّالثة.

وتولَّتْ مهمَّةَ الإشرافِ العلمِيِّ علَى المشروعِ، ومتابعتهِ فِي جميعِ مراحلهِ: لجنةٌ علميةٌ مكوَّنةٌ منْ:

1) أ. د. "مساعد بن سليمان الطَّيَّار" الأستاذُ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.

2) أ. د. "عبد الرحمن بن مَعَاضة الشِّهري" الأستاذُ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.

3) د. "أحمد بن محمد البريدي" الأستاذُ المشاركُ بجامعةِ القصيمِ.

4) د. "ناصر بن محمد الماجد" الأستاذُ المشاركُ بجامعةِ الإمامِ محمَّدٍ بنِ سعودٍ الإسلاميَّةِ.

كمَا كلَّفَ المركزُ ثلاثةً منْ أساتذةِ العقيدةِ المتخَصِّصينَ بمراجعتهِ منَ الجانبِ العقديِّ؛ رغبةً فِي سلامتهِ ممَّا قدْ يقعُ فيهِ منَ الخطأِ فِي هذَا الجانبِ، وهمْ:

1) الأستاذُ الدكتورُ: "سهل بن رفاع العتيبي" أستاذُ العقيدةِ والمذاهبِ المعاصرةِ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.

2) والأستاذُ الدكتورُ: "عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف" أستاذُ العقيدةِ والمذاهبِ المعاصرةِ بجامعةِ الإمامِ محمَّدٍ بنِ سعودٍ الإسلاميَّةِ.

3) والدُّكتورُ: "عبد الله بن عبد العزيز العنقري" أستاذُ العقيدةِ المشاركِ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.

وقدْ قامُوا بمراجعتهِ كلٌّ علَى حدةٍ، وأفادُوا بملاحظاتٍ وتصويباتٍ قيِّمةٍ؛ فجزاهمْ اللهُ خيرًا.

ثمَّ أَوْكَلَ المركزُ إلَى الأستاذِ الدُّكتورِ مساعدَ بنِ سليمانَ بنِ ناصرٍ الطَّيَّارِ مراجعةَ المختصرِ كاملًا؛ للنَّظرِ فِي الملاحظاتِ والمقترحاتِ التِي وصلَتْ منَ القُرَّاءِ للتَّفسيرِ فِي طبعتيهِ الأولَى والثَّانيةِ، فقامَ باختيارِ نخبةٍ منْ طلبةِ العلمِ المتخصِّصينَ منْ طلَّابهِ يقرؤونَ المختصرَ معهُ صفحةً صفحةً، ويقفونَ علَى كلِّ الملاحظاتِ التِي وصلتْ، وينظرونَ فيمَا يقفونَ عليهِ كذلكَ، ومَا احتاجَ إلَى

إعادةِ صياغةٍ أعادُوا صياغتَهُ؛ مستفيدِينَ منْ صياغةِ الإمامِ ابنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ فِي المقامِ الأَوَّلِ، كمَا قامُوا بإعادةِ صياغةِ مَا يحتاجُ إلَى صياغةٍ منْ مقاصدِ السُّورِ أوْ منَ الفوائدِ، وتمَّ الاقتصارُ علَى ثلاثِ فوائدَ غالبًا فِي كلِّ صفحةٍ. وفِي حالِ الاختلافِ فِي التَّفسيرِ، رأتِ اللَّجنةُ الاعتمادَ علَى إمامِ المفسِّرينَ ابنِ جريرٍ الطَّبريِّ؛ لسلامةِ منهجِهِ، وكثرةِ اعتمادهِ علَى التَّفسيرِ المنقولِ عنِ النَّبيِّ ﷺ وعلَى المنقولِ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأتباعهمْ رضيَ اللهُ عنهمْ[1].

فقدِ اجتمعَ علَى خدمةِ هذَا الكتابِ تسعةَ عشرَ عالمًا، وهذَا الكتابُ هوَ أصحُّ كتابٍ علَى وجهِ الأرضِ فِي زَمننَا.

---

(1) مقدَّمة المختصر في التَّفسير الطَّبعة الثَّالثة.

المنهجُ المتبَّعُ فِي كتابِ المختصرِ فِي التَّفسيرِ:

1) وضوحُ العبارةِ وسهولتهَا.

2) الاقتصارُ علَى تفسيرِ الآياتِ وبيانِ معانيهَا دونَ دخولٍ فِي مسائلِ القراءاتِ والإعرابِ والفقهِ ونحوهَا.

3) شرحُ المفرداتِ القرآنيَّةِ الغريبةِ أثناءَ التَّفسيرِ وتمييزِ الشَّرحِ بلونٍ مختلفٍ بقدرِ الاستطاعةِ ليسهلَ الوقوفُ عليهِ لمنْ أرادهُ.

4) اتِّباعُ منهجِ سلفِ الأمَّةِ رضوانُ اللهِ عليهمْ فِي التَّفسير وفِي بيانِ معانِي آياتِ الصَّفاتِ خصوصًا باتِّباعِ مَا دلَّ عليهِ القرآنُ والسُّنَّةُ دونَ تأويلٍ أوْ تحريفٍ.

5) تحرِّي المعنَى الأرجحِ عندَ الاختلافِ، معَ مراعاةِ ضوابطَ التَّفسيرِ وقواعدِ التَّرجيعِ.

6) ذكرُ بعضِ هداياتِ الآياتِ وفوائدهَا فِي أسفلِ كلِّ صفحةٍ بمَا يُعِينُ علَى تدبُّرِهَا وتمامِ الانتفاعِ بهَا، تحتَ عنوانٍ مستقلٍّ: منْ فوائدِ الآياتِ.

7) التَّقديمُ بينَ يديْ كلِّ سورةٍ ببيانِ زمانِ نزولهَا (مَكِّيَّةٌ أوْ مَدَنِيَّةٌ)، وبيانُ أهمِّ مقاصدهَا باختصارٍ.

8) جمعُ كلُّ مَا سبقَ وكتابَتُهُ علَى حاشيةِ المصحفِ الشَّريفِ [1].

---

1) مقدَّمة المختصر في التَّفسير الطَّبعة الثَّالثة.

المآخذُ علَى كتابِ المختصرِ فِي التَّفسيرِ:

بعدَ مَا سبقَ ذكرهُ منَ عملِ العلماءِ فِي هذَا الكتابِ، يصعبُ أنْ تجدَ فيهِ مآخذًا، فهوَ عبارةٌ عنْ نوعٍ منَ الإجماعِ علَى تفسيرٍ معيَّنٍ، بلْ هوَ الإجماعُ بعينهِ، فكمَا سبقَ وذكرنَا أنَّهُ قدِ اجتمعَ علَى العملِ عليهِ تسعةَ عشرَ عالمًا، فحتَّى وإنْ وُجدتْ مآخذُ فيهِ، فيستحيلُ أنْ تكونَ هذهِ المآخذُ فِي متنِ التَّفسيرِ بفروعهِ منْ عقيدةٍ وغيرهَا، ومنَ الممكنِ أنْ تجدَ مآخذَ فِي غيرِ ذلكَ مثلَ الإخراجِ الفنِّيِّ للكتابِ أوْ طريقةِ التَّرتيبِ فِي التَّفسير ومَا إلَى ذلكَ، ومنْ ذلكَ أذكرُ ملحوظةً سجَّلتُهَا حالَ دراستِي لهذَا الكتابِ الجليلِ، أنَّهُ فِي تفسيرِ السُّورِ وبعدَ أنْ يذكرَ مقاصدَ السُّورةِ، وذكرِ معنَى اسمهَا يستفتحُ بالتَّفسيرِ ولا يذكرُ الآيةَ التِي يفسِّرهَا، بلْ يكتفِي بذكرِ رقمهَا، منْ ذلكَ مثلًا فِي سورةِ الفاتحةِ أوْ فِي أيِّ سورةٍ أخرَى يكتبُ فِي تفسيرِ الآيةِ: "(2) جميعُ أنواعِ المحامدِ منْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ..."، وهوَ يقصدُ تفسيرَ الآيةِ الثَّانيةِ منَ الفاتحةِ "الَحمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ"، وكذلكَ الأمرُ فِي طيَّاتِ الكتابِ، وبهذَا لَا يستطيعُ قراءةَ هذَا التَّفسيرِ إلَّا حاملٌ لكتابِ اللهِ تعالَى، بلْ يجبُ أنْ يكونَ حافظًا لأرقامِ الآياتِ أيضًا، وهذَا متعذِّرٌ حتَّى علَى المختصِّينَ فِي القراءاتِ، أوْ يجبُ عليهِ أنْ ينظرَ إلَى كلِّ رقمٍ علَى أيِّ آيةٍ يدلُّ، فينظرُ فِي الرَّقمِ ثمَّ يعودُ إلَى السُّورةِ فيقرأُ الآيةَ ثمَّ يعودُ إلَى تفسيرهَا، ومنَ الممكنِ أنْ ينساهَا إنْ كانَ ليسَ حاملًا لكتابِ اللهِ تعالَى، فيجبُ عليهِ حينهَا الرُّجوعُ مرَّةً أُخرَى للآيةِ، فتجدُ القارئَ متذبذبًا بينَ الآيةِ وتفسيرهَا، وحقيقةً هذَا مرهقٌ جدًّا فِي السُّورِ الطِّوالِ حتَّى لمنْ كانَ حاملًا للقرآنِ بكلِّ رواياتهِ، فإذَا تعبَ القارئُ تجدهُ يقرأُ

فِي التَّفسيرِ دونَ الآيةِ، حينهَا لَا يعلمُ تفسيرَ أيِّ آياتِ ذاكَ الذِي يقرأهُ، فمثلًا لوْ كتبتُ لكَ: سورةُ البقرةِ (225): "ومثلُ الذينَ يبذلونَ أموالهمْ طلبًا لمرضاتِ اللهِ، مطمئنَّةً أنفسهمْ بصدقِ وعدِ اللهِ غيرَ مكرهةً، كمثلِ بستانٍ علَى مكانٍ مرتفعٍ طيِّبٍ، أصابهُ مطرٌ غزيرٌ، فأنتجَ ثمرًا مضاعفًا ..."، فِي حالِ قراءةِ هذَا التَّفسيرِ وجبَ الرُّجوعُ إلَى الآيةِ وهوَ الأصلُ، فلَا يجدهَا القارءُ فِي متنِ التَّفسيرِ بلْ يجدُهَا فِي السُّورةِ، فغايةُ الأمرِ أنَّ فصلَ الآياتِ عنْ متنِ التَّفسيرِ يتعبُ القارءَ، فياليتَ أنَّ تعادَ صياغةُ هذَا الكتابِ الجليلِ ليكونَ كعامةِ كتبِ التَّفسيرِ بأنْ تُذكرَ الآيةَ ثمَّ يذكرُ تفسيرهَا أمامهَا ليسهلَ الأمرَ علَى المختصِّ وعلَى غيرِ المختصِّ، ومعَ هذَا فمَا سبقَ ذكرهُ لَا يعدُّ مأخذًا علَى هذَا التَّفسيرِ الجليلِ، بلْ هوَ مجرَّدُ ملاحظةٍ لتسهيلِ الأمرِ علَى القرَّاءِ، ويبقَى كتابُ المختصر فِي التَّفسيرِ أحسنَ كتبِ عصرهِ، فباركَ اللهُ فِي كلِّ منْ شاركَ فِي هذَا العملِ المباركِ وجزاهمُ الجنَّةَ علَى ذلكَ.



تفاسيرٌ يجبُ الوقوف عليها

هناكَ جملةٌ منْ كتبِ التَّفسيرِ لَا يمكنُ لأيِّ أحدٍ أنْ يقرأهَا، سيَّمَا المبتدؤونَ منْ طلبةِ العلمِ، فقدْ يزلُّ البعضُ بسببِ محتواهَا زللًا كبيرًا، خاصَّةً فِي العقيدةِ، ومنهَا:

1) الكشفُ والبيانُ عنْ تفسيرِ القرآنِ، لمؤلِّفهِ: أبِي إسحاقَ أحمدَ بنِ محمَّدٍ بنِ إبراهيمَ الثَّعلبِي، ت 467 هـ.

يُلاحظُ علَى هذَا التَّفسيرِ:

أ) الإكثارُ منْ ذكرِ الإسرائيليَّاتِ دونَ تعقيبٍ، معَ ذكرهِ لقصصٍ إسرائيليَّةٍ غريبةٍ.

ب) الاغترارُ بالأحاديثِ الموضوعةِ فِي فضائلِ السُّورِ، سورةً سورةً، فروَى فِي نهايةِ كلِّ سورةٍ حديثًا فِي فضلهَا منسوبًا إلى أُبَيْ بنِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

ج) الاغترارُ بكثيرٍ منَ الأحاديثِ الموضوعةِ علَى ألسنةِ الشِّيعةِ دونَ الإشارةِ إلَى كونهَا موضوعةٌ مكذوبةٌ[1].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ:

والثَّعلبِي هوَ فِي نفسهِ فيهِ خيرٌ ودينٌ، وكانَ حاطبًا فِي اللَّيلِ، ينقلُ مَا وجدَ فِي كتبِ التَّفسيرِ منْ صحيحٍ وضعيفٍ وموضوعٍ[2].

(1) كتاب التفسير / مجموعة زاد للعلوم الشرعية – المستوى الأول / ص 26/ محمد صالح المنجد.

(2) مقدِّمة في أصول التفسير لابن تيمية.



2) روحُ المعانِي فِي تفسيرِ القرآنِ العظيمِ والسَّبعِ المثانِي، لمؤلِّفهِ: أبِي الثَّناءِ شهابِ الدِّينِ السيِّدِ محمودٍ الأفندِي الألوسِي، ت 1270 هـ[1]. يُنظر الهامش

وهوَ تفسيرٌ كبيرٌ، منْ يطَّلعُ عليهِ يجدُ نفسهُ أمامَ موسوعةٍ تفسيريَّةٍ كبيرةٍ، جمعَ فيهِ المؤلِّفُ أقوالًا فِي التَّفسيرِ كثيرةً، كمَا أنَّهُ رجعَ إلَى جملةٍ كبيرةٍ منَ التَّفاسيرِ، منهَا تفسيرُ أبِي السُّعودِ، والبيضاوي وتفسيرِ الفخرِ الرَّازِي، كمَا نقلَ عنْ تفسيرِ ابنِ عطيَّةَ وأبِي حيَّانَ والزَّمخشرِي وابنِ كثيرٍ وغيرهِمْ.

لكنْ يعيبُ هذَا التفسيرَ: اهتمامهُ بالتَّفسيرِ الإشارِي الصُّوفِي، فإذَا انتهَى منَ التَّفسيرِ الظَّاهرِ تكلَّمَ عنِ التَّفسيرِ الباطنِي، فينقلُ فيهِ كلامَ الصُّوفيَّةِ، كالجنيدِ وابنِ عطاءٍ وأبِي العبَّاسِ المرسِي، وهيَ تفاسيرُ شاذَّةٌ بعيدةٌ عنِ الحقِّ[2].

فمن أرادَ تفسيرَ آيةٍ يكفيهِ منْ سبقَ ذكرهمْ كالطَّبري وابنِ الكثيرِ وغيرهِمْ، فقدْ كفُّوا ووفُّوا.

---

(1) كان سلفي العقيدة، وشافعي المذهب. وقد أثبت صفة العلو لله تعالى في تفسيره فقال: "وتأول بعضهم كل نص فيه نسبة الفوقية إليه تعالى بأن فوق فيه بمعنى خير وأفضل كما يقال: الأمير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم. وأنت تعلم أن هذا مما تنفر منه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة فإن قول القائد ابتداء: الله تعالى خير من عباده أو خير من عرشه من جنس قوله: الثلج بارد والنار حارة والشمس أضوأ من السراج والسماء أعلى من سقف الدار ونحو ذلك وليس في ذلك أيضا تمجيد ولا تعظيم لله تعالى بل هو من أرذل الكلام فكيف يليق حمل الكلام المجيد عليه وهو الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، على أن في ذلك تنقيصا لله تعالى شأنه ففي المثل السائر:

ألم تر أنَّ السيف ينقص قدره * إذا قيل إن السيف خير من العصا

المراجعُ: ضميرية، ناصر. "استعادة ابن تيمية: عائلة الآلوسي في العراق ودورها في نشر الفكر السلفي".

"الإمام الآلوسي وكتابه \ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني\".

"علامة العراق الألوسي ولزومه منهج السلف".

(2) كتاب التفسير / مجموعة زاد للعلوم الشرعية – المستوى الأول / صـ 27/ محمد صالح المنجد.



البابُ الثَّالثُ

وفيهِ فصلٌ واحدٌ:

شرحُ رسالةِ السَّعدِي المسمَّاتِ بـ :

"أصولٍ وكلِّياتٍ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنِي عنهَا مفسِّرُ القرآنِ".

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الحمـدُ للهِ الـذِي تطــوَّلَا * وشرعَ الدِّينَ لنَا وأصَّــــــلَا

ثمَّ الصَّلاةُ والسَّلامُ أرسلَا * علَى نبيٍّ قدْ أبانَ السُّبــــــلَا

محمَّدٍ والآلِ والأصحابِ * مَا استنبطَ الأحكامُ منْ كتابِ[1]

وبعدُ:

فمنْ جملةِ كتبِ أصولِ التَّفسيرِ المعتبرةِ اخترتُ هذهِ الورقاتِ وهيَ رسالةُ إمَامنَا السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى المسمَّاتِ بـ "أصولٍ وكلِّياتٍ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنِي عنهَا مفسِّرُ القرآنِ"، وهذَا لسهولتهَا وبساطتهَا، فهذهِ هيَ طريقةُ العلَّامةُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى، فهوَ يُبلِّغُ المعلومةَ بأسهلِ الطُّرقِ الممكنةِ كيْ يفهمهَا الرَّاسخُ فِي علمٍ وغيرهِ، وهذَا هوَ المرادُ منَ التَّأليفِ وهوَ أنْ تصلَ المعلومةُ إلَى جميعِ شرائحِ المجتمعِ الإسلاميِّ، ولَا تُخصُّ بهَا طائفةٌ دونَ غيرهَا، معَ مراعاتِ كلِّ المستوياتِ، فكانتِ الورقاتُ التِي كتبهَا إمامنَا رحمهُ اللهُ تعالَى علَى هذَا النَّهجِ، وكنتُ قدْ جمعتُ مَا فِي مقدِّمةِ تفسيرهِ رحمهُ اللهُ تعالَى معَ رسالتهِ المسمَّات بـ "أصول وكلِّيَّتٍ منْ أصولِ التَّفسيرِ" فِي كتيِّبٍ صغيرٍ وأسميتُهُ (ورقاتٌ فِي أصولِ التَّفسيرِ) ولكنِّي رأيتُ ألَّا بدَّ منْ شرحِ كلامهِ رحمهُ اللهُ تعالَى، ولمَّا كانَ الكُتَيِّبُ الذِي جمعتهُ (ورقاتٌ فِي أصولِ التَّفسيرِ) منْ بابينِ، بابٌ منْ كتابِ "بدائعِ الفوائدِ" لابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى،

(1) منظومة القواعد الفقهية لعثمان بن سند المالكي البصري- (ت: 1242 أو 1250 هـ).

وبابٌ منْ كلامِ شيخنَا السَّعدِي (أصولٌ وكلِّياتٌ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنَى عنهَا مفسِّرُ القرآنِ) اقتصرتُ علَى شرحِ كلامِ الشيَّخِ السَّعدِي، معتمدًا فِي بعضهِ علَى كتابهِ "القواعدُ الحسانُ المتعلَّقةُ بتفسيرِ القرآنِ" هذَا بشرحِ كلامهِ منْ رسالتهِ (أصولٌ وكلِّيَّاتٌ) وكلامهِ منْ كتابِ (القواعدُ الحسانُ)، ولمَّا كانتْ رسالتهُ رحمهُ اللهُ تعالَى (أصولٌ وكلِّيَّاتٌ) فيهَا شيءٌ منْ قواعدِ التَّفسير وأصولهِ وكلِّياتهِ وشيءٌ منَ التَّعريفاتِ، اضطررتُ لشرحهَا كلِّهَا، لذلكَ تجدُ الكتابَ فيهِ كثيرًا منَ الاستطراداتِ العلميَّةِ والنُّكتِ، كمَا أنِّي أكتفيتُ بالفصلِ الأوَّلِ من رسالتهِ رحمهُ اللهُ تعالَى، لأنَّ الفصلَ الثَّانِي شرحَ فيهِ أسماءَ اللهِ الحسنَى شرحًا اصطلاحيًّا فِي الغالبِ، واللهَ أرجُو أنْ يجعلَ هذَا العملَ خالصًا لوجههِ الكريمِ، وأنْ يجعلنَا منْ عبادهِ المخلصينَ، وأنْ يغفرَ لنَا ولوالدينَا ومشايخنَا وجميعِ المسلمينَ، وأنْ يرحمَ الإمامَ السَّعدِي رحمةً واسعةً، فهوَ وليُّ ذلكَ وهوَ علَى كلِّ شيءٍ قديرٍ.

وكتبَ

الدكتور: عصام الدِّين إبراهيم النقيلي

غفرَ الله له ووالديهِ ومشايخه والمسلمين

آمين.



أصولٌ وكلِّيَّاتٌ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنَى عنهَا مفسِّرُ القرآنِ

شرحُ العنوانِ:

قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى: "أصولٌ وكلِّيَّاتٌ" أمَّا أصولٌ فجمعُ أصلٍ وقدْ سبقَ تعريفهُ فِي أوَّلِ الكتابِ.

وأمَّا كليَّاتٌ فِي اللُّغةً:

جمعُ كليَّةٍ، والكليَّةُ منسوبةٌ إلَى كلمةِ (كل)، وقدْ أعادَ ابنُ فارسَ مادَّةَ "الكافِ واللَّامِ" فِي اللُّغةِ إلَى ثلاثةِ أصولٍ صحاحٍ وقالَ: "(كل) الكافُ واللَّامُ أصولٌ ثلاثةٌ صحاحٌ، فالأوَّلُ يدلُّ علَى خلافِ الحدَّةِ، والثَّانِي يدلُّ علَى إضافةِ شيءٍ بشيءٍ، والثَّالثُ عضوٌ منَ الأعضاءِ"، (والمناسبُ منهَا هنَا هوَ الثَّانِي، الذِي يدلُّ علَى إضافةِ شيءٍ بشيءٍ)، ثمَّ قالَ فِي آخرِ كلامهِ علَى هذهِ المادَّةِ:"فأمَّا كلٌّ فهوَ اسمٌ موضوعٍ للإحاطةِ"[1].أهـ

أوْ: كلمةٌ تستعملُ بمعنَى الاستغراقِ بحسبِ المقامِ[2].

ومنهُ: الكلالةُ[3] لإحاطتهَا بالوالدِ والولدِ، ونحوِ ذلكَ.

---

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، (باب: الكاف وما يطابقها من الثنائي) أو (المطابق)، ص: 902 – ويُنظرُ: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (770هـ) – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (مادة: ك ل ل)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م،(278/1).

(2) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (538/2).

(3) الكلالة: تعريف الكلالة لغة: الكلالة مشتقة من الإكليل. لأن الإخوة يحيطون بالميت كالإكليل. وقيل من الكلل وهو الضعف والتعب لأن الذي ليس له ولد ولا والد يصبح ذكره ضعيفًا.
تعريفها اصطلاحًا: هو ميراث الميت الذي ليس له ولد ولا والد. وقيل أنها اسم للورثة من الإخوة.

الكلِّياتُ اصطلاحًا:

بعدَ التَّعريفِ اللُّغويِّ، يمكنُ أنْ نُشيرَ إلَى بعضِ مَا قيلَ فِي المرادِ بِ (الكلِّياتِ) فِي اصطلاحِ المؤلِّفينَ فِي أصولِ التَّفسيرِ، حيثُ قيلَ بأنَّهَا: "ورودُ لفظٍ أوْ أسلوبٍ فِي القرآنِ علَى معنًى أوْ طريقةٍ مطَّردةٍ أوْ أغلبيَّةٍ"(1).

شرحُ التَّعريفِ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: الفرقُ بينَ الألفاظِ والأساليبِ: وهوَ أنَّ كلِّيَّاتِ الألفاظِ مدارهَا علَى لفظٍ أوْ ألفاظٍ أوْ جملةٍ معيَّنةٍ، سواءٌ كانَ ذلكَ متعلِّقاً بورودِ اللَّفظِ علَى معنًى معيَّنٍ، أوْ علَى طريقةٍ معيَّنةٍ، فِي حينِ أنَّ المدارَ فِي كلِّيَّاتِ الأساليبِ ليسَ الألفاظُ، بلِ الموضوعاتُ والقضايَا وكيفيَّةِ ورودهَا فِي نظمِ القرآنِ وطريقةِ ذلكَ، ويمكنُ أنْ يُمَثَّلَ لكلِّيَّاتِ الأساليبِ بقولِ ابنِ القيِّمِ: "وهذهِ طريقةُ القرآنِ يقرنُ بينَ أسماءِ الرَّجاءِ وأسماءِ المخافةِ، كقولهِ تعالَى: {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[المائدة:98](2).

الثَّانِي: الفرقُ بينَ المعنَى والطَّريقةِ، وهذَا يمكنُ توضيحهُ بأنْ يقالَ: إنَّ الكلِّيَّةَ قدْ تتعلَّقُ بورودِ لفظٍ علَى معنًى معيَّنٍ فِي جميعِ القرآنِ، كقولهمْ: (كلُّ ظنٍّ فِي القرآنِ فهوَ يقينُ) وقدْ تكونُ متعلِّقةً بورودِ لفظٍ لَا علَى معنًى بلْ علَى طريقةٍ أوْ منهجٍ أوِ استعمالٍ معيَّنٍ، وذلكَ مثلَ قولهمْ: (كلُّ زعمٍ فِي القرآنِ فقدْ ذُمَّ القائلونَ بهِ).

---

(1) بريك القرني، كليات الألفاظ في التفسير، رسالة ماجستير، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، 1426هـ، (19/1)، – مساعد بن سليمان الطيار، "فصول في أصول التفسير"، ص:122، – علي العبيد، "تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه"، ص: 120 .

(2) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (751هـ) ،جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ، تحقيق :شعيب الأرناؤوط ، ص174.

الثَّالثُ: الفرقُ بينَ المطَّردةِ والأغلبيَّةِ: وهوَ أنَّ المطَّردةَ هيَ الكلِّيَّةُ المتحقِّقةُ فِي جميعِ مواطنِ ورودهَا فِي القرآنِ، فإذَا خرجَ موطنٌ أوْ أكثرَ لمْ تتحقَّقْ فيهِ ولكنِ المواطنُ المتحقِّقةُ فيهَا أغلبُ، فهيَ أغلبيَّةٌ[1].

وأمَّا قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى في التَّعريفِ "منْ أصولِ التَّفسيرِ" قدْ سبقَ تعريفُ التَّفسيرِ فِي أوَّلِ الكتابِ، ولعلَّ "منْ" يقصدُ بهَا جزءًا منَ الكلِّيَّاتِ والأصولِ لَا كلِّهَا.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: "لَا يستغنَى عنهَا مفسِّرُ القرآنِ"، والمفسِّرُ فِي اللُّغةِ هوَ "الموضِّحُ للشَّيء، تقولُ: وضَّحَ نصوصًا: شرحهَا وفسَّرهَا"[2].

واصطلاحًا هوَ: العالمُ الملمُّ بجلِّ علومِ الشَّريعةِ فهمًا وحفظًا أصولًا وفروعًا، وخاصَّةً علومَ الأثرِ واللُّغةِ وفروعهَا.

والقرآنُ لغةً فيهِ قولانِ، الأوَّلُ: أنَّ القرآنَ اسمُ عَلَمٍ علَى كتابِ اللهِ تعالَى ليسَ مشتقًّا، والثَّانِي: أنَّهُ مشتقٌّ منْ فعلٍ مَهْموزٍ، وهوَ: "قرأَ، اقرأْ"، وقيلَ أنَّهُ مصدرٌ منَ الفعلِ قرأَ، تقولُ: قرأَ قرآنًا، وقيلَ غيرَ ذلكَ، وكلُّهاَ تدورُ علَى معنًى واحدٍ، فإنْ كانَ مشتقًّا فمعناهُ تعلَّمْ وتدبَّرْ، وإنْ كانَ مصدرًا فمعناهُ الجمعُ.

واصطلاحًا هوَ: "كلامُ اللهِ تعالَى المُنزَّلِ علَى نبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ، المُعْجزِ بلفْظهِ ومعناهِ، المُتعبَّدِ بتلاوتهِ، المنقولِ إلينَا بالتَّواترِ، المكتوبِ فِي المصاحفِ منْ أَوَّلِ سورةِ الفاتحةِ إلَى آخرِ سورةِ النَّاسِ"[3].

(1) لمزيد منَ التَّوضيح يُنظرُ رسالة "أثر معرفة الكليات والأفراد في القرآن الكريم" – د. صالح بن سعود سليمان السعود. " المبحث الأول الكليات والأفراد، وعلاقتها بالوجوه والنظائر المطلب الأول : تعريف الكليات والأفراد لغة".

(2) معجم المعاني.

(3) للمزيدِ يُنظر: موقع الألوكة: "التعريف بالقرآن الكريم لغة واصطلاحا" – د. أمين الدميري.



ثمَّ شرعَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فقالَ:

النَّكرةُ فِي سياقِ النَّفيِ، أوْ سياقِ النَّهيِ، أوِ الاستفهامِ، أوْ سياقِ الشَّرطِ، تعمُّ، وكذلكَ المفردُ المضافُ يعمُّ، وأمثلةُ ذلكَ كثيرةٌ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

والقاعدةُ أصلهَا فِي كتابِ "القواعدِ الحسانِ" للمؤلِّفِ رحمهُ اللهُ تعالَى، وهيَ: "إذَا وقعتِ النَّكرةُ فِي سياقِ النَّفيِ أوِ النَّهيِ أوِ الشَّرطِ أوِ الاستفهامِ، دلَّتْ علَى العمومِ"(1).

مثالٌ للقاعدةِ فِي سياقِ النَّفيِ: قولهُ تعالَى: {يَوْمَ لَا تَملِكُ نَفسٌ لِنَفسٍ شَيْئًا} [الإنفطار: 19] يعمُّ كلَّ نفسٍ، وأنَّهُ لَا تملكُ شيئًا منَ الأشياءِ، لَا إصالِ المنافعِ، ولَا دفعِ المضارِ(2).

وقالَ ابنُ عاشورٍ: "وعمومُ (نفسٍ) الأولَى والثَّانيةِ فِي سياقِ النَّفيِ يقتضِي عمومَ الحكمِ فِي كلِّ نفسٍ"(3).

مثالٌ فِي سياقِ النَّهيِ: قولهُ تعالَى: {وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}[النِّساء: 36] فإنَّهُ تعالَى نهَى الشِّركَ بهِ فِي النِّيَّاتِ والأقوالِ والأفعالِ، وعنِ الشركِ الأكبرِ والأصغرِ، والخفيِّ والجليِّ،...(4).

مثالٌ للقاعدةِ فِي سياقِ الاستفهامِ: قولهُ تعالَى: {هَلْ منْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[فاطر: 3].

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي ص 22.

(2) السَّابق.

(3) التَّحرير والتنوير لابن عاشور.

(4) مقدِّمة تفسير السَّعدي.
~~~~~~~~~~~

إنَّ الاستفهامَ فِي هذِهِ الآيةِ استفهامٌ إنكاريٌّ، وهوَ بمعنَى النَّفيِ، ولذلكَ اقترنَ بِ (من) التِي تُزادُ لتأكيدِ النَّفيِ، وكذلكَ قالَ الطَّنطاوِي فِي الوسيطِ وابنُ عاشورٍ فِي التَّحرير، وإنْ كانَ الأمرُ كذلكَ فالاستفهامُ هنَا يعمُّ، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ}[الأنعام: 46]، هذَا أيضًا نكرةٌ فِي سياقِ الاستفهامِ الإنكارِي، وأمَّا إذَا كانتْ فِي سياقِ الاستفهامِ غيرِ الإنكارِي فإنَّهَا لَا تدلُّ علَى العمومِ بلْ هيَ للإطلاقِ؛ لأنَّهُ لَا يرادُ بهِ النَّفيِ، وهيَ إنَّمَا كانتْ للعمومِ فِي سياقِ الاستفهامِ الإنكارِي لأنَّ الاستفهامَ الإنكارِيَّ بمنزلةِ النَّفيِ، فإنَّ قولهُ تعالَى: {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ}[القصص: 71] يوازنُ قولَ: "لَا إلهَ غيرَ اللهِ يأتيكمْ بضياءٍ" ولهذَا كانتِ النَّكرةُ فِي سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ دالَّةٌ علَى العمومِ، فلوْ قلتُ: "أرجلاً أكرمتَ" استفهامٌ يقصدُ بهِ الاستعلامُ لَا الإنكارُ، فهذَا ليسَ للعمومِ؛ لأنَّهَا نكرةٌ فِي سياقِ الاستفهامِ لغيرِ الإنكارِ، ولكنَّهَا للاستعلامِ[1] ونخرجُ بأنَّ الذِي يعمُّ هوَ الاستفهامُ الإنكارِي.

مثالٌ للقاعدة فِي سياقِ الشَّرطِ: قولهُ تعالَى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ}[يونس: 107] فقولهُ تعالَى: "بِضُرٍّ" ضُرٍّ نكرةٌ جاءتْ فِى سياقِ الشَّرطِ، فهيَ تفيدُ العمومَ أيْ تشملُ كلَّ الضرِّ فِى المالِ والصحَّةِ وكلِّ شيءِ، والشَّرطُ عندَ النُّحاةِ هوَ: تعليقُ وقوعِ أمرٍ وحصولهِ علَى أمرٍ آخرَ"[2].

(1) الشرح الكبير لمختصر الأصول لأبي المنذر المنياوي بتصرف.
(2) شرح المفصل لموفق الدين بن يعيش النحوي 1/155.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكذلكَ المفردُ المضافُ يعمُّ.

مثالٌ تعميم المفردُ المضافُ: قولهُ تعالَى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[الضحى: 11] **فالمفردُ المضافُ إلَى معرفةٍ يعمُّ، والمفردُ هوَ: "الاسمُ الدالُّ على الواحد"، فقولهُ تعالَى (بِنِعْمةِ ربِّكَ) فلفظةُ "نعمةِ" مفردٌ وأُضيفَ إلَى معرفةٍ وهوَ "ربِّكَ" فأفادتِ العمومَ، قالَ ابنُ عاشورٍ: "وليسَ المرادُ بنعمةِ ربِّكَ نعمةً خاصةً، وإنَّمَا أُريدَ الجنسُ، فيفيدُ عموماً فِي المقامِ الخَطابِي، أيْ حدِّثْ مَا أنعمَ اللهُ بهِ عليكَ منَ النِّعمِ، فحصلَ فِي ذلكَ الأمرِ شكرُ نِعمةِ الإِغناء، وحصلَ الأمرُ بشكرِ جميعِ النِّعمِ لتكونَ الجملةُ تذييلاً جامعاً"**[1].

(1) التَّحرير والتنوير لابن عاشور سورة الضحى.



ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فمتَى وجدتَ نكرةً واقعةً بعدَ المذكوراتِ، أوْ وجدتَ مفردًا مضافًا إلَى معرفةٍ، فأثبتْ جميعَ مَا دخلَ فِي ذلكَ اللَّفظِ، ولَا تعتبرْ سببَ النُّزولِ وحدهُ، فإنَّ "العبرةَ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ".

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ مهمَّةٌ جدًّا قدْ ذكرهَا السَّعدِي فِي كتابهِ "القواعدُ الحسانُ" وهيَ: العبرةُ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ.

أيْ: إذَا وردَ لفظٌ عامٌّ وسببٌ خاصٌّ، فإنَّهُ يحملُ علَى العمومِ، ولَا يختصُّ بالسَّببِ؛ فكلُّ عامٍّ وردَ لسببٍ خاصٍّ منْ سؤالٍ أوْ حادثةٍ، فإنَّهُ يُعمَلُ بعمومهِ، ولَا عبرةَ بخصوصِ سببهِ، لأنَّ الشَّريعةَ عامَّةٌ، فلوْ قصُرَ الحكمُ فيهَا علَى السَّببِ الخاصِّ، لكانَ ذلكَ قصورًا فِي الشَّريعةِ، والشَّريعةُ معروفٌ أنَّهَا لكلِّ العالَمينَ، ومَا دامتِ الشَّريعةُ عامَّةً، فلَا يُعقَلُ حصرُ نصوصهَا فِي أسبابٍ محدودةٍ وأشخاصٍ معدودينَ، وإنَّمَا يكونُ الأصلُ عمومُ أحكامهَا، إلَّا مَا دلَّ دليلٌ علَى خصوصيَّتهِ، فإنَّهُ يقصرُ علَى مَا جاءَ خاصًّا فيهِ[1].

منَ الأمثلةِ علَى ذلكَ: قولهُ تعالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾[النحل: 126]، الآيةُ نزلتْ بالمدينةِ فِي شهداءِ أُحدٍ، وذلكَ أنَّ المسلمينَ لمَّا رأَوا مَا فعلَ المشركونَ بقتلاهمْ يومَ أُحدٍ، منْ تبقيرِ البطونِ، والمُثْلةِ السيِّئةِ، حتَّى لمْ يبقَ أحَدٌ منْ قتلَى المسلمينَ إلَّا مُثِّلَ بهِ، غيرَ حنظلةَ بنِ الرَّاهبِ، فإنَّ أباهُ أبَا عامرٍ الرَّاهبَ كانَ معَ أبِي سفيانَ،

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي ص 18.
~~~~~~~~~~~

فتركوهُ لذلكَ، فقالَ المسلمونَ حينَ رأوْا ذلكَ: لئنْ أظهَرَنَا اللهُ عليهمْ لنزيدنَّ علَى صنيعهمْ، ولنُمثِّلنَّ بهمْ مُثلةً لمْ يفعلهَا أحَدٌ منَ العربِ بأحَدٍ[1]، فلمَّا قالُوا ذلكَ أنزلَ اللهُ تعالَى قولهُ: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ..."

فالعبرةُ هنَا بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ؛ فالآيةُ وإنْ نزلتْ فِي شهداءِ أُحدٍ، لكنَّهَا عامَّةٌ فيمنْ أرادَ القَصاصَ، فالقَصاصُ بالمِثلِ ولَا زيادةَ علَى ذلكَ، والتَّجاوزُ عنِ القِصاصِ بالمِثلِ والعفوِ خيرٌ وأبقَى[2].

كذلكَ عنْ أبِي هريرةَ قالَ: لقِيَنِي رسولُ اللهِ ﷺ وأنَا جُنبٌ، فأخذَ بيدِي، فمشيتُ معهُ حتَّى قعدَ، فانسللتُ، فأتيتُ الرَّحْلَ، فاغتسلتُ، ثمَّ جئتُ وهوَ قاعدٌ، فقالَ: (أينَ كنتَ يَا أبَا هِرٍّ؟)، فقلتُ لهُ، فقالَ: (سبحانَ اللهِ يَا أبَا هرٍّ، إنَّ المؤمنَ لَا ينجسُ)[3].

الشَّاهدُ: قولُ النَّبِيِّ ﷺ بشأنِ فعلِ أبِي هريرةَ: (المؤمنُ لَا ينجسُ)، و(العبرةُ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ)؛ فألفاظُ الحديثِ عامَّةٌ؛ فأيُّ مؤمنٍ طاهرٍ ليسَ بنجسٍ، وليسَ الحكمُ لأبِي هريرةَ وحدهُ، بلْ هوَ لكلِّ مؤمنٍ.

لكنْ يجبُ التنبُّهُ لشيءٍ أنَّهُ ليسَ معنَى أنَّ (العبرةَ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ) أنْ نتغافلَ عنِ السَّببِ، فصورةُ السَّببِ قطعيَّةُ الدُّخولِ، ومَا عداهَا فدخولهُ ظنِّيٌّ، بمعنَى أنَّ سببَ نزولِ الآيةِ وسببَ ورودِ الحديثِ لَا يكونُ خاصًّا في منْ نزلتْ فيهِ الآيةُ، أوْ وردَ الحديثُ بسببهِ، وإنَّمَا يكونُ عامًّا شاملاً لغيرهِ، فالعامُ يشملُ جميعَ أفرادهِ وصورهِ، وصورةُ السَّببِ التِي نزلتِ الآيةُ منْ أجلهَا قطعيَّةُ الدُّخولِ.

---

(1) تفسير البغوي 3/ 103.

(2) عشرون تطبيقا على قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب- شبكة الألوكة - بتصرُّف.

(3) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم 285، ورواه مسلم في صحيحه حديث رقم 371.



ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: وينبغِي أنْ تنزلَ جميعُ الحوادثِ والأفعالِ الواقعةِ، والتِي لَا تزالُ تحدثُ، علَى العموماتِ القرآنيَّةِ، فبذلكَ تعرفُ أنَّ القرآنَ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، وأنَّهُ لَا يحدثُ حادثٌ ولَا يستجدُّ أمرٌ منَ الأمورِ، إلَّا وفِي القرآنِ بيانهُ وتوضيحهُ.

ومنْ أصولهِ أنَّ "الألفَ واللَّامَ الدَّاخلةِ علَى الأوصافِ، وعلَى أسماءِ الأجناسِ، تفيدُ استغراقَ جميعَ مَا دخلتْ عليهِ منَ المعانِي".

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وأصلُ هذهِ القاعدةِ فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ للمؤلِّفِ رحمهُ اللهُ تعالَى وهيَ: "الألفُ واللَّامُ الدَّاخلةُ علَى الأوصافِ وأسماءِ الأجناسِ، تفيدُ الاستغراقَ بحسبِ مَا دخلتْ عليهِ"[1].

فقولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى: "ومنْ أصولهِ (أيِ التَّفسيرِ) أنَّ الألفَ واللَّامَ الدَّاخلةِ علَى الأوصافِ، وعلَى أسماءِ الأجناسِ، تفيدُ استغراقَ جميعَ مَا دخلتْ عليهِ منَ المعانِي" أيْ منْ أصولِ التَّفسيرِ أنَّ (ال) الدَّاخلةِ علَى السَّابقِ ذكرهِ (الأوصافِ وأسماءِ الأجناسِ) تفيدُ الاستغراقَ، وهذهِ قاعدةٌ مهمَّةٌ، وهيَ أنَّ الألفَ واللَّامَ (ال) إذَا دخلتْ علَى الأوصافِ وعلَى أسماءِ الأجناسِ، تفيدُ ثبوتَ كلَّ مَا دلَّ عليهِ اللَّفظُ، وكلَّ مَا يندرجُ تحتهُ وينطوِي فِي ظلِّهِ، علَى حسبِ مَا يحتملهُ اللَّفظُ.

فكل اسم عُرِّف بالألف واللام لغير المعهود، يعم.

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير الفرآن للسعدي بتصرف – صـ 19.
~~~~~~~~~~~

والمعهود: هو ما دلَّ على ذات معيَّنة، ومنه لفظ "الرَّسول" في قوله تعالى: {فَعَصَى فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ}[الزمر: 16]، فالألف واللام من لفظ "الرَّسول" للعهد، وهو موسى، وتسمَّى (ال) العهديَّة.

وهو ثلاثة أنواع:

1 – الأوصاف: منه ألفاظ الجموع: كالمسلمين، والمحسنين، والمشركين، منه قوله تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[الحجر: 94]، فلفظ "المشركين" عامٌّ؛ لأنَّه استغرق جميع ما وُضع له.

2 – أسماء الأجناس: وهو ما لا واحد له من لفظه، كالنَّاس، والحيوان، منه قوله تعالى: {إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}[المعارج: 19] فهو عام لجنس الإنسان.

3 – لفظ الواحد: كالسارق، والزاني، منه قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}[المائدة: 38].

وقوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}[النور: 2].

فيشمل كل من انطبق عليه هذا الوصف(1).

كذلك ما أضيف ممَّا سبق إلى معرفة يعمُّ، كنساء زيد، ومال عمرو، ونعمت ربك.

مثال قوله تعالى: { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ}[الأحزاب: 32]. فالخطاب يعم جميع نساء النبي ﷺ، والجمع هنا يعم بصيغته، وإضافته.

وقوله تعالى: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ}[الليل: 18]، فالمال يشمل جنس المال لإضافته للضمير هو.

وقوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[الضحى:11]، فلفظةُ "نعمةِ" مفرد وأُضيفَ إلَى معرفةٍ وهوَ "ربِّكَ" فأفادتِ العمومَ.

(1) للمزيد والتفصيل يُنظر: المحصول للرازي 309، وشرح مختصر الروضة 2/458، والمسودَّة 574، ومذكرة في أصول الفقه 243. وغاية الوصول في شرح لب الأصولي لأبي زكريا الأنصاري 72، وروضة الناظر 2/669–665، وشرح الكوكب المنير 3/141–119، ومذكرة في أصول الفقه 242–247. الورقات للجوين 11. وابن اللحام ص 277.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ومنْ كلِّيَّاتِ القرآنِ: أنَّهُ يدعُوا إلَى توحيدِ اللهِ تعالَى ومعرفتهِ، بذكرِ أسماءِ اللهِ تعالَى، وأوصافهِ، وأفعالهِ الدَّالةِ علَى تفرُّدهِ بالوحدانيَّةِ، وأوصافِ الكمالِ، وإلَى أنَّهُ الحقُّ، وعبادتهُ هيَ الحقُّ، وأنَّ مَا يدعونَ منْ دونهِ هوَ الباطلُ، ويبيِّنُ نقصَ كلَّ مَا عُبدَ منْ دونِ اللهِ تعالَى منْ جميعِ الوجوهِ، ويدعُو إلَى صحَّةِ مَا جاءَ بهِ الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ وصدقهِ، ببيانِ إحكامهِ، وتمامهِ، وصدقِ إخباراتهِ كلِّهَا، وحسنِ أحكامهِ، ويبيِّنُ مَا كانَ عليهِ الرَّسولُ ﷺ، منَ الكمالِ البشريِّ الذِي لَا يلحقهُ فيهِ أحدٌ منَ الأوَّلينَ والآخرينَ، ويتحدَّاهمْ بأنْ يأتُوا بمثلِ مَا جاءَ بهِ إنْ كانُوا صادقينَ، ويقرِّرُ ذلكَ بشهادتهِ بقولهِ وفعلهِ وإقرارهِ إيَّاهُ، وتصديقهِ لهُ بالحجَّةِ والبرهانِ، وبالنَّصرِ والظُّهورِ، وبشهادةِ أهلِ العلمِ المنصفينَ، ويقابلُ بينَ مَا جاءَ بهِ منَ الحقِّ فِي أخبارهِ وأحكامهِ، وبينَ مَا كانَ عليهِ أعداؤهُ، والمكذِّبونَ بهِ منَ الكذبِ فِي أخبارهمْ، والباطلِ فِي أحكامهمْ، كمَا يقرِّرُ ذلكَ بالمعجزاتِ المتنوِّعةِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وهذانِ كلِّيتانِ منْ كلِّياتِ القرآنِ قدْ ذكرهمَا الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ فقالَ فِي الأولَى: طريقةُ القرآنِ فِي تقريرِ التَّوحيدِ ونفيِ ضدِّهِ.

وفِي الثَّانيةِ قالَ: طريقةُ القرآنِ فِي تقريرِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

وقدْ شرحَ رحمهُ اللهُ تعالَى القاعدةَ الأولَى بقولهِ: القرآنُ كلُّهُ لتقريرِ التَّوحيدِ ونفيِ ضدِّهِ (أيِ الشِّرك)، وأكثرُ الآياتِ يقرِّرُ اللهُ تعالَى فيهَا توحيدَ الألوهيَّةِ، وإخلاصِ العبادةِ للهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، ويخبرُ أنَّ جميعَ الرُّسلِ إنَّمَا أرسلتْ تدعُوا قومهَا إلَى أنْ يعبدُوا اللهَ ولَا يشركُوا بهِ شيئًا، وأنَّ اللهَ تعالَى إنَّمَا خلقَ
~~~~~~~~~~~

الجنَّ والإنسَ ليعبدوهُ (قالَ تعالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات: 52])، وأنَّ الكتبَ والرُّسلَ بلِ الفِطَرَ والعقولَ السَّليمةَ كلُّهَا اتَّفقتْ علَى هذَا الأصلِ الذِي هوَ أصلُ الأصولِ كلِّهَا، وأنَّ منْ لمْ يَدِنْ بهذَا الدِّينِ الذِي هوَ إخلاصُ العبادةِ والقلبِ والعملِ للهِ وحدهُ فعملهُ باطلٌ، قالَ تعالَى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}[الزمر: 65]، وقالَ: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام: 88]، ويدعُوا العبادَ إلَى مَا تقرَّرَ فِي فِطَرِهِمْ وعقولِهِمْ منْ أنَّ اللهَ المنفردَ بالخلقِ والتَّدبيرِ والمنفردِ بالنِّعمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ: هوَ الذِي يستحقُّ العبادةَ وحدهُ، ولَا ينبغِي أنْ يكونَ شيءٌ منهَا لغيرِهِ، وأنَّ سائرَ الخلقِ ليسَ عندهمْ أيُّ قدرةٍ علَى خلقٍ ولَا نفعٍ ولَا دفعِ ضرٍّ عن أنفسهمْ، فضلًا عنْ أنْ يغنُوا عنْ أحدٍ غيرهمْ منَ اللهِ شيئًا[1].اهـ (قالَ النَّبيُّ ﷺ لابنِ عبَّاسَ ينصحهُ: "... واعلمْ أنَّ الأمَّةَ لوِ اجتمعتْ علَى أنْ ينفعوكَ بشيءٍ لمْ ينفعوكَ إلَّا بشيءٍ قدْ كتبهُ اللهُ لكَ ولوِ اجتمعُوا علَى أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ لمْ يضرُّوكَ بشيءٍ إلَّا بشيءٍ قدْ كتبهُ اللهُ عليكَ رفعتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ")[2].

ويدعوهمْ أيضًا إلَى هذَا الأصلِ بمَا يَتَمَدَّحُ بهِ، ويُثنِي علَى نفسهِ الكريمةِ، منْ تفرُّدهِ بصفاتِ العظمةِ والمجدِ، والجلالِ والكمالِ، وأنَّ منْ لهُ هذَا الكمالُ المطلقُ الذِي لَا يشاركهُ فيهِ مشاركٌ: أحقُّ منْ أُخلصتْ لهُ الأعمالُ الظَّاهرةُ والباطنةُ.

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرءان – للسعدي.

(2) صحيح سنن الترمذي: 2440.

ويقرِّرُ هذَا التَّوحيدَ بأنَّهُ هوَ الحاكمُ وحدهُ، فلَا يحكمُ غيرهُ شرعًا ولَا جزاءً، قالَ تعالَى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}[يوسف: 40]. اهـ[1]

(إن) حرفُ نفيٍ (الحكمُ) مبتدأٌ مرفوعٌ (إلّا) أداةُ حصرٍ (للّهِ) جارٌّ ومجرورٌ خبرُ المبتدأِ (أمرَ) فعلٌ ماضٍ، والفاعلُ "ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ هوَ" (أنْ) حرفُ مصدريٌ ونصبٌ (لَا) نافيةٌ (تعبدُوا) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ وعلامةُ نصبهِ حذفُ النُّونِ والواوُ فاعلٌ (إلّا) أداةُ حصرٍ (إيَّاهُ) ضميرٌ منفصلٌ فِي محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ عاملهُ "تعبدُوا".

والمصدرُ المؤوَّلُ (ألّا تعبدُوا...) فِي محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ عاملهُ "أمرَ" وهوَ المفعولُ الثَّانِي، أمَّا الأوَّلُ محذوفٌ أيْ: أمرَ النَّاسَ عدمَ عبادةِ إلهٍ غيرَ اللّهِ، أوْ عبادةَ اللّهِ تعالَى.

وبإعرابِ الآية الكريمةِ يظهرُ لكَ أنَّ "إِنْ" حرفُ نفيٍ نفتِ المبتدأَ وهوَ "الْحُكْمُ" ثمَّ "إِلَّا" حصرتِ الحكمَ للهِ وحدهُ، فكانَ الحكمُ كلُّهُ للهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ لهُ فِيهِ، ثمَّ أعادَ سبحانهُ النَّفيَ والحصرَ بعدَ أمرهِ بالعبادةِ فقالَ: "أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ" فقرنَ سبحانهُ إقامةَ حكمهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ فِي الحكمِ بعبادتهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ فِي العبادةِ... فإقامةُ حكمِ اللهِ تعالَى علَى أرضهِ فريضةٌ لَا يجوزُ صرفهَا لغيرهِ.

وشرحَ رحمهُ اللهُ تعالَى القاعدةَ الثَّانيةَ بقولهِ: هذَا الأصلُ الكبيرُ: قرَّرهُ اللهُ فِي كتابهِ بالطُّرقِ المتنوِّعةِ التِي يُعرفُ بهَا كمالُ صدقهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَ أنَّهُ صدَّقَ المرسلينَ، ودعَا إلَى مَا دعُوا إليهِ، (قالَ تعالَى: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}[الصافات: 37]) وأنَّ جميعَ المحاسنِ التِي فِي الأنبياءِ فِي نبيِّنَا محمَّدٍ ﷺ ومَا نُزِّهُوا عنهُ منَ النَّقائصِ والعيوبِ، فرسولنَا محمَّدٌ ﷺ

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرءان – للسعدي.

أولاهمْ وأحقُّهمْ بهذَا التَّنزيهِ، وأنَّ شريعتهُ مهيمنةٌ علَى جميعِ الشَّرائعِ وكتابهُ مهيمنٌ علَى كلِّ الكتبِ. (قالَ تعالَى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}[المائدة: 48]) فجميعُ محاسنِ الأديانِ والكتبِ قدْ جمعهَا اللهُ فِي هذِا الكتابِ وهذَا الدِّينِ، وفاقَ عليهَا بمحاسنٍ وأوصافٍ لمْ توجدْ فِي غيرِهِ، وقرَّرَ نبوَّتهُ بأنَّهُ أميٌّ لَا يكتبُ ولَا يقرأُ، ولَا جالسَ أحدًا منْ أهلِ العلمِ بالكتبِ السَّابقةِ، (قالَ تعالَى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ}[الأعرف: 157]) بلْ لمْ يَفْجَأِ النَّاسَ إلَّا وقدْ جاءهمْ بهذَا الكتابِ الذِي لوِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ علَى أنْ يأتُوا بمثلهِ مَا أَتُوا ولَا قَدِرُوا، ولَا هوَ فِي استطاعتهمْ ولوْ كانَ بعضهمْ لبعضٍ ظهيرًا، (قالَ تعالَى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء:88]) وأنَّهُ محالٌ معَ هذَا أنْ يكونَ منْ تلقاءِ نفسهِ، أوْ أنْ يكونَ قدْ تقوَّلهُ علَى ربِّهِ، أوْ أنْ يكونَ علَى الغيبِ ظنينًا، (قالَ تعالَى: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ})[التكوير: 24] [1].

قالَ الطَّبري: وقولهُ: (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) اختلفتِ القرّاءُ فِي قراءةِ ذلكَ، فقرأتهُ عامَّةُ قرّاءِ المدينةِ والكوفةِ (بِضَنِينٍ) بالضَّادِ، بمعنَى أنَّهُ غيرُ بخيلٍ عليهمْ بتعليمهمْ مَا علَّمهُ اللهُ تعالَى وأنزلَ إليهِ منْ كتابهِ، وقرأَ ذلكَ بعضُ المكِّيينَ وبعضُ البصريينَ وبعضُ الكوفيينَ (بِظَنِينٍ) بالظَّاءِ، بمعنَى أنَّهُ غيرُ متَّهمٍ فيمَا يخبرهمْ عنِ اللهِ منَ الأنباءِ[2].

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن – بتصرف.

(2) تفسير الطبري.

وأعادَ القرآنَ وأبدَى فِي هذَا النَّوعِ، وقرَّرَ ذلكَ بأنَّهُ يخبرُ بقصصِ الأنبياءِ السابقينَ مطوَّلةً علَى جميعِ الواقعِ، الذِي لَا يستريبُ فيهِ أحدٌ، ثمَّ يخبرُ تعالَى: أنَّهُ ليسَ لهُ طريقٌ ولَا وصولٌ إلَى هذَا إلَّا بمَا آتاهُ اللهُ تعالَى منَ الوحيِ، كمثلِ قولهِ تعالَى لمَا ذكرَ قصَّةَ موسَى مطوَّلةً: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ}[القصص: 44] ولمَّا ذكرَ قصَّةَ يوسفَ وإخوتهِ مطوَّلةً قالَ: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}[يوسف: 102].

فهذهِ الأمورُ والإخباراتُ المفصَّلةُ التِي يفصِّلهَا الرَّسولُ ﷺ بمَا أوحيَ إليهِ تفصيلاً، صحَّحَ بهِ أكثرَ الأخبارِ والحوادثِ التِي كانتْ فِي كتبِ أهلِ الكتابِ محرَّفةً ومشوَّهةً بمَا أضافُوا إليهَا منْ خرافاتٍ وأساطيرَ، حتَّى مَا يتعلَّقُ منهَا بعيسَى وأمِّهِ وولادتهمَا ونشأتهمَا، وبموسَى وولادتهِ ونشأتهِ، كلُّ ذلكَ وغيرهِ لمْ يكنْ يعرفهُ أهلُ الكتابِ علَى حقيقتهِ حتَّى جاءَ القرآنُ، فقصَّ ذلكَ علَى مَا وقعَ وحصلَ، ممَّا أدهشَ أهلَ الكتابِ وغيرهمْ، وأخرسَ ألسنتهمْ حتَّى لمْ يقدرْ أحدٌ منهمْ ممَّنْ كانَ فِي وقتهِ، ولَا ممَّنْ كانُوا بعدَ ذلكَ أنْ يكذِّبُوا بشيءٍ منهَا، فكانَ ذلكَ منْ أكبرِ الأدلَّةِ علَى أنَّهُ رسولُ اللهِ حقًّا.

وتارةً يقرِّرُ نبوَّتهُ بكمالِ حكمةِ اللهِ، وتمامِ قدرتهِ، وأنَّ تأييدهُ لرسولهِ ونصرهِ علَى أعدائهِ وتمكينهِ فِي الأرضِ هوَ مقتضَى حكمةِ ورحمةِ العزيزِ الحكيمِ، وأنَّ منْ قدحَ فِي رسالتهِ فقدْ قدحَ فِي حكمةِ اللهِ وفِي قدرتهِ وفِي رحمتهِ، بلْ وفِي ربوبيتهِ.

وكذلكَ نصرهُ وتأييدهُ الباهرُ لهذَا النَّبيِّ ﷺ علَى الأممِ الذينَ همْ أقوَى أهلِ الأرضِ منْ آياتِ رسالتهِ، وأدلَّةِ توحيدهِ، كمَا هوَ ظاهرٌ للمتأمِّلينَ.

وتارةً يقرِّرُ نبوَّتهُ ورسالتهُ بمَا جمعَ لهُ وكمَّلهُ بهِ منْ أوصافِ الكمالِ، ومَا هوَ عليهِ منَ الأخلاقِ الجميلةِ، وأنَّ كلَّ خُلُقٍ عالٍ سامٍ فلرسولُ اللهِ ﷺ منهُ أعلاهُ وأكملهُ.

فمنْ عظمتِ صفاتهِ، فاقتْ نعوتهُ جميعَ الخلقِ التِي أعلاهَا: الصدقُ والأمانةُ، أليسَ هذَا أكبرَ الأدلَّةِ علَى أنَّهُ رسولُ ربِّ العالمينَ، والمصطفَى المختارُ منْ الخلقِ أجمعينَ؟

وتارةً يقرِّرهَا بمَا هوَ موجودٌ فِي كتبِ الأوَّلينَ، وبشاراتِ الأنبياءِ والمرسلينَ السابقينَ، إمَّا باسمهِ العلمِ أوْ بأوصافهِ الجليلةِ، وأوصافِ أمَّتهِ وأوصافِ دينهِ، (كمَا فِي قولهِ تعالَى: {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[الصف: 6]).

وتارةً يقرِّرُ رسالتهُ بمَا أخبرَ بهِ منَ الغيوبِ الماضيةِ والغيوبِ المستقبلةِ، التِي وقعتْ فِي زمانٍ مضَى علَى زمانهِ، أوْ وقعتْ فِي زمانهِ والتِي لَا تزالُ تقعُ فِي كلِّ وقتٍ، فلولَا الوحيُ مَا وصلَ إليهِ شيءٌ منْ هذَا، ولَا كانَ لهُ ولَا لغيرهِ طريقٌ إلَى العلمِ بهِ.

وتارةً يقرِّرهَا بحفظهِ إيَّاهُ، وعصمتهِ لهُ منَ الخلقِ، معَ تكالبِ الأعداءِ وضغطهمْ عليهِ، وجِدِّهمْ التَّامُ فِي الإيقاعِ بهِ بكلِّ مَا فِي وسعهمْ، واللهُ يعصمهُ ويمنعهُ منهمْ وينصرهُ عليهمْ، ومَا ذاكَ إلَّا لأنَّهُ رسولهُ حقًّا، وأمينهُ علَى وحيهِ والمبلِّغِ مَا أمرَ بهِ.

وتارةً يقرِّرُ رسالتهُ بذكرِ عظمةِ مَا جاءَ بهِ وهوَ القرآنُ الذِي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[فصلت: 42] ويتحدَّى أعداءهُ ومنْ كفرَ بهِ أنْ يأتُوا بمثلهِ أوْ بعشرِ سُوَرٍ مثلهِ فعجزُوا ونكصُوا وباءُوا بالخيبةِ والفشلِ، (وهمْ أهلُ اللِّسانِ المُبَرَّزونَ فِي ميدانِ القولِ والفصاحةِ، ومعَ ذلكَ مَا استطاعُوا – معَ شدَّةِ حرصهمْ ومحاولتِهمْ – أنْ يأتُوا بسورةٍ منهُ)، (ومَا

ذكرهُ الشيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى يسمَّى بآياتِ التَّحدِّي، فلقدْ تحدَّى اللهُ تعالَى صراحةً فِي كتابهِ العزيزِ أيَّ كائنٍ ذِي عقلٍ أنْ يأتِي بمثلِ هذَا القرآنِ، فِي شمولهِ للمنهجِ القويمِ للبشرِ فِي حياتهمْ، حتَّى يبلغُوا الفلاحَ بعدَ مماتهمْ، وحتَّى يؤدُّوا مَا أرادهُ اللهُ تعالَى منهمْ علَى النَّحوِ الذِي يرضاهُ، وفِي بيانهِ وفصاحةِ ألفاظهِ فقالَ تعالَى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء: 88] ولكنْ أنَّى لمخلوقٍ أنْ يأتِي بكلامٍ مثلَ كلامِ اللهِ تعالَى مهمَا كانتْ قوَّةُ قريحتهِ وفصاحتهِ، وإمعانًا فِي تحدِّي المنكرينَ أنَّ القرآنَ الكريمَ من لَّدنِ عزيزٍ حكيمٍ، فقدْ تحدَّى اللهُ العالمينَ أنْ يأتُوا بعشرِ سورٍ منْ مثلِ سورِ القرآنِ، فقالَ تعالَى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[هود:13] فلمَّا كانَ هذَا بعيدَ المنالِ عنِ العالمينَ وأشعرهمْ بعجزهمْ فزادهمْ تحدٍّ ثالثٍ وهوَ بالإتيانِ بسورةٍ واحدةٍ منْ مثلِ القرآنِ الكريمِ مهمَا صغرتْ هذهِ السُّورةُ، فقالَ تعالَى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة:23-24]).

ومَا استطاعُوا ولَا قدرُوا أنْ يجدُوا فيهِ نقصًا أوْ عيبًا ينزلُ بهِ عنْ أعلَى درجاتِ الفصاحةِ التِي ملكتْ أزمَّةَ قلوبهمْ، فلجئُوا إلَى السَّيفِ وإراقةِ دمائهمْ، ومَا كانُوا يعمدونَ إلَى هذَا لولَا أنَّهمْ لمْ يجدُوا سبيلاً إلَى محاربتهِ بالقولِ، ومَا كانُوا يزعمونهُ عندهمْ علومًا وحِكَمًا، فكانَ عدولهمْ إلَى السَّيفِ وإراقةِ الدِّماءِ أكبرُ الأدلَّةِ علَى صدقِ الرُّسولِ ﷺ وأنَّهُ لَا ينطقُ عنِ الهوَى، إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يوحَى، وأقطعُ البراهينِ علَى أنَّهُ الحقُّ والهدَى منْ عندِ اللهِ تعالَى الذِي جمعَ

اللهُ فيهِ لرسولهِ وللمؤمنينَ بهِ كلَّ مَا يكفلُ لهمْ سعادةَ الدُّنيَا والآخرةِ فِي كلِّ شؤونهمْ، وأنَّ هذَا القرآنُ لأكبرُ أدلَّة رسالتهِ ﷺ وأجلُّهَا وأعمُّهَا. اهـ

واللهُ تعالَى يقرِّرُ أنَّ القرآنَ كافٍ جدًّا أنْ يكونَ هوَ الدَّليلُ الوحيدُ علَى صدقِ رسولهِ ﷺ فِي مواضعَ عدَّةٍ، منهَا قولهُ: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[العنكبوت: 51].

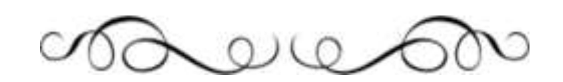
وتارةً يقرِّرُ رسالتهُ بمَا أظهرَ علَى يديهِ منَ المعجزاتِ، ومَا أجرَى لهُ منَ الخوارقِ والكراماتِ، الدالِّ كلَّ واحدٍ منهَا بمفردهِ علَى أنَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ الصَّادقُ المصدوقُ، الذِي لَا ينطقُ عنِ الهوَى إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يوحَى.

وتارةً يقرِّرهَا بعظيمِ شفقتهِ علَى الخلقِ، وحُنوِّهِ الكاملِ علَى أمَّتهِ، وأنَّهُ بالمؤمنينَ رءوفٌ رحيمٌ، وأنَّهُ لمْ يوجدْ ولنْ يوجدْ أحدٌ منَ الخلقِ أعظمُ شفقةً ولَا برًّا وإحسانًا إلَى الخلقِ منهُ، وآثارَ ذلكَ ظاهرةٌ للنَّاظرينَ، (قالَ تعالَى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}[التوبة: 128]).

فهذهِ الأمورُ والطُّرقُ قدْ أكثرَ اللهُ تعالَى منْ ذكرهَا فِي كتابهِ وقرَّرهَا بعباراتٍ متنوِّعةٍ، ومعانِي مفصَّلةٍ وأساليبَ عجيبةٍ، وأمثلتهَا تفوقُ العدَّ والإحصاءَ، والله أعلم(1).

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي – بتصرف.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ويقرِّرُ اللهُ تعالَى المعادَ بذكرِ كمالِ قدرتهِ، وخلقهِ للسَّمواتِ والأرضِ، اللَّتينِ همَا أكبرُ منْ خلقِ النَّاسِ، وبأنَّ الذِي بدأَ الخلقَ قادرٌ علَى إعادتهِ منْ بابِ أولَى، وبأنَّ الذِي أحيَا الأرضَ بعدَ موتهَا قادرٌ علَى إحياءِ الموتَى.

ويذكرُ أيضًا أيَّامهُ (تعالَى) فِي الأممِ، ووقوعِ المثلاتِ التِي شاهدهَا النَّاسُ فِي الدُّنيَا، وأنَّهَا نموذجٌ منْ جزاءِ الآخرةِ.

ويدعُو جميعَ المبطلينَ منَ الكفَّارِ والمشركينَ والملحدينَ بذكرِ محاسنِ الدِّينِ، وأنَّهُ يهدِي للَّتِي هيَ أقومُ، فِي عقائدهِ وأخلاقهِ وأعمالهِ، وبيانِ مَا للهُ تعالَى منَ العظمةِ والرُّبوبيَّةِ، والنِّعمِ العظيمةِ، وأنَّ منْ تفرَّدَ بالكمالِ المطلقِ والنِّعمِ كلِّهَا، هو الذِي لَا تصلحُ العبادةُ إلَّا لهُ، وأنَّ مَا عليهِ المبطلونَ، إذَا مُيِّزَ وحُقِّقَ وُجِدَ شرًّا وباطلًا وعواقبهُ وخيمةٌ.

~~~~~~~~~~~~~*الشرح*~~~~~~~~~~~~~

وكذلكَ ذكرَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى هذَا الأصلَ فِي كتابهِ القواعدِ الحسانِ بقولهِ: طريقةُ القرآنِ فِي تقريرِ المعادِ:

ثمَّ شرحهُ قائلًا: وهذَا الأصلُ الثَّالثُ منَ الأصولِ التِي اتَّفقتِ عليهَا الرُّسلُ والشَّرائعُ كلُّهَا وهيَ: التَّوحيدُ، والرِّسالةُ، وأمرُ المعادِ وحشرِ العبادِ.

وهذَا قدْ أكثرَ اللهُ تعالَى منْ ذكرهِ فِي كتابهِ الكريمِ، وقرَّرهُ بطرقٍ متنوِّعةٍ، منهَا: إخبارهُ وهوَ أصدقُ القائلينَ عنهُ وعمَّا يكونُ فيهِ منْ الجزاءِ الأوفَى – أي يومَ القيامةِ –، معَ إكثارِ اللهِ منْ ذكرهِ فقدْ أقسمَ عليهِ فِي ثلاثةِ مواضعَ منْ كتابهِ.
~~~~~~~~~~~~~

(وقدْ أقسمَ عليهِ – أي يومَ القيامة – النَّبيُّ ﷺ، وإلَّا فاللهُ تعالَى أقسمَ بيومِ القيامةِ وأقسمَ علَى مَا يكونُ فِي اليومِ الآخرِ بإقساماتٍ كثيرةٍ لَا حصرَ لهَا وليستْ ثلاثةً وحسبُ؛ ولكنَّ الكلامَ فِي إقساماتِ النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ اللهَ تعالَى أمرَ رسولهُ ﷺ أنْ يقسمَ فِي ثلاثةِ مواضعَ منْ كتابهِ، كلَّهَا أقسمَ فيهَا النَّبيُّ ﷺ علَى أنَّ اللهَ تعالَى يعيدُ الخلقَ بعدَ موتهِمْ، وأنَّهُ يحاسبهمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكلامُ الشيخِ يحتاجُ إلَى توضيحٍ.

فالمواضعُ التِي أمرَ اللهُ تعالَى فيهَا رسولهُ ﷺ بالإقسامِ معروفةٌ، فالموضعُ الأوَّلُ قولهُ تعالَى: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ}[يونس: 35]، والموضعُ الثاني قولهُ تعالَى: "قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ"[التغابن: 7] والموضعُ الثَّالثُ قولهُ تعالَى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}[سبأ: 3] فهذَا أمرٌ منَ اللهِ تعالَى لرسولهِ ﷺ بالإقسامِ علَى مجيءِ السَّاعةِ ووقوعهَا[1]).اهـ

ومنهَا الإخبارُ بكمالِ قدرةِ اللهِ تعالَى، ونفوذِ مشيئتهِ، وأنَّهُ لَا يعجزهُ شيءٌ، فإعادةُ العبادِ بعدَ موتهمْ فردٌ منْ أفرادِ آثارِ قدرتهِ.

ومنهَا تذكيرهُ العبادَ بالنَّشأةِ الأولَى، وأنَّ الذِي أوجدهمْ ولمْ يكونُوا شيئًا مذكورًا لابدَّ أنْ يعيدهمْ كمَا بدأهمْ، وأنَّ الإعادةَ أهونُ عليهِ، وأعادَ هذَا المعنَى فِي مواضعَ كثيرةٍ بأساليبَ متنوِّعةٍ.

(1) من شرح أ.د. خالد بن عبد الله المصلح – موقع المصلح – بتصرُّف.

(قالَ تعالى: "هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا"[الإنسان: 1] قالَ الطَّبرِي: يعنِي جلَّ ثناؤهُ بقولهِ: "هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ" قدْ أتَى علَى الإنسانِ، و"هلْ" فِي هذَا الموضعِ خبرٌ لَا جحدٌ، وذلكَ كقولِ القائلِ لآخرَ يقرِّرُهُ: هلْ أكرمتكَ؟ وقدْ أكرمهُ؛ أوْ هلْ زرتكَ؟ وقدْ زارهُ[1].اهـ

وقالَ تعالَى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[الروم: 27]).اهـ

ومنهَا: إحياؤهُ الأرضَ الهامدةَ الميتةَ بعدَ موتهَا، وأنَّ الذِي أحياهَا سيحِيي الموتَى، وقررَّ ذلكَ بقدرتهِ علَى مَا هوَ أكبرُ منْ ذلكَ، وهوَ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، والمخلوقاتِ العظيمةِ، فمتَى أثبتَ المنكرونَ ذلكَ، ولنْ يقدرُوا علَى إنكارهِ، فَلِأَيِّ شيءٍ يستبعدونَ إحياءَهُ الموتَى؟

(قالَ تعالَى: {فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[الروم: 50]، وقالَ تعالَى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[غافر: 57]).

وقرَّرَ ذلكَ بسعةِ علمهِ، وكمالِ حكمتهِ، وأنَّهُ لَا يليقُ بهِ، ولَا يحسنُ أنْ يتركَ خلقهُ سدًى مهملينَ، لَا يُؤمرونَ ولَا ينهونَ، ولَا يثابونَ ولَا يعاقبونَ، وهذَا طريقٌ قرَّرَ بهِ النُّبوَّةَ وأمرَ المعادِ.

---

(1) تفسير الطبري.

وممَّا قرَّرَ بهِ البعثَ ومجازاةِ المحسنينَ بإحسانهمْ، والمسيئينَ بإساءتهمْ، مَا أخبرَ بهِ منْ أيَّامهِ وسننهِ سبحانهُ فِي الأممِ الماضيةِ والقرونِ الغابرةِ، وكيفَ نجَّى الأنبياءَ وأتباعهمْ، وأهلكَ المكذِّبينَ لهمْ المنكرينَ للبعثِ، ونوَّعَ عليهمْ العقوباتِ، وأحلَّ بهمْ المَثُلاتِ، فهذَا جزاءٌ معجَّلٌ ونموذجٌ منْ جزاءِ الآخرةِ أراهُ اللهُ تعالَى عبادهُ، ليهلكَ منْ هلكَ عنْ بيِّنةٍ، ويحيَ منْ حيَ عنْ بيِّنةٍ.

ومنْ ذلكَ مَا أرَى اللهُ تعالَى عبادهُ منْ إحيائهِ الأمواتَ فِي الدُّنيَا كمَا ذكرهُ اللهُ تعالَى عنْ صاحبِ البقرةِ والألوفِ منْ بنِي إسرائيلَ، (قالَ تعالَى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[البقرة: 73] وقالَ تعالَى: {وَإِذْ قَلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[البقرة: 55 – 56]، قالَ الطَّبري: يعنِي بقولهِ: "ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ" ثمَّ أحييناكمْ. وقالَ: يعنِي بقولهِ: "مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ"، منْ بعدِ موتكمْ بالصَّاعقةِ التِي أهلكتكمْ. وقالَ: ... فقالُوا لموسَى: "لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً"، فأخذتهمْ الرَّجفةُ – وهيَ الصَّاعقةُ – فافْتلتتْ أرواحهمْ فماتُوا جميعًا، وقامَ موسَى يناشدُ ربَّهُ ويدعوهُ ويرغبُ إليهِ ويقولُ: ربِّ لوْ شئتَ أهلكتهمْ منْ قبلُ وإيَّايَ! قدْ سفهُوا, أفتُهلكُ منْ ورائِي منْ بنِي إسرائيلَ بمَا تفعلُ السُّفهاءُ منَّا؟ أيْ: إنَّ هذَا لهمْ هلاكٌ، اخترتُ منهمْ سبعينَ رجلًا الخيِّرَ فالخيِّرِ، أرجعُ إليهمْ وليسَ معِي منهمْ رجلٌ واحدٌ! فمَا الذِي يصدِّقونِي بهِ أوْ يأمنونِي عليهِ بعدَ هذَا؟ "إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ". فلمْ يزلْ موسَى يناشدُ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ويطلبُ إليهِ، حتَّى ردَّ

إليهمْ أرواحهمْ, فطلبَ إليهِ التَّوبةَ لبنِي إسرائيلَ منْ عبادةِ العجلِ, فقالَ: لَا إلَّا أنْ يقتلُوا أنفسهمْ[1].

والذِي مرَّ علَى قريةٍ وهيَ خاويةٌ علَى عروشهَا، (قالَ تعالَى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ}[البقرة: 259]).

وقصَّةُ إبراهيمَ الخليلِ والطُّيورِ، (قالَ تعالَى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[البقرة: 260]).

وإحياءُ عيسَى بنِ مريمَ للأمواتَ، (قالَ تعالَى: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ}[آل عمران: 49]) .

وغيرهَا ممَّا أراهُ اللهُ تعالَى عبادهُ فِي هذهِ الدَّارِ، ليعلمُوا أنَّهُ قويٌّ ذُو اقتدارٍ، وأنَّ العبادَ لابدَّ أنْ يَرِدُوا دارَ القرارِ، إمَّا الجنَّةَ أوِ النارُ، وهذهِ المعانِي أبداهَا اللهُ تعالَى وأعادهَا فِي محالٍ كثيرةٍ، والله أعلم[2].

(1) تفسير الطبري.

(2) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن – بتصرف.



ثمَّ قالَ رحمهُ تعالَى: ومنْ أصولِ التَّفسيرِ: "إذَا فهمتَ مَا دلَّتْ عليهِ الآياتُ الكريمةُ منَ المعانِي مُطَابَقَةً وَتَضَمُّنًا، فاعلمْ أنَّ لوازمَ هذهِ المعانِي ومَا لَا تتمُّ إلَّا بهِ، وشروطهَا وتوابعهَا تابعةٌ لذلكَ المعنَى، فمَا لَا يتمُّ الخبرُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للخبرِ، ومَا لَا يتمُّ الحكمُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للحكمِ".

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وأصلُ هذهِ القاعدةِ فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ للمؤلِّفِ رحمهُ الله تعالَى وهي: "كمَا أنَّ المفسِّرَ للقرآنِ يُراعِي مَا دلَّتْ عليهِ ألفاظهُ مطابقةً ومَا دخلتْ فِي ضمنهَا، فعليهِ أنْ يُراعِي لوازمَ تلكَ المعانِي ومَا تستدعيهِ منَ المعانِي التِي لمْ يُصرِّحِ اللَّفظُ بذكرهَا"[1].اهـ

وهنَا ذكرَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى، قاعدتينِ:

الأولَى: مَا لَا يتمُّ الخبرُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للخبرِ.

والثَّانيةُ: مَا لَا يتمُّ الحكمُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للحكمِ.

وقدْ ضربَ لهمَا الإمامُ السَّعدِي مثلينِ فِي كتابهِ "القواعدِ الحسانِ" وقالَ فِي القاعدةِ الأولَى: "منهَا: فِي أسمائهِ الحسنَى "الرَّحمنِ الرَّحيمِ" فإنَّهَا تدلُّ بلفظهَا علَى وصفهِ بالرَّحمةِ وسعةِ رحمتهِ، فإذَا فهمتَ أنَّ الرَّحمةَ التِي لَا يشبههَا رحمةُ أحدٍ هيَ وصفهُ الثَّابتُ، وأنَّهُ أوصلَ رحمتهُ

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 34 – بتصرف.
~~~~~~~~~~~

إلَى كلِّ مخلوقٍ ولمْ يخلُ أحدٌ منْ رحمتهِ طرفةَ عينٍ، عرفتَ أنَّ هذَا الوصفَ يدلُّ علَى كمالِ حياتهِ وكمالِ قدرتهِ وإحاطةِ علمهِ ونفوذِ مشيئتهِ وكمالِ حكمتهِ، لتوقُّفِ الرَّحمةِ علَى ذلكَ كلِّهِ ...(1)اهـ.

فلمَّا علمنَا أنَّ اللهَ تعالَى رحمنٌ رحيمٌ وأنَّ رحمتهُ لَا يشبههَا رحمةُ أحدٍ، وجبَ علينَا أنْ نعلمَ بأنَّ هذَا الوصفَ (الرَّحمنُ الرَّحيمِ) يدلُّ علَى كمالِ اللهِ تعالَى كمالًا مطلقًا ممَّا سبقَ ذكرهُ منْ كمالِ الحياةِ وغيرهِ، هذَا لأنَّ مَا لَا يتمُّ الخبرُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للخبرِ، وكونهُ تعالَى رحمانًا رحيمًا هذَا خبرٌ، ولَا يتمُّ هذَا الخبرُ عنِ اللهِ تعالَى، إلَّا بأنْ يكونَ كاملًا كمالًا مطلقًا منْ كمالِ حياتهِ وكمالِ قدرتهِ وإحاطةِ علمهِ ونفوذِ مشيئتهِ وكمالِ حكمتهِ.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى ضاربًا مثلًا للقاعدةِ الثَّانيةِ: ومنهَا قولهُ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[النساء: 58] فإذَا فهمتَ أنَّ اللهَ تعالَى أمرَ بأداءِ الأماناتِ كلِّهَا إلَى أهلهَا استدللتَ بذلكَ علَى وجوبِ حفظِ الأماناتِ وعدمِ إضاعتهَا والتَّفريطِ والتَّعدِّي فيهَا، وأنَّهُ لَا يتمُ الأداءُ لأهلهَا إلَّا بذلكَ(1)اهـ.

وهذَا معنَى قاعدةِ: مَالَا يتمّ الحكمُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للحكمِ.

(1) السابق – بتصرف.

(2) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 35 – بتصرف.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وإنَّ الآياتِ التِي يُفهمُ منهَا التَّعارضُ والتَّناقضُ، ليسَ فيهَا تناقضٌ ولَا تعارضٌ، بلْ يجبُ حملُ كلٍّ منهَا علَى الحالةِ المناسبةِ اللَّائقةِ بهَا.

~~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ أخرَى ذكرهَا المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدِ الحسانِ وقالَ: "الآياتُ القرآنيَّةُ التِي ظاهرهَا التَّضادُّ، يجبُ حملُ كلِّ نوعٍ منهَا علَى حالٍ بحسبِ مَا يليقُ ويناسبُ المقامَ"[1].

وقدْ شرحهَا المصنِّفُ رحمهُ اللهُ تعالى فِي الكتابِ نفسهِ حيثُ قالَ: وهذَا فِي مواضعَ متعدِّدةٍ منَ القرآنِ (أيِ الآياتِ التِي ظاهرهَا التَّعارضُ):

منهَا الإخبارُ فِي بعضِ الآياتِ أنَّ الكفَّارَ لَا ينطقونَ ولَا يتكلَّمونَ يومَ القيامةِ، وفِي بعضهَا: أنَّهمْ ينطقونَ ويحاجونَ ويتعذَّرونَ ويعترفونَ.

فحملُ كلامهمْ ونطقهمْ، أنَّهمْ فِي أوَّلِ الأمرِ يتكلَّمونَ ويعتذرونَ، وقدْ ينكرونَ مَاهمْ عليهِ منَ الكفرِ ويقسمونَ علَى ذلكَ، ثمَّ إذَا خُتمَ علَى ألسنتهمْ، وشهدتْ عليهمْ جوارحهمْ بمَا كانُوا يكسبونَ، ورأوْ أنَّ الكذبَ غيرَ مفيدٍ لهمْ، أُخرسُوا فلمْ ينطقُوا.

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي – صـ 37.


~~~~~~~~~~~~

وكذلكَ الإخبارُ بأنَّ اللهَ تعالَى لَا يكلِّمهمْ ولَا ينظرُ إليهمْ يومَ القيامةِ، معَ أنَّهُ أثبتَ الكلامَ لهمْ معهُ، فالنَّفيُ واقعٌ علَى الكلامِ الذِي يسرُّهمْ ويجعلُ لهمْ نوعَ اعتبارٍ، وكذلكَ النَّظرُ، والإثباتُ واقعٌ بينَ اللهِ تعالَى وبينهمْ علَى وجهِ التَّوبيخِ لهمْ والتَّقريعِ؛ فالنَّفيُ يدلُّ علَى أنَّ اللهَ تعالَى ساخطٌ عليهمْ غيرَ راضٍ عنهمْ، والإثباتُ يوضِّحُ أحوالهمْ، ويُبيِّنُ للعبادِ كمالَ عدلِ اللهِ تعالَى بهمْ إذْ وضعَ العقوبةَ موضعهَا.

ونظيرُ ذلكَ أنَّ فِي بعضِ الآياتِ، أخبرَ أنَّهُ تعالَى: {لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}[الرَّحمن: 39] وفِي بعضهَا أنَّهُ تعالَى يسألهمْ: {أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ}[الشُّعراء: 92] و{مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}[القصص: 65] ويسألهمْ عنْ أعمالهمْ كلِّهَا، فالسُّؤالُ المنفِي: هوَ سؤالُ الاستعلامِ والاستفهامِ عنِ الأمورِ المجهولةِ، فإنَّهُ لَا حاجةَ إلَى سؤالهمْ معَ كمالِ علمِ الله تعالَى واطِّلاعهِ علَى ظاهرهمْ وباطنهمْ، وجليلِ الأمورِ ودقيقهَا.

والسؤالُ المُثبَتُ واقعٌ علَى تقريرهمْ بأعمالهمْ وتوبيخهمْ وإظهارِ أنَّ اللهَ تعالَى حكمَ فيهمْ بعدلهِ وحكمتهِ.

ومنْ ذلكَ الإخبارُ فِي بعضِ الآياتِ أنَّهُ لَا أنسابَ بينَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، وفِي بعضهَا أثبتَ لهمْ ذلكَ؛ فالمثبتُ هوَ الأمرُ الواقعُ والنَّسبُ الحاصلُ بينَ النَّاسِ، كقولهِ تعالَى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}[عبس: 34- 35] إلَى آخرهَا. والمنفِي: هوَ الانتفاعُ بهَا، فإنَّ كثيرًا منَ الكفَّارِ يدَّعونَ أنَّ أنسابهمْ تنفعهمْ يومَ القيامةِ، فأخبرَ تعالَى أنَّهُ: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[الشعراء: 88- 89][1].

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي – صـ 37 – 38 .



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وأنَّ حذفَ المتعلِّقاتِ، منْ مفعولاتٍ وغيرهَا، يدلُّ علَى تعميمِ المعنَى، لأنَّ هذَا منْ أعظمِ فوائدِ الحذفِ، وأنَّهُ لَا يجوزُ حذفُ مَا لَا يدلُّ عليهِ السِّياقُ اللَّفظيُّ، أو القرينةُ الحاليَّةُ.

~~~~~~~~~~~~*الشرح *~~~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ أخرَى وأصلهَا كمَا فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ للسَّعدِي، وهيَ: "حذفُ المتعلِّقِ المعمولِ فيهِ، يفيدُ تعميمَ المعنَى المناسبِ لهُ"[1].اهـ

فالجملةُ فِي لغةِ العربِ تنقسمُ إلَى عاملٍ ومعمولٍ فيهِ، فالعاملُ هوَ المؤثِّرُ فِي غيرهِ، والمعمولُ هوَ المتأثِّرُ.

مثلًا تقولُ: (أكرمتُ زيدًا) فزيدٌ هوَ المعمولُ فيهِ، لوقوعِ أثرِ العاملِ عليهِ وهوَ فعلُ "الإكرامِ"، وأكرمَ هوَ العاملُ الذِي أثَّرَ فِي المعمولِ "زيدٌ".

والأصلُ فِي لغةِ العربِ ذكرُ الجملةِ تامَّةً بعاملهَا ومعمولهَا،

ولكنْ قدْ يُحذفُ المتعلِّقُ الذِي هوَ المعمولُ فيهِ أوْ شيءٍ منَ الجملةِ.

ولكنْ لابدَّ فِي الحذفِ منْ شروطٍ وهيَ:

1) لابدَّ فِي الحذفِ أنْ يكونَ عليهِ دليلٌ يدلُّ عليهِ منَ الجملةِ.

2) لابدَّ أنْ يكونَ الحذفُ لفائدةٍ.

3) أنْ لَا يكونَ المحذوفُ عمدةً.

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القران للسعدي صـ 43.
~~~~~~~~~~~~

وأنواعُ الحذفِ كثيرةٌ، ومنهَا الذِي ذكرهُ المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ تعالَى، وهوَ حذفُ المتعلِّقِ وهوَ المعمولُ فيهِ، وهذَا لَا يكونُ إلَّا لفائدةٍ، وهيَ فِي الغالبِ تعميمٌ للمعنَى المناسبِ، ومنَ الأمثلةِ علَى ذلكَ مَا ذكرهُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدِ الحسانِ، قالَ: منهَا أنَّهُ قالَ تعالَى فِي عدَّةِ آياتٍ {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[النور: 21]، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[الأنعام: 152]، {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام: 153] فيدلُّ ذلكَ علَى أنَّ المرادَ: لعلَّكمْ تعقلونَ عنِ اللهِ تعالَى كلَّ مَا أرشدكمْ إليهِ وكلُّ مَا علَّمكُموهُ، وكلَّ مَا أنزلَ عليكمْ منَ الكتابِ والحكمةِ، لعلَّكمْ تذكَّرونَ جميعَ مصالحكمْ الدِّينيَّةِ والدُّنياويَّة، لعلَّكمْ تتَّقونَ جميعَ مَا يجبُ اتِّقاؤهُ منْ جميعِ الذُّنوبِ والمعاصِي[1].اهـ

فقولهُ تعالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لمْ يذكرْ المعمولَ فيهِ، أي: نعقلُ ماذَا؟ فدلَّ ذلكَ علَى العمومِ فِي المعقولِ الذِي جاءَ الخطابُ بهِ، كذلكَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وكذلكَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فلمْ يذكرْ شيئاً معيَّناً يُتذكَّرُ ولَا يُتَّقَى، فلمَّا لمْ يذكرْ شيئاً معيَّناً، دلَّ ذلكَ علَى عمومِ مَا ينتفعُ الإنسانُ بتعقُّلهِ، وعلَى عمومِ مَا يحصلُ بهِ التَّذكُّرُ، وعلَى عمومِ مَا ينفعُ الإنسانَ اتِّقاؤهُ.

لذلكَ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: (لعلكمْ تعقلونَ عنِ اللهِ كلَّ مَا أرشدكمْ إليهِ) ممَّا فيهِ نفعكمْ (وكلَّ مَا علمكموهُ، وكلَّ مَا أنزلَ عليكمْ منَ الكتابِ والحكمةِ) فكلُّ هذَا العمومِ أتَى منْ حذفِ المتعلَّقِ، فلوْ ذُكرَ المتعلِّقُ لَخُصَّتِ الآيةُ بهِ، ولكنْ لمَّا حذفهُ أفادَ العمومَ فِي المعنَى[2].

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي – صـ 43.

(2) من شرح أد. خالد بن عبد الله المصلح – على القواعد الحسان للسعدي – بتصرُّف.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: كمَا أنَّ الأحكامَ المقيَّدةَ بشروطٍ أوْ صفاتٍ تدلُّ علَى أنَّ تلكَ القيودَ لَا بُدَّ منهَا فِي ثبوتِ الحكمِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ أخرَى ذكرهَا السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدَ الحسانُ وأصلهَا: "الأصلُ: أنَّ الآياتِ التِي فيهَا قيودٌ لَا تثبتُ أحكامهَا إلَّا بوجودِ تلكَ القيودِ، إلَّا فِي آياتٍ يسيرةٍ.

ثمَّ شرحهَا رحمهُ اللهُ تعالَى وقال: هذهِ قاعدة لطيفةٌ: فإنَّ اللهَ تعالَى متَى رتَّبَ فِي كتابهِ حكماً علَى شيءٍ، وقيَّدهُ بقيدٍ، أوْ شرطَ لذلكَ شرطاً، تعلَّقَ الحكمُ بهِ علَى ذلكَ الوصفِ، الذِي وصفهُ اللهُ تعالَى.

وهذَا فِي القرآنِ لَا حصرَ لهُ، وإنَّمَا المقصودُ ذكرُ المستثنَى منْ هذَا الأصلِ، الذِي يقولُ كثيرٌ منَ المفسِّرينَ – إذَا تكلَّمُوا عليهَا–: "هذَا قيدٌ غيرُ مرادٍ"، وفِي هذهِ العبارةِ نظرٌ؛ فإنَّ كلَّ لفظةٍ فِي كتابِ اللهِ تعالَى فإنَّ اللهَ أرادهَا؛ لمَا فيهَا منْ فائدةٍ قدْ تظهرُ للمخاطبِ وقدْ تخفَى، وإنَّمَا مرادهمْ بقولهمْ، هو: غيرَ مرادِ ثبوتِ الحكمِ بهَا.

فاعلمْ أنَّ اللهَ تعالَى يذكرُ الأحكامَ الشَّرعيَّةَ منْ أصولٍ وفروعٍ، ويذكرُ أعلَى حالةٍ لهَا؛ ليبرزهَا لعبادهِ، وليظهرَ لهمْ حسنهَا إنْ كانتْ مأموراً بهَا، أوْ قبحهَا إنْ كانتْ منهيًّا عنهَا.

وعندَ تأمُّلِ هذهِ الآياتِ التِي بهذَا الصَّددِ يظهرُ لكَ هذَا منهَا جليًّا.
~~~~~~~~~~~

فمنهَا قولهُ تعالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾[المؤمنون 117]، ومنَ المعلومِ أنَّ منْ دعَا معَ اللهِ إلهًا آخرَ فإنَّهُ كافرٌ، وأنَّهُ ليسَ لهُ برهانٌ، وإنَّمَا قيَّدهَا اللهُ تعالَى بهذَا القيدِ بيانًا لشناعةِ الشِّركِ والمشركِ، وَأنَّ الشِّركَ قطعًا ليسَ لهُ دليلٌ شرعيٌّ ولَا عقليٌّ، والمشركُ ليسَ بيدهِ مَا يسوِّغُ لهُ شيأً منْ ذلكَ، ففائدةُ هذَا القيدِ (البرهانُ) (ليسَ اثباتُ حكمها بلِ) التَّشنيعُ البليغُ علَى المشركينَ بالمعاندةِ، ومخالفةِ البراهينِ الشَّرعيَّةِ والعقليَّةِ، وأنَّهُ ليسَ بأيديهمْ إلَّا أغراضٌ نفسيَّةٌ، ومقاصدُ سيِّئةٌ، وأنَّهمْ لوِ التفتُوا أدنَى التفاتٍ لعرفُوا أنَّ مَا همْ عليهِ لَا يستجيزهُ منْ لهُ أدنَى إيمانٍ ولَا عقلٍ[1].اهـ

والمرادُ منْ كلامِ الشَّيخِ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ كثيرًا منَ الآياتِ يردُ فيهَا قيودٌ، وهذهِ القيودُ: تكونُ إمَّا وصفًا أوْ شرطًا أوْ غيرَ ذلكَ ممَّا يقيَّدُ بهِ الكلامُ، كقولهِ تعالَى: "إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ"[طه: 48] ففِي هذهِ الآيةِ قُيِّدَ العذابُ بالتَّكذيبِ أوِ التَّولِّي، فهلْ هذهِ القيودُ فِي كلامِ اللهِ تعالَى مرادةٌ ومعتبرةٌ، أمْ أنَّهَا غيرُ مرادةٍ؟

الجوابُ: الأصلُ أنَّهَا مرادةٌ، وأنَّ الكلامَ والحكمَ مقيَّدٌ بهذَا الوصفِ والقيدِ؛ لكنْ فيهَا استثناءاتٌ، فقدْ وردتْ آياتٌ فيهَا قيودٌ لمْ يعلَّقِ الحكمُ عليهَا كمَا تعلَّقَ الحكمُ بالقيدِ فِي الآيةِ السَّابقةِ؛ بلْ ثبتَ الحكمُ بدونهَا، وهيَ التِي يقولُ فيهَا المفسِّرونَ: "القيدُ غيرُ مرادٍ" أيْ غيرُ مرادٍ فِي ثبوتِ الحكمِ،

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 71 – 72 بتصرف.

وليسَ المعنَى أنَّهُ لَا فائدةَ منهُ، بلْ ليسَ فِي كتابِ اللهِ تعالَى شيءٌ لَا فائدةَ منهُ، إذًا قولُ المفسِّرينَ فِي بعضِ القيودِ الواردةِ فِي كلامِ اللهِ تعالَى: "هذَا غيرُ مرادٍ"، فالمقصودُ بهَا غيرُ مرادٍ فِي ثبوتِ الحكمِ، يعنِي ليسَ لهُ أثرٌ فِي ثبوتِ الحكمِ الذِي سيقتِ الآيةُ منْ أجلهِ، وليسَ مرادهمْ أنَّهُ لَا فائدةَ منهُ.

ثمَّ مثَّلَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى هذَا فِي شرحهِ بأمثلةٍ عديدةٍ وقالَ: فمنهَا قولهُ تعالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ ومنَ المعلومِ أنَّ منْ دعَا معَ اللهِ إلهاً آخرَ فإنَّهُ كافرٌ، وأنَّهُ ليسَ لهُ برهانٌ، وإنَّمَا قيَّدهَا اللهُ تعالَى بهذَا القيدِ بياناً لشناعةِ الشِّركِ والمشركِ... إلَى آخرِ مَا ذكرَ سابقًا.

فقولهُ تعالَى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ هلْ هذَا القيدُ مرادٌ فِي ثبوتِ الحكمِ؟ أيْ هلْ هناكَ منْ يستطيعُ أنْ يقيمَ برهاناً علَى صحَّةِ مَا يعبدهُ منْ دونِ اللهِ تعالَى؟

الجوابُ: لَا يمكنُ أنْ يقيمَ أحدٌ برهاناً علَى صحَّةِ عبادتهِ لغيرِ اللهِ تعالَى، فإذَا كانَ لَا يمكنُ إقامةُ البرهانِ فمَا فائدةُ ذكرهِ فِي الآيةِ علَى صفةِ قيدٍ؟ الجوابُ: هوَ التَّشنيعُ علَى أهلِ الشِّركِ أنَّهمْ يعبدونَ مَا لَا برهانَ لهمْ بهِ، وأنَّهُ لَا حجَّةَ لهمْ فيمَا ذهبُوا إليهِ منَ الشِّركِ والكفرِ باللهِ تعالَى، ولذلكَ يسمِّي علماءُ التَّفسيرِ هذَا القيدَ قيداً كاشفاً أوْ وصفاً كاشفاً، ويقابلُ الوصفَ الكاشفَ، الوصفُ المقيَّدُ، والفرقُ بينهمَا: أنَّ الوصفَ المقيَّدَ معتبرٌ ومرادٌ فِي ثبوتِ الحكمِ، وأنَّ الوصفَ الكاشفَ ليسَ مراداً فِي ثبوتِ الحكمِ، فإذَا رأينَا فِي كلامِ المفسرينَ قولَ: هذَا وصفٌ كاشفٌ، فمرادهمْ أنَّهُ لَا يؤثِّرُ فِي ثبوتِ الحكمِ[1].

(1) من شرح أد. خالد بن عبد الله المصلح – على القواعد الحسان للسعدي – بتصرُّف.

ثمَّ ضربَ الشَّيخ مثلًا آخرًا لهذَا الاستثناءِ منَ القاعدةِ وقالَ: ومنهَا قولهُ تعالَى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾[النساء: 23] معَ أنَّ كونهَا فِي حجرهِ أوْ فِي غيرِ حجرهِ ليسَ شرطاً لتحريمهَا، فإنَّهَا تحرمُ مطلقاً.اهـ

قبلَ كلِّ شيءٍ الرَّبيبةُ هيَ بنتُ الزَّوجةِ، يعنِي إذَا تزوَّجَ الرَّجلُ امرأةً لهَا بنتٌ، فهذهِ البنتُ هيَ الرَّبيبةُ المقصودةُ فِي هذهِ الآيةِ، قالَ اللهَ تعالَى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾، فهلِ القيدُ فِي قولهِ: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ مرادٌ فِي ثبوتِ الحكمِ؟ نرَى أنَّ المؤلِّفَ قالَ: (معَ أنَّ كونهَا فِي حَجْرِهِ أوْ فِي غيرِ حَجرهِ ليسَ شرطاً لتحريمهَا) يعنِي هيَ محرَّمةٌ علَى كلِّ حالٍ، كانتْ فِي حَجرهِ أوْ لمْ تكنْ فِي حجرهِ، إلَّا إنْ لمْ يدخلْ بأمِّهَا.

إذاً هذَا القيدُ غيرُ مرادٍ فِي ثبوتِ الحكمِ، لكنْ لهُ فائدةٌ وهيَ مَا ذكرهُ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحهِ حيثُ قالَ:

(ولكنْ ذكرَ اللهُ تعالَى هذَا القيدَ تشنيعاً لهذهِ الحالةِ، وأنَّهُ منَ القبيحِ إباحةُ الرَّبيبةِ التِي هيَ فِي حَجرِ الإنسانِ بمنزلةِ ابنتهِ. فذكرَ اللهُ تعالَى المسألةَ متجليَّةً بثيابِ قبحهَا لينفرَ عنهَا ذوِي الألبابِ، معَ أنَّ التَّحريمَ لمْ يُعلَّقْ بمثلِ هذهِ الحالةِ، فالأنثىَ إمَّا أنْ تكونَ مباحةً مطلقاً، أوْ محرَّمةً مطلقاً، سواءٌ كانتْ عندَ الإنسانِ أمْ لَا، كحالةِ بقيَّةِ النِّساءِ المحلَّلاتِ والمحرَّماتِ)[1].

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: إذَا أمرَ اللهُ تعالَى بشيءٍ كانَ ناهيًا عنْ ضدِّهِ، وإذَا نهَى عنْ شيءٍ كانَ آمرًا بضدِّهِ، وإذَا أثنَى علَى نفسهِ بنفيِ شيءٍ منَ النَّقائصِ، كانَ إثباتًا للكمالِ المنافِي لذلكَ النَّقصِ، وكذلكَ إذَا أثنَى علَى رسلهِ وأوليائهِ ونزَّههمْ عنْ شيءٍ منَ النَّقائصِ، فهوَ مدحٌ لهمْ بمَا يضادُّ ذلكَ النَّقصِ، ومثلهُ نفيُ النَّقائصِ عنْ دارِ النَّعيمِ، يدلُّ علَى إثباتِ ضدِّ ذلكَ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وكذلكَ هذهِ قاعدةٌ ذكرهَا الإمامُ السَّعدِي فِي كتابه القواعد الحسان وشرحها، وأصلُ القاعدة هي: "إذَا أمرَ الله تعالَى بشيءٍ كانَ ناهيًا عنْ ضدِّهِ، وإذَا نهَى عنْ شيءٍ كانَ آمرًا بضدِّهِ، وإذَا أثنَى علَى نفسهِ أوْ علَى أوليائهِ وأصفيائهِ بنفيِ شيءٍ منَ النَّقائصِ كانَ ذلكَ إثباتًا للكمالِ".

وشرحَ رحمهُ الله تعالَى هذهِ القاعدةَ بقولهِ: وذلكَ لأنَّهُ لَا يمكنُ امتثالُ الأمرِ علَى وجهِ الكمالِ إلَّا بتركِ ضدِّهِ، فحيثُ أمرَ بالتَّوحيدِ والصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّومِ والحجِّ وبرِّ الوالدينِ وصلةِ الأرحامِ والعدلِ، كانَ ناهيًا عنِ الشِّركِ وعنْ تركِ الصَّلاةِ وتركِ الزَّكاةِ وتركِ الصَّومِ وتركِ الحجِّ وعنِ العقوقِ والقطيعةِ.

وحيثُ أمرَ بالصَّبرِ والشُّكرِ وإقبالِ القلبِ علَى اللهِ تعالَى إنابةً ومحبَّةً وخوفًا ورجاءً، كانَ ناهيًا عنِ الجزعِ والسَّخطِ وكفرانِ النِّعمِ وإعراضِ القلبِ عنِ اللهِ تعالَى فِي تعلُّقِ هذهِ الأمورِ بغيرهِ.

وحيثُ نهَى عنِ الجزعِ وكفرانِ النِّعمِ وغفلةِ القلبِ، كانَ آمرًا بالصَّبرِ، إلَى آخرِ المذكوراتِ، وهذَا ضربُ مثلٍ وإلَّا فكلُّ الأوامرِ والنَّواهِي علَى هذَا النَّمطِ.
~~~~~~~~~~~

وكذلكَ المدحُ لَا يكونُ إلَّا بإثباتِ الكمالاتِ، فحيثُ أثنَى تعالَى علَى نفسهِ، وذكرَ تنزُّههُ عنِ النَّقائصِ والعيوبِ: كالنَّومِ والسِّنةِ واللَّغوبِ (التَّعب) والموتِ، وخفاءِ شيءٍ فِي العالمِ منَ الأعيانِ والصِّفاتِ والأعمالِ وغيرهَا، والظُّلمِ، فَلتضمُّنِ ذلكَ الثَّناءِ عليهِ بكمالِ حياتهِ، وكمالِ قيُّوميَّتهِ وقدرتهِ وسعةِ علمهِ وكمالِ عدلهِ وحكمتهِ، لأنَّ العدمَ المحضَ لَا كمالَ فيهِ، حتَّى يُنفى تكميلاً للكمالِ.

وكذلكَ إذَا نفَى اللهُ تعالَى عنْ كتابهِ الرَّيبَ والاختلافَ والشَّكَّ والإخبارَ بخلافِ الواقعِ، كانَ ذلكَ لكمالِ دلالتهِ علَى اليقينِ فِي جميعِ المطالبِ واشتمالهِ علَى الإحكامِ والانتظامِ التَّامِ والصِّدقِ الكاملِ، إلَى غيرِ ذلكَ منْ صفاتِ كتابهِ.

وكذلكَ إذَا نفَى عنْ رسولهِ ﷺ الكذبَ، والتقوُّلَ علَى اللهِ تعالَى واتِّباعِ الهوَى والجنونَ والسِّحرَ والشِّعرَ والغلطَ ونحوهَا، كانَ ذلكَ لأجلِ إثباتِ كمالِ صدقهِ، وأنَّهُ لَا ينطقُ عنِ الهوَى، إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يوحَى، ولكمالِ عقلهِ ولزوالِ كلِّ مَا يقدحُ فِي كمالِ نبوَّتهِ ورسالتهِ ﷺ.

ثمَّ نصحَ رحمهُ اللهُ تعالَى قائلًا: فتفطَّنْ لهذهِ القاعدةِ فِي كلِّ مَا يمرُ عليكَ منَ الآياتِ القرآنيَّةِ فِي هذهِ الأمورِ وغيرهَا، تنلْ خيراً كثيراً، والله أعلمُ[1].

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 84 – 85.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ومنْ الكلِّيَّاتِ؛ أنَّهُ إذَا وضحَ الحقُّ وظهرَ ظهورًا جليًّا، لمْ يبقَ للمجادلاتِ العلميَّةِ والمعارضاتِ العمليَّةِ محلٌّ، بلْ تبطلُ المعارضاتُ، وتضمحلُّ المجادلاتُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وأصلُ هذهِ القاعدةِ كمَا ذكرهَا الشيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ: إذَا وضحَ الحقُّ وبانَ، لمْ يبقَ للمعارضةِ العلميَّةِ والعمليَّةِ محلٌّ[1].

ثمَّ شرحهَا رحمهُ اللهُ تعالَى بقولهِ:

وهذهِ قاعدةٌ شرعيَّةٌ عقليَّةٌ فطريَّةٌ، قدْ وردتْ فِي القرآنِ وأرشدَ إليهَا فِي مواضعَ كثيرةٍ، وذلكَ أنَّهُ منَ المعلومِ أنَّ محلَّ المعارضاتِ وموضعَ الاستشكالاتِ وموضعَ التوقُّفاتِ ووقتَ المشاوراتِ، إذَا كانَ الشَّيءُ فيهِ اشتباهٌ أوِ احتمالاتٌ، فتردُ عليهِ هذهِ الأمورُ، لأنَّهَا الطَّريقُ إلَى البيانِ والتَّوضيحِ،

فأمَّا إذَا كانَ الشَّيءُ لَا يحتملُ إلَّا معنًى (واحداً) واضحاً، وقدْ تعيَّنتِ المصلحةُ، فالمجادلةُ والمعارضةُ منْ بابِ العبثِ، والمعارِضُ هنَا لَا يُلتفتُ لاعتراضاتهِ، لأنَّه يشبهُ المكابرَ المنكرِ للمحسوساتِ...[2].اهـ

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القران للسعدي صـ 110.

(2) السابق.
~~~~~~~~~~~

ومعنَى أنَّهُ إنْ كانَ الأمرُ مشكلًا أوْ فيهِ اشتباهٌ أوِ احتمالاتٌ، تكونُ حينهَا المجادلاتُ العلميَّةُ والمعارضاتُ العمليَّةُ، والتَّوقُّفاتُ والمشاورتُ، وإنْ كانَ الأمرُ والحكمُ بيِّنًا واضحًا، فلَا تجوزُ حينهَا المجادلةُ ولَا المشاورةُ ولَا الاعتراضُ، لأنَّ هذَا منَ المكابرةِ والتنطُّعِ.

ثمَّ استدلَّ رحمهُ اللهُ تعالَى بقوله تعالَى وقالَ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران: 109] أيْ: فِي الأمورِ التِي تحتاجُ إلَى مشاورةٍ، ويُطلبُ فيهَا وجهُ المصلحةِ، فأمَّا أمرٌ قدْ تعيَّنتْ مصلحتهُ، وظهرَ وجوبهُ فقالَ فيهِ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[آل عمران: 109](1).اهـ

وهنَا شرحَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى الأمرَ علَى وجهَيْهِ، المشاورةُ ثمَّ العملُ وعدمُ المجادلةِ؛ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ هذَا أمرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ أنْ يشاورهمْ (أيِ الصَّحابةُ) فِي الأمرِ الذِي يهمهمْ جميعاً ويحتاجُ فيهِ إلَى الرُّجوعِ إليهمْ ممَّا يتعلَّقُ بهمْ، وهذَا فيمَا لمْ تتَّضحْ مصلحتهُ اتِّضاحاً تامًّا، ثمَّ إذَا اتَّضحَ الأمرُ واستبانَ وجهُ المصلحةِ فيهِ، فإنَّهُ لَا وجهَ عندَ ذلكَ للمشاورةِ ولَا المجادلةِ ولَا المعارضةِ، لأنَّ الأمرَ قدِ اتَّضحَ وبانَ، وإنَّمَا المشاوراتُ تكونُ فِي المشتبهاتِ والمشكلاتِ، وعندَ ذلكَ الواجبُ هوَ العملُ والإقدامُ؛ ولذلكَ قالَ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وهذَا إذَا اتَّضحَ الأمرُ وبانَ، فلمْ يبقَى حينَها إلَّا العزمُ علَى فعلِ الأمرِ والتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي ذلكَ، ويُقاسُ علَى مَا سبقَ الجدالُ والمعارضةُ.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وقدْ كشفَ اللهُ تعالَى هذَا المعنَى غايةَ الكشفِ، فِي قولهِ تعالَى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾، [الأنفال: 6] أيْ فكلُّ منْ جادلَ فِي الحقِّ بعدَ مَا تبيَّنَ علمهُ أوْ طريقُ عملهِ، فإنَّهُ غالطٌ شرعاً وعقلاً(2).

---

(1) السَّابق صـ 111.

(2) السابق نفسه.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: مَا نفاهُ القرآنُ؛ فإمَّا أنْ يكونَ غير موجودٍ، أو أنَّهُ موجودٌ ولكنَّهُ غيرُ مفيدٍ ولَا نافعٍ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وهذهِ القاعدةُ أيضًا أصلهَا فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ وهيَ علَى مَا يلِي:

"كثيرًا مَا ينفِي اللهُ تعالَى الشَّيءَ لانتفاءِ فائدتهِ وثمرتهِ المقصودةِ منهُ، وإنْ كانتْ صورتهُ موجودةٌ"[1].اهـ

إنَّ اللهَ تعالَى ينفِي الشَّيءَ فِي القرآنِ، وهذَا النَّفيُ:

تارةً يردُ لنفيِ وجودهِ وحقيقتهِ.

وتارةً يردُ لنفيِ مقصودهِ ومنفعتهِ.

وتارةً يردُ لنفيِ كمالهِ وبيانِ نقصهِ.

وتارةً يردُ ويرادُ بهِ أنَّ ذلكَ ليسَ مقصوداً، ولَا ينفعُ صاحبهُ، وليسَ هوَ منْ غرضِ الشَّارعِ.

فهذهِ أربعةُ أسبابٍ يردُ لأجلهَا النَّفيُ، وقدْ يردُ النَّفيُ لغيرِ هذهِ الأمورِ، والذِي يحدِّدُ المقصودَ منَ النَّفيِ هوَ السِّياقُ، فالقرائنُ اللَّفظيَّةُ والقرائنُ الحاليَّةُ هيَ التِي تدلُّ أيُّ المراداتِ وأيُّ المقاصدِ هوَ المرادُ بالنَّفيِ[2].

إذاً النَّفيُ يردُ ويرادُ بهِ نفيُ الوجودِ والحقيقةِ، ونفيُ المقصودِ والمنفعةِ، ونفيُ الكمالِ وهذَا النَّفيُ دالٌّ علَى النَّقصِ فِي العملِ، ويردُ ويرادُ بهِ عدمُ الانتفاعِ وأنَّهُ ليسَ مقصوداً للشارعِ.

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القران للسعدي صـ 113.

(2) من شرح د. خالد بن عبد الله المصلح – على القواعد الحسان للسعدي – بتصرُّف.
~~~~~~~~~~~

منَ الأمثلةِ علَى ذلكَ:

1) النَّفيُ لنفيِ الوجودِ والحقيقةِ: مثلَ كلمةِ (لَا إلهَ إلَّا اللهُ)، فإنَّهَا نفيٌ لحقيقةِ وجودِ إلهٍ مستحقٍّ للعبادةِ غيرِ اللهِ تعالَى.

2) النَّفيُ لانتفاءِ المقصودِ وعدمِ حصولِ المنفعةِ فِي ذلكَ: مثلَ نفيِ السَّمعِ والبصرِ والعقلِ عنِ الكفَّارِ، منهَا قولهُ تعالَى {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}[البقرة: 171]، فهمْ ليسُوا صمًّا ولَا بكمًا ولَا عميًا علَى الحقيقةِ، ولَا همْ فاقدينَ لعقولهمْ، لكنَّ النَّفيَ هنَا هوَ نفيٌّ للمنفعةِ بهَا، فأسماعهمْ وأبصارهمْ وعدمهَا سواءٌ، وعقولهمْ وعدمهَا سواءٌ، لانتفاءِ منفعتهمْ بهَا، وغيابِ المقصودِ منهَا، وهذَا شرُّ مَا فِي البابِ لذلكَ ركَّزَ الإمامُ السَّعدِي علَى هذَا النَّوعِ منَ النَّفي فِي شرحهِ للقاعدةِ فِي كتابهِ.

ومنهُ أيضاً قولُ النَّبيِّ ﷺ: "لَا صلاةَ بغيرِ طهورٍ"[1]،

فالنَّفيُ هنَا لنفيِ المنفعةِ، وإنْ كانتِ الصُّورةُ موجودةً.

3) النَّفيُ ويرادُ بهِ نفيُ الكمالِ وثبوتِ النَّقصِ للفعلِ وإنْ كانَ موجودًا، منهَا قولهُ ﷺ: "لَا صلاةَ بحضرةِ طعامٍ، ولَا وهوَ يدافعهُ الأخبثانِ"[2] فإنْ صلَّى وهوَ جائعٌ فِي حضرةِ الطَّعامِ، كانَ فكرهُ منشغلَا بالطَّعامِ عنِ الصَّلاةِ وهوَ نقصٌ فِي آداءِ الصَّلاةِ، وكذلكَ وهوَ يُدافعهُ الأخبثانِ.

4) النَّفيُ ويرادُ بهِ نفيُ المنفعةِ، وأنَّهُ ليسَ مقصودًا للشَّارعِ، مثلَ قولهِ ﷺ: "مَن لم يَدَعْ قول الزُّور والعملَ به والجهلَ، فليس للهِ حاجةٌ أن يَدَعَ طعامهُ وشرابهُ"[3].

(1) سنن أبي داوود: كتاب الطهارة، باب فرض الوضوء، حديث رقم (59). قال الشيخ الألباني: صحيح.

(2) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (560).

(3) رواه البخاري.

إلَّا أنَّ المؤلِّفَ رحمهُ اللهُ تعالَى تكلَّمَ فِي مقدِّمةِ تفسيرهِ عنْ ثلاثةِ أنواعٍ منَ النَّفي ولمْ يذكرْ نفيَ الكمالِ وبيانِ النَّقصِ، وتكلَّمَ في كتابهِ القواعدِ الحسانِ عنِ النَّوعِ الثَّانِي فقطْ ممَّا ذُكرَ سابقًا، وهوَ أنَّهُ كثيرًا مَا ينفِي اللهُ الشَّيءَ لانتفاءِ فائدتهِ وثمرتهِ المقصودةِ منهُ، وإنْ كانتْ صورتهُ موجودةٌ.اهـ

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى شارحًا للقاعدةِ: وذلكَ أنَّ اللهَ خلقَ الإنسانَ وركَّبَ فيهِ القوَى، منَ السَّمعِ والبصرِ والفؤادِ وغيرهَا؛ ليعرفَ بهَا ربَّهُ ويقومَ بحقِّهِ، فهذَا المقصودُ منهَا، وبوجودِ مَا خُلقتْ لهُ تكملُ ويكملُ صاحبهَا، وبفقدِ ذلكَ يكونُ وجودهَا أضرُّ علَى الإنسانِ منْ فقدهَا، فإنَّهَا حجَّةُ اللهِ علَى عبادهِ، ونعمتهُ التِي توجدُ بهَا مصالحُ الدِّينِ والدُّنيَا، فإمَّا أنْ تكونَ نعمةً تامَّةً إذَا اقترنَ بهَا مقصودهَا، أوْ تكونَ محنةً وحجَّةً علَى صاحبهَا إذَا استعملهَا فِي غيرِ مَا خلقتْ لهُ، ولهذَا كثيرًا مَا ينفِي اللهُ تعالَى هذهِ الأمورَ الثَّلاثةَ عنْ أصنافِ الكفَّارِ والمنافقينَ، كقولهِ تعالَى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}[البقرة: 171] ... وقالَ تعالَى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا}[الأعراف: 179] فأخبرَ أنَّ صورهَا موجودةٌ ولكنْ فوائدهَا مفقودةٌ، وقالَ تعالى: {فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[الحج: 46] وقالَ تعالَى: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}[النَّمل: 80] والآياتُ فِي هذَا المعنَى كثيرةٌ جدًّا، وقالَ تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}[النِّساء: 150 – 151].

فأثبتَ لهمْ الكفرَ منْ كلِّ وجهٍ؛ فلمْ يكنْ دعواهمْ الإيمانَ ببعضِ مَا يقولونَ: آمنَّا بهِ منَ الكتبِ والرُّسلِ بموجبٍ لهمْ الدُّخولَ فِي الإيمانِ؛ لأنَّ إيمانهمْ بهِ مفقودةٌ فائدتهُ، حيثُ كذَّبوهمْ فِي رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وغيرهِ منَ الرُّسلِ الذينَ لمْ يؤمنُوا بهمْ، وحيثُ أنكرُوا منْ براهينِ الإيمانِ مَا هوَ أعظمُ منَ الطَّريقِ الذِي أثبتُوا بهِ رسالةَ منِ ادعُوا الإيمانَ بهِ[1].اهـ

وخلاصةُ كلامِ الشَّيخِ أنَّ مَا نفاهُ القرآنُ؛ فإمَّا أنْ يكونَ غيرُ موجودٍ، كنفيِ الإيمانِ علَى الكافرِ خالصِ الكفرِ، أو أنَّهُ موجودٌ ولكنَّهُ غيرُ مفيدٍ ولَا نافعٍ، كالذينَ قالُوا: نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ، فهؤلاءِ لمْ ينفعهمْ مَا آمنُوا بهِ لنقصهِ ولعدمِ نفعهِ ولانتفاءِ مقصودهِ، وبهذهِ الثَّلاثةِ يأخذُ مقامَ منِ انتفَى عنهُ الإيمانُ علَى الحقيقةِ.

(1) القواعد الحسان بتفسير القران للسعدي صـ 114 – بتصرُّف.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الموهومُ لَا يدفعُ المعلومَ، والمجهولُ لَا يعارضُ المحقَّقَ، ومَا بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وهذهِ القاعدةُ عبَّرَ عنهَا الإمامُ فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ بقولهِ: "يُرشدُ القرآنُ إلَى الأمرِ المعلومِ المحقَّقِ عندَ ورودِ الشُّبهاتِ والتَّوهُّماتِ" وشرحهَا يرحمهُ الله تعالَى بقولهِ: وهذهِ قاعدةٌ جليلةٌ يُعبَّرُ عنهَا: "أنَّ الموهومَ لَا يدفعُ المعلومَ، وأنَّ المجهولَ لَا يُعارضُ المتيقّن" ونحوهَا منَ العباراتِ، وقدْ أشارَ اللهُ تعالَى إليهَا فِي مواضعَ كثيرةٍ لمَا أخبرَ تعالَى عنِ الرَّاسخينَ فِي العلمِ، وأنَّ طريقتهمْ فِي المشابهاتِ أنَّهمْ يقولونَ: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}[آل عمران: 7] فالأمورُ المحكمةُ المعلومةُ يتعيَّنُ أنْ يرجعَ إليهَا الأمورُ المشتبهةُ المظنونةُ، وقالَ تعالَى فِي زجرِ المؤمنينَ عنِ القدحِ فِي إخوانهمْ المؤمنينَ: "لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ"[النّور: 12] فأمرهمْ بالرُّجوعِ إلَى مَا عُلمَ منْ إيمانِ المؤمنينَ الذِي يدفعُ السَّيئاتِ، وأنْ يعتبرُوا هذَا الأصلَ المعلومَ، ولَا يعتبرُوا كلامَ منْ تكلَّمَ ممَّا يُناقضهُ ويقدحُ فيهِ.اهـ

وقالَ الطَّبريُّ فِي شرحِ الآيةِ السَّابقةِ: وهذَا عتابٌ منَ اللهِ تعالَى ذكرهُ أهلَ الإيمانِ بهِ فيمَا وقعَ فِي أنفسهمْ منْ إرجافِ منْ أرجفَ فِي أمرِ عائشةَ بمَا أرجفَ بهِ، يقولُ لهمْ تعالَى ذكرهُ: هلَّا أيُّهَا النَّاسُ إذْ سمعتمْ مَا قالَ أهلُ الإفكِ فِي عائشةَ ظنَّ المؤمنونَ منكمْ والمؤمناتِ بأنفسهمْ خيرًا: يقولُ: ظننتمْ بمنْ قرفَ بذلكَ منكمْ خيرًا، ولمْ تظنُّوا بهِ أنَّهُ أتَى الفاحشةَ، وقالَ بأنفسهمْ، لأنَّ أهلَ الإسلامِ كلُّهمْ بمنزلةِ نفسٍ واحدةٍ، لأنَّهمْ أهلُ ملَّةٍ واحدةٍ.

وقالَ الطَّبريُّ:

... عنْ بعضِ رجالِ بنِي النجَّارِ، أنَّ أبَا أيُّوبَ خالدُ بنُ زيدٍ، قالتْ لهُ امرأتهُ أمُّ أيُّوبَ: أمَا تسمعُ مَا يقولُ النَّاسُ فِي عائشةَ؟ قالَ: بلَى، وذلكَ الكذبُ، أكنتِ فاعلةً ذلكَ يَا أمَّ أيُّوبَ؟ قالتْ: لَا واللهِ مَا كنتُ لأفعلهُ، قالَ: فعائشةُ واللهِ خيرٌ منكِ، قالَ: فلمَّا نزلَ القرآنُ، ذكرَ اللهُ منْ قالَ فِي الفاحشةِ مَا قالَ منْ أهلِ الإفكِ: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ" وذلكَ حسَّانُ وأصحابهُ الذينَ قالُوا مَا قَالُوا، ثمَّ قالَ: "لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ..." الآية: أيْ كمَا قالَ أبُو أيُّوبُ وصاحبتهُ[1].

وهذهِ القاعدةُ ذُكرتْ فِي كثيرٍ منَ الكتبِ الفقهيَّةِ، ومنهُ مجمعُ الفتاوَى"[2].

وذكرهَا البركتِي فِي قواعدهِ رقمَ (254): "لَا عِبْرَةَ لِلتَّوَهُّمِ"[3].

وقدْ وردتْ فِي كتبِ الفقهاءِ، وعباراتهمْ ألفاظٌ أخرَى قريبةٌ منْ هذهِ القاعدةِ، وتدلُّ علَى معناهَا أيضًا، منْ ذلكَ قولهمْ:

1) "لَا يُقَابِلُ المَوْهُوم المَعْلُومَ"[4].

---

(1) تفسير الطبري

(2) درر الحكام شرح مجلة الأحكام، علي حيدر، 65/1.

(3) قواعد الفقه، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الصدف ببلشرز، كراتشي، ط1، (1407هـ – 1986م)، 107/1.

(4) المبسوط، شمس الدين السرخسي (ت 483هـ)، دار المعرفة، بيروت، 46/17.

2) "المُتَيَقَّنُ لَا يَزُولُ بِالمَوْهُومِ"[1].

3) "المَوْهُومُ لَا يُعَارِضُ المَعْلُومَ"[2].

4) "المَعْلُومُ لَا يُؤَخَّرُ لِلْمَوْهُومِ"[3].

5) "لَا يُتْرَكُ المَعْلُومُ بِالمَوْهُومِ"[4].

6) "الظَّاهِرُ أَوْلَى بِالإعْتِبَارِ منَ المَوْهُومِ"[5].

7) "المَوْهُومُ فِي مُقَابَلَةِ المُحقَّقِ غَيْرُ مُعْتَبرٍ"[6].

8) "المَوْهُومُ لَا يُعَارِضُ المُتَحَقَّقَ"[7].

9) " لَا يُتْرَكُ المُحقَّقُ لِأَجْلِ المَوْهُومِ"[8].

10) "لَا يُبْنَى الحُكْمُ عَلَى المَوْهُومِ، خُصُوصًا فِيمَا يَكُونُ الوَاجِبُ فِيهِ الأَخْذُ بالاِحْتِيَاطِ"[9].

---

(1) ينظر: المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة: أبو المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَةَ البخاري الحنفي (ت 616هـ)، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (1424هـ – 2004م)، 479/1.

(2) المبسوط للسرخسي، 188/18.

(3) غمز عيون البصائر، 180/3.

(4) المبسوط، السرخسي، 19/2.

(5) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، (ت 743)، دار الكتب الإسلامي، القاهرة، (1313هـ)، 58/6، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي، (ت970هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط2، 260/8.

(6) ينظر: العناية شرح الهداية، للإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي، (ت 786هـ)، مطبوع بهامش شرح فتح القدير على الهداية لابن الهمام، المطبعة الأميرية، بمصر سنة (1315هـ)، 74/1.

(7) المبسوط، للسرخسي، 97/12، و 147/20، و 50/25 و غمز عيون البصائر، 180/3.

(8) ينظر: حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، لأبي بكر ابن السيد محمد شطا الدمياطي، دار الفكر، بيروت، 145/1.

(9) ذكرها بهذا اللفظ البركتي في قواعده نقلاً عن السير، إلا انه ذكر لفظ (لا ينبغي) بدل "لا يبني" والموجود في السير الثاني.، ينظر: السير الكبير محمد بن الحسين الشيباني، (ت 198هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، 211/1، وقواعد الفقه للبركتي، القاعدة رقم (281)، 113/1.

والوهمُ هو: مرجوحُ الظَّن، والظَّن هو: تجويزُ أمرينِ أحدهمَا أرجحُ منَ الآخرِ، فالرَّاجحُ هوَ الظَّن والمرجوحُ هوَ الوهمُ.

وعرَّفهُ ابنُ نجيمٍ بقولِهِ: "رُجحانُ جهةِ الخطأِ"[1].

والوهمُ عندَ الفقهاءِ الأصوليينَ هوَ: إدراكُ الطَّرفِ المرجوحِ منْ طرفيْ متردِّدٍ فيهِ[2].

وهوَ مَا عبَّرَ عنهُ الحمويُّ نقلاً عنْ متأخِّرِي الأصوليينَ حيثُ قالَ: "الوهمُ تجويزُ أمرينِ أحدهمَا أضعفُ منَ الآخرِ"[3] والأضعفُ هوَ الوهمُ.

ومعنَى هذهِ القاعدةِ الجليلةِ التِي أطلنَا فيهَا الكلامَ لنفعهَا، هوَ: أنَّهُ لَا اعتبارَ للتوهُّمِ، ولَا اعتدادَ بهِ، ولَا يُبنَى عليهِ حكمٌ شرعيٌّ، وأنَّهُ لَا تعارضَ بينَ المعلومِ والموهومِ، لأنَّ الموهومَ ضعيفٌ جدًا أمامَ القويِّ (المعلومِ)، كمَا أنَّهُ لَا يجوزُ تأخيرُ الشَّيءِ الثَّابتِ بصورةٍ قطعيَّةٍ بوهمٍ طارئٍ، لأنَّهُ غيرُ مستندٍ إلَى دليلٍ عقليٍّ، أو حسِّي[4].

والأصلُ عدمُ بناءِ الأحكامِ علَى الوهمِ: لكونهِ أضعفُ منَ الشكِّ، وأقلُّ درجةً منهُ، ومَا دامَ الشكُّ غيرُ منظورٍ إليهِ فِي الشَّرعِ، فالوهمُ أولَى بأنْ يلغَى، ولَا يُكترثُ بهِ، إذْ هوَ باطلٌ لَا يثبتُ معهُ حكمٌ شرعيٌّ، كمَا لَا يُؤخَّرُ لأجلهِ حكمٌ شرعيٌّ[5].

(1) ينظر: الأشباه والنظائر عَلَى مَذْهَبِ أَبِيْ حَنِيْفَةَ النُّعْمَانِ، زَيْنُ الْعَابِدِيْنَ بْنِ إِبْرَاهِيْمِ بْنِ نُجَيْمٍ، (ت 970هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1400هـ – 1980م)، 73/1.

(2) ينظر: المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت 606هـ)، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط1، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، 101/1، والمجموع، النووي (ت 676هـ)، دار الفكر، بيروت، (1997م)، 225/1، والذخيرة، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ)، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب، بيروت، (1994م)، 65/1، نهاية السول شرح منهاج الوصول: للإمام جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي (ت 772هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1420هـ – 1999م)، 22/1، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى (ت 926هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، (1411هـ)، 68/1، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير (ت 1004هـ)، دار الفكر للطباعة، بيروت، (1404هـ – 1984م)، 265/1، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، 394/1، والكليات الكفوي، 943/1، وغمز عيون، 193/1، و 204، شرح القواعد الفقهية، للزرقا، 364/1.

(3) ينظر: غمز عيون، 193/1. =

وجاءَ فِي الموسوعةِ الفقهيَّةِ الكويتيَّةِ: "لَا خلافَ بينَ الفقهاءِ، فِي أنَّ التوهُّمَ بالمعنَى المتقدِّمِ لَا عبرةَ لهُ فِي الأحكامِ، فكمَا لَا يثبتُ حكمٌ شرعيٌّ استنادًا علَى وهمٍ، لَا يجوزُ تأخيرُ الشَّيءِ الثَّابتِ بصورةٍ قطعيَّةٍ بوهمٍ طارئٍ(1).

ولهذهِ القاعدةِ الجليلةِ تطبيقاتٌ تطبيقاتٌ كثيرةٌ فِي العباداتِ منْ أصولٍ وفروعٍ، وفِي العاداتِ أيضًا، ومنَ الأمثلةِ علَى ذلكَ مَا ذكرهُ إمامنَا السَّعدِيُّ بمَا معناهُ أنَّ: اليقينَ والمعلومَ أنَّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا طاهرةٌ منْ كلِّ النَّواحِي، وأنَّ الوهمَ مَا جاءُوا بهِ منَ الإفكِ، فالموهومُ الذِي هوَ الإفكُ الذِي جاءُوا بهِ لَا يدفعُ المعلومَ المحقَّقَ وهو طهارةُ وعفَّةُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا.

ومنْ تطبيقاتِ هذهِ القاعدةِ فِي الفروعِ: لَا ينبغِي تركُ استعمالِ الماءِ لاحتمالِ وقوعِ نجاسةٍ فيهِ، لأنَّهُ مجرَّدُ توهُّمٍ، وتقديرٍ لَا مستندَ لهُ، لذلكَ يُلغَى، ولَا يُلتفتُ إليهِ بحالٍ(2).

ومنْ تطبيقاتِ هذهِ القاعدةِ فِي المعاملاتِ: لوْ كانَ للدَّارِ المبيعةِ شفيعانِ، غائبٌ وحاضرٌ، وطلبَ الحاضرُ الشُّفعةَ، فإنَّهُ يُقضَى لهُ بهَا عندَ تحقيقهَا، ولَا يجوزُ إرجاءُ الحكمِ بداعِي أنَّ الغائبَ ربَّمَا طلبَ الشُّفعةَ فِي الدَّارِ المذكورةِ، لأنَّهُ موهومٌ(3)، والشُّفعةُ اصطلاحًا هيَ: هيَ استحقاقُ الشَّريكِ انتزاعَ حصَّةَ شريكٍ ممَّنِ انتقلتْ إليهِ بعِوَضٍ، فهيَ حقُّ تملُّكٍ قهريٍّ يُثبتُ للشَّريكِ القديمِ علَى الحادثِ فيمَا ملكَ بعِوَضٍ(4).

= (4) ينظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني (ت 587هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية،، (1982م)، 140/3، 186، 196/6، والقواعد لعلي الندوي، ص 416، والوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية: البورنو،ص 208.

(1) كتاب الكليات للكفوي، 943/1، وشرح القواعد للزرقا، 364/1

(2) الموسوعة الفقهية الكويتية ،204/14.

(3) وهذا عند أبي حنيفة، وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، ليس عليهم إعادة شيء حتى يتحققوا متى وقعت، لأن (اليقين لا يزول بالشك) ولأن وقوعها في البئر حادث والأصل في الحوادث أن تضاف إلى أقرب الأوقات، للشك في الإسناد، فصار كمن رأى في ثوبه نجاسة لا يدري متى أصابته، فإنه لا يعيد بالإجماع على الأصح ينظر: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي، 28/1، والعناية مع الهداية، 72/1، والأشباه والنظائر لابن نجيم، 63/1. =

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ذكرَ اللهُ تعالَى فِي القرآنِ، الإيمانَ والعملَ الصالحَ فِي مواضعَ كثيرةٍ رتَّبَ عليهمَا منَ الجزاءِ العاجلِ والآجلِ والآثارِ الحميدةِ شيئًا كثيرًا، فالإيمانُ هوَ: التَّصديقُ الجازمُ، بمَا أمرَ اللهُ تعالَى ورسوله ﷺ بالتَّصديقِ بهِ، المتضمِّنُ لأعمالِ الجوارحِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

قدْ ذكرَ اللهُ سبحانه وتعالَى الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ فِي القرآنِ في مواضعَ كثيرةٍ، وبيَّنَ سبحانهُ التَّلازمَ بينَ الإيمانِ والعملِ وأنَّ شرطَ الإيمانِ هوَ العملُ بمقتضاهُ فقالَ سبحانهُ:

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة: 25].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة: 82].

وقال جلَّ من قائل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: 277].

وقال سبحانه وتعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[آل عمران: 57].

وقال عزَّ وجل: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}[النساء: 57].
~~~~~~~~~~~

وقال عزَّ من قائل: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}[النساء: 122].

وقال سبحانه: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}[النساء: 173].

وقال سبحانه وتعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}[المائدة: 9].

فهذا تلازمٌ وتناغمٌ بيِّنٌ واضحٌ بين الإيمان والعمل الصالح، فما معنى الإيمان؟ وما معنى العمل الصالح؟ وما العلاقة بينهما؟

هذا ما سنتاوله في هذه الدراسة.

{الإيمان}

الإيمانُ لغةً:

الإيمانُ مصدرُ فعلٍ رباعيٍّ منْ آمنَ وأصلهُ أأمنَ، وأعلَّتِ الهمزةُ الثَّانيةُ بالقلبِ ألفًا؛ لكونهَا ساكنةً والتِي قبلهَا متحرِّكةٌ بالفتحِ، وهوَ أصلٌ يدلُّ علَى معنيينِ:

الأوَّلُ: إعطاءُ الأمنِ والأمانِ والطمأنينةِ، الذِي هوَ ضدُّ الخوفِ، وآمَنْتُهُ ضدّ أخَفْتُهُ.

والثَّانِي: التَّصديقُ الذِي هوَ ضدُّ التَّكذيبِ.

وإذَا قالَ العبدُ: آمنتُ باللهِ تعالَى ربًا، أي: صدَّقتُ بهِ، واطمأننتُ لأمرهِ.

فالإيمانُ فِي اللُّغةِ يرادُ بهِ معنيانِ، يظهرُ معناهمَا بحسبِ السِّياقِ وهمَا: الأمنُ وضدُّهُ الخوفُ، والتَّصديقُ وضدُّهُ التَّكذيبُ، والمعنيانِ متداخلانِ[1].

ويرَى ابنُ تيميةَ أنَّ الإيمانَ بمعنَى الإقرارِ؛ فيقولُ: ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ هوَ الإقرارُ؛ لَا مجرَّدُ التَّصديقُ، والإقرارُ ضمنَ قولِ القلبِ الذِي هوَ التَّصديقُ، وعملِ القلبِ الذِي هوَ الانقيادُ[2].

---

(1) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ٢١/١٣، المفردات، الأصفهاني، ص ٩٠.

(2) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩١/٧، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد، ص١٩، ٢١.

الإيمانُ اصطلاحًا:

الإيمانُ: التَّصديقُ الجازمُ، والاعترافُ التَّامُ بجميعِ مَا أخبرَ اللّٰهُ ورسولهُ عنهُ فِي القرآنِ والسنَّةِ، وأمرَ بالإيمانِ بهِ، والانقياد لهُ ظاهرًا وباطنًا[1].

فهوَ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ يزيدُ بالطَّاعةِ، وينقصُ بالمعصيةِ[2]، ويشملُ عقائدَ الإيمانِ، وأخلاقهِ، وأعمالهِ[3].

وهوَ تصديقُ القلبِ واعتقادهُ، المتضمِّنُ لأعمالِ القلوبِ، وأعمالِ البدنِ، وذلكَ شاملٌ للقيامِ بالدِّينِ كلِّهِ؛ ولهذَا كانَ الأئمَّةُ والسَّلفُ يقولونَ: الإيمانُ قولُ القلبِ واللِّسانِ، وعملُ القلبِ واللِّسانِ والجوارحِ[4].

وعلَى هذَا يكونُ معنَى الإيمانِ شرعًا هوَ: الاعتقادُ الجازمُ بوجودِ اللّٰهِ وأولوهيَّتهِ وربوبيَّتهِ وأسمائهِ وصفاتهِ، والاعتقادُ الجازمُ بوجود ملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلهِ واتِّباعهمْ فِي مَا جاؤوا بهِ منَ الحقِّ، والاعتقادُ الجازمُ بوجودِ اليومِ الآخرِ، والقدرِ خيرهِ وشرِّهِ،

وأنَّ هذَا الإيمانَ هوَ قولٌ باللِّسانِ، واعتقادٌ بالجَنانِ أي: القلبِ، وعملٌ بالجوارحِ، يزيدُ بالطَّاعةِ وينقُصُ بالعِصيانِ.

---

(1) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(2) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص١٦١.

(3) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(4) انظر: الإيمان، ابن تيمية، ص١٣٧.

أدلَّةُ زيادةِ الإيمانِ ونقصانهِ فِي القرآن:

قولهُ تعالَى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[الأنفال: 2].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا}[المدثر: 31].

وقالَ جلَّ وعلَا: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}[الفتح: 4].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}[التوبة: 124 – 125].

وأمَّا أدلَّةُ أنَّ الإيمانَ قولٌ واعتقادٌ وعملٌ:

هوَ اقترانُ العملِ بالإيمانِ فِي الآياتِ السَّابقِ ذكرهَا في الباب: مثل قوله تعالى:

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا}[البقرة: 25].

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}[البقرة: 82].

وقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ}[آل عمران: 57].

وقوله سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}[المائدة: 9].

ومنَ الأثرِ مَا رواهُ عبدُ اللهِ بنِ عمرَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: "لا يُقبلُ إيمانٌ بلا عملٍ، ولَا عملٌ بلَا إيمانٍ"[1].

وعنهُ ﷺ فِي حديثٍ مرسلٍ: "الإيمانُ باللهِ والعملُ قرينانِ، لَا يصلحُ واحدٌ منهمَا إلَّا معَ صاحبهِ[2].

---

(1) أخرجهُ السيوطي في الجامع الصغير 9962 وحكم عليه بالحسن، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: في إسناده سعيد بن زكريا واختلف في ثقته وجرحه، وضعَّفهُ الألباني في ضعف الجامعِ، وكلُّ الأئمَّةِ موافقونَ علَى معناهُ.

(2) رواه العدني في ((الإيمان)) (ص: 79). قال الألباني في ((السلسلة الضعيفة)) (2245):هذا إسناد ضعيف لإرساله.

وبوَّبَ عليهِ الحافظُ محمَّدُ بنُ يحيىَ بنِ أَبِي عمرَ العدنِي فِي كتابهِ (الإيمان): بابَ ملازمةِ العملِ للإيمانِ.

ونصَّ علَى مضمونهِ عددٌ منْ أئمَّةِ أهلِ السنَّةِ فِي عقائدهِمْ:

منهمُ الإمامُ المزنِي رحمهُ اللهُ تعالَى، قالَ: والإيمانُ قولٌ وعملٌ معَ اعتقادهِ بالجنانِ، وقولٌ باللِّسانِ، وعملٌ بالجوارحِ والأركانِ، وهمَا سيَّانِ ونظامانِ وقرينانِ لَا نفرِّقُ بينهمَا، لَا إيمانَ إلَّا بعملٍ، ولَا عملَ إلَّا بإيمانٍ[1].

وقالَ أبُو طالبٍ المكِّي: الإيمانُ والعملُ قرينانِ، لَا ينفعُ أحدهمَا بدونِ صاحبهِ.

وقالَ ابنُ أبِي زمنينَ: والإيمانُ باللهِ هوَ باللِّسانِ والقلبِ، وتصديقُ ذلكَ العملُ. فالقولُ والعملُ قرينانِ لَا يقومُ أحدهمَا إلَّا بصاحبهِ[2][3].

وأُثرَ عنِ الحسنِ البصرِي أنَّهُ قالَ: "ليسَ الإيمانُ بالتمنِّي ولَا بالتحلِّي، ولكنَّهُ مَا وقرَ فِي القلوبِ وصدَّقتهُ الأعمالُ"[4].

وديلُ وجوبِ الإيمانِ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرهِ وشرِّهِ: حديثُ جبريلَ ﷺ المعروفِ، وفيهِ: قال: "... أخبرنِي عنِ الإيمانِ" قالَ: "أنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ[5].

وهذهِ هيَ أركانُ الإيمانِ الستَّةِ، التِي لَا يتحقَّقُ الإيمانُ إلَّا بهَا، وأوَّلهَا الإيمانُ بالله تعالَى.

---

(1) ((شرح السنة)) للمزني (ص: 78).

(2) ((رياض الجنة بتخريج أصول السنة)) لابن أبي زمنين (ص: 207).

(3) المصدر: براءة أهل الحديث والسنة من بدعة المرجئة لمحمد بن سعيد الكثيري – ص: 98.

(4) رواه ابن تيمية والسيوطي مقطوعا عن الحسن البصري إلَّا أنَّ سندهُ للحسن البصري واهٍ ومعناهُ صحيحٌ.

(5) رواه مسلم 8.

أركان الإيمان:

1) الإيمانُ باللهِ تعالَى:

الأوَّلُ: الإيمانُ باللهِ تعالَى وهوَ: الاعتقاد الجازمُ بوجودِ اللهِ تعالَى، وربوبيتِه، وألوهيتِهِ، وأسمائه وصفاتِهِ، وتوحيدهُ في ذلك، وهذهِ الأمورُ الأربعةُ، منْ آمنَ بهَا قولًا وتصدِيقًا وعملًا فهوَ المؤمنُ حقًّا، لأنَّ مَا يندرجُ تحتهَا ممَّا سيأتِي هوَ منْ مقتضياتهَا.

(أ) الأوَّلُ: الإيمانُ بوجودِ اللهِ تعالَى:

ووجودُ اللهِ تعالَى قدْ دلَّ عليهِ العقلُ والفطرةُ، فضلاً عنِ الأدَّلةِ الشَّرعيَّةِ الكثيرةِ التِي تدلُّ علَى ذلكَ، فلَا نطيلُ فيهِ الكلامَ.

(ب) ثانيًا: الإيمانُ بربوبيتهِ تعالَى:

وهوَ إفرادُ اللهِ سبحانهُ بمَا يختصُّ بهِ منَ الرُّبوبيَّةِ، أي: بأنَّهُ وحدهُ الرَّبُّ لَا شريكَ لهُ ولَا معينَ.

والرَّبُّ لغةً:

قالَ ابنُ منظورٍ: الرَّبُّ يطلقُ فِي اللُّغةِ علَى المالكِ، والسَّيدِ، والمدبِّرِ، والمربِي، والقيِّمِ، والمنعمِ[1].

والرَّبُّ شرعًا:

هوَ منْ لهُ الخلقُ، والملكُ، والتَّدبيرُ، فلَا خالقَ إلَّا اللهُ، ولَا مالكَ إلَّا اللهُ، ولَا مدبِّرَ للأمورِ إلَّا اللهُ، قالَ اللهُ تعالَى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}[الأعراف: 45]، وقالَ تعالَى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ}[يونس: 31]، وقالَ تعالَى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}[السجدة: 5]، وقالَ تعالَى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}[فاطر: 13].

---

(1) لسان العرب.

(ج) الثَّالثُ: الإيمانُ بألوهيتهِ:

وهوَ إفرادُ اللهِ سبحانهُ فِي ألوهيَتهِ أي عبادته، أي: بأنَّهُ الإلهُ الحقُّ لَا شريكَ لهُ.

والألوهيَّةُ لغةً:

هيَ مصدرُ ألهَ يألهُ، قالَ الجوهري: ألهَ – بالفتح – إلاهةً، أيْ عبدَ عبادةً، ومنهُ قرأَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}[الأعراف: 127] بكسرِ الهمزةِ، قالَ وعبادتكَ وكانَ يقولُ: إنَّ فرعونَ كانَ يُعبدُ فِي الأرضِ.

ومنهُ قولنَا: (اللهُ) وأصلهُ: (إلهٌ) علَى وزنِ فِعالٌ بمعنَى مفعولٌ أيْ معبودٌ، كقولنَا: إمامٌ، فِعالٌ: لأنَّهُ مفعولٌ أيْ مؤتمٌّ بهِ[1].

وعلَى هذَا فالألوهيَّة هيَ: المعبوديَّةُ، فللَّهِ تعالَى الألوهيَّةُ – المعبوديَّة – وللخلقِ العبوديَّةُ.

و(الإلهُ) بمعنَى (المألوهُ) أي: (المعبودُ) حبًّا وتعظيمًا[2].

والألوهيَّةُ اصطلاحًا:

لهَا نفسِ المعاني اللُّغويَّةِ.

ومعنَى (لَا إلهَ إلَّا اللهُ) أي: لَا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، قالَ تعالَى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 163]، وقالَ تعالَى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران: 18].

وكلُّ مَا اتُّخذَ إلهًا معَ اللهِ تعالَى يُعبدُ منْ دونهِ، فألوهيتهُ باطلةٌ، قالَ تعالَى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[الحج: 62].

ومنْ هنَا يجبُ علينَا تعريفُ معنَى العبادةِ:

العبادةُ لغةً:

قالَ ابنُ فارسٍ: العينُ والباءُ والدَّالُ أصلانِ صحيحانِ، كأنَّهمَا متضادَّانِ، والأوَّلُ منْ ذينكَ الأصلينِ يدلُّ علَى لينٍ وذلٍّ، والآخرُ علَى شدَّةٍ وغلظٍ.

---

(1) الصحاح للجوهري: 2223/6 مادة أله – وتفسير أسماء الله الحسنى للزجَّاج – ص:26.

(2) السابق.

فالأوَّلُ: العبدُ المملوكُ... والمعبَّدُ: الذَّلولُ... والطريقُ المعبَّدُ المسلوكُ المذلَّلُ.

والأصلُ الآخرُ: العبدةُ وهيَ القوَّةُ والصَّلاةُ، يقالُ: هذَا ثوبٌ لهُ عبدةٌ، إذَا كانَ صفيقًا قويًّا[1].

وقالَ ابنُ منظورٍ:... والمعبَّدُ: المذلَّلُ، والتَّعبُّد: التذلُّلُ... وبعيرٌ معبَّدٌ: مذلَّلٌ، وطريقٌ معبَّدٌ: مسلوكٌ مذلَّلٌ[2].

العبادةُ اصطلاحًا أيْ شرعًا:

لعلَّ أجمعَ تعريفِ للعبادةِ مَا ذكرهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ بقولهِ: العبادةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ منَ الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظَّاهرةِ[3]. اهـ

ولقدْ ضمرَ معنَى العبادةِ فِي نفوسِ بعضِ المسلمينَ وعقولهمْ بحيثُ حصروهَا فِي الشَّعائرِ التَّعبديَّةِ، مثلَ: الصَّلاةِ، والزَّكاةِ والصَّومِ، والحجِّ، وربَّمَا أضافَ بعضهمْ إليهَا الذِّكرَ، والجهادَ، ولكنْ دلالةَ العبادةِ أوسعُ بكثيرٍ منْ ذلكَ، فقدْ غفلَ جلُّ المسلمينَ علَى عبادة الدُّعاءِ والاستغاثةِ والتَّوسُّلِ، فتجدهمْ يدعونَ ويستغثونَ ويتوسَّلونَ بالمخلوقِ ويذرونَ أحسنَ الخالقينَ، ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[غافر65]، وهذهِ الآيةُ تأمرنَا بالدُّعاء وبالإخلاصِ للهِ تعالَى فِيه، وتبيِّنُ التَّلازمَ بينَ الدُّعاءِ والعبادةِ، وتفيدُ وجوبَ الإخلاصِ فِي العبادةِ، والدُّعاءُ هوَ العبادةُ، فمنْ دعَا غيرَ اللهِ تعالَى فيمَا يختصُّ بهِ اللهُ تعالَى

وحدهُ فقدْ أشركَ باللهِ تعالَى وإنْ قالَ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، قالَ تعالَى:

{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}[العنكبوت65]، وفِي هذهِ الآيةِ يصفُ اللهُ تعالَى منْ لمْ يخلصُوا للهِ تعالَى فِي دعائهمْ بأنَّهمْ يشركونَ.

---

(1) معجم مقاييس اللغة 4/ 205، 206 باختصار.

(2) لسان العرب، مادة عبد 3/ 274.

(3) العبودية، ص31.

والشِّركُ هوَ:

مَا عرَّفهُ الإمامُ محمَّدٌ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى حيثُ قالَ: هوَ صرفُ نوعٍ منَ العبادةِ إلَى غيرِ اللهِ تعالَى، أوْ: هوَ أنْ يدعُو معَ اللهِ تعالَى غيرهُ، أوْ يقصدهُ بغيرِ ذلكَ منْ أنواعِ العبادةِ التِي أمرَ اللهُ تعالَى بهَا"[1].

وهذَا أشملُ التَّعريفاتِ للشِّركِ، فهوَ تعريفٌ جامعٌ مانعٌ.

ودعاءُ غيرِ اللهِ تعالَى هوَ قمَّةُ الضَّلالِ، قالَ تعالَى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}[الأحقاف: 5].

وأمَّا دعاءُ الاستغاثةِ:

قالَ ابنُ قتيبةَ فِي قولهِ تعالَى: {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دِونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[البقرة23]، أيِ ادعوهمْ ليعاونوكمْ علَى سورةٍ مثلهِ، ومعنَى الدُّعاءُ هَاهنَا الاستغاثةُ، ومنهُ دعاءُ الجاهليَّةِ وهوَ قولهمْ: يَا آلَ فلانَ، إنَّمَا هوَ استغاثتهمْ[2].

والاسْتِغَاثَةُ لغةً:

اِسْتَغاثَ صاحِبَهُ: اِسْتَنْصَرَهُ، اِسْتَعانَهُ.

و(عند النحاة): نِداءُ من يخلِّصُ منْ شدَّةٍ أَوْ يُعينُ علَى دفعِ بليَّةٍ...[3]

والاستغاثةُ اصطلاحًا:

طلَبُ الغَوْثِ مِنْ مَخْلوقٍ كائنًا مَنْ كانَ وبطريقةٍ مباشِرةٍ، كأنْ يقولَ: يَا فلانُ، نجِّنِي منَ الكُرباتِ، ارزُقنِي أولادًا، ونحوَ ذلكَ.

شرط الاستغاثة بالمخلوق:

أن يكون المخلوق، حيًّا، حاضرا، قادرًا.

فإن فُقدَ شرط من هذه الشروط فهو شرك خالص.

---

(1) مؤلفات الشيخ: قسم العقيدة ص: 281، عقيدة الشيخ ابن عبد الوهاب ص: 423 لصالح عبد الله العبود

(2) غريب القرآن43.

(3) معجم المعاني.

والتَّوسُّلُ لغةً:

قالَ جوهري، الوسيلةُ: مَا يُتقرَّبُ بِهِ إِلَى الغيرِ، والجمعُ: الوسيلُ والوسائلُ والتَّوسُّلُ واحدٌ، وسلَ فلانٌ إلَى ربِّهِ وسيلةً وتوسَّلَ إليهِ بوسيلةٍ أيْ تقرَّبَ إليهِ بعملٍ[1].

وأمَّا التَّوسُّل اصطلاحًا:

فهوَ علَى قسمينِ، قسمٌ مشروعٌ وقسمٌ ممنوعٌ:

أمَّا التَّوسُّلُ المشروعُ: كالتوسُّلِ بأسماءِ اللهِ تعالَى الحُسنَى وصفاتِهِ العُلَا، والتَّوسُّلُ بالإيمانِ باللهِ وبالعملِ الصَّالحِ، وكطلبِ الدُّعاءِ منْ مسلمٍ صالحٍ حيٍّ حاظر فِي مصائبٍ عامَّةٍ، كمَا توسَّلَتِ الصَّحابةُ بالعبَّاسِ عمِّ النَّبيِّ ﷺ وتوسَّلَ مَنْ بعدهمْ بأسودَ بنِ يزيدٍ.

وأمَّا التَّوسُّلُ الممنوعُ:

فهوَ التَّقرُّبُ والتَّزَلُّفُ بمَا يَعتقِدهُ المُتوسِّلُ أنَّهُ مباركٌ ومقبولٌ عندَ اللهِ تعالَى، وهوَ منْهِيٌّ عنهُ، بلْ هوَ نوعٌ منَ الشِّركِ كالتَّوسُّلِ بأمواتِ سواءً كانُوا أولياءَ أوْ أنبياءَ، ومنْ هنَا فإنْ كانَ التَّوسُّلُ بالنَّبيِّ المرْسَلِ والملَكِ المقرَّبِ منْهيًّا عنهُ، فكيفَ بِمَنْ دونهمَا؟ لَا شكَّ أنَّ النَّهْيَ عنِ التَّوسُّلِ بغيرهمَا منْ بابِ أَوْلَى وأحرَى.

قالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[الزمر: 3].

وشرطُ التوسُّلِ الجائزِ:

أنْ يكونَ المتوسَّلُ بهِ حيًّا حاضرًا مسلمًا صالحًا، وأنْ يكونَ التوسُّلُ بِهِ بطلبِ الدُّعاءِ منهُ، ومنْ ذلكَ حديثُ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ كانَ إذَا

قحطُوا استسقَى بالعبَّاسِ بنِ عبدِ المطلِّبِ، فقالَ: "اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نتوسَّلُ إليكَ بنبيِّنَا ﷺ فتُسْقِينَا، وإنَّا نتوسَّلُ إليكَ بعمِّ نبيِّنَا فاسقنَا" قالَ: فَيُسْقَونَ[2] اهـ، ولَا يَغُرَّنَكَ ظاهرُ الحديثِ أنَّ عمرَ توسَّلَ بذاتِ العبَّاسِ، فهذَا خطأٌ، بلِ الصَّحيحُ أنَّ عمرَ توسَّلَ بدعاءِ العبَّاسِ، ودليلهُ مَا نقلهُ الحافظُ العسقلانِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي "الفتحِ" حيثُ قالَ:

(1) كتاب التوصل إلى حقيقة التوسل – معنى التوسل لغة وشرعا – ص19.

(2) رواه البخاري.

قدْ بيَّنَ الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ فِي "الأنسابِ" صفةَ مَا دعَا بهِ العبَّاسُ فِي هذهِ الواقعةِ، والوقتِ الذِي وقعَ فيهِ ذلكَ، فأخرجَ بإسنادٍ لهُ أنَّ العبَّاسَ لمَّا استسقَى بهِ عمرُ قالَ: "اللَّهمَّ إنَّهُ لمْ ينزلْ بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولمْ يُكشفْ إلَّا بتوبةٍ، وقدْ توجَّهَ القومُ بِي إليكَ لمكانِي منْ نبيِّكَ ﷺ، وهذهِ أيدينَا إليكَ بالذُّنوبِ، ونواصينَا إليكَ بالتَّوبةِ، فاسقنَا الغيثَ"، قالَ: فَأَرْخَتِ السَّماءُ مثلَ الجبالِ حتَّى أخصبتِ الأرضُ، وعاشَ النَّاسُ[1] اهـ.

فتفهمُ منْ هذَا أنَّ عمرَ قدِ استقسَى بدعاءِ العبَّاسِ لَا بالعبَّاسِ نفسهِ، واستسقَى عمرُ بالعبَّاسِ لقربهِ منَ النبيِّ ﷺ ولصلاحهِ فهوَ منْ أولياءِ اللهِ الصَّالحينَ حقًّا، والوليُّ هوَ ما عرَّفهُ اللهُ تعالَى لنَا بقولهِ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[يونس: 62 – 63].

وهنَا شرطَ سبحانهُ شرطينِ فِي الولايةِ:

الشَّرطُ الأوَّلُ: الإيمانُ، والذِي نحنُ بصددِ تعريفهِ.

والشَّرطُ الثَّانِي هوَ: التَّقوَى، ولعلَّ أشملَ التَّعريفاتِ للتَّقوَى هوَ: أنْ تجعلَ بينكَ وبينَ عذابِ اللهِ تعالَى وقايةً، ومعنَى قولكَ: اتَّقِ اللهَ: أي: اجعلْ بينكَ وبينَ عذابِ اللهِ وقايةً بطاعتهِ فِي أوامرهِ، ومنهُ: قولهُ ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ"[2].

فعُلِمَ بذلكَ أنَّ مَنِ اتَّخذَ منْ دونِ اللهِ تعالَى أولياءً للتَّقرُّبِ أوْ للتزلُّفِ؛ سواءً كانُوا أصنامًا أوْ أشخاصًا، بقولٍ مثلَ قولهمْ: يَا ربِّ بجاهِ فلانٍ، أوْ بعملٍ: كالنحرِ لصاحبِ قبرٍ للتقرُّبِ بذلكَ للهِ، فمنْ فعلَ ذلكَ فقدْ خالَفَ التَّوحيدَ والإخلاصَ، وأشرَكَ باللهِ العظيمِ، وانحَرَفَ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ والدِّينِ الخالصِ للهِ تعالَى، واتَّبَعَ خطواتِ الشَّيطانِ، ووقَعَ فِي الضَّلالِ المُبِينِ، وقدْ حَكَمَ اللهُ تعالَى علَى مَنْ كانَ أمرُهُ كذلكَ بالكذبِ والكفرِ كمَا قالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[الزمر: 3].

(1) فتح الباري للعسقلاني.

(2) رواه البخاري (1413)، ومسلم (2347) عن عدي بن حاتم.

(د) الرَّابعُ: الإيمانُ بأسمائهِ وصفاتهِ سبحانهُ وتعالَى:

أي: إثباتُ مَا أثبتهُ اللهُ تعالَى لنفسهِ فِي كتابهِ، أوْ فِي سنَّةِ رسولهِ ﷺ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ علَى الوجهِ اللَّائقِ بهِ سبحانهُ منْ غيرِ تحريفٍ، ولَا تعطيلٍ، ومنْ غيرِ تكييفٍ، ولَا تمثيلٍ، قالَ تعالَى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الشورى: 11]، وقالَ اللهُ تعالَى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأعراف: 18]، فهذهِ الآيةُ دليلٌ علَى إثباتِ الأسماءِ الحسنَى للهِ تعالَى، وقالَ تعالَى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[الروم: 27]، وهذهِ الآيةُ دليلٌ علَى إثباتِ صفاتِ الكمالِ للهِ تعالَى، لأنَّ المرادَ بِـ (المثلِ الأعلَى) هوَ: (الوصفُ الأكملُ)، وبهِ قالَ القرطبِي، قالَ:

... وقالَ الخليلُ: المثلُ الصِّفةُ، أيْ: ولهُ الوصفُ الأعلَى فِي السَّماواتِ والأرضِ(1)، فالآياتُ السَّابقِ ذِكرهَا تثبتُ الأسماءَ الحسنَى والصفاتِ العلَا للهِ تعالَى علَى سبيلِ العمومِ، وأمَّا تفصيلُ ذلكَ فِي الكتابِ والسُّنَّةِ فكثيرٌ.

وهذَا البابُ منْ أبوابِ العلمِ، أيْ "أسماءِ اللهِ تعالَى وصفاتهِ" منْ أكثرِ الأبوابِ التِي حصلَ فيهَا النِّزاعُ والشِّقاقُ بينَ أفرادِ الأمَّةِ، فقدِ اختلفتِ الأمَّةُ فِي أسماءِ اللهِ تعالَى وصفاتهِ فرقًا شتَّى، وموقفُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ منْ هذَا الاختلافِ، هوَ مَا أمرَ اللهُ تعالَى بهِ فِي قولهِ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}[النساء: 59].

والأصلُ أنْ يُردَّ هذَا التَّنازعُ إلَى كتابِ اللهِ تعالَى وسنَّةِ رسولهِ ﷺ مسترشدينَ فِي ذلكَ بفهمِ السَّلفِ الصَّالحِ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، فإنَّهمْ أعلمُ الأمَّةِ بمرادِ

---

(1) تفسير القرطبي.

اللهِ تعالَى ومرادِ رسولهِ ﷺ، ولقدْ صدقَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يصفُ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: "منْ كانَ منكمْ مستنًّا، فليستنَّ بمنْ قدْ ماتَ، فإنَّ الحيَّ لَا يُؤمنُ عليهِ الفتنةَ، أولئكَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ، أبرُّ هذهِ الأمَّةِ قلوبًا، وأعمقهَا علمًا، وأقلّهَا تكلُّفًا، قومٌ اختارهمُ اللهُ لإقامةِ دينهِ، وصحبةِ نبيِّهِ ﷺ، فاعرفُوا لهمْ حقَّهمْ، وتمسَّكُوا بهديهمْ، فإنَّهمْ كانُوا علَى الهدَى المستقيمِ"[1] وكانُوا رضيَ اللهُ عنهمْ يُثبتونَ للهِ تعالَى مَا أثبتهُ لنفسهِ منْ أسماءٍ وصفاتٍ ومَا أثبتهُ لهُ رسولهُ ﷺ بلَا تحريفٍ ولَا تعطيلٍ ولَا تكييفٍ ولَا تمثيلٍ، وأمَّا مازادوهُ منَ الأسماءِ ونسبوهَا للهِ تعالَى مثل الضَّميرِ "هوَ" فهذَا لَا دليلَ عليهِ منَ الكتابِ ولَا منَ السُّنَّةِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأسماءِ مثلَ "أهْ"، ويكفِي هؤلاءِ قولُ اللهِ تعالَى فيهمْ: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأعراف: 18].

قالَ الطَّبريُّ فِي معنَى الإلحادِ: وكانَ إلحادهمْ فِي أسماءِ اللهِ، أنَّهمْ عدَلُوا بهَا عمّا هيَ عليهِ[2]، وقالَ الشَّوكانِي: قولهُ: "وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ" الإلحادُ: الميلُ وتركُ القصدِ، يقالُ: لحدَ الرَّجلُ فِي الدِّين وألحدَ: إذَا مالَ، ومنهُ اللَّحدُ فِي القبرِ لأنَّهُ فِي ناحيةٍ، وقرئَ "يَلحدونَ" وهمَا لغتانِ.

---

(1) معنى الإيمان – موقع الإسلام سؤال وجواب – بتصرف.

(2) تفسير الطبري.

والإلحادُ فِي أسمائهِ سبحانهُ يكونُ علَى ثلاثةِ أوجهٍ:

إمَّا بالتَّغييرِ: كمَا فعلهُ المشركونَ فإنَّهمْ أخذُوا اسمَ اللَّاتِ منَ اللهِ، والعزَّى من العزيزِ، ومناةَ منَ المنَّانِ.

أوْ بالزِّيادةِ عليهَا: بأنْ يخترعُوا أسماءً منْ عندهمْ لمْ يأذنِ اللهُ بهَا، كمَا يفعلُ غلاةُ الصُّوفيَّةِ مثل: (هو)، و (أَهْ)

أوْ بالنُّقصانِ منهَا: بأنْ يدعوهُ ببعضهَا دونَ بعضٍ[1] كما قال الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ}[الفرقان: 60].

قال السعدي: أي: وحده الذي أنعم عليكم بسائر النعم ودفع عنكم جميع النقم. {قَالُوا} جحدا وكفرا {وَمَا الرَّحْمَنُ} بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن[2].

وقال ابن كثير: أي: لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية[3].

(1) فتح القدير للشوكاني.

(2) تفسير السعدي.

(3) تفسير ابن كثير.

2) الإيمانُ بملائكتهِ سبحانهُ:

الثَّانِي: الإيمانُ بالملائكةِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بأنَّ الملائكةَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تعالَى، وعبادٌ مكرمونَ، لَا يوصوفونَ بالذُّكورةِ ولَا بالأنوثةِ، ويُخاطبونَ باللَّفظِ المذكَّر، ولَا يأكلونَ ولَا يشربونَ، ولَا يعلمُ عددهمْ إلَّا اللهُ تعالَى، قالَ تعالَى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}[المدثر: 31].

الملك في اللغة:

حامل الألوكة وهي الرسالة[1].

الملائكة في الاصطلاح:

أجسام نورانية لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات، وأبطل من قال: أنها الكواكب أو أنها الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها، وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها[2].

والإيمان بالملائكة: هو اعتقادهم عبادًا لله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم[3].

مثل دعائهم، والتوكل عليهم، والاستغاثة بهم وغير ذلك.

---

(1) النبوات ص٢٥٧.

(2) فتح الباري ٦/٣٠٦ – وانظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٢٩

(3) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.

ومن الملائكة موَكَّلونَ بالوحيِ، قالَ تعالَى: {قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ}[النحل: 102].

والموكَّلونَ بالموتِ، قالَ تعالَى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}[السجدة: 11].

والموكَّلونَ بغيرِ ذلكَ، وكلُّهمْ مستسلمونَ منقادونَ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ اللهُ تعالَى: {لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[التَّحريم: 6].

وقدْ خلقَ اللهُ تعالَى الملائكةَ منْ نورٍ، كمَا خلقَ الإنسانَ منْ صلصالٍ كالفخَّارِ، وخلقَ الجانَّ منْ مارجٍ منْ نارٍ، فعنْ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالَى عنهَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "خُلِقَتِ الملائكةُ منْ نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ منْ مارجٍ منْ نارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممَّا وُصِف لكمْ"(يعنِي منْ طينٍ)(1).

والملائكة يتمثَّلون في أشكال البشر، قال تعالى:{ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا }[مريم: ١٧].

والملائكة لهم أجنحة، قال تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[فاطر: 1].

والإيمانُ بالملائكةِ عليهمُ السَّلامُ يوجبُ محبَّتهمْ وإجلالهمْ، فهمْ عبادٌ مكرمونَ، لَا يعصونَ اللهَ مَا أمرهمْ، ويفعلونَ مَا يؤمرونَ، ويسبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لَا يفترونَ، ولذَا فإنَّ سبَّهمْ والاستهزاءَ بهمْ أوِ الاستهزاءَ بواحدٍ منهمْ أوِ الاستهزاءَ بعملهمْ، لَا يجتمعُ

معَ حبِّهمْ وإجلالهمْ وإكرامهمْ، وهوَ صورةٌ منْ عداوتهمْ، وإنْ كانَ المستهزئُ

(1) رواه مسلم.

بهمْ مقرًّا بوجودهمْ، فلَا يكفِي لتحقيقِ الإيمانِ الإقرارُ بالوجودِ، قالَ اللهُ تعالَى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة: 98]، قالَ ابنُ كثيرٍ: "يقولُ تعالَى منْ عادانِي وملائكتِي ورسلِي، ورسلهُ تشملُ رسلهُ منَ الملائكةِ، كمَا قالَ تعالَى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}[الحج: 75]،"وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ" وهذَا منْ بابِ عطفِ الخاصِ علَى العامِ، فإنَّهمَا دخلَا فِي الملائكةِ، ثمَّ عمومِ الرُّسلِ، ثمَّ خُصِّصَا بِالذِّكْرِ، لأنَّ السِّياقَ فِي الانتصارِ لجبريلَ وهوَ السَّفيرُ بينَ اللهِ تعالَى وأنبيائهِ، وَقَرَنَ معهُ ميكائيلَ فِي اللَّفظِ، لأنَّ اليهودَ زعمُوا أنَّ جبريلَ عدوَّهمْ وميكائيلُ وليَّهمْ، فأعْلمهمْ أنَّهُ منْ عادَى واحدًا منهمَا فقدْ عادَى الآخرَ وعادَى اللهَ تعالَى أيضًا"[1].

وقالَ القرطبيُّ: "وهذَا وَعِيدٌ وَذَمٌّ لِمُعَادِي جبريلَ عليهِ السَّلامُ، وإعلانٌ أنَّ عداوةَ البعضِ تقتضِي عداوةَ اللهِ تعالَى لهمْ، وعداوةُ العبدِ للهِ تعالَى هيَ معصيتهُ واجتنابُ طاعتهِ، ومعاداتُ أوليائهِ، وعداوةُ اللهِ تعالَى للعبدِ تعذيبهُ وإظهارُ أثرِ العداوةِ عليهِ، فإنْ قيلَ: لِمَ خصَّ اللهُ جبريلَ وميكائيلَ بالذِّكرِ، وإنْ كانَ ذكرُ الملائكةِ قدْ عمَّهمَا؟ قيلَ لهُ: خصَّهمَا بالذِّكرِ تشريفًا لهمَا، كمَا قالَ: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}[الرَّحمن: 68]، وقيلَ: خُصَّا لأنَّ اليهودَ ذكروهمَا، ونزلتِ الآيةُ بسببهمَا، فذكرهمَا واجبٌ لئلَّا تقولَ اليهودُ: إنَّا لمْ نُعادِ اللهَ وجميعَ ملائكتهِ، فنصَّ اللهُ تعالَى عليهمَا لإبطالِ مَا يتأوَّلونهُ منَ التَّخصيصِ"[2].

وقالَ القاضِي عياضُ: وحكمُ منْ سبَّ سائرَ أنبياءِ اللهِ تعالَى، وملائكتهِ، واستخفَّ بهمْ، أوْ كذَّبهمْ فيمَا أتوا بهِ، أوْ أنكرهمْ وجحدهمْ، حكمُ نبيِّنَا ﷺ[3] (أي كفرهم).

---

(1) تفسير ابن كثير.

(2) تفسير القرطبي.

(3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

3) الإيمانُ بكتبِهِ سبحانهُ:

الثَّالثُ: الإيمانُ بالكتبِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بأنَّ اللهَ تعالَى أنزلَ علَى رُسُلِهِ كتبًا فيهَا أمرهُ ونهيهُ ووعدهُ ووعيدهُ وفيهَا نورٌ وهدًى، قالَ تعالَى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[البقرة: 285] وأنزلَ اللهُ تعالَى هذهِ الكتبَ لأجلِ هدايةِ النَّاسِ وإخراجهمْ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ، وهيَ: القرءانُ والإنجيلُ والتَّوراةُ والزَّبورُ وصحفِ إبراهيمَ، وموسَى، قالَ تعالَى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[البقرة: 136] وأعظمهَا التَّوراةُ والإنجيلُ والقرآنُ، وأعظمُ الثَّلاثةِ وناسخهَا وأفضلهَا القرءانُ، ففِي الحديثِ عنْ جابرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ: حينَ أتاهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ: إنَّا نسمعُ أحاديثَ منْ يهودٍ تعجبنَا، أفترَى أنْ نكتبَ بعضهَا؟ فقالَ: "أمتهوِّكونَ أنتمْ كمَا تهوَّكتِ اليهودُ والنَّصارَى؟ لقدْ جئتكمْ بهَا بيضاءَ نقيَّةً ولوْ كانَ موسَى حيًّا مَا وسعهُ إلَّا اتِّباعِي"[1]، وفِي روايةٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ غضبَ حينَ رأَى معَ عمرَ صحيفةً فيهَا شيءٌ منَ التَّوراةِ وقالَ: "أفِي شكٍّ أنتَ يَا ابنَ الخطَّابِ، ألمْ آتِ بهَا بيضاءَ نقيَّةً؟ لوْ كانَ أخِي موسَى حيًّا مَا وسعهُ إلَّا اتِّباعِي"، وهذهِ دلالةٌ علَى أنَّ القرءانَ ناسخٌ لمَا قبلهُ منَ الكتبِ، كمَا نؤمنُ أنَّ القرءانَ كلامُ اللهِ تعالَى غيرُ مخلوقٍ.

---

(1) رواه أحمد والبيهقي في كتاب شعب الإيمان، وهو حديث حسن. ولأحمدَ رواة أخرى.

4) الإيمانُ برسلهِ سبحانهُ:

والرَّابعُ: الإيمانُ بالرُّسلِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بأنَّ اللهَ سبحانهُ أرسلَ إلَى عبادهِ رسلًا مبشِّرينَ ومنذرينَ مُطاعين، لهدايةِ البشرِ وإخراجهمْ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ، قالَ تعالَى {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[النساء: 165] وقالَ تعالَى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[النحل: 36] ويجبُ أنْ نؤمنَ بذلكَ إجمالًا فلَا نعلمُ عددهمْ، كمَا قالَ تعالَى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ}[غافر: 78] كمَا يجبُ أنْ نؤمنَ بهمْ تفصيلًا كمَا فصلَّهمُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ الكريمِ، وأفضلهمُ الرُّسلُ ثمَّ الأنبياءُ، وأفضلُ الرُّسلِ والأنبياءِ أولُو العزمِ، وهمْ خمسةٌ: محمَّدٌ، ونوحٌ، وإبراهيمُ، وموسَى، وعيسَى، صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهمْ أجمعينَ، قالَ تعالَى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}[الأحقاف: 35]

والدَّليلُ علَى أنَّ أولُو العزمِ خمسةٌ: أنّ اللهَ تعالَى ذكرَ الأنبياءَ ثمَّ عطفَ عليهمْ بهذهِ المجموعةِ، وعطفُ الخاصِ علَى العامِ يفيدُ أنَّ للخاصِ زيادةً فِي الفضلِ، وذلكَ فِي قولهِ تعالَى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}[سورة الأحزاب: 7].

وعطفُ الخاصِ علَى العامِ منَ مباحثِ القرءانِ التِي يتطرَّقُ إليهَا المفسِّرونَ أثناءَ تفسيرهمْ لكتابِ اللهِ العزيزِ،... وذلكَ أنْ يكونَ اللَّفظُ الخاصُ مندرجًا فِي اللَّفظِ العامِ، لكنْ يُعطفُ عليهِ اللَّفظُ الخاصُ بغرضِ التَّنبيهِ عليهَا، أوْ لاعتبارِ ذِي بالٍ[1].

---

(1) بغية السائل من أوبد المسائل – وليد المهدي.

والعطفُ هوَ: اتباعُ لفظٍ للفظٍ آخرَ بواسطةِ حرفٍ، أيْ أنَّ تركيبَ العطفِ يتكوَّنُ منهُ تابعٌ يسبقهُ متبوعٌ ويتوسَّطهمَا حرفٌ منْ حروفِ العطفِ، وحروفُ العطفِ تسعةٌ: ستَّةٌ منهَا تفيدُ المشاركةَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ فِي الحكمِ والإعرابِ معًا وهي: الواو – الفاء – ثم – حتى – أو – أم.

والثَّلاثةُ الباقيةُ تعطِي المعطوفَ حركةَ المعطوفِ عليهِ دونَ المشاركةِ فِي الحكمِ، وهيَ: بل – لا – لكن، وبذلكَ يتكوَّنُ أسلوبُ العطفِ، منَ المعطوفِ عليهِ (المتبوعُ) والمعطوفُ (التَّابعُ) وحرف العطفِ.

والخاصُ لغةً: كلُّ لفظٍ وضعَ لمعنَى معلومٍ لَا ينطبقُ علَى غيرهِ، جنسًا أو نوعًا أو عينًا؛ جنسٌ مثلَ (جنٌّ) أوْ نوعًا كـ (امرأةٍ) أوْ عينًا كـ (إبراهيمَ)[1].

الخاصُ اصطلاحًا: هوَ قصرُ حكمٍ عامٍ علَى بعضِ أفرادهِ[2].

العامُ لغةً: الشاملُ، وهوَ منْ عمَّ يعمُّ عموماً وعاماً، يقالُ: عمَّهمْ بالعطيَّةِ، أيْ: شملهمْ[3].

العامُ اصطلاحًا: هوَ اللَّفظُ المستغرقُ لكلِّ مَا يصلحُ لهُ دفعةً واحدةً[4].

فإذَا عُطفَ الخاصُ علَى العامِ كانَ زيادةً للخاصِ في الفضلِ، وبذلكَ علمنَا منَ الآيةِ أنَّ أولُو العزمِ منَ النَّبيئينَ خمسةٌ.

---

(1) قاموس المعني.

(2) الشنقيطي – مذكرة في أصول الفقه.

(3) انظر لسان العرب 426/12.

(4) أبو الحسن البصري "المعتد في أصول الفقه".

وأفضلُ أولِي العزمِ نبيُّ الإسلامِ وخاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ أبُو القاسمِ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ الهاشمِي ﷺ، قالَ تعالَى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}[الأحزاب: 40] وعنْ أبِي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ"[1]. فعلمنا بالآية والحديث أنَّ النبيَّ محمَّد ﷺ خاتم الأنبياء وسيِّدهم.

والإيمانُ بواحدٍ منهمْ يستلزمُ الإيمانَ بهمْ جميعًا، كمَا أنَّ الكفرَ بواحدٍ منهمْ كفرٌ بجميعهمْ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهمْ يدعُو إلَى توحيدِ اللهِ تعالَى وطاعتهِ، قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا}[النساء: 150]، كمَا تنطبقُ هذهِ الآيةُ علَى الذِينَ يُفرِّقونَ بينَ كتابِ اللهِ تعالَى وسنَّةِ رسولهِ ﷺ[2].

---

(1) رواه مسلم.

(2) للمزيد والتوسُّع، يُنظر كتاب: الرسل والرِّسالات – د. عمر سليمان الأشقر.

كما يجب أن نؤمن بأنَّ دين كلَّ الأنبياء هو الإسلام:

وقبل أن ندلي بالأدلَّة على ذلك وجب علينا تعريف الشريعة، والدين، والإسلام، والفرق بينهم، ومن ضمن ذلك سنرى أنَّ دين كل الأنبياء هو الإسلام:

الشريعة لغة:

مشتقة من الفعل الثلاثي (شَرَعَ)، قال ابن فارس: الشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه، من ذلك الشريعة، وهي مورد الشاربة للماء، واشتق من ذلك الشرعة في الدين، والشريعة[1].

وقال الزمخشري: والشريعة والشِّرعة وشرع اللَّه تعالى الدين... وشرع الباب إلى الطريق، وأشرعته، والناس فيه شَرَعَ وشَرْع سواء[2].

وممَّا أورده ابن منظور في دلالتها اللغويَّة قوله: والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عدًّا لا انقطاع له، ويكون ظاهرًا معينًا لا يسقى بالرِّشاء...[3].

وتطلق الشريعة على المثل، كما ذكر الجوهري إذ قال: ويقال أيضًا: هذه شرعة هذه، أي: مِثْلُها، وهذا شِرْع هذا، وهما شرعان، أي: مثلان[4].

وأورد الفيروزآبادي في معنى الشريعة: الظاهر المستقيم من المذاهب... إلى قوله: وشَرَعَ لهم، كمَنَعَ: سَنَّ[5].

---

(1) كتاب دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه ص303، ومعجم مقدمة اللغة.

(2) أساس البلاغة مادة: (شرع).

(3) لسان العرب: المادة نفسها.

(4) الصحاح: المادة نفسها.

(5) القاموس: المادة نفسها.

الشريعة اصطلاحا:

تطلق الشريعة ويراد بها: ما شرع اللَّه تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء صلى اللَّه عليهم وعلى نبينا وسلم، وسواء كانت متعلقة بكيفية عمل، وتسمى فرعية وعملية ودُوِّن لها علم الفقه، أو بكيفية الاعتقاد وتسمَّى أصلية أو اعتقادية[1].

وقال الأصفهاني: الشرع نهج الطريق الواضح... واستعير ذلك للطريقة الإلهية، فقال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[المائدة: 48][2].

يتبين من هذين التعريفين أن الشريعة تطلق ويراد بها:

الأصول الاعتقادية، والأحكام الفقهية عامَّة.

ولذلك قيَّدنا تعريف الفقه بقولنا: "العلم بالأحكام الشرعيَّة والعمليَّة" لأنَّ المراد من تعريف الفقه هو فروعه لا أصوله أي العقيدة فيخرجُ بهذا القيد، الأحكام الاعتقاديَّة عامَّة، كالإيمان بالله تعالى، وملائكتهِ، وكتبهِ، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ومعرفة معنى الإيمان، والتَّوحيد بأقسامه ونحو ذلك.

ونخرج بهذا أنَّ الشريعة تشمل كل أحكام العباد، من أصول وفروع، وأنَّه صراط الله المستقيم، وطريقته المتَّبعة.

---

(1) محمد علي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون: (1/ 759)، مادة: (الشرع)، وانظر: محمد الدسوقي وأمينة الجابر: مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي: ص: (16).

(2) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (شرع)، والمرجع سابق.

علاقة الشرع بالدِّين:

أوّلا لتتبيَّن العلاقة بين الدين والشرع وجب علينا تعريف الدين، كما عرَّفنا الشرع سابقا.

الدين لغة:

جاء في مختار الصحاح: والدِّينُ بالكسر: العادة والشأن، ودَانَهُ يدينه دِيناً بالكسر أذله واستعبده فَدَانَ، وفي الحديث: "الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"[1].

والدِّينُ أيضا: الجزاء والمكافأة، يقال دَانَ يدينه دِيناً أي جازاه يقال: كما تُدِينُ تُدَانُ أي كما تُجازي تُجازى بفعلك وبحسب ما عملت، وقوله تعالى: {أَئِنَّا لَمَدِينُونَ}[الصافات: 53]، أي لمجزِيُّون محاسبون.

ومنه الدَّيَّانُ في صفة الله تعالى، والمَدِينُ العبد، والمَدِينةُ الأمة، كأنهما أذلهما العمل، ودَانَهُ ملكه، وقيل منه سمي المصر مَدِينةً. والدِّينُ أيضا: الطاعة، تقول: دَانَ له يدين دِيناً أي أطاعه.

ومنه الدِّينُ والجمع الأَدْيَانُ، ويقال دَانَ بكذا دِيَانَةً فهو دَيِّنٌ وتَدَيَّنَ به فهو مُتَدَيِّنٌ ودَيَّنَهُ تَدْيِيناً وكله إلى دينه[2].

وفي معجم لغة الفقهاء: الديانة: مصدر دان، ما يتعبد به لله... كالملة والمذهب... أي: ما كان بين الإنسان وربه[3]، ومنه: الحكم ديانة كذا، وقضاء كذا؛ لأن القضاء يكون بحسب الأدلة الظاهرة، والديانة بحسب الحقيقة التي يفضي بها صاحبها، ولكن لا دليل عليها وهي التي يحاسب عليها عند الله[4].

---

(1) ضعيف.

(2) مختار الصحاح.

(3) معجم لغة الفقهاء محمد قلعجي.

(4) قاموس المعاني.

الدين اصطلاحا:

عرَّفه ربُّنا سبحانه وتعالى بأنَّه: الإسلام، فقال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[آل عمران: 19].

فإذا أُطلق الدين أُريد به الإسلام.

وعليه وجب علينا تعريف الإسلام لغة واصطلاحا:

الإسلام لغة:

هو الانقياد والخضوع والذل؛ يقال: أسلم واستسلم؛ أي: انقاد[1].

ومنه قول الله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ}[الصافات: 103]؛ أي: فلما استسلما لأمر الله تعالى وانقادا له.

والإسلام شرعا:

يأتي على معنيين:

المعنى الأوَّل: الإسلام الكوني: ومعناه استسلام جميع الخلائق لأوامر الله تعالى الكونية القدرية.

ومنه قول الله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[آل عمران: 83].

فكل مخلوق فهو مستسلم لله عز وجل ومنقاد لأوامره تعالى الكونية القدرية سواء رضي أم لم يرض؛ فلا مشيئة للمخلوق في صحة أو مرض، أو حياة أو موت، أو غنى أو فقر، ونحو ذلك، وقد سبق وتحدثنا على هذا في مبحث الحكم الكوني.

---

(1) انظر: "مختار الصحاح" (5/ 1952)، و"لسان العرب" 12/ 293.

المعنى الثاني: الإسلام الشرعي: ومعناه الاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى الشرعية.

والإسلام بالمعنى الشرعي ينقسم إلى عامٍّ وخاص:

الإسلام الشرعي بالمعنى العام فهو: الدين الذي جاء به جميع الرسل.

وعلى ذلك أدلَّة عامَّة، وخاصَّة:

الأدلَّة العامَّة:

منه قوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[آل عمران: 19].

وقال تعالى: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا}[المائدة: 44].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[آل عمران: 85].

وأمَّا الأدلَّة الخاصة:

1 – فقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[يونس: 72].

2 – وقال تعالى حاكيا على إبراهيم عليه السلام: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}[آل عمران: 67].

3 – وقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[البقرة: 131].

4 – وقال تعالى حاكيًا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}[البقرة: 128].

5 – وقال تعلى على لسان موسى عليه السلام: {يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}[يونس: 84].

6 – وقال تعالى الحواريين من النصارى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}[المائدة: 111].

7 – وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[يوسف: 111].

8 – وقال تعالى على لسان ملكة سبأ: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[النمل: 44].

9 – وقال صلى الله عليه وسلم: "الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"[1].

ويتبيَّنُ من هذا أنَّ دين جميع الأنبياء والرسل والناس والجنِّ كافة هو الإسلام.

وأما الإسلام بالمعنى الخاص فهو: الإسلام الذي جاء به نبينا ﷺ.

وقد بيَّن النبي ﷺ الإسلامَ بمعناه الخاص، وأنه الشرع الذي جاء به، بقوله صلى الله عليه وسلم: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"[2].

فيُلاحظُ ممَّا تقدَّم أنَّ الدين لا يتغيَّر وهو الإسلام وهو دين كل الأنبياء والرسل من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، ولكنَّ الشريعة تتغير، فليست صلاة اليهود سابقا كصلاة النصارى أو صلاة المسلمين، ودليله قوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[المائدة: 48]، وبما أنَّ الدين يجمع أصول الدين وفروعه، وكذلك الشريعة، يكون الفرق بينهما في الكيفيَّة، أي كيفيَّة القيام بالفروع مع اتحاد الأصول،

(1) متفق عليه.

(2) صحيح الإمام مسلم.

فيكون الفرق بين الدين والشريعة هي السنَّة، وهي المبيِّنة للدين والقائمة عليه وكيفيَّة تطبيقه، قال ابن كثير في شرح الآية: والسنن مختلفة في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل(1)، ثم ذكر حديث: "نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد" يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله(2).

وقد يُطلق الدين ويُراد به الشريعة، والعكس أيضا، فإذا خصِّصت الشريعة كانت كما ذكرنا، وإلَّا فهي تُعمُّ وتندرج تحت أصل عام وهو الدين، ونخلص من هذا، بأنَّ الشريعة هي: طريقة الله تعالى التي فرضها على عباده في عبادته، فلكلِّ نبي طريقة، ودينهم واحد وهو الإسلام.

ومما سبق ذكره يتضح أن الإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

1 – الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع.

2 – الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، مثل: محمد وإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، وغيرهم بمن ذكر اسمه في الكتاب أو السنة على وجه التعيين، أما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا؛ حيث نعتقد أن الله بعث في كل أمة نذيرًا.

3 – تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

4 – العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد ﷺ.

(1) تفسير ابن كثير.

(2) السابق.

5) الإيمانُ باليومِ الآخرِ:

الخامسُ: الإيمانُ باليومِ الآخرِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بيومِ القيامةِ، والإيمانُ بكلِّ مَا أخبرَ اللهُ تعالَى بهِ، وبكلِّ مَا أخبرَ بهِ رسولهُ ﷺ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ وحتَّى يدخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ، ولَا ننظرُ فِي أخبارِ الرَّسولِ ﷺ إنْ كانتْ متواترةً أوْ آحادًا، فكلُّ حديثٍ صحَّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يُعملُ بهِ سواءٌ كانَ فِي الأخبارِ أوِ الأحكامِ، متوترًا كانَ أمْ أحادًا.

فنؤمنُ بأمورِ الغيبِ بعدَ الموتِ، منْ سكراتِ الموتِ، قال نبي ﷺ: " لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ"[1]، وعالمِ البرزخِ، ونعيمِ القبرِ وعذابهِ وفتنتهِ وسؤالِ الملكينِ، فعن أبي هريرة رضِي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قُبِرَ الميت، أو قال: أحدكم . أتاه مَلَكَان أسودان أزرقان يُقال لأحدهما: منكر، وللآخَر: نكير... "[2]

وأنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ عندَ ربِّهِمْ يرزقونَ، قال تعالى: {وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَاۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ}[آل عمران: 169].

وأن الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أتيت، وفي رواية هدَّاب: مررت على موسى ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره.

وفي رواية: مررت على موسى وهو يصلي في قبره[3].

---

(1) صحيح البخاري 4449.

(2) أخرجه الترمذي برقم (1071)، وابن حبان برقم (780). قال الترمذي: حديث حسن غريب، وصححه ابن حبان، ويشهد له حديث البراء بن عازب رضِي الله عنه الآتي.

(3) كلا الروايتين عند مسلم في صحيحه ،2375 ورواه الإمام أحمد في مسنده (120/3 ، 148).

ونؤمنُ بيومِ القيامةِ الذِي يحيِي اللهُ تعالَى فيهِ الموتَى ويبعثُ العبادَ منْ قبورهمْ ثمَّ يحاسبهمْ، وبالنَّفخِ فِي الصُّورِ، وهيَ ثلاثُ نفخاتٍ، وقيلَ اثنينِ: والصحيح أنَّها ثلاثة نفخات: نفخةُ الفزعِ، ونفخةُ الصَّعقِ، ونفخةُ البعثِ والنُّشورِ، قال تعالى في نفخة الفزع: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ}﴿النمل: ٨٧ ﴾.

وقال تعالى في نفخة الصعق: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}﴿الزمر: ٦٨ ﴾.

وقال تعالى في نفخة البعث: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}﴿يس: ٥١ ﴾.

فيقومُ النَّاسُ لربِّ العالمينَ حفاةً عراةً غرلًا، قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الكهف: 48].

وتدنُو منهمُ الشَّمسُ، ومنهمْ منْ يلجمهُ العرقُ، ومنهمْ منْ دونَ ذلكَ، فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه مرفوعاً: تُدْنَى الشمسُ يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار مِيل. قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد: فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافةَ الأرض أم الميلَ الذي تكتحل به العين؟ قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوَيْهِ، ومنهم من يُلْجِمُهُ العرقُ إلجامًا. قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْرَقُ الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا، ويُلْجِمُهُمْ حتى يبلغ آذانهم[2].

(1) رواه مسلم 2846.

(2) متفق عليه.

وأوَّلُ منْ يبعثُ وتنشقُّ عنهُ الأرضُ هوَ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ قال النبي: "أنا سيِّدُ ولدِ آدَمَ ولا فَخرَ، وبِيَدي لِواءُ الحمدِ ولا فَخرَ، وما من نبيٍّ –آدَمَ فمَن سِواه– إلَّا تحتَ لِوائي، وأنا أوَّلُ مَن تَنشَقُّ عنه الأرضُ ولا فَخرَ"[1].

وتنشرُ صحفُ الأعمالِ، فيُكشفُ المخبوءُ، ويظهرُ المستورُ، ويحصَّلُ مَا فِي الصُّدورِ، قال تعالى: {وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ}[التكوير: 10].

ويكلِّمُ اللهُ تعالَى عبادهُ ليسَ بينهُ وبينهمْ ترجمانٌ، ويدعَى النَّاسُ بأسمائهمْ وأسماءِ آبائهمْ، قال رسول الله ﷺ: "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء، فيقا:ل هذه غدرة فلان بن فلان"[2].

ونؤمنُ بالميزانِ الذِي لهُ كفَّتانِ توزنُ بهِ أقوالُ العبادِ، وأعمالهمْ، وصحُفهمْ، وأبدانهمْ:

فدليلُ وزنِ الأقوالِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"[3].

ودليلُ وزنِ الأعمالِ مَا صحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاةِ"[4].

ودليلِ وزنِ صُحُفِ الأعمالِ حديثُ البطاقةِ عنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا

---

(1) أخرجه الترمذي (3615)، وابن ماجه (4308)، وأحمد (10987) باختلاف يسير.

(2) خرجه مسلم والبخاري.

(3) رواه البخاري.

(4) صحيح سنن الترمذي.

شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ"[1].

ودليلُ وزنِ الأشخاصِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالَ: "إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَقَالَ اقْرَءُوا (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)[2]، وكذلكَ مَا ثبتَ منْ أنَّ ابْنِ مَسْعُودٍ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ممَّا تَضْحَكُونَ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ[3].

---

(1) صحيح سنن الترمذي.

(2) رواه البخاري.

(3) حسن إسناده الألباني في شرح الطحاوية برقم 571 ص 418.

وتنشرُ الدَّواوينُ فآخذٌ كتابهُ بيمينهِ وآخذٌ كتابهُ بشمالهِ أوْ منْ وراءِ ظهرهِ، قالَ تعالَى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}[الاحاقة: 19]، وقالَ تعالَى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ}[الحاقة: 25]، وقالَ تعالَى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ}[الإنشقاق: 10]، ونؤمنُ بحوضِ النَّبيِّ ﷺ ماؤهُ أشدُّ بياضًا منَ اللَّبنِ وأحلَى منَ العسلِ وريحهُ أطيبُ منَ المسكِ وآنيتهُ عددَ نجومِ السَّماءِ وطولهُ شهرٌ وعرضهُ شهرٌ منْ شربَ منهُ لمْ يظمأْ أبدًا، قالَ تعالَى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}[الكوثر: 1]، ويُحرمُ منَ الشُّربِ منهُ منِ ابتدعَ فِي دينِ اللهِ تعالَى فزادَ فيهِ بهواهُ مَا ليسَ منهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي[1].

والصِّراطُ منصوبٌ علَى متنِ جهنَّمَ يتجاوزهُ الأبرارُ كلٌّ علَى حسبِ عملهِ ويزلُّ عنهُ الفجَّارُ، قالَ تعالَى: {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً}[مريم: 71]، قالَ الطبري بإسنادهِ: عنْ عبدِ اللهِ فِي قولهِ (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا) قالَ: الصِّراطُ علَى جهنَّمَ مثلُ حدِّ السَّيفِ، فتمرّ الطَّبقةُ الأولَى كالبرقِ، والثَّانيةُ كالرِّيحِ، والثَّالثةُ كأجودِ الخيلِ، والرَّابعةُ كأجودِ البهائمِ،

(1) رواه البخاري ومسلم.

ثمَّ يمرّونَ، والملائكةُ يقولونَ: اللَّهمّ سلِّم سلِّم[1].

ثمَّ منْ نجَا منْ أهلِ الجنَّةِ يتحاسبونَ علَى قنطرةٍ دونَ الجنَّةِ يتقاصُّ أهلُ الإيمانِ بعضهمْ منْ بعضٍ، فعنْ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "يخلصُ المؤمنونَ منَ النَّارِ، فيحبسونَ علَى قنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ فيقصُّ لبعضهمْ منْ بعضٍ مظالمَ كانتْ بينهمْ فِي الدُّنيَا حتَّى إذَا هذِّبُوا ونقُّوا أُذنَ لهمْ فِي دخولِ الجنَّةِ[2].

ونؤمن بأنَّ الجنَّةُ والنَّارُ مخلوقتانِ قبلَ الخلقِ لَا تفنيانِ أبدًا، قالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}[النساء: 122]، وقالَ تعالَى: {إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}[النساء: 169].

والموتُ يؤتَى بهِ يومَ القيامةِ علَى صورةِ كبشٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ فيذبحُ فيصيرُ الخلقُ فِي خلودٍ لَا فناءَ بعدهُ، فعنْ أبِي سعيدٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "يجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّهُ كبشٌ أملحُ، فيوقفُ بينَ الجنَّة والنَّارِ، فيقالُ يَا أهلَ الجنَّةِ هلْ تعرفونَ هذَا؟ فيشرئبُّونَ وينظرونَ ويقولونَ: نعمْ هذَا الموتُ، ويُقالُ يَا أهلَ النَّارِ هلْ تعرفونَ هذَا؟ فيشرئبُّونَ وينظرونَ ويقولونَ: نعمْ هذَا الموتُ، قالَ: فيُؤمرُ بهِ فيذبحُ، ثمَّ يُقالُ: يَا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلَا موتٌ، ويَا أهلَ النَّارِ خلودٌ فلَا موتٌ"[3].

ونؤمنُ بشفاعةِ نبيِّنَا ﷺ وسائرِ النبيِّينَ والملائكةِ والشُّهداءِ والصدِّيقينَ

---

(1) تفسير الطبري.

(2) فتح البراي.

(3) رواه البخاري ومسلم.

والصالحينَ، ويُخرجُ اللهُ تعالَى خلقًا بغيرِ شفاعةٍ بفضلهِ ورحمتهِ، فعنْ أبِي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: قالَ رسول اللهِ ﷺ: "أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولَا فخر، وأنَا أوَّلُ من تنشقُّ الأرضُ عنه يومَ القيامةِ ولَا فخر، وأنَا أوَّلُ شافعٍ وأولُ مشفَّعٍ ولَا فخر، ولواءُ الحمدِ بيدِي يومَ القيامةِ ولا فخرَ"[1].

وعنْ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ: "... فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: شفعتِ الملائكةُ، وشفعَ النبيُّونَ، وشفعَ المؤمنونَ، ولمْ يبقَ إلَّا أرحمُ الرَّاحمينَ، فيقبضُ قبضةً منَ النَّارِ فيُخرجَ منهَا قوماً لمْ يعملُوا خيراً قطُّ قدْ عادُوا حمماً"[2].

وليوم القيامة شأن عظيم أكثر الأصول جميعًا تناولًا في القرآن.

من ذلك كثرة أسماء اليوم الآخر، وكل اسم يدل على ما سيقع فيه من الأهوال.

فمن أسمائه في القرآن: القيامة والساعة والآخرة ويوم الدين ويوم الحساب ويوم الفتح ويوم التلاق ويوم الجمع ويوم التغابن ويوم الخلود ويوم الخروج ويوم الحسرة ويوم التناد والآزفة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية والواقعة وغيرها.

كذلك تسمية سور القرآن بأسماء وصفات اليوم الآخر.

مثل: القيامة، الواقعة، الحاقة، الغاشية، القارعة، النبأ.

وتارة تسمى السور باسم الأحداث الكونية التي تمهد لهذا اليوم مثل: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

وتارة باسم ما يقع فيها، مثل سور: الأعراف، الزمر، الجاثية، الحشر، التغابن، المعارج.

فهذه أسماء (سبع عشرة) سورة تتعلق بالآخرة، ولم يقع مثل هذا قط لأي أصل من أصول الإيمان في القرآن الكريم.

---

(1) صحيح ابن ماجه.

(2) رواهُ البخاري ومسلم.

6) الإيمانُ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ:

السَّادسُ: الإيمانُ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وهوَ: الاعتقاد الجازمُ بأنَّ كلَّ خيرٍ وشرٍّ بقضاءِ اللهِ تعالَى وقدرِهِ، وأنَّ اللهَ تعالَى فعَّالٌ لمَا يريدُ فكلُّ شيءٍ بإرادتهِ ولَا يخرجُ عنْ مشيئتهِ وتدبيرهِ شيءٌ، وأنَّه سبحانهُ عَلِمَ كلَّ مَا كانَ، ومَا يكونُ، ومَا سوفَ يكونُ، منَ الأشياءِ قبلَ أنْ تكونَ فِي الأزلِ، وعلمَ إن كان شيءٌ سيكون، كيف كان سيكون، وقدَّرَ المقاديرَ للكائناتِ حسبمَا سبقَ بهِ علمهُ واقتضتْ حكمتهُ، وعلمَ أحوالَ عبادهِ وأرزاقهمْ وآجالهمْ وأعمالهمْ.

وملخصُّهُ: هوَ مَا سبقَ بهِ العلمُ وجرَى بهِ القلمُ ممَّا هوَ كائنٌ إلَى الأبدِ، قالَ تعالَى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا}[الأحزاب: 38].

وقالَ تعالَى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}[القمر: 49].

ودليلُ وجوبُ الإيمانِ بالقدرِ:

مَا رواهُ يحيَى بنُ يعمرَ قالَ: "كانَ أوَّلَ مَن قالَ في القَدَرِ بالبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ، فانْطَلَقْتُ أنا وحُمَيْدُ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ الحِمْيَرِيُّ حاجَّيْنِ، أوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنا: لو لَقِينا أحَدًا مَن أصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْناهُ عَمَّا يقولُ هَؤُلاءِ في القَدَرِ، فَوُفِّقَ لنا عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ داخِلًا المَسْجِدَ، فاكْتَنَفْتُهُ أنا وصاحِبِي أحَدُنا عن يَمِينِهِ، والآخَرُ عن شِمالِهِ، فَظَنَنْتُ أنَّ صاحِبِي سَيَكِلُ الكَلامَ إلَيَّ، فَقُلتُ: أبا عبدِ الرَّحْمَنِ إنَّه قدْ ظَهَرَ قِبَلَنا ناسٌ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، ويَتَقَفَّرُونَ العِلْمَ، وذَكَرَ مِن شَأْنِهِمْ، وأنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أنْ لا قَدَرَ، وأنَّ الأمْرَ أُنُفٌ، قالَ: فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ فأخْبِرْهُمْ أنِّي بَرِيءٌ منهمْ، وأنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، والذي يَحْلِفُ به عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ لو أنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فأنْفَقَهُ ما قَبِلَ اللَّهُ منه حتَّى يُؤْمِنَ بالقَدَرِ... ثمَّ ساقَ حديثَ جبريلَ[1].

---

(1) أوَّلُ حديثٍ في باب الإيمانِ من صحيح الإمام مسلم.

ومراتبُ القدرِ أربعةٌ لَا يتحقَّقُ إيمانُ العبدِ بالقدرِ إلَّا بهَا:

الأولىَ، العلمُ: وهوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالَى عالمٌ بكلِّ مَا كانَ ومَا يكونُ ومَا سيكونُ ومَا لمْ يكنْ لوْ كانَ كيفَ سيكونُ جملةً وتفصيلًا، وأنَّهُ علمَ مَا الخلقُ عاملونَ قبلَ خلقهمْ، قالَ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[العنكبوت: 62].

الثَّانية، الكتابة: وهوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالَى كتبَ مَا سبقَ بهِ علمهُ منْ مقاديرِ المخلوقاتِ فِي اللَّوحِ المحفوظِ، وهوَ الكتابُ الذِي لم يفرِّطْ فيهِ منْ شيءٍ، فكلُّ مَا جرَى ومَا يجرِي ومَا سيجرِي إلَى يومِ القيامةِ مكتوبٌ عندهُ فِي أمِّ الكتابِ، قالَ تعالَى {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}[يس: 12]، قالَ الطَّبريُّ: وقولهُ (وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) يقولُ تعالَى ذكرهُ: وكلُّ شيءٍ كانَ أوْ هوَ كائنٌ أحصيناهُ، فأثبتناهُ فِي أمِّ الكتابِ، وهوَ الإمامُ المبينُ... عنْ مجاهدٍ (فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) قالَ: فِي أمِّ الكتابِ، وعنْ قتادةَ، قولهُ (وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) كلُّ شيءٍ محصًى عندَ اللهِ فِي كتابٍ. ... قالَ ابنُ زيدٍ، فِي قولهِ (وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) قالَ: أمُّ الكتابِ التِي عندَ اللهِ فيهَا الأشياءُ كلُّهَا هيَ الإمامُ المبينُ[1].

الثَّالثةُ، المشيئةُ: وهوَ الإيمانُ بأنَّ كلَّ شيءٍ يجرِي فِي هذَا الكونِ فهوَ بإرادةِ اللهِ تعالَى ومشيئتهِ الدَّائرةِ بينَ الحكمةِ والرَّحمةِ، لَا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يسألونَ، فمشيئتهُ نافذةٌ وقدرتهُ شاملةٌ، مَا شاءَ اللهُ كانَ ومَا لمْ يشأْ لمْ يكنْ، لَا يخرجُ عنْ إرادتهِ شيءٌ، قالَ تعالَى {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[الإنسان: 30].

الرَّابعةُ، الخلقُ: وهوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالَى خالقُ كلِّ شيءٍ لَا خالقَ غيرهُ ولَا ربَّ سواهُ، وأنَّ كلَّ مَا سواهُ مخلوقٌ، فهوَ خالقُ كلَّ عاملٍ وعملهِ، وكلَّ متحرِّكٍ وحركتهِ،

(1) تفسير الطَّبري.

قالَ تعالَى {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[الفرقان: 2]، وأنَّ كلَّ مَا يجرِي منْ خيرٍ وشرٍّ وكفرٍ وإيمانٍ وطاعةٍ ومعصيةٍ، شاءهُ اللهُ تعالَى وقدَّرهُ وخلقهُ، قالَ تعالَى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}[الصافات: 96]، وأنَّهُ يحبُ الإيمانَ والطَّاعةَ، ويكرهُ الكفرَ والمعصيةَ، قالَ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة: 222]، وقالَ تعالَى: {فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[آل عمران: 76]، وقالَ سبحانهُ: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران: 134]، وقالَ جلَّ جلالهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[آل عمران: 159]، وقالَ جلَّ وعلَا: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[المائدة: 42]، وقالَ تعالَى: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}[البقرة:276]، وقالَ سبحانهُ: {فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[آل عمران: 32]، وقالَ جلَّ جلالهُ: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[آل عمران: 57]، وقالَ جلَّ وعلَا: {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}[النساء: 36].

فلا يعني أنَّ الله شاء خلق الشرِّ أنَّه يحبُّه بل خلقه فتنة.

ونؤمنُ أنَّ العبادَ لهمْ قدرةٌ علَى أفعالهمْ واختيارٌ وإرادةٌ لمَا يصدرُ منهمْ منْ طاعةٍ ومعصيةٍ، قالَ تعالَى: {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}[النبأ: 39]، وقالَ تعالَى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[الكهف: 29]، لكنَّ مشيئتهمْ وإرادتهمْ تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ تعالَى وإرادتهِ، خلافًا للجبريَّةِ الذينَ يقولونَ: إنَّ العبدَ مجبرٌ علَى أفعالهِ ليسَ لهُ إختيارٌ، وللقدريةِ الذينَ يقولونَ: إنَّ العبدَ لهُ إرادةٌ مستقلَّةٌ وأنَّهُ يخلقُ فعلهُ وأنَّ إرادتهُ ومشيئتهُ خارجةٌ عنْ إرادةِ اللهِ تعالَى ومشيئتهِ، ولكنَّ الحقَّ مَا عليهِ أهلُ السنَّةِ، أنَّ الخلقَ لهمْ مشيئةٌ خاصَّةٌ، لكنَّهَا مقيَّدةٌ بمشيئةِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[التكوير:29][1].

(1) خالد بن سعود البليهد – موقع صيد الفوائد.

{العمل الصالح}

لقد ذكر الله تعالى العمل الصالح في كتابه، وأثنى على أصحابه في مواقع كثيرة فقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: 97].

وقال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة: 25].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة: 82].

وقال جلَّ من قائل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: 277].

وقال سبحانه وتعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[آل عمران: 57].

العملِ الصَّالحِ فِي اللُّغةِ:

العملُ، مأخوذٌ منْ عَمِلَ: العينُ والميمُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، وهوَ عامٌ فِي كلِّ فعلٍ يُفعلُ، وعملَ يعمَلُ عملاً، فهوَ عاملٌ، واعتملَ الرَّجلُ: إذَا عملَ بنفسهِ، والعمالةُ: أجرُ مَا عُمِلَ، والمُعاملةُ: مصدرٌ منْ قولكَ: عَامَلْتهُ، وأنَا أُعاملهُ معاملةً[1].

والصَّالحُ مأخوذٌ منْ صلَحَ يَصلَحُ ويَصلُحُ، صَلاحًا وصَلاحِيةً وصُلُوحًا، فهوُ صالِحٌ، والمفعولُ مصلوحٌ لهُ، وصَلُحَ أَمْرُهُ أَوْ حَالُهُ: صَارَ حَسَناً وَزَالَ عَنْهُ الْفَسَادُ، وعَفَّ، وفَضُلَ، وصَلُحَ الشَّيءُ: كان نافِعاً أو مُناسِباً[2].

ويمكنُ تعريفُ العملِ الصَّالحِ اصطلاحًا بأنّهُ:

أيُّ عملٍ أوْ فعلٍ أوْ قولٍ يرضاهُ اللهُ تعالَى منْ عبادهِ، ويقومُ بِهِ العبدُ بقصدِ التقرُّبِ بِهِ إلَى اللهِ تعالَى، وقيلَ: هوَ العملُ بمَا جاءَ بِهِ القرآنُ الكريمُ، والسنَّةُ المطهَّرةُ، وجميعُ مَا يوافقُ شرعَ اللهِ تعالَى، ويصحُّ تعريفهُ بأنَّهُ: الانصياعُ لأمرِ اللهِ تعالَى[3].

شروط قبول العمل الصالح:

ولقبولِ العملِ الصَّالحِ ثلاثةُ شروطٍ وهيَ:

1) الشرط الأوَّل: الإسلامُ:

وهوَ لغةً: الانقيادُ والخضوعُ والذلُّ؛ يقالُ: أسلمَ واستسلمَ؛ أيِ: انقادَ[4].

واصطلاحًا هوَ كمَا عرَّفهُ الإمامُ محمَّدٌ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى: الإسلامُ هوَ الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيدِ والانقيادِ لهُ بالطَّاعةِ، والبراءةِ منَ الشِّركِ وأهلهِ[5]. اهـ

(1) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، صفحة 145، جزء 4 – بتصرّف.

(2) معجم المعاني.

(3) "التفسير المطول – سورة النحل 016 – الدرس (20-21): تفسير الآيات 97 – 112، عن العمل الصالح"، موسوعة النابلسي، 12-6-1987، اطّلع عليه بتاريخ 14-4-2017. بتصرّف.

(4) مختار الصحاح – 5/ 1952 – و"لسان العرب 12/ 293.

(5) الأصول الثَّلاثة لحمد بن عبد الوهاب.

والإسلامُ فِي الشَّرعِ يأتِي علَى معنيينِ:

المعنَى الأوَّلُ: الإسلامُ الكونِي: ومعناهُ استسلامُ جميعِ الخلائقِ لأوامرِ اللهِ تعالَى الكونيَّةِ القدريَّةِ.

المعنَى الثَّانِي: الإسلامُ الشَّرعِي: ومعناهُ الاستسلامُ والانقيادُ لأوامرِ اللهِ تعالَى الشَّرعيَّةِ.

ومرادنَا هوَ النَّوعُ الثَّانِي (الشَّرعِي) لأنَّ النَّوعَ الأوَّلَ (الكونِي) لَا يترتَّبُ عليهِ ثوابٌ ولَا عقابٌ، فكلُّ مخلوقٍ هوَ مستسلمٌ للهِ تعالَى ومنقادٌ لأوامرهِ الكونيَّةِ القدريَّةِ سواءً رضيَ أمْ لمْ يرضَ؛ فلَا مشيئةَ للمخلوقِ فِي صحَّةٍ أوْ مرضٍ، أوْ حياةٍ أوْ موتٍ، أوْ غنًى أوْ فقرٍ، ونحوِ ذلكَ، قالَ تعالَى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[آل عمران: 83].

وأمَّا النَّوعُ الثَّانِي (الشَّرعِي) فهوَ علَى قسمينِ، عامٌ وخاصٌ، فالإسلامُ العامُ هوَ: الدِّينُ الذِي جاءَ بهِ الانبياءُ جميعًا، كما سبق وأشرنا.

والإسلامُ الخاصُ: هوَ الدِّينُ الذِي جاءَ بهِ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ.

وقدْ بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ الإسلامَ بمعناهُ الخاصِ، وأنَّهُ الدِّينُ الذِي جاءَ بهِ، بقولهِ ﷺ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"(1).

وهذَا هوَ الإسلامُ الذِي هوَ الشَّرطُ الأوَّلُ فِي قبولِ العملِ.

(1) من حديث جبريل أخرجه مسلم.

2) الشَّرطُ الثَّانِي، الإخلاصُ:

والإخلاصُ فِي اللُّغةِ:

مشتقٌّ منْ خَلَصَ، بفتحِ الخاءِ واللَّامِ خلصَ يخلصُ خلوصًا وإخلاصًا، وهوَ فِي اللُّغةِ بمعنَى صفَا وزالَ عنهُ شوبهُ إذَا كانَ فِي الماءِ أوِ اللَّبنِ أوْ أيِّ شيءٍ فيهِ شوبٌ، يعنِي تغيَّرَ لونهُ بشيءٍ يشيبهُ أيْ يغيِّرهُ فقمتَ وصفَّيتَهُ وأخرجتَ هذهِ الشوائبَ التِي لوَّثتهُ، فيقالُ: إنَّكَ أخلصتهُ يعنِي صفَّيتهُ ونقَّيتهُ.

الإخلاصُ فِي الاصطلاحِ:

يعنِي صدقَ العبدِ فِي توجُّههِ إلَى اللهِ تعالَى اعتقادًا وعملاً، قالَ تعالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[البينة: 5].

وقالَ تعالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ}[النساء: 146].

يقولُ الهرويُّ: "الإخلاصُ تصفيةُ العملِ منْ كلِّ شوبٍ".

ويقولُ سفيانُ الثَّورِي: "مَا عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ منْ نيَّتِي؛ إنَّهَا تتقلَّبُ عليَّ"[1].

وخلاصةُ الإخلاصُ هوَ:

صرفُ العبادةِ للهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ له، لَا يشوبهَا شركٌ أكبرٌ ولَا أصغرٌ، فالشِّركُ الأكبرُ محبطٌ للعملِ ومخرجٌ منَ الملَّةِ، كمنْ دعَا غيرَ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى، والشِّركُ الأصغرُ غيرُ مخرجٍ منَ الملَّةِ ولكنَّهُ محبطٌ للعملِ بعينهِ، كسائرِ الرِّياءِ وهوَ الشِّركُ الخفيُّ، وبينَ معنَى الإخلاصِ اللُّغوي والإصطلاحِي تلازمٌ وتكاملٌ، فقد تعلَّقَ العملُ الصَّالحُ بالإخلاصِ وإلَّا فهوَ عملٌ غيرُ صالحٍ وكذلكَ لَا يكملُ العملُ الصَّالحُ إلَّا بالإخلاصِ.

---

(1) كتاب الإخلاص – عبد العزيز عبد اللطيف.

3) الشَّرطُ الثَّالثُ، المتابعةُ:

وهوَ متابعةُ هديِ النَّبيِّ ﷺ وعدمِ الخروجِ عنْ سنَّتهِ بحالٍ، فقدْ قالَ ﷺ: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ"[1]

وللبخاريِّ: منْ أحدثَ فِي أمرنَا هذَا مَا ليسَ منهُ فهوَ ردٌّ.

وقالَ ﷺ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي[2].

وفِي الأحاديثِ دلالةٌ واضحةٌ أنَّ الابتداعَ فِي الدِّينِ رادٌّ للعملِ، فكيفَ لَا يُردُّ وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[المائدة: 3]، قالَ عليُّ بنُ أبِي طلحةَ، عنِ ابنِ عبَّاسَ قولهُ: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وهوَ الإسلامُ، أخبرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ والمؤمنينَ أنَّهُ أكملَ لهمُ الإيمانَ، فلَا يحتاجونَ إلَى زيادةٍ أبدًا، وقدْ أتمَّهُ اللهُ فلَا ينقصهُ أبدًا، وقدْ رضيهُ اللهُ فلَا يسخطهُ أبدًا[3]. اهـ

فالدِّينُ قدِ اكتملَ فمَا زادَ منْ زادَ فِي الدِّين إلَّا بهوَى نفسهِ، وهوَ فِي نفسِ الوقتِ يتَّهمُ أبَا القاسمَ ﷺ بإحدَى ثلاثٍ:

إمَّا أنَّ الرَّسولَ ﷺ ينقصهُ العلمُ.

أوْ أنَّه نسيَ شيأً منَ الدِّينِ فلمْ يبلِّغهُ.

أوْ أنَّهُ خانَ الرِّسالةَ.

---

(1) مسلم – 1718.

(2) رواه البخاري (6212) ومسلم (2290).

(3) تفسير ابن كثير.

وفِي الثَّلاثةِ المبتدعُ كاذبٌ:

فالرَّسولُ ﷺ أعلمُ أهلِ الأرضِ ودليلهُ قولهُ تعالَى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[النجم: 5] والمَعْنِيُّ بشديدِ القوَى هوَ جبريلُ ﷺ فإنْ كانَ الرَّسولُ ينقصهُ علمٌ فجبريلُ كذلكَ لأنَّهُ مُعلِّمهُ، وهذَا محالٌ، كمَا أنَّ الرَّسولَ ﷺ لَا ينسَى العلمَ بأمرِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}[الأعلى: 6] قالَ الطبريُّ: عنْ مجاهدٍ، قولهُ: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) قالَ: كانَ يتذكَّرُ القرآنَ فِي نفسهِ مخافةَ أنْ ينسَى، فقالَ قائلُوا هذهِ المقالةِ: معنَى الاستثناءِ فِي هذَا الموضعِ علَى النِّسيانِ، ومعنَى الكلامِ: فلَا تنسَى، إلَّا مَا شاءَ اللهُ أنْ تنساهُ، ولَا تذكُرَهُ، قالُوا: ذلكَ هوَ مَا نسخهُ اللهُ منَ القرآنِ، فرفعَ حكمهُ وتلاوتهُ[1].

كمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مشهورٌ بالصِّدقِ والأمانةِ منْ قبلِ بعثتهِ، فكيفَ وهوَ سيِّدُ المرسلينَ، ففِي الصَّحيحينِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَا بدأَ يجهرُ بدعوتهِ سألَ النَّاسَ: ... لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، وفِي روايةٍ: مَا جربنَا عليكَ كذبًا[2].

وقدْ أُثرَ عنِ الإمامِ مالكٍ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّهُ قالَ: منِ ابتدعَ فِي الإسلامِ بدعةً يراهَا حسنةً، فقدْ زعمَ أنَّ محمَّدًا ﷺ خانَ الرِّسالةَ، لأنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" فمَا لمْ يكنْ يومئذٍ دينًا فلَا يكونُ اليومَ دينًا[3]. اهـ

فكلُّ عملٍ لمْ تتوفَّرْ فيهِ الشُّروطُ السَّابقةُ فهوَ غيرُ مقبولٍ، فاللهُ تعالَى لَا يقبلُ العملَ منَ الكافرِ، قالَ تعالَى: {وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[المائدة:5].

(1) تفسير الطبري.

(2) أخرجه البخاري 4770، ومسلم (208) باختلاف يسير.

(3) البخاري ومسلم.

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا قالتْ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ ابنَ جدعانَ كانَ فِي الجاهليةِ يصلُ الرَّحمَ ويطعمُ المسكينَ فهلْ ذاكَ نافعهُ؟ قالَ: لَا ينفعهُ، إنَّهُ لمْ يقلْ يومًا ربِّ اغفرْ لْي خطيئتْي يومَ الدِّينِ(1).

فالإسلامُ شرطٌ لقبولِ العملِ الصالحِ والإثابةِ عليهِ فِي الدَّارِ الآخرةِ، قالَ تعالَى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ}[التوبة: 54].

كمَا أنَّ اللهَ تعالَى لَا يقبلُ عملًا بلَا إخلاصٍ، ونقيضُ الإخلاصِ هو الشِّركُ، قالَ تعالَى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الزمر: 65].

وقالَ ﷺ فِي مَا يرويهِ عنْ ربِّهِ تعالَى: "أنَا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، منْ عملَ عملًا أشركَ فيهِ معِي غيرِي تركتهُ وشركهُ"(2)، وفِي روايةِ ابنِ ماجهْ: "فأنَا منهُ بريءٌ وهوَ للذِي أشركَ".

كمَا أنَّ اللهَ تعالَى لَا يقبلُ عملًا ليسَ علَى هديِ محمَّدٍ ﷺ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ"(3).

والبدعةُ شرُّهَا عظيمٌ وقدْ حذَّرَ منهَا الرَّسولُ ﷺ والصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهمْ والأئمَّةُ رحمهمُ اللهُ تعالَى، قالَ الإمامُ الأوزاعيُّ: اتَّقُوا اللهَ معشرَ المسلمينَ، واقبلُوا نصحَ النَّاصحينَ، وعظةَ الواعظينَ، واعلمُوا أنَّ هذَا العلمَ دينٌ فانظرُوا مَا تصنعونَ وعمَّنْ تأخذونَ وبمنْ تقتدونَ ومنْ علَى دينكمْ تأمنونَ، فإنَّ أهلَ البدعِ كلَّهمْ مبطلونَ أفّاكونَ

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه مسلم.

آثمونَ لَا يرعوونَ ولَا ينظرونَ ولَا يتّقونَ... إلَى أنْ قالَ: فكونُوا لهمْ حذرينَ متَّهمينَ رافضينَ مجانبينَ، فإنَّ علماءكمُ الأوَّلينَ ومنْ صلحَ منَ المتأخِّرينَ كذلكَ كانُوا يفعلونَ ويأمرونَ[1].

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ: إنَّ للهِ ملائكةً يطلبونَ حلقَ الذِّكرِ، فانظرْ معَ منْ يكونُ مجلسكَ، لَا يكونُ معَ صاحبِ بدعةٍ فإنَّ اللهَ تعالَى لَا ينظرُ إليهمْ، وعلامةُ النِّفاقِ أنْ يقومَ الرَّجلُ ويقعدَ معَ صاحبِ بدعةٍ، وأدركتُ خيارَ النَّاسِ كلَّهمْ أصحابُ سنَّةٍ وهمْ ينهونَ عنْ أصحابِ البدعةِ[2].

وعنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: يأتِي علَى النَّاسِ زمانٌ تكونُ السنَّةُ فيهِ بدعةٌ والبدعةُ فيهِ سنّةً والمعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا وذلكَ إذَا تبعُوا واقتدُوا بالملوكِ والسَّلاطينِ فِي دنياهمْ[3].

وعنْ جابرٍ بنِ عبدِ اللهِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ فِي خطبتهِ: "أمَّا بعدُ، فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرُ الهديِ هديُ محمَّدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدَثاتهَا وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ"[4].

---

(1) تاريخ دمشق 362/6.

(2) حلية الأولياء 104/8.

(3) رواه ابن وضاح – البدع والنَّهي عنها – سنده معضل فقد رواه زهير بن عابد وبينه وبين ابن مسعود 206 سنة – وقال ابن عبد البر بعد حديث ذكره من روايه محمد بن وضاح عن زهير بن عباد عن بشر بن الحارث: هذا الحديث وإن كان ضعيف لضعف زهير بن عباد فإن فيه ما تسكن إليه النفس من جهة اشتهار الحديث عند جماعة.

(4) رواه مسلم.

{اقترانُ الإيمانِ بالعملِ الصالح}

تكرَّرتْ جملةُ: (الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) في القرآن (51) مرَّةً.

وهذهِ الجملةُ هيَ الصِّيغةُ، وهيَ معظمُ مَا اقترنَ بِهِ الإيمانُ معَ العملِ الصَّالحِ فِي صيغِ الاقترانِ بينهمَا، والتِي بلغتْ (69) مرَّة[1].

وهذَا الاقترانُ يدلُّ علَى ارتباطهمَا الوثيقِ وتلازمهمَا المستمرِّ، فلَا إيمانَ بدونِ عملٍ صالحٍ يعبِّرُ عنهُ ويبرهنُ عليهِ، ولَا قيمةَ للعملِ الصَّالحِ بدونِ إيمانٍ يقومُ عليهِ ويركنُ إليهِ، فالإيمانُ بدونِ عملٍ كالشجرِ بلَا ظلٍّ ولَا ثمرٍ، والعملُ الصَّالحُ بدونِ إيمانٍ كالجسدِ بلَا روحٍ[2].

المقصودُ بالعملِ الصَّالحِ: مَا أحبَّهُ اللهُ تعالَى ورسولهُ ﷺ، وهوَ المشروعُ المسنونُ.

ولهذَا كانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ فِي دعائهِ: اللَّهمَّ اجعلْ عملِي كلَّهُ صالحًا، واجعلهُ لوجهكَ خالصًا، ولَا تجعلْ لأحدٍ فيهِ شيئًا[3].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: العملُ الصالحُ: هوَ العملُ الذِي يصلحُ عاملهُ فِي دينهِ ودنياهُ صلاحًا لَا يشوبهُ فسادٌ، وذلكَ العملُ الجارِي علَى وفقِ مَا جاءَ بِهِ الدِّينُ[4].

والعملُ الصَّالحُ واسعُ الدَّائرةِ إلَى حدٍّ يشملُ كلَّ شيءٍ فِي الحياةِ تباشرهُ باسمِ اللهِ، ولقدْ عدَّ الإسلامُ أعمالًا كثيرةً صالحةً لمْ تكنْ تخطرُ ببالِ النَّاسِ أنْ يجعلهَا عملًا صالحًا وقربةً إلَى اللهِ تعالَى، فجعلَ كلَّ عملٍ يمسحُ بِهِ الإنسانُ دمعةَ محزونٍ، أوْ يخفِّفُ بِهِ كربةَ مكروبٍ، أوْ يشدُّ بِهِ أزرَ مظلومٍ،

(1) انظر: المعجم المفهرس، عبد الله جلغوم ١/ ١٨٢- ١٨٧.

(2) يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، الشرقاوي ص ٣٦.

(3) مجموع الفتاوى ١/ ١٩٤.

(4) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص ٣٨١٨.

أوْ يقيلُ بِهِ عثرةَ مغلوبٍ، أوْ يقضِي بِهِ دينَ غارمٍ مثقلٍ، أوْ يهدِي حائرًا أوْ يعلِّمَ جاهلًا، أوْ يدفعَ شرًا عنْ مخلوقٍ، أوْ أذًى عنْ طريقٍ، أوْ يسوقَ نفعًا إلَى كلِّ ذِي كبدٍ رطبةٍ...جعلَ كلَّ ذلكَ عملًا صالحًا مَا دامتِ النيَّةُ فيهِ خالصةً لوجهِ اللهِ الكريمِ[1].

وممَّا يُستنبطُ منِ اقترانِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ:

- أنَّ الإيمانَ علمٌ وأسٌّ والعملُ بناءٌ، ولَا غناءَ للأسِّ مَا لمْ يكنْ بناءً، كمَا لَا بناءَ مَا لمْ يكنْ لهُ أسٌّ، فإذًا حقُّهمَا أنْ يتلازمَا لذَا قرنَ بينهمَا.
- أنَّ الغالبَ فِي اقترانِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، الحديثُ بصيغةِ الجمعِ (الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وهذهِ الصِّياغةُ جاءتْ جمعًا فِي المتحدِّثِ عنهمْ وعنْ أعمالهمْ، فهمْ جماعةٌ تبنُّوا تصوُّرًا واحدًا، وأسَّسُوا علَى هذَا التصوُّرِ أعمالًا صالحاتٍ فِي جميعِ مناحِي الحياةِ، يصحُّ أنْ تقومَ عليهَا نهضةٌ حضاريَّةٌ، يقودُ بهَا أهلُ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ الأمَّةَ إلَى الخيرِ والصَّلاحِ، وكيفَ لَا وهؤلاءِ الذِينَ جمعُوا بينَ الإثنينِ، الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، فانجرَّ عنْ ذلكَ أنْ جُمعتْ فيهمْ كلُّ المواصفاتِ الحميدةِ، فهمْ أهلُ الصبرِ وأهلُ التَّقوَى، وهمْ أهلُ الأخلاقِ والحياءِ وهمْ أهلُ العلمِ والحكمةِ، وهمْ أهلُ الاجتهادِ والبناء والتقدُّمِ وسيرُ السَّلفِ خيرُ دليلٍ علَى ذلكَ.
- كمَا ترتَّبَ علَى الإيمانِ والعملِ الصَّلاحِ الفلاحُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، كمَا قالَ تعالَى: {فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ}[القصص: 67]، أي: النَّاجحينَ بالمطلوبِ، النَّاجينَ منَ المرهوبِ[2]، الفائزينَ بمطالبهمْ منْ سعادةِ الدَّارينِ[3].

---

(1) العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص ٥٧ بتصرف يسير.

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٢٢.

(3) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢١١.

وعليه فإنَّ كلًّا من الإيمان والعمل الصالح مكمِّلان لبعضهما، لكن الإيمان مقدَّم على العمل الصالح، هذا لأن الإيمان من أعمال القلوب، والعمل من أعمال الجوارح، فمع أهمية ارتباط الإيمان بالعمل الصالح، والعمل الصالح بالإيمان إلا أن الأول مقدم على الثاني، فالإيمان مقدم على العمل الصالح لأنَّ عمل القلب مقدم على عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

فقد تكون صورة العملين واحدة، ويكون ما بينهما في الدرجة والفضل ما بين السماء والأرض؛ وذلك لتفاضل ما في القلوب.

ونفس الأمر ينطبق على معاصي القلوب ومعاصي الجوارح، فمعاصي القلوب من كِبر وغرور، وإعجاب بالنفس، ورياء، ونفاق، وحسد، والفرح بمصائب المسلمين، واستعظام النفس، واحتقار الآخرين وازدرائهم... فهي أشد وأشد في العقاب من معاصي الجوارح كالكذب، والسرقة، والغيبة والنميمة وغيرها.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: مَن تأمَّل الشريعة في مقاصدها ومواردها عَلِم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميِّز المؤمن من المنافق إلَّا بما في قلب كل واحد منهما؟

وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان[1].

---

(1) بدائع الفوائد لابن القيم:287/4.

العمل الصالح شرط الإيمان:

والذي يظهر لي في آخر هذا البحث؛ أنَّ علاقة الإيمان بالعمل الصلح، علاقة الأصل وشرطه، فالإيمان أصل وشرطه العمل الصالح، فلا تصح صلاة بلا وضوء، كذلك لا يصح إيمان بلا عمل صالح، من ذلك قوله تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى}[آل عمران: 31].

فالحب من أعمال القلوب ولا يكون الحب إلَّا بإيمان خالص، ولكن حبَّهم هذا لم يكن مقترنا بعمل، فاشترط عليهم سبحانه العمل وهو اتّباع الرسول ﷺ والعمل بما أمر به، لا الاقتصار على ما في القلب، فإن كان الأمر كذلك فلا يكون هذا إلا استهتارا أو نفاقا، بل وجب العمل مع الإيمان الذي في القلب كي يتحقق.

وكذلك لا يصح عمل صالح بلا إيمان بل لا يُنظر إليه، فعن أمِّنا عائشة رضي الله عنها قال: يا رسولَ اللهِ إنَّ عبدَ اللهِ بنَ جُدعانَ كان في الجاهليةِ يَقري الضيفَ ويفكُّ العانيَ ويصِلُ الرحِمَ ويُحسِنُ الجِوارَ وأثنَيتُ عليه فهل ينفعُه ذلك؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: لا إنه لم يقُلْ يومًا قَطُّ ربِّ اغفِرْ لي خطيئَتي يومَ الدِّينِ[1].

(1) أخرجه أحمد (24892)، وأبو يعلى (4672)، وابن حبان (330) باختلاف يسير.

والعمل الصالح على قسمين:

- عمل القلب.
- وعمل الجوارح.

فأمَّا العمل الصالح بالنِّسبة للقلب، فهو: الإيمان الخالص من شوائب الشرك والبدعة، وسائر أمراض القلوب، أو يكون صاحب القلب مجاهدا لها كارها لوجودها، فهذا من أعمال القلوب، التي هي شرط الإيمان.

وأمَّا أعمال الجوارح فهي بدورها على قسمين أيضا:

- أعمال اللسان.
- وأعمال سائر البدن.

فيصدِّق المؤمن بقلبه تصديقا جازما خالٍ من شوائب الشرك والشرك، وينطق بذلك بلسان معلنا عبوديَّته لله وحده لا شريك له، ويعمل بسائر جسده في ما أُمِرَ به من سائر التكاليف.

الإيمان يزيد بالعمل الصالح:

ومن أسباب ارتباط العمل الصالح بالإيمان، أنَّه به يزيد الإيمان، وبتركه ينقص، فالإيمان يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعصية.

وقال ابن سعدي في شجرة الإيمان وفي كلامه إشارة أنَّ الأعمال الصالحة تزيد الإيمان:

الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب على ذلك أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف؛ ولهذا كانوا ثلاث درجات:

- سابقون مقربون، وهم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وفضول المباحات.
- ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات.
- وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرهم الله بقوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}[فاطر:32].

وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة، أو التقوى، أو الصبر؛ للحاجة إلى ذكر المعطوف؛ لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفى فيه بما في القلب، فكم في القرآن من قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، ثم يذكر خبرًا عنهم.

والأعمال الصالحات من الإيمان، ومن لوازم الإيمان، وهي التي يتحقق بها الإيمان، فمن ادعى أنه مؤمن – وهو لم يعمل بما أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ

من الواجبات، ومن ترك المحرمات -، فليس بصادق في إيمانه. كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[يونس:62-63].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد، والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة. ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله من الكفر، والفسوق، والعصيان. اهـ.

وعليه فإنَّ السبب الرئيسي في زيادة ترسيخ الإيمان هو العمل الصالح.

فلو تلاحظ أنَّنا بهذا عدنا إلى مربط الفرس وهو أصل الإيمان الذي هو: تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

إذا فإن الإيمان إذا أطلق، دخلت فيه الأعمال؛ لقول النبي ﷺ: "الإيمانُ بضعٌ وستونَ شعبةً - أو بضع وسبعون شعبةً - أعلاهَا قولُ: لا إله إلا اللهَ، (وهذا قول وليس محلُّه القلب) وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، (وهذا عمل بالجوارح) والحياء شعبة من الإيمان"[1].

وعلى هذا فالإيمان أصل، والعمل شرط، ولا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان.

(1) أخرجه مسلم (35).



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكذلكَ أمرَ اللهُ تعالَى بالتَّقوَى، ومدحَ المتَّقينَ، ورتَّبَ علَى التَّقوَى حصولِ الخيراتِ، وزوالِ المكروهاتِ.

والتَّقوَى الكاملةُ: امتثالُ أمرِ اللهِ تعالَى وأمرِ رسولِهِ ﷺ، واجتنابِ نهيهمَا وتصديقِ خبرهمَا.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ التَّقوَى فِي كتابِهِ الكريمِ فِي كثيرٍ منَ المواضعِ وأمرَ بهَا، ووعدَ المتَّقينَ حسنَ المآبِ، وقالَ سبحانهُ:

{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[البقرة: 197].

وقالَ تعالَى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[البقرة: 24].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}[البقرة: 41].

وقالَ جلَّ علَا: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}[البقرة: 48].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[البقرة: 212].

وقالَ سبحانهُ: {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[آل عمران: 15].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[آل عمران: 76].

والتَّقوَى لغةً:

الوقايةُ، ومصدرهُ: وقاءٌ، بمعنَى حِفْظُ الشَّيءِ عمَّا يؤذيهِ، ومنهُ: قولهُ تعالَى: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[الدخان: 56].

ومنهُ قولُ النَّابغةِ الذِّبيانِي[1]:

سقطَ النَّصيفُ ولمْ تردْ إسقاطهُ * فتناولتهُ واتَّقتنَا باليدِ.

وفِي الاصطلاحِ:

للتَّقوَى أكثرُ منْ عشرةِ تعاريفَ: ومنْ أحسنِ التَّعريفاتِ مَا قالَ طلقُ بنُ حبيبٍ: إذَا وقعتِ الفتنُ، فأطفئوهَا بالتَّقوَى، قالُوا: ومَا التَّقوَى؟ قالَ: هيَ أنْ تعملَ بطاعةِ اللهِ علَى نورٍ منَ اللهِ رجاءَ رحمةِ اللهِ، والتَّقوَى تركُ معاصِي اللهِ علَى نورٍ منَ اللهِ مخافةَ عذابِ اللهِ[2].

ومعنَى قولكَ: اتَّقِ اللهَ: أي: اجعلْ بينكَ وبينَ عذابِ اللهِ تعالى وقايةً، بالاتمار بأوامرهِ والانتهاءِ بنواهيهِ، ومنهُ: قولُ النَّبيِّ ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ"[3].

(1) رواه البخاري (1413)، ومسلم (2347) عن عدي بن حاتم.

(2) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة 535 – 604 م. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة.

(3) رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه".

وللتَّقوَى أقسامٌ ثلاثةٌ منْ أتَى بهَا كلَّها إكتملتْ تقواهُ:

1) تقوَى عنِ الشِّركِ.

2) وتقوَى عنِ البدعِ.

3) وتقوَى عنِ المعاصِي الفرعيَّةِ.

ولقد ذكرهَا الله تعالَى في آيةٍ واحدةٍ وهيَ قولهُ تعالَى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقُوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثمَّ اتَّقُوا وَّآمَنُوا ثمَّ اتَّقُوا وَّأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ}[المائدة: 93].

فالتَّقوَى الأولَى: هيَ من الشِّركِ، والإيمانِ الذِي فِي مقابلتهَا هوَ التَّوحيدُ.

والتَّقوَى الثَّانيةُ: منَ البدعةِ، والإيمانِ الذِي ذُكرَ معهَا هوَ إقرارُ عقودِ السُّنَّةِ والجماعةِ.

والتَّقوَى الثَّالثةُ: من المعاصِي الفرعيَّةِ، فقابلها بالإحسانِ الذِي هوَ فعلُ المندوباتِ.

وقالَ الطَّبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآية:

يقولُ تعالَى ذكرهُ للقومِ الذينَ قالُوا إذْ أنزلَ اللهُ تحريمَ الخمرِ بقولهِ: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ): كيفَ بمنْ هلكَ منْ إخواننَا وهمْ يشربونهَا؟ وبنَا وقدْ كنَّا نشربهَا؟ "ليسَ علَى الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ منكمْ حرجٌ فيمَا شربُوا منْ ذلكَ فِي الحالِ التِي لمْ يكنِ اللهُ تعالَى حرَّمهُ عليهمْ" (إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، يقولُ:

"إذَا مَا اتَّقَى اللهَ الأحياءُ منهمْ فخافوهُ، وراقبوهُ فِي اجتنابهمْ مَا حرَّمَ عليهمْ منهُ، وصدَّقُوا اللهَ ورسولهُ فيمَا أمراهمْ ونهياهمْ، فأطاعوهمَا فِي ذلكَ كلِّهِ" (وعملُوا الصَّالحاتِ)، يقولُ: "واكتسبُوا منَ الأعمالِ مَا يرضاهُ اللهُ فِي ذلكَ ممَّا كلَّفهمْ بذلكَ ربُّهمْ" (ثمَّ اتَّقَوْا وَآمنُوا)، يقولُ: "ثمَّ خافُوا اللهَ وراقبوهُ باجتنابهمْ محارِمهِ بعدَ ذلكَ التَّكليفِ أيضًا، فثبتُوا علَى اتِّقاءِ اللهِ فِي ذلكَ والإيمانِ بهِ، ولمْ يغيِّرُوا ولمْ يبدِّلُوا" (ثُمَّ اتَّقَوْا وأَحْسَنُوا)، يقولُ: "ثمَّ خافُوا اللهَ، فدعاهمْ خوفُهمُ اللهَ إلَى الإحسانِ، {وذلكَ الإحسانُ}، هوَ العملُ بمَا لمْ يفرضهُ عليهمْ منَ الأعمالِ، ولكنَّهُ نوافلُ تقرَّبُوا بهَا إلَى ربِّهمْ طلبَ رِضاهُ، وهربًا منْ عقابهِ" (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)، يقولُ: "واللهُ يحبُّ المتقرِّبينَ إليهِ بنوافلِ الأعمالِ التِي يرضاهَا".

فالاتِّقاءُ الأوَّلُ: هوَ الاتقاءُ بتلقِّي أمرِ اللهِ بالقَبُولِ والتَّصديقِ، والدَّينونةِ بهِ والعمَلِ.

والاتِّقاءُ الثَّانِي: الاتِّقاءُ بالثَّباتِ علَى التَّصديقِ، وتركِ التَّبديلِ والتَّغييرِ.

والاتقاءُ الثَّالثُ: هوَ الاتقاءُ بالإحسانِ، والتقرُّبِ بنوافلِ الأعمالِ[1]. ا ه

---

(1) تفسير الطبري.

ولذلكَ حرصَ إمامنَا السَّعدِي علَى إظهار كمالِ التَّقوَى، بقولهِ: "والتَّقوَى الكاملةُ" لأنَّ المطلوبَ منَ المسلمِ هوَ التَّقوَى الكاملةُ، فمنَ النَّاسِ منْ يتَّقِي الكفرَ وكبائرَ الذُّنوبِ إلَّا إنَّهُ لَا يتورَّعُ عنِ الصَّغائرِ ولَا يكثرُ منَ النَّوافلِ، فهذَا تقوتهُ غيرُ كاملةٍ، وَلَا شكَّ أنَّهُ أقربُ للنَّجاةِ لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}[النساء: 31].

وقولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "الصَّلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلَى الجمعةِ ورمضانُ إلَى رمضانَ مكفِّراتٌ لمَا بينَهنَّ مَا اجتنَبتِ الكبائرُ"[1][2].

---

(1) رواه مسلم والترمذي.

(2) التَّقوى الدرَّة المفقودة والغاية المنشودة – الدكتور أحمد فريد – بتصرف.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وإذَا جمعَ اللهُ بينَ التَّقوَى والبرِّ ونحوِهِ، كانتِ التَّقوَى اسمًا لتوقِّي جميعِ المعاصِي، والبرَّ اسمًا لفعلِ الخيراتِ، وإذَا أُفردَ أحدهمَا، دخلَ فيهِ الآخرُ.

~~~~~~~~~~~~*الشرح*~~~~~~~~~~~~

وقدْ عرَّفَ اللهُ تعالَى البرَّ بقولهِ: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[البقرة: 177].

فقدْ عرَّفَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى البرَّ الكاملَ فِي هذِهِ الآيةِ الكريمةِ وبجميعِ أنواعهِ.

قالَ الثَّوريُّ: (وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ) الآيةُ، قالَ: هذهِ أنواعُ البرِّ كلِّهَا.

وصدقَ رحمهُ اللهُ؛ فإنَّ منِ اتَّصفَ بهذهِ الآيةِ، فقدْ دخلَ فِي عرَى الإسلامِ كلِّهَا، وأخذَ بمجامعِ الخيرِ كلِّهِ، وهوَ الإيمانُ باللهِ، وهوَ أنَّهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ، وصدقَ بوجودِ الملائكةِ الذينَ همْ سفرةٌ بينَ اللهِ ورسلهِ والكتابِ وهوَ اسمُ جنسٍ يشملُ الكتبَ المنزَّلةَ منَ السماءِ علَى الأنبياءِ، حتَّى خُتمتْ بأشرفهَا، وهوَ القرآنُ المهيمنُ علَى مَا قبلهُ منَ الكتبِ، الذِي انتهَى إليهِ كلُّ خيرٍ، واشتملَ علَى كلِّ سعادةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ونسخَ اللهُ بهِ كلَّ مَا سواهُ منَ الكتبِ قبلهُ، وآمنَ بأنبياءِ اللهِ كلِّهمْ منْ أوَّلهمْ إلَى خاتمهمْ محمَّدٌ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ وعليهمْ أجمعينَ[1].

(1) تفسير ابن كثير.
~~~~~~~~~~~~

والبرُّ مَا عرَّفهُ رسولُ اللهِ ﷺ بقولهِ: "البرُّ حسنُ الخلقِ، والإثمُ مَا حاكَ فِي نفسكَ، وكرهتَ أنْ يطَّلعَ عليهِ النَّاسُ"[1].

والبِرُّ لغةً:

هوَ الصِّدقُ والطَّاعةُ والخيرُ والفضلُ، وبَرَّ يَبَرُّ، إذا صَلَحَ، وبَرَّ فِي يمينهِ يَبَرُّ، إذَا صدَّقهُ ولمْ يحنثْ، وبَرَّ رحمهُ يَبَرُّ، إذَا وصلهُ. ويقالُ: فلانٌ يَبَرُّ ربَّهُ ويتبرَّرهُ، أي: يطيعهُ، ورجلٌ بَرٌّ بذِي قرابتهِ، وبارٌّ: منْ قومٍ بررةٍ وأبرارٍ، والمصدرُ: البِرُّ، والبَرُّ: الصَّادقُ أوِ التَّقيُ وهوَ خلافُ الفاجرِ، والبِرُّ: ضدُّ العقوقِ. وبَرِرْتُ والدِي بالكسرِ، أَبَرُّهُ برًّا، وقد بَرَّ والدهُ يَبَرُّهُ ويَبِرُّهُ بِرًّا... وهوَ بَرٌّ بهِ وبارٌّ... وجمعُ البَرِّ الأبرارُ، وجمعُ البَارِّ البَرَرَةُ[2].

ومنَ التَّعريفِ اللُّغوِي للبرِّ نرَى أنَّ التَّقوَى شرطٌ فِي البرِّ ودرجةٌ منْ درجاتهِ، وهوَ الحدُّ الزَّائدُ علَى التَّقوَى، لقولهِ تعالَى: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"[آل عمران: 92]، قالَ أبُو جعفرٍ الطبرِي فِي تأويلهِ: "لَنْ تَنَالُوا أيُّهَا المؤمنونَ جنَّةَ ربِّكمْ حتَّى تنفقُوا ممَّا تحبُّونَ، وتتصدَّقُوا ممَّا تحبُّونَ، وتنفقُوا ممَّا يعجبكمْ، وممَّا تهوُونَ منْ أموالكمْ"[3].

---

(1) رواه مسلم.

(2) لسان العرب لابن منظور (51/4)، المصباح المنير للفيومي (43/1).

(3) جامع البيان للطبري.

والبِرّ اصطلاحًا:

قالَ المناوِي: البِرُّ بالكسرِ أي: التوسُّعُ فِي فعلِ الخيرِ، والفعلِ المرضِي، الذِي هوَ فِي تزكيةُ النَّفسِ... يقالُ: بَرَّ العبدُ ربَّهُ، أي: توسَّعَ فِي طاعتهِ... وبِرُّ الوالدِ: التَّوسُّعُ فِي الإحسانِ إليهِ، وتحرِّي محابِّهِ، وتوقِّي مكارهِهِ، والرِّفقُ بهِ، وضدُّهُ: العقوقُ، ويستعملُ البِرُّ فِي الصِّدقِ، لكونهِ بعضُ الخيرِ المتوسَّعِ فيهِ[1].

قالَ القاضِي المهدِي: والبِرُّ: هوَ الصِّلةُ، وإسداءُ المعروفِ، والمبالغةُ فِي الإحسانِ[2].

---

(1) التوقيف على مهمَّات التعاريف للمناوي (ص 122).

(2) صيد الأفكار للقاضي المهدي (302/2).

والبرُّ فِي الحقيقةِ درجةٌ أعلَى منَ التَّقوَى؛ فهوَ التوسُّعُ فِي أعمالِ الخيرِ فوقَ الواجباتِ حتَّى بداياتِ مرتبةِ الإحسانِ، فنوافلُ الصَّلاةِ فوقَ أداءِ الصَّلواتِ المفروضةِ هيَ منْ مرتبةِ البرِّ، وبذلُ الصَّدقاتِ فوقَ أداءِ الزَّكاةِ الواجبةِ هيَ منْ مرتبةِ البرِّ، ولفضلِ مرتبةِ البرِّ علَى التَّقوَى، جاءَ فِي الكتابِ العزيزِ تقديمُ البرِّ علَى التَّقوَى[1]، لقولهِ تعالَى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[المائدة: 2] فمنَ العلماءِ منْ فسَّرَ البرَّ فِي الآيةِ الكريمةِ بالأمرِ، والتقوَى بالنهيِ[2]، ومنهمْ منْ قالَ: البرُّ: فعلُ الخيراتِ، والتَّقوَى: تركُ المنكراتِ[3].

العلاقةُ بينَ البرِّ والتَّقوَى:

نُلاحظُ هذهِ العلاقةَ فِي قولهِ تعالَى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[البقرة: 177]، لقدْ بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بالحديثِ عنْ حقيقةِ البرِّ، ثمَّ ذيَّلتْ بالحديثِ عنِ التَّقوَى، وذلكَ لبيانِ أنَّهُ لنْ يقومَ أحدٌ بفعلِ أعمالِ البرِّ الجليلةِ حتَّى يتحقَّقَ قبلَ ذلكَ بمرتبةِ التَّقوَى، وهيَ شرطٌ رئيسٌ للبرِّ، ومرحلةٌ سابقةٌ لهُ ومتقدِّمةٌ عليهِ، فمنْ لمْ يتَّقِ اللهَ تعالَى فِي عملهِ بفعلِ مَا أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ وتركَ مَا نهَى عنهُ، لنْ يقبلَ اللهُ جلَّ ذكرهُ منهُ الأعمالَ الزَّائدةَ

(1) عبد الرحمن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ص443-444.

(2) الطبري: جامع البيان، 2684/4.

(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 9/2.

علَى الواجبِ منْ أعمالِ البرِّ؛ فالمرتبةُ الدُّنيَا شرطٌ للارتقاءِ إلَى المرتبةِ العليَا، وبياناً لذلكَ قالَ اللهُ تعالَى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[البقرة: 189]، ومعنَى الآيةِ الكريمةِ أنَّ إتيانَ المحرمِ بالحجِّ أوِ العمرةِ البيوتَ منْ ظهورهَا ليسَ منَ البرِّ أصلاً، فهيَ بدعةٌ لَا أساسَ لهَا فِي الدِّينِ، وزيادةٌ علَى الواجبِ غيرِ مشروعةٍ، ثمَّ بيَّنَ تقدَّستْ أسماؤهُ أنَّ البرَّ المقبولَ عندهُ، والذِي يكونُ بفعلِ خيراتٍ وعباداتٍ زائداتٍ علَى الواجبِ، هوَ البرُّ الذِي يكونُ منَ المتَّقِي؛ فمنْ كانَ متحقِّقاً بمرتبةِ التَّقوَى فِي العملِ قُبلتْ منهُ زوائدُ العباداتِ والطَّاعاتِ المشروعةِ، قالَ تعالَى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[المائدة: 27]، واعتُبرتْ لهُ فِي صحيفةِ أعمالِ البرِّ، وهذَا مَا يُفهمُ منْ قولهِ تعالَى: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى}[البقرة: 189]، أي: ولكنَّ البرَّ المقبولَ عندَ اللهِ تعالَى هوَ برُّ منِ اتَّقَى[1].

وفِي هذَا السِّياقِ قالَ ابنُ القيِّم رحمهُ اللهُ تعالَى: "البرُّ والتَّقوَى كلاهمَا يتضمَّنُ أجزاءً منَ الإيمانِ وأركاناً منَ الإسلامِ، لكنْ مَا يخصُّ منهَا القلبَ يسمَّى بالتَّقوَى، ومَا يخصُّ الجوارحَ يسمَّى البرُّ؛ فالتَّقوَى برُّ القلبِ، والبرُّ تقوَى الجوارحِ... وشأنُ البرِّ والتَّقوَى كشأنِ الإيمانِ والإسلامِ، كلٌّ منهَا يدخلُ فِي مسمَّى الآخرِ إمَّا تضمُّناً أوْ لزوماً، وكونُ أحدهمَا لَا يدخلُ فِي الآخرِ عندَ الاقترانِ لَا يدلُّ علَى أنَّهُ لَا يدخلُ فيهِ[2].اهـ

(1) عبد الرحمن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل.

(2) ابن القيم: الرسالة التبوكية، ص31.

وكلُّ مَا سبقَ هوَ تفسيرٌ لقولِ الشَّيخ السَّعدِي رحمه الله تعالَى: "وإذَا جمعَ اللهُ بينَ التَّقوَى والبرِّ ونحوهِ، كانتِ التَّقوَى اسمًا لتوقِّي جميعِ المعاصِي، والبرَّ اسمًا لفعلِ الخيراتِ"، وأمَّا قولهُ: "وإذَا أُفردَ أحدهمَا، دخلَ فيهِ الآخرُ" أي إذَا جاءَ لفظُ البرِّ أوِ التَّقوَى متفرِّقانِ فِي القرآنِ يدخلُ أحدهمَا فِي الآخرِ فِي المعنَى، منهُ قولهُ تعالَى: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[آل عمران: 93] وقولهُ تعالَى: "لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ"[البقرة: 177] وقولهُ تعالَى: {أَتَأْمُرُونَ بِالبِرِ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}[البقرة: 44].

وقد وردَ لفظُ البرِّ عندَ مقاتلٍ علَى ثلاثةِ وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: البرُّ بمعنَى الصِّلةِ منهَا قولهُ تعالَى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ}[الممتحنة: 8] وهنَا البرُّ بمعنَى الصِّلةِ أي أنْ تصلوهمْ.

والوجهُ الثَّانِي: البرُّ بمعنَى الطَّاعةِ، منهَا قولهُ تعالَى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى}[المائدة: 2] وهنَا البرُّ بمعنَى الطَّاعةِ، أي تعاونُوا علَى الطَّاعةِ والتَّقوَى.

والوجهُ الثَّالثُ: البرُّ بمعنَى التَّقوَى منهَا قولهُ تعالَى: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[آل عمران: 92][1]، ومرادنَا هوَ الوجهُ الأخيرُ وهو البرُّ بمعنَى التَّقوَى، وهذَا معنَى قولِ الشَّيخِ رحمهُ اللهُ تعالَى: "وأمَّا إذَا أفردَ أحدهمَا دخلَ فيهِ الآخرِ".

(1) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم – دراسة وموازنة – د. سليمان بن صالح القرعاوي.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وذكرَ اللهُ الهدَى المطلوبَ فِي مواضعٍ كثيرةٍ، وأثنَى علَى المهتدِين، وأخبرَ أنَّ الهدَى بيدهِ، وأمرنَا بطلبهِ منهُ، وبالسَّعيِ فِي كلِّ سببٍ يحصلُ الهدَى، وذلكَ شاملٌ لهدايةِ العلمِ والعملِ.

فالمهتدِي: منْ عرفَ الحقَّ، وعملَ بهِ، وضدُّهُ الغيُّ والضَّلالُ، فمنْ عرفَ الحقَّ ولمْ يعملْ بهِ فهوَ الغاوِي، ومنْ جهلَ الحقَّ فهوَ الضَّالُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الهدَى فِي كتابهِ العزيزِ فِي مواضعَ كثيرةٍ، منهَا قولهُ تعالَى: {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}[البقرة: 2].

وقالَ سبحانهُ: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ}[المائدة: 44].

وقالَ جلَّ وعلَا: {وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ}[المائدة: 46].

وأثنَى سبحانهُ علَى المهتدينَ وقالَ: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[محمد: 17].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[البقرة: 157].

وأخبرَ سبحانهُ أنَّ الهدَى بيدهِ فقالَ تعالَى: "ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"[الأنعام: 88].

وأمرَ سبحانهُ بطلبِ الهدَى بقولهِ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}[الفاتحة: 6 – 7].
~~~~~~~~~~~

المعنَى اللُّغوِي للهدايةِ:

الهدايةُ: منَ الفعلِ هدَى، والهُدَى نقيضُ الضَّلالةِ[1]، وهيَ بمعنَى الرَّشادُ والدَّلالةُ[2]، والهدايةُ: دلالةٌ بلطفٍ[3]، يقالُ: هديتهُ الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتهُ لأرشدهُ، وكلُّ متقدِّمٍ لذلكَ هادٍ، تقولُ: هديتهُ هدىً، والهاديةُ: العصَا، لأنَّهَا تقودُ ممسكهَا كأنَّهَا تُرشدهُ، ومنَ البابِ قولهمْ: نظرَ فلانٌ هديَ أمرهُ، أي: جهتهُ، ومَا أحسنَ هديتهُ، أي: هديهُ، ويقولونَ: جاءَ فلانٌ يهادَى بينَ اثنينِ، إذَا كانَ يمشِي بينهمَا معتمدًا عليهمَا، والهديَّةُ مَا أُهدِيتَ منْ لطفٍ: أي: ذِي مودَّةٍ، ويقالُ: أهديتُ أهدَي إهداءً، والهديُ: مَا يُهدَى منَ النَّعمِ إلَى الحرمِ قربةً إلَى اللهِ تعالَى[4]، ويقالُ: هُديَ فاهتدَى، ويقالُ: هُديتُ إلَى الحقِّ، وهُديتُ للحقِّ بمعنَى واحدٍ؛ لأنَّ هديتَ يتعدَّى للمهديِّينَ، والحقُّ يتعدَّى بحرفِ جرٍ، والمعنَى: اللهُ يهدِي منْ يشاءُ إلَى الحقِّ.

والهدَى: البيانُ، أو إخراجُ شيءٍ إلَى شيءٍ، أوِ الطَّاعةُ والورعُ.

المعنَى الاصطلاحِي للهدايةِ:

لَا يختلفُ المعنَى الاصطلاحِي عنِ المعنَى اللُّغوِي كثيرًا، فقدْ قالَ الجرجانِي: الهدايةُ فِي الاصطلاحِ: الدَّلالةُ علَى مَا يوصلُ إلَى المطلوبِ، وقدْ يقالُ: هيَ سلوكُ طريقٍ يوصلُ إلَى المطلوبِ[5].

(1) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٦/٣٧٨.

(2) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.

(3) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥١٦.

(4) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.

(5) التعريفات، ص٢١٥.

وقيلَ: إنَّ الهدايةَ عندَ أهلِ الحقِّ هيَ الدَّلالةُ علَى طريقٍ منْ شأنهِ الإيصالُ، سواءٌ حصلَ الوصولُ بالفعلِ فِي وقتِ الاهتداءِ، أوْ لمْ يحصلْ[1].

ويلاحظُ أنَّ تعريفَ الجرجانِي أدقُّ، وأشملُ؛ لأنَّهُ لَا بدَّ منْ حصولِ المطلوبِ سواءٌ كانتِ الهدايةُ طريقًا للدَّلالةِ إلَى الخيرِ، أوْ إلَى غيرهِ، كمَا أنَّ الكافرينَ يهدونَ إلَى سواءِ الجحيمِ.

الهدايةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (هدي) فِي القرآنِ الكريمِ (**316**) مرَّةٍ[2].

وجاءتِ الهدايةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي علَى أربعةِ عشرَ وجهًا[3]:

الأوَّلُ: البيانُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ}[البقرة: 5]، أي: علَى بيانٍ منْ ربِّهمْ.

الثَّانِي: دينُ الإسلامِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ"[الحج: 67]، يعنِي: علَى دينِ الإسلامِ.

الثَّالثُ: الإيمانُ والتَّوحيدُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى}[مريم: 76]، يعنِي: يزيدُ الذينَ آمنُوا إيمانًا، وقولهُ: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}[القصص: 57]، يعنِي: إنْ نتَّبعِ التَّوحيدَ معكَ.

---

(1) انظر: الكليات، الكفوي، ص٩٥٢.

(2) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الهاء، ص١٣٦٣، ١٣٦٩.

(3) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٥.

الرَّابعُ: الدَّاعِي: ومنهُ قولهُ تعالَى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}[الرعد: 7]، يعنِي: داعٍ ومرشدٍ.

الخامسُ: المعرفةُ والاسترشادُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}[النحل: 16]، يعنِي: يعرفونَ بهَا السَّبيلَ ويسترشدونَ.

السَّادسُ: الرُّسل والكتبُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ}[طه: 123]، يعنَي: رسلًا وكتبًا.

السَّابعُ: الرُّشدُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}[القصص: 22]، يعنِي: أنْ يرشدنِي.

الثَّامنُ: القرآنُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ}[النجم: 23]، يعنِي: القرآنُ.

التَّاسعُ: التَّوراةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ}[غافر: 53]، يعنِي: التَّوراةَ.

العاشرُ: لَا يوفِّقُ إلَى الحجَّةِ ولَا يهدِي منَ الضَّلالِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[البقرة: 258]، يعنِي: لَا يهدِي إلَى الحجَّةِ.

الحادِي عشرَ: السنَّةُ والتَّقليدُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}[الزخرف: 22]، يعنِي: مقتدونَ مستنُّونَ بسنَّتهِمْ.

الثَّانِي عشرَ: لَا يهدِي: لَا يُصلحُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}[يوسف: 52]، يعنِي: لَا يُصلحُ عملَ الزُّنَاةِ والخائنينَ.

الثَّالثُ عشرَ: الإلهامُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ}[طه: 50]، يعنِي: ثُمَّ ألهمهُ كيفَ يأتِي معيشتهُ ومرعاهُ.

الرَّابعُ عشرَ: هدنَا، يعنِي: تُبْنَا: ومنهُ قولُ موسَى عليهِ السَّلامُ: "وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ"[الأعراف: 156]، يعنِي: تُبنَا إليكَ.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالهدايةِ:

الصَّلاحُ:

الصَّلاحُ لغةً:

مأخوذٌ منَ الفعلِ (صلح)، والصَّلاحُ ضدُّ الفسادِ[1].

الصَّلاحُ اصطلاحًا:

استقامةُ الحالِ وانعدالهَا، وهوَ ممَّا يفعلهُ العبدُ لنفسهِ[2]. وهوَ معنًى عامٌ يشملُ استواءَ الأعمالِ الصَّالحةِ والأخلاقِ الحميدةِ أو تقولُ هوَ: الاستقامةِ علَى مَا توجبهُ الشَّريعةُ.

---

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/٢٤٧٩.

(2) انظر: الفروق اللغوية ص٣١٧.

الصِّلةُ بينَ الصَّلاحِ والهدايةِ:

الهدايةُ: هيَ سلوكُ طريقٍ يوصلُ إلَى المطلوبِ، والصَّلاحُ: سلوكُ طريقِ الهدَى، والصَّلاحُ أيضًا: استقامةُ الحالِ وهوَ ممَّا يفعلهُ العبدُ لنفسهِ، ويكونُ بفعلِ اللهِ لهُ لطفًا وتوفيقًا[1]، وبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ الهدايةَ والصَّلاحَ متلازمتانِ.

الإرشادُ:

الإرشادُ لغةً:

الرُّشدُ يستعملُ استعمالَ الهدايةِ، وهوَ خلافُ الغيِّ[2] والضَّلالِ، يقالُ: أرشدهُ اللهَ الأمرَ، أي: هداهُ، والرُّشدَ هوَ الصَّلاحُ[3].

الإرشادُ اصطلاحًا:

الإرشادُ إلَى الشَّيءِ هوَ التَّطريقُ إليهِ والتَّبيينُ لهُ[4].

الصِّلةُ بينَ الهدايةِ والإرشادِ:

أنَّ الإرشادَ إلَى الشَّيءِ هوَ التَّطريقُ إليهِ والتَّبيينُ لهُ، والهدايةُ هيَ التمكُّنُ منَ الوصولِ إليهِ[5].

السَّدادُ:

السَّدادُ لغةً:

الاستقامةُ[6]، وقيلَ: هوَ الصَّوابُ والقصدُ فِي القولِ والعملِ[7]، والصَّوابُ: حقٌّ مَنْ يعملُ عليهِ أنْ ينجُو، وحقٌّ منْ يعملْ علَى خلافهِ أنْ يهلكَ[8].

---

(1) انظر: المصدر السابق.

(2) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٠٢.

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/٢١٨.

(4) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٥٣٢.

(5) انظر: المصدر السابق.

(6) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٣٣.

(7) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٤٧.

(8) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٢.

السَّدادُ اصطلاحًا:

هوَ القصدُ فِي الأمرِ والعدلُ فيهِ[1].

الصِّلةُ بينَ الهدايةِ والسَّدادِ:

التَّسديدُ للحقِّ لَا يكونُ إلَّا معَ طلبِ الحقِّ، فأمَّا معَ الإعراضِ عنهُ والتَّشاغلُ بغيرهِ فلَا يصحُّ[2]، وهذَا يعنِي أنَّ التَّسديدَ للهدايةِ لَا يكونُ إلَّا بطلبِ الهدايةِ، فالسَّدادُ طريقُ الهدايةِ[3].

الضَّلالُ:

الضَّلالُ لغةً:

مصدرُ (ضلَّ)، والذِي يعنِي الضَّياعَ والذَّهابَ والغيابَ، وكلُّ منْ زاغَ عنِ المطلوبِ والقصدِ يسمَّى (ضالًّا)، و(يَضَلُّ ويَضُلُّ) لغتانِ عندَ العربِ[4].

الضَّلال اصطلاحًا:

كلُّ عدولٍ عنِ المنهجِ عمدًا أو سهوًا، قليلًا كانَ أوْ كثيرًا، فهوَ ضلالٌ[5].
وقيلَ: هوَ العدولُ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ ضدُّ الهدايةِ[6].

الصِّلةُ بينَ الهدايةِ والضَّلالِ:

الهدايةُ نقيضُ الضَّلالِ، فالهدايةُ: سلوكُ طريقٍ يوصلُ إلَى المطلوبِ[7].

---

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/٢١٢.

(2) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٢٤٨.

(3) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٤٥.

(4) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/٣٦٣.

(5) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٦٧.

(6) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٠٠.

(7) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٣٩١.

وقولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى: "وذكر اللهُ الهدَى المطلوبَ..." هذَا لأنَّ للهدايةِ مراتبُ وأنواعٌ، أوَّلًا الهدايةُ لغةً: الهُدَى: الرشاد والدلالة، و"هَديتُه" الطريق والبيتَ "هدايةً"[1] وقدْ سبقَ تعريفهَا.

وأمَّا الهدايةُ شرعًا:

فيجبُ تعريفهَا علَى أربعةِ أقسامٍ بحسبِ مراتبِ الهدايةِ الأربعةِ:

1) هدايةٌ عامَّةٌ.

2) هدايةُ الدَّلالةِ والبيانِ، والإرشادِ.

3) هدايةُ التَّوفيقِ والإلهامِ.

4) الهدايةُ إلَى الجَنَّةِ أو إلَى النَّارِ يومَ القيامةِ.

النَّوعُ الأوَّلُ: الهدايةُ العامةُ:

وهيَ للخلقِ كلِّهمْ، قالَ تعالَى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[طه: 50]، فهدَى اللهُ تعالَى بهذهِ الهدايةِ البشرَ والحيواناتَ وغيرهمْ إلَى مَا خلقُوا لهُ، هداهمْ إلَى عمليَّةِ الأكلِ، والشُّربِ، والتَّزاوجِ، ومعرفةِ المصالحِ الدُّنيويَّةِ، حتَّى الرَّضيعُ هداهُ اللهُ تعالَى إلَى ثديِ أمِّهِ، قالَ تعالَى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}[الأعلى: 1-3]، قدَّرَ لكلِّ مخلوقٍ مَا يناسبهُ وهداهُ إليهِ.

---

(1) مختار الصحاح – محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.

وأنواعُ الهدايةِ العامَّةِ كثيرةٌ لَا يُحصِيهَا إلَّا اللهُ تعالَى، مثلَ: هدايةِ النَّحلِ إلَى سلوكِ السُّبُلِ التِي فيهَا مَراعِيهَا علَى تبايُنِهَا واختلافِهَا، ثمَّ عَوْدهَا إلَى بيوتهَا مِنَ الشَّجرِ والجبالِ ومَا يَعْرِشُ بنُو آدمَ، قالَ تعالَى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}[النحل: 68]،

"يعرشونَ" قالَ الطَّبرِي: يعنِي: ممَّا يبنونَ منَ السُّقوفِ، فرفعوهَا بالبناءِ[1].

وكذلكَ هدايتهُ سبحانهُ للنَّملةِ كيفَ تخرجُ مِنْ بيتهَا وتطلُبُ قُوتَهَا مِنْ هنا وهناكَ، وكيفَ خاطبَتْ أصحابَهَا، وأَمَرَتْهمْ بأنْ يدخلُوا مساكنهمْ، قالَ تعالَى: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[النمل: 18]، وغيرِ ذلكَ منْ أنواعِ الهدايةِ التِي لَا يُحصيهَا إلَّا اللهُ تعالَى.

النَّوعُ الثَّانِي: هدايةُ الدَّلالةِ والبيانِ والإرشادِ:

وهذَا النوعُ هوَ وظيفةُ الرُّسلِ والكتبِ المنزَّلةِ مِنَ اللهِ تعالَى، وهوَ خاصٌّ بالمكلَّفينَ، وهذهِ الهدايةُ هيَ التِي أثبتهَا اللهُ تعالَى لرسولهِ بقولِه: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الشورى: 52]، وأثبتهَا اللهُ تعالَى لكتبهِ، قالَ تعالَى: {قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ}[المائدة: 15 – 16] كمَا أنَّ هذَا النَّوعَ مِنَ الهدايةِ أخصُّ مِنَ التِي قبْلَهَا، فهيَ مصدرُ التَّكليفِ ومَناطُهُ، وبهَا تقومُ حُجَّةُ اللهِ تعالَى علَى عِبادهِ، فإنَّ اللهَ تعالَى لَا يُدخِلُ أحدًا النَّارَ إلَّا بعدَ إرسالِ الرُّسلِ الذِينَ يُبيِّنونَ للنَّاسِ

(1) تفسير الطبري.

طريقَ الغيِّ مِنَ الرَّشادِ، قالَ تعالَى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[الإسراء: 15]، وقالَ تعالَى: {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[الزمر: 57]، واللهُ فِي الحقيقةِ هداهمْ إلَّا أنَّهمُ استحبُّوا الكفرَ علَى الهدَى، قالَ تعالَى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ}[فصلت: 17].

وقالَ تعالَى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[النساء: 165]، يقولُ ابنُ كثيرٍ: (أي: إنَّهُ تعالَى أنزلَ كُتبَهُ، وأرسَلَ رسُلَهُ بالبشارةِ والنذارةِ، وبيَّنَ مَا يحبُّهُ ويَرضاهُ ممَّا يكرههُ ويأباهُ؛ لئلَّا يبقَى لمُعتَذِرٍ عذرٌ)[1]؛ {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ}[طه: 134].

وقدْ ثبتَ فِي الصَّحيحينِ عنِ ابنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "... لَا أحدٌ أحبُّ إليهِ العُذرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أجْلِ ذلكَ بعَثَ النبيِّينَ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ"[2].

واللهُ تعالَى لمْ يمنعْ أحدًا هذهِ الهدايةَ، ولمْ يَحُلْ بينَ أحدٍ مِنْ خلْقهِ وبينَ هذهِ الهدايةِ، بلْ خلَّى بينهمْ وبينهَا، ومَنَحَهمْ مِنَ الوَسائلِ والأدواتِ التِي تُساعِدهمْ علَى تقبُّلهَا والاستِفادةِ بهَا؛ كالعقلِ والفطرةِ، وأقامَ لهمْ بذلكَ أسبابَ الهدايةِ ظاهرةً وباطنةً، ومَنْ حَرَمَهُ مِنْ خلْقهِ بعضًا مِنْ هذهِ الأدواتِ والوسائلِ؛ كزوالِ العقلِ أوِ الصِّغَرِ أوِ المرضِ، فقدْ حطَّ عنهُ مِنَ التَّكاليفِ بحسبِ مَا حرَمَهُ

(1) تفسير ابن كثير.

(2) رواه البخاري ومسلم.

منْ ذلكَ؛ قالَ تعالَى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}[النور: 61]، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "رُفِعَ القلمُ عنْ ثلاثةٍ: عنِ النَّائمِ حتَّى يستَيقِظَ، وعنِ الصبيِّ حتَّى يحتلمَ، وعنِ المجنونِ حتَّى يعقلَ"[1]، كمَا اتَّفقَ رِجالُ الأصولِ علَى أنَّهُ: (إذَا رُفعتِ الأهليَّة زالتِ المسؤليَّةُ، وإذَا أُخِذَ مَا وُهبَ انقَطَعَ مَا وُجبَ).

وهذهِ الهدايةُ لَا تستَلزِمُ حُصُولَ التَّوفيقِ، واتِّباعِ الحقِّ مِنَ العِبادِ، بدليلِ أنَّ بعضَ النَّاسِ آمَنَ بدعوةِ الرُّسُلِ، وبعضهمْ كفَرَ بهَا، ولكنَّهَا سببٌ فِي حصولِ الاهتِداءِ، والسَّببُ هنَا قدِ اكتَمَلَ بإرسالِ الرُّسُلِ، ووصولِ دعوتهمْ وبلاغهمْ إلَى أُمَمِهِمْ، فلَا نقصَ فِي السَّببِ، إنَّمَا النَّقصُ يرجعُ إلَى العبدِ الذِي لمْ يَقبَلْ ولمْ يَنتَفِعْ بمَا جاءَتْ بهِ الرُّسلُ، بسببِ فسادِ الفطرةِ، وطغيانِ المادَّةِ؛ قالَ تعالَى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[فصلت: 17]، قالَ الطَّبريُّ: ﴿أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي بيَّنَا لهمْ – بينَّا لهمْ سبيلَ الخيرِ والشرِّ – أعلمناهمْ الهدَى والضَّلالةَ، ونهيناهمْ أنْ يتَّبعُوا الضَّلالةَ، وأمرناهمْ أنْ يتَّبعُوا الهدَى، (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) يقولُ: فاختارُوا العمَى علَى البيانِ الذِي بينتُ لهمْ، والهدَى الذِي عرَّفتهمْ، بأخذهمْ طريقَ الضَّلالِ علَى الهدَى، يعنِي علَى البيانِ الذِي بيَّنهُ لهمْ، منْ توحيدِ اللهِ[2].

---

(1) أخرجه الترمذي (1423)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7346)، وأحمد (956) حسَّنه البخاري كما في ((العلل الكبير)) للترمذي (226)، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه ولا نعرف للحسن سماعا عن علي، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((المسند)) (2/197)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (1423) وأخرجه من طريق آخر أبو داود (4403)، والبيهقي (5292)، والخطيب في ((الكفاية)) (ص77) صححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4403).

(2) تفسير الطَّبري.

النَّوعُ الثالثُ: هدايةُ التَّوفيقِ والإلهامِ:

وهذهِ المرتبةُ أَخَصُّ مِنَ التِي قبلهَا، فهيَ هدايةٌ خاصَّةٌ تأتِي بعدَ هدايةِ الدَّلالةِ والبيانِ، تحقيقًا لقولهِ تعالَى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى}[مريم: 76]، وهذهِ الهدايةُ لَا تكونُ لملَكٍ مُقرَّبٍ، ولَا نبيٍّ مُرسَلٍ، إنَّمَا هيَ خاصَّةٌ باللهِ تعالَى وحدَهُ، فلَا يَقْدِرُ عليهَا إلَّا هوَ سبحانهُ، ولَا يُعطِيهَا إلَّا لِمَنْ حقَّقَ شروطهَا واستَوفَى أسبابهَا.

قالَ تعالَى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[القصص: 56]، قالَ الطَّبري: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (إِنَّكَ يَا محمَّدُ (لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) هدايتهُ (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) أنْ يهديهِ مِنْ خلقهِ، بتوفيقهِ للإيمانِ بهِ وبرسولهِ[1].

وهذَا النَّوعُ منَ الهدايةِ يستَلزِمُ أمرَينِ:

أحدهمَا: فعْلُ الرَّبِّ تعالَى، وهوَ الهدَى بخلْقِ الدَّاعيةِ إلَى الفعْلِ والمشيئةِ لهُ.

والآخر: فعْلُ العبدِ، وهوَ الاهتِداءُ، وهوَ نتيجةٌ للفعلِ الأوَّلِ "فعلُ الربِّ"؛ قالَ تعالَى: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ}[آل عمران: 73]، وقالَ تعالَى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا}[الكهف: 17]، ولَا سبيلَ إلَى وجودِ الأثرِ الذِي هوَ الاهتِداءُ مِنَ العبدِ إلَّا بعدَ وُجودِ المؤثِّرِ الذِي هوَ الهدايةُ مِنَ اللهِ تعالَى، فإذَا لمْ يحصُلْ فعْلُ اللهِ تعالَى لمْ يحصُلْ فعْلُ العبدِ،

(1) تفسير الطَّبري.

وهذَا النَّوْعُ مِنَ الهدايةِ لَا يَقْدِرُ عليهِ أحدٌ إلَّا اللهُ سبحانهُ، قالَ تعالَى علَى لسانِ أهلِ الجنَّةِ: {الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}[الأعراف: 43].

كمَا أنَّ هذَا النَّوعَ مِنَ الهدايةِ هوَ الذِي نَفَاهُ القرآنُ عنِ الظَّالمينَ والفاسقينَ والكاذبينَ والمسرفينَ المرتابينَ، وكلُّ آيةٍ فِي القرآنِ وردَتْ فِي نفيِ الهُدَى فيجبُ حمْلُهَا علَى هذَا النَّوعِ؛ لأنَّ هذَا فضْلُهُ يختصُّ بِهِ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ.

قالَ تعالَى: {إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}[النَّحل: 37].

قالَ الطَّبريُّ: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنْ تحرصْ يَا محمَّدُ علَى هدَى هؤلاءِ المشركينَ إلَى الإيمانِ باللهِ واتِّباعِ الحقِّ (فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ)[1].

النَّوعُ الرَّابعُ: الهدايةِ إلَى الجنَّةِ والنَّارِ يومَ القيامةِ:

وهذهِ المرتبةُ، وهيَ آخِرُ مَراتِبِ الهدايةِ، وهيَ الهدايةُ يومَ القيامةِ إلَى طريقِ الجَنَّةِ، وهوَ الصِّراطُ المُوصِلُ إليهَا، وهيَ ثمرةُ الهدايةِ التِّي فِي الدُّنيَا، فمَنْ هُدِيَ فِي هذهِ الدَّارِ الدُّنيَا إلَى صراطِ اللهِ المستقيمِ الذِي أرسلَ بِهِ رسُلَهُ وأنزلَ بِهِ كُتبهُ، هُدِيَ يومَ القيامةِ إلَى الصِّراطِ المستقيمِ المُوصِلِ إلَى جَنَّتهِ ودارِ ثوابهِ، وعلَى قدْرِ ثُبُوتِ قدَمِ العبدِ وسَيْرِهِ علَى هذَا الصِّراطِ الذِي نصَبَهُ اللهُ تعالَى لعبادهِ فِي هذهِ الدَّارِ الدُّنيَا، يكُونُ ثُبُوتُ قدَمهِ وسَيْرِهِ علِى الصِّراطِ المنصوبِ

---

(1) تفسير الطَّبري.

علَى متْنِ جهنَّمَ يومَ القيامةِ، قالَ تعالَى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ}[الصافات: 22، 23]، قالَ القرطي: (فَاهْدُوهُمْ) أيْ دلُّوهمْ، يقالُ: هديتهُ إلَى الطَّريقِ، وهديتهُ الطَّريقَ، أيْ دللتهُ عليهِ[1].

وقالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ}[محمد:4– 6]، قالَ ابنُ كثير: "سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ" (سَيَهْدِيهِمْ) أَيْ إِلَى الْجَنَّة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات يَهْدِيهِمْ رَبّهمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتهمْ الْأَنْهَار فِي جَنَّات النَّعِيم}[يونس: 9] وَقَوْله عَزَّ وَجَلَّ: وَيُصْلِح بَالهمْ، أَيْ أَمْرهمْ وَحَالهمْ[2].

وأمَّا الآيةُ التِي بعدهَا فمعطوفةٌ علَى مَا قبلهَا، وبهذَا تكونُ دلالةً علَى نوعِ الهدايةِ، "سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ".

---

(1) تفسير القرطبي.

(2) تفسير ابن كثير.

أسبابُ الهدايةِ:

إنَّ أسباب الهدايةِ كثيرةٌ قدْ منَّ اللهُ بهَا علَى عبادهِ رحمةً منهُ، منهَا الاعتصامُ باللهِ تعالَى، والاقتداءُ بالصَّالحينَ، وتدبُّرِ القرآنِ وغيرِ ذلكَ، لكنَّ السَّببَ الرَّئيسَ فِي الهدايةِ هوَ اتِّباعُ رسولِ اللهِ ﷺ شبرًا بشبرٍ حتَّى يكونَ نهارُ المسلمِ وليلهُ كنهارِ الصَّحابةِ ولياليهمْ، فلقدْ أكرمَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى هذهِ الأمَّةَ، إذْ أرسلَ فيهمْ خاتمَ النَّبيينَ ﷺ، وأمرَ بطاعتهِ، وجعلَ اتِّباعهُ سببًا رئيسيًّا للهدايةِ المطلوبةِ.

قالَ اللهُ تعالَى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[النور: 54].

وليسَ ذلكَ فحسبُ بلْ إنَّ طاعةَ الرَّسولِ ﷺ هيَ طاعةُ اللهِ تعالَى، قالَ سبحانهُ: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}[النساء: 80].

واللهُ عزَّ وجلَّ قرنَ طاعةَ الرَّسولِ ﷺ بطاعتهِ، وأنَّ فِي ذلكَ الفوزُ العظيمُ، وهذَا فِي قولهِ تعالَى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 71].

حتَّى أنَّ اللهَ تعالَى جعلَ القرآنَ هدايةً لمنْ يشاءُ منْ عبادهِ، وأثبتَ الهدايةَ للنبيِّ ﷺ، فقالَ تعالَى: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الشورى: 52].

واتِّباعهُ ﷺ علامةُ حبِّ اللهِ تعالَى للعبدِ، ومغفرةِ الذُّنوبِ، قالَ سبحانهُ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[آل عمران: 31].

والذِي يطيعُ اللهَ والرَّسولَ ﷺ يكونُ منَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهِمْ، قالَ تعالَى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا}[النساء: 69].

حتَّى إنَّ أعمالَ العبادِ لَا تُقبلُ إلَّا باتِّباعِ هديِ النبيِّ ﷺ، كمَا فِي الحديثِ: "منْ عملَ عملًا ليسَ عليهِ أمرنَا فهوَ ردٌّ"[1].

وطاعتهُ ﷺ هيَ السَّببُ الرَّئيسُ لدخولِ الجنَّةِ، قالَ ﷺ: "كلُّ أمَّتِي يدخلونَ الجنَّةَ إلَّا منْ أبَى، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ ومنْ يأبَى، قالَ: منْ أطاعنِي دخلَ الجنَّةَ، ومنْ عصانِي فقدْ أبَى"[2].

والحاصلُ أنَّ طاعةَ النبيِّ ﷺ واتِّباعهُ هيَ سببُ الهدايةِ التِي فيهَا محبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ للعبدِ، وفيهَا مغفرةُ الذُّنوبِ، وقبولِ الأعمالِ، والفوزِ والفلاحِ، ودخولِ الجنَّةِ.

فمنْ وقعَ فِي ربقةِ التَّقليدِ، واستهوتهُ البدعةُ حتَّى صارَ منْ أهلِ التَّقييدِ، ثمَّ حارَ فِي أمرهِ فصارَ لَا يدرِي مَا يُريدُ، فلقدْ أرشدهُ الحقُّ سبحانهُ وتعالَى إلَى طلبِ الهدايةِ والتَّوفيقِ منهُ جلَّ وعلَا، وذلكَ فِي أوَّلِ سورةٍ فِي الكتابِ الكريمِ فِي قولهِ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[الفاتحة: 6].

قالَ السَّعدِي: أي: دلَّنَا وأرشدنَا، ووفِّقنَا للصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ الطريقُ الواضحُ الموصلِ إلَى اللهِ، وإلَى جنَّتهِ، وهوَ معرفةُ الحقِّ والعملُ بهِ، فاهدنَا إلَى

الصِّراطِ، واهدنَا فِي الصِّراطِ، فالهدايةُ إلَى الصِّراطِ: لزومُ دينِ الإسلامِ، وتركِ مَا سواهُ منَ الأديانِ، والهدايةُ فِي الصِّراطِ، تشملُ الهدايةَ لجميعِ التَّفاصيلِ الدِّينيَّةِ علمًا وعملًا، فهذَا الدُّعاءُ منْ أجمعِ الأدعيةِ وأنفعهَا للعبدِ، ولهذَا وجبَ علَى الإنسانْ أنْ يدعوَ اللهَ بهِ فِي كلِّ ركعةٍ منْ صلاتهِ، لضرورتهِ إلَى ذلكَ[3].

واللهُ سبحانهُ وتعالَى أمرنَا بطلبِ الهدايةِ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي مَا يخبرُ بهِ عنْ ربِّهِ: قالَ اللهُ تعالَى: يَا عبادِي إنِّي حرمتُ الظُّلمَ علَى نفسِي وجعلتهُ بينكمْ محرَّمًا فلَا تظالمُوا، يَا عبادِي كلُّكمْ ضالٌ إلَّا منْ هديتهُ فاستهدونِي أهدكمْ[4].

وقدْ جاءَ فِي صحيحِ مسلمٍ أنَّ الذِي يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ الهدايةَ يستجيبُ لهُ، ويعطيهِ مسألتهُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي مَا يخبرُ بهؤ عنْ ربِّهِ: ... فإذَا قالَ العبدُ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}[الفاتحة: 6 – 7]، قالَ اللهُ تعالَى: هذَا لعبدِي ولعبدِي مَا سألَ[5].

ولَا بدَّ منْ دعاءِ اللهِ سبحانهُ وتعالَى منْ أجلِ تحقيقِ هدايةِ التَّوفيقِ، والاهتداءِ والسَّيرِ علَى منهجِ الحقِّ والعدلِ، والالتزامِ بطريقِ الاستقامةِ، والنَّجاةِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧١٨.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٧٢٨٠.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨.

(4) الجامع الصغير وزيادته، الألباني، ٢/٨٠٠، رقم ٤٣٤٥.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.

وسؤالُ الهدايةِ فيهِ التأسِّي بالنبيِّ ﷺ، فمنْ دعائهِ ﷺ: "اللَّهمَ إنِّي أسألكَ الهدَى والتُّقَى والعفافَ والغنَى[(1)].

وقدْ أرشدنَا اللهُ تعالَى إلَى طلبِ الهدايةِ منهُ؛ ليكونَ عونًا لنَا، وينصرنَا علَى أهوائنَا، وشهواتنَا بعدَ أنْ نبذلَ مَا نستطيعُ منَ الجهدِ فِي معرفةِ أحكامِ الشَّريعةِ، ونكلِّفَ أنفسنَا الجريَ علَى سننهَا؛ لنحصلَ علَى خيريْ الدُّنيَا والآخرةِ[(2)].

والمسلمُ عليهِ إفرادُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى بالعبادةِ، والاستعانةِ، والدُّعاءِ، والإرشادِ، وطلبِ العونِ والغوثِ للوصولِ إلَى الهدايةِ، وإلَى الدِّينِ الحقِّ، والصِّراطِ المستقيمِ[(3)].

والذينَ آمنُوا يدعونَ اللهَ عزَّ وجلَّ، ويسألونهُ الهدايةَ، فإذَا أعطوهَا دعُوا ربَّهمْ عزَّ وجلَّ أنْ يثبِّتهمْ عليهَا، ويسلِّمهمْ منَ الزَّيغِ والضَّلالِ، قالَ سبحانهُ: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[آل عمران: **8**].

ويتبيَّنُ منَ الأدلَّةِ السَّابقةِ أنَّ الدُّعاءَ سببٌ منْ أسبابِ الهدايةِ، فلَا بدَّ منْ طلبهَا، وسؤالِ اللهِ تعالَى الثَّباتَ علَى الهدايةِ التِي تنجِي صاحبهَا منَ الزَّيغِ والضَّلالِ، والسَّلامةُ لَا يعدلهَا شيءٌ.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه،رقم ٢٧٢١.

(2) انظر: نظم الدرر، المراغي ٣٦/١.

(3) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٥٣/١.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أمرَ اللهُ بالإحسانِ، وأثنَى علَى المحسنينَ، وذكرَ ثوابهمْ المتنوِّعَ فِي آياتٍ كثيرةٍ.

وحقيقةُ الإحسانِ: أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ، وأنْ تبذلَ مَا تستطيعهُ منَ النَّفعِ المالِي والبدنِي والقولِي إلَى المخلوقينَ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالإحسانِ فِي كتابهِ الكريمِ فِي أكثرِ منْ موضعٍ، نذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[يونس: 26].

وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الحسنَى بأنَّهَا الجنَّةُ، والزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظرُ إلَى وجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالَى.

فَعَنْ صُهَيْبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نُودُوا: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ مَوْعِدًا عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا لَمْ تَرَوْهُ، فَقَالُوا: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَتُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ، وَتُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ"، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ "[1].

وقالَ تعالَى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: 195].

وقالَ تعالَى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ}[الذاريات: 15 – 16].

(1) رواه مسلم.
~~~~~~~~~~~

معنَى الإحْسَانِ لغةً:

الإحْسَان ضِدُّ الإساءة، مصدرُ أحسنَ، أيْ جاءَ بفعلٍ حسنٍ[1].

معنَى الإحسانِ اصطلاحًا:

فهوَ كمَا عرَّفهُ الشَّيخُ، وهوَ علَى قسمين:

إحسانٌ فِي عبادةِ الخالقِ: بأنْ يعبدَ اللهَ كأنَّهُ يراهُ فإنْ لمْ يكنْ يراهُ فإنَّ اللهَ يراهُ، وهوَ الجِدُّ فِي القيامِ بحقوقِ اللهِ علَى وجهِ النُّصحِ، والتَّكميلِ لهَا.

وإحسانٌ فِي حقوقِ الخَلْقِ... هوَ بذلُ جميعِ المنافعِ مِنْ أيِّ نوعٍ كانَ، لأيِّ مخلوقٍ يكونُ، ولكنَّهُ يتفاوتُ بتفاوتِ المحْسَنِ إليهمْ، وحقِّهمْ ومقامهمْ، وبحسبِ الإحْسَانِ، وعظَمِ موقعهِ، وعظيمِ نفعهِ، وبحسبِ إيمانِ المحْسِنِ وإخلاصهِ، والسَّببِ الدَّاعِي لهُ إلَى ذلكَ[2].

وقالَ الرَّاغبُ: (الإحسانُ علَى وجهينِ: أحدهمَا: الإنعامُ علَى الغيرِ، والثَّانِي: إحسانٌ فِي فعلهِ، وذلكَ إذَا علمَ علمًا حسنًا أوْ عملَ عملًا حسنًا)[3].

كمَا أنَّ الإحسانَ هوَ المرتبةُ الثَّالثةُ منْ مراتبِ الدِّينِ:

فالمرتبةُ الأولَى هيَ: الإسلامُ.

والمرتبةُ الثَّانيةُ هيَ: الإيمانُ.

والمرتبةُ الثَّالثةُ هيَ: الإحسانُ.

وكلُّ محسنٍ هو مؤمنٌ ومسلمٌ، وكلُّ مؤمنٍ هوَ مسلمٌ، ولَا عكسَ، ويدلُّ علَى ذلكَ حديثُ جبريلَ عليهِ السَّلامُ: فعنْ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: بينمَا نحنُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ، إذْ طلعَ علينَا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّيابِ،

(1) الفروق اللغوية للعسكري.

(2) بهجة قلوب الأبرار للسعدي.

(3) المفردات في غريب القرءان للرَّاغب الأصفهاني.

شديدُ سوادِ الشَّعرِ، لَا يُرَى عليهِ أثرُ السَّفرِ، ولَا يعرفهُ منَّا أحدٌ، حتَّى جلسَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فأسندَ ركبتيهِ إلَى ركبتيهِ، ووضعَ كفَّيهِ علَى فخذيهِ، وقالَ: يَا محمَّدُ، أخبرنِي عنِ الإسلامِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "الإسلامُ أنْ تشهدَ أن لَا إلهَ إلَّا اللهَ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصَّلاةَ، وتؤتِي الزَّكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليهِ سبيلًا"، قالَ: صدقتَ؛ قالَ: فعجبنَا لهُ يسألهُ ويصدِّقهُ، قالَ: فأخبرنِي عنِ الإيمانِ؟ قالَ: "أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ"، قالَ: صدقتَ، قالَ فأخبرنِي عنِ الإحسانِ؟ قالَ: "أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ"، قالَ: فأخبرنِي عنِ السَّاعةِ؟ قالَ: "مَا المسئولُ عنهَا بأعلمَ منَ السَّائلِ"، قالَ: فأخبرنِي عنْ أمارتهَا؟ قالَ: "أنْ تلدَ الأمةُ ربَّتهَا، وأنْ ترَى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشَّاءِ يتطاولونَ فِي البنيانِ"، قالَ: ثمَّ انطلقَ، فلبثتُ مليًّا، ثمَّ قالَ لِي: "يَا عمرُ، أتدرِي منِ السَّائلِ؟"، قلتُ: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قالَ: "فإنَّهُ جبريلُ أتاكمْ يعلِّمكمْ دينكمْ"[1].

فهذَا الحديثُ قدِ اشتملَ علَى بيانِ أصولِ الدِّينِ وقواعدهِ ويسمَّى بحديثِ العقيدةِ، ولهذَا قالَ النَّبيُّ ﷺ فِي آخرهِ، "هذَا جبريلُ أتاكمْ يعلِّمكمْ دينكمْ"، فجعلَ مَا فِي هذَا الحديثِ بمنزلةِ الدِّينِ كلِّهِ ومنْ هذَا الحديثِ أيضًا علمنَا معنَا الإحسانِ، وعلمنَا أنَّ للدِّينِ مراتبُ ثلاثةٌ، ثالثهَا الإحسانُ.

ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}[الحجرات: 14].

قالَ الطَّبريُّ: "يقولُ تعالَى ذكرهُ: قالتِ الأعرابُ: صدّقنَا باللهِ ورسولهِ، فنحنُ مؤمنونَ، قالَ اللهُ لنبيِّهِ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قلْ يَا محمَّدُ لهمْ (لَمْ تُؤْمِنُوا) ولستمْ مؤمنينَ (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا).

وذُكرَ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ فِي أعرابٍ منْ بنِي أسدٍ[2].

(1) رواه مسلم.

(2) تفسير الطبري.

مجالاتُ الإحسانِ:

مجالاتُ الإحسانِ فِي القرآنِ الكريمِ أربعةٌ:

1 - الإحسانُ فِي الاعتقادِ.

2 - والإحسانُ في العبادةِ.

3 - والإحسانُ فِي المعاملاتِ.

4 - والإحسانُ فِي الأخلاقِ.

أوَّلًا: الإحسانُ فِي الاعتقادِ:

العقيدةُ هيَ: الأمورُ التِي تصدِّقُ بهَا النُّفوسُ وتطمئنُّ إليهَا القلوبُ، وتكونُ يقينًا عندَ أصحابهَا لَا يمازجهَا ريبٌ ولَا يخالطهَا شكٌّ ممَّا جاءَ عنِ اللهِ تعالَى فِي كتابهِ الكريمِ وصحَّ عنْ رسولهِ ﷺ فِي سننهِ[1].

والإحسانُ فِي الاعتقادِ يكونُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ، فالإحسانُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ هوَ بإفرادِ اللهِ تعالَى بالوحدانيَّةِ، والإقرارِ بأنَّهُ واحد فِي أفعالهِ، لَا شريكَ لهُ فيهَا، كالخلقِ والرِّزقِ والإحياءِ والإماتةِ، وتدبيرِ الأمورِ والتصرُّفِ فِي الكونِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يتعلقُ بربوبيَّتهِ سبحانهُ، قالَ تعالَى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1-4][2].

فتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ هوَ: توحيدُ اللهِ تعالَى بأفعالهِ، والإقرارِ بأنَّهُ خالقُ كلِّ شيءٍ ومليكهُ، وإليهِ يرجعُ الأمرُ كلُّهُ فِي التَّصريفِ والتَّدبيرِ،

(1) انظر: الإحسان في ضوء الكتاب والسنة النبوية، أحمد الغامدي، ص١٩٠.

(2) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.

فهوَ الذِي يحيِي ويميتُ، وهوَ الذِي يبسطُ الرِّزقَ لمنْ يشاءُ ويقدرُ، وهوَ الذِي يرسلُ الرُّسلَ، ويشرِّعُ الشَّرائعَ، ليُحقَّ الحقَّ بكلماتهِ، ويقيمَ العدلَ بينَ عبادهِ شرعًا وقدرًا إلَى غيرِ ذلكَ ممَّا لَا يحصيهِ العدُّ، ولَا تحيطُ بهِ العبارةُ، وهذَا النَّوعُ منَ التَّوحيدِ قدْ أقرَّتْ بهِ الفطرةُ، وقامَ عليهِ دليلُ السَّمعِ والعقلِ[1].

والإحسانُ فِي توحيدِ الألوهيَّةِ: يكونُ بتوحيدهِ بأفعالِ العبادةِ، كالدُّعاءِ والخوفِ والرَّجاءِ والتوكُّلِ والاستعانةِ والاستعاذةِ والاستغاثةِ والذَّبحِ والنَّذرِ، وغيرهَا منْ أنواعِ العبادةِ التِي يجبُ إفرادهُ بهَا، فلَا يُصرفُ منهَا شيءٌ لغيرهِ، ولوْ كانَ ملكًا مقرَّبًا، أو نبيًّا مرسلًا، فضلًا عمَّنْ سواهمَا.

وبمعنَى آخرَ فتوحيدُ الإلهيَّةِ: هوَ إفرادُ اللهِ تعالَى بالعبادةِ: قولًا، وقصدًا، وفعلًا، فلَا يُنذرُ إلَّا لهُ، ولَا تُقرَّبُ القرابينُ إلَّا إليهِ، ولَا يُدعَى فِي السرَّاءِ والضرَّاءِ إلَّا إياهُ، ولَا يُستغاثُ إلَّا بهِ، ولَا يُتوكَّلُ إلَّا عليهِ، إلَى غيرِ ذلكَ منْ أنواعِ العبادةِ[2].

والإحسانُ فِي توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ: هوَ إثباتُ كلِّ مَا أثبتهُ لنفسهِ سبحانهُ وأثبتهُ لهُ رسولهُ ﷺ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ علَى وجهٍ يليقُ بكمالهِ وجلالهِ، دونَ تكييفٍ أوْ تمثيلٍ، ودونَ تحريفٍ أو تأويلٍ أو تعطيلٍ، وتنزيههِ سبحانهُ عنْ كلِّ مَا لَا يليقُ بجلالهِ سبحانهُ.

كمَا قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الشورى: 11].

فجمعَ فِي هذهِ الآيةِ بينَ الإثباتِ والتَّنزيهِ، فالإثباتُ فِي قولهِ: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) والتَّنزيهُ فِي قولهِ: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فلهُ سبحانهُ وتعالَى سمعٌ لَا كالأسماعِ، وبصرٌ لَا كالأبصارِ، وهكذَا يقالُ فِي كلِّ مَا ثبتَ للهِ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ[3].

(1) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.

(2) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.

(3) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.

ثانيًا: الإحسانُ فِي العبادةِ:

عرَّفَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ العبادةَ، بأنَّهَا: اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ منَ الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظَّاهرةِ، فالصَّلاةُ والزَّكاةُ والصِّيامُ والحجُّ وصدقُ الحديثِ وأداءُ الأمانةِ وبرُّ الوالدينِ وصلةُ الأرحامِ والوفاءُ بالعهودِ والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ والجهادُ للكفَّارِ والمنافقينَ والإحسانُ للجارِ واليتيمِ والمسكينِ وابنِ السَّبيلِ والمملوكِ منَ الآدميينَ والبهائمِ والدُّعاء والذِّكرِ والقراءةِ وأمثالُ ذلكَ منَ العبادةِ(1)، فكلُّ هذَا يجبُ علَى المسلمِ أنْ يحسنَ فيهِ، بإخلاصهَا للهِ تعالَى محدهُ، وبمتابعةِ نبيِّهِ ﷺ فِي آدائهَا.

ثالثًا: الإحسانُ فِي المعاملاتِ:

إنَّ الإحسانَ فِي المعاملاتِ فِي القرآنِ تأتِي فِي أمورٍ نسردُ منهَا علَى وجهِ الاختصارِ:

الإحسانُ إلَى الوالدينِ:

أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[النساء: 36].

أي: أحسنُوا إليهِمْ بالقولِ الكريمِ والخطابِ اللَّطيفِ والفعلِ الجميلِ بطاعةِ أمرهمَا واجتنابِ نهيهمَا والإنفاقِ عليهمَا وإكرامِ منْ لهُ تعلُّقٌ بهمَا وصلةِ الرَّحمِ التِي لَا رحمَ لكَ إلَّا بهمَا، وللإحسانِ ضدَّانِ، الإساءةُ وعدمُ الإحسانِ، وكلاهمَا منهيٌّ عنهُ(2).

فكلُّ قولٍ وفعلٍ يحصلُ بِهِ منفعةٌ للوالدينِ أو سرورٌ لهمَا، فإنَّ ذلكَ منَ الإحسانِ، وإذَا وُجدَ الإحسانُ انتفَى العقوقُ(3).

---

(1) العبودية، ابن تيمية، ص ٤٤.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.

(3) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٧٩.

ومنْ ذلكَ الإحسانُ إلَى الزَّوجةِ والأولادِ والجيرانِ واليتامَى والمساكينِ ممَّا أوصَى بهِ اللهُ تعالَى فِي مواضعَ كثيرةٍ فِي القرآنِ، قالَ تعالَى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}[البقرة: 83].

وقالَ تعالَى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[النساء: 36].

قالَ ابنُ كثيرٍ: ثمَّ عطفَ علَى الإحسانِ إلَى الوالدينِ الإحسانَ إلَى القراباتِ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ، كمَا جاءَ فِي الحديثِ: "الصَّدقةُ علَى المسكينِ صدقةٌ، وعلَى ذِي الرَّحمِ صدقةٌ وصلةٌ"[1].

ثمَّ قالَ: (وَاليَتَامَى) وذلكَ لأنَّهمْ قدْ فقدُوا منْ يقومُ بمصالحهمْ، ومنْ ينفقْ عليهمْ، فأمرَ اللهُ بالإحسانِ إليهمْ والحنوِّ عليهمْ.

ثمَّ قالَ: (وَالمَساكِينِ) وهمُ المحاويجُ منْ ذوِي الحاجاتِ الذينَ لاَ يجدونَ مَا يقومُ بكفايتهمْ، فأمرَ اللهُ بمساعدتهمْ بمَا تتمُّ بهِ كفايتهمْ وتزولُ بهِ ضرورتهمْ...

وقولهُ: (وَالجَارِ ذِي القُربَى وَالجَارُ الجُنُبِ) قالَ عليٌّ بنُ أبِي طلحةَ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ: (والجَارِ ذِي القربَى) يعنِي الذِي بينكَ وبينهُ قرابةٌ، (والجارُ الجُنُبِ) الذِي ليسَ بينكَ وبينهُ قرابةٌ.

وقولهُ: (وَالصَّاحبُ بِالجَنْبِ) قالَ الثَّورِي، عنْ جابرٍ الجعفيِّ، عنِ الشَّعبِي، عنْ عليٍّ وابنِ مسعودٍ قالَا هيَ المرأةُ.

---

(1) أخرجه الترمذي (658)، والنسائي (2582)، وابن ماجه (1844) واللفظ له، وأحمد (16279).

وأمَّا (ابْنِ السَّبيلِ) فعنِ ابنِ عبَّاسٍ وجماعةٍ هوَ: الضَّيفُ.

وقولهُ: (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) وصيَّةٌ بالأرقَّاءِ، لأنَّ الرَّقيقَ ضعيفُ الحيلةِ أسيرٌ فِي أيدِي النَّاسِ[1].

رابعًا: الإحسانُ فِي الأخلاقِ:

إنَّ الإحسانَ فِي الأخلاقِ يكونُ بالتخلُّقِ بالقرآنِ الكريمِ فِي الأقوالِ والأفعالِ وجميعِ التصرُّفاتِ، فإنَّ أحسنَ النَّاسِ خلقًا هوَ منْ يتخلَّقُ بالقرآنِ، كمَا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ، قال عنه تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}[القلم: 4].

والمعنَى: أنتَ علَى الخلقِ الذِي أمركَ اللهُ بهِ فِي القرآنِ[2]، أي: علَى الخلقِ الذِي أدَّبكَ اللهُ بهِ ممَّا نزلَ بهِ القرآنُ منَ الإحسانِ إلَى النَّاسِ، والعفوِ، والتَّجاوزِ، وصلةِ الأرحامِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عنِ المنكرِ، ومَا أشبهَ ذلكَ.

وفِي حديثِ سعدِ بنِ هشامٍ، قالَ: أتيتُ عائشةَ، فقلتُ: يَا أمَّ المؤمنينَ، أخبرِينِي بخلقِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالتْ: "كانَ خلقهُ القرآنُ"، أمَا تقرأُ القرآنَ، قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}[القلم: 4][3][4].

(1) تفسير ابن كثير.

(2) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٥/ ٢٠٤.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٤٦٠١، ١٤٨/٤١، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٣٨٤٢، ٥٤١/٢.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الارناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد٤١ / ١٤٩.

(4) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦ / ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٠٦.



ثمَّ قالَ رحمهُ تعالَى: وأمرَ بالإصلاحِ وأثنَى علَى المصلحينَ، وأخبرَ أنَّهُ لَا يضيعُ ثوابهمْ وأجرهمْ.

والإصلاحُ هوَ: أنْ تسعَى فِي إصلاحِ عقائدِ النَّاسِ وأخلاقهمْ، وجميعِ أحوالهمْ، بحيثُ تكونُ علَى غايةِ مَا يمكنُ منَ الصَّلاحِ، وأيضًا يشملُ إصلاحَ الأمورِ الدِّينيَّةِ، والأمورِ الدُّنيويَّةِ، وإصلاحِ الأفرادِ والجماعاتِ، وضدُّ هذَا الفسادُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وكذلكَ ذكرَ اللهُ تعالَى الإصلاحَ وأمرَ بِهِ فِي العديدِ منَ الآياتِ أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[الحجرات: 9 – 10].

وقولهُ تعالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[الأنفال: 1].

وقولهُ تعالَى: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأعراف: 35].
~~~~~~~~~~~

الإصلاحُ لغةً:

قال ابن منظور: (صلح): الصَّلاحُ ضدُّ الفسادِ، صلَحَ يصلَحُ ويصلُحُ صلاحًا وصُلُحًا، وأنشد أبو زيدٍ: فكيفَ بإطراقي إذَا مَا شتمتنِي؟ ومَا بعدَ شتْمِ الوالديْنِ صُلُوحُ. وهوَ صالحٌ وصليحٌ الأخيرةُ عنِ ابنِ الأعرابِي، والجمعُ صُلحاءُ وصُلُوحٌ.

والإصلاحُ نقيضُ الإفسادِ والمصلحةُ الصَّلاحُ والمصلحةُ، واحدةُ المصالحِ، والاستصلاحُ نقيضُ الاستفسادِ، وأصلحَ الشَّيءَ بعدَ فسادِهِ أقامهُ...[1].

الإصلاحُ فِي اصطلاحِ الشَّرعِ:

هوَ كما عرَّفهُ الشيخ السَّعدي رحمهُ اللهُ، وهو: أنْ تسعَى فِي إصلاحِ عقائدِ النَّاسِ وأخلاقهِمْ، وجميعِ أحوالهِمْ، بحيثُ تكونُ علَى غايةِ مَا يمكنُ منَ الصَّلاحِ، وأيضًا يشملُ إصلاحَ الأمورِ الدِّينيَّةِ، والأمورِ الدُّنيويَّةِ، وإصلاحِ الأفرادِ والجماعاتِ، وضدُّ هذَا الفسادُ.

وللإصلاح درجتينِ: الأولَى: إصلاحُ النَّفسِ، والثَّانِي: إصلاح النَّاسِ وإصلاحُ مَا بينَ النَّاسِ.

أمَّا الدَّرجةُ الأولَى: فهيَ أولَى منَ التِي بعدهَا، لقولِهِ تعالَى:

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ}[البقرة: 44]، قالَ ابنُ جريجٍ: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ) أهلُ الكتابِ والمنافقونَ كانُوا يأمرونَ النَّاسَ بالصَّومِ والصَّلاةِ، ويَدَعُونَ العملَ بمَا يأمرونَ بِهِ النَّاسَ, فعيَّرهمُ اللهُ بذلكَ, فمنْ أمرَ بخيرٍ فليكنْ أشدَّ النَّاسِ فيهِ مسارعةً[2].

وإصلاحُ النَّفسِ والنَّاسِ ومَا بينَ النَّاسِ هوَ عينُ البرِّ، فالواجبُ علَى كلِّ ذِي لبٍّ أنْ يبادرَ بإصلاحِ نفسهِ.

وأمَّا الدَّرجةُ الثَّانيةُ: فهيَ علَى قسمينِ:

(1) لسان العرب لابن منظور مادَّة (صلح).

(2) تفسير الطَّبري.

الأَوَّلُ: إصلاحُ النَّاسِ.

والثَّانِي: إصلاحُ مَا بينَ النَّاسِ.

أمَّا القسمُ الأَوَّلُ: فلهُ ثلاثةُ أركانٍ:

الأَوَّلُ: إخلاصُ النيَّةِ للهِ تعالَى.

الثَّانِي: اتِّباعُ هدي محمَّدٍ ﷺ.

والثَّالثُ: العلمُ.

أمَّا إخلاصُ النيَّةِ للهِ واتِّباعُ هدي النَّبيِّ ﷺ فقدْ تكلَّمنَا عليهِ سابقًا، وأمَّا العلمُ، فالعلمُ واجبٌ فِي إصلاحِ النَّاسِ، فمنْ أرادَ أنْ يُصلحَ عقائدَ النَّاسِ، وجبَ عليهِ تعلُّمُ العقيدةِ السَّليمةِ ففاقدُ الشَّيءِ لَا يُعطيهِ، ومنْ سعَى لإصلاحِ أخلاقِ النَّاسِ، وجبَ عليهِ تعلُّمُ السنَّةِ، وهكذَا.

وأمَّا القسمُ الثَّاني: وهوَ إصلاحُ مابينَ النَّاسِ منْ خلافٍ، فإنْ كانَ خلافهمْ دِينيًّا، وجبَ علَى المصلحِ أنْ يكونَ لهُ علمٌ يقينيٌّ بالمسألةِ الخلافيَّة وإلَّا فخيرُ الكلامِ حينهَا "لَا أدرِي" وأمَّا إنْ كانَ الخلافُ دنيويًّا، فلْيَسْعَ للإصلاحِ بينهمْ بمَا اكتسبَ منْ حكمةٍ وآلةٍ.

قال السَّعدِي في كتابِهِ القواعدُ الحسانُ: ومن أهمِّ مَا يكونُ أيضًا: السَّعيُ فِي الصُّلحِ بينَ المتنازعينِ، كمَا أمرَ اللهُ بذلكَ فِي الدِّماءِ والأموالِ والحقوقِ بينَ الزَّوجينِ، والواجبُ أنْ يُصلحَ بالعدلِ، ويسلكَ كلَّ طريقٍ توصلُ إلَى الملاءمةِ بينَ المتنازعينِ، فإنَّ آثارَ الصُّلحِ بركةٌ وخيرٌ وصلاحٌ...

وأمثلةُ هذهِ القاعدةِ لَا تنحصرُ، وحقيقتهَا: السَّعيُ فِي الكمالِ الممكنِ حسبَ القدرةِ بتحصيلِ المصالحِ أوْ تكميلهَا، أوْ إزالةِ المفاسدِ والمضارِ أوْ تقليلهَا، الكلِّيةُ والجزئيَّةُ، المتعدِّيةُ والقاصرةُ، واللهُ أعلمُ[1].

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والإفسادُ، قدْ نهَى عنهُ، وذمَّ المفسدينَ، وذكرَ عقوباتهمْ المتعدِّدةِ، وأخبرَ أنَّهُ لَا يُصلحُ أعمالهمْ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ الإفسادِ فِي العديدِ منَ الآياتِ، أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف: 56]، وقوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[الأعراف: 85].

وذكرَ اللهُ تعالَى عقوبةَ المفسدينَ فقالَ: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[الرعد: 25]، وقالَ تعالَى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}[محمد: 22، 23].

والفسادُ فِي اللُّغةِ:

ضدُّ الصَّلاحِ، وهوَ مصدرُ فَسَدَ يَفْسُدُ ويَفْسِدُ فَسَادًا وفُسُودًا، وهوَ فاسِدٌ وفَسِيْدٌ، وقوم فَسْدَى، وفَسُدَ الشَّيءُ فهوَ فسيدٌ، والاسْتِفْسَادُ: خلافُ الاستصلاحِ، والمَفْسَدَةُ: خِلافِ المصلحةِ، وتَفَاسَدَ القومُ تدابَرُوا وقطعُوا الأَرحامَ[1].

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة 4: 503، الصحاح 2: 44، المفردات للراغب 2: 192، لسان العرب 3: 335 مادة فسد، التوقيف للمناوي ص556.
~~~~~~~~~~~

والفسادُ فِي الاصطلاحِ:

خروجُ الشَّيءِ عنِ الاعتدالِ، قليلًا كانَ الخروجُ أوْ كثيراً، ويُستعملُ ذلكَ فِي النَّفسِ، والبدنِ، والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامةِ[1].

قالَ ابنُ الجوزِي: "الفسادُ: تغيُّرٌ عمَّا كانَ عليهِ منَ الصَّلاحِ، وقدْ يقالُ فِي الشَّيءِ معَ قيامِ ذاتهِ، ويقالُ فيهِ معَ انتقاضهَا، ويقالُ فيهِ إذَا بطلَ وزالَ، ويُذكرُ الفسادُ فِي الدِّينِ كمَا يذكرُ فِي الذَّاتِ، فتارةً يكونُ بالعِصيانِ، وتارةً بالكفرِ، ويُقالُ فِي الأقوالِ إذَا كانتْ غيرَ منتظمةٍ، وفِي الأفعالِ إذَا لمْ يعتدَّ بهَا"[2].

قالَ الجُرجانِي: "الفسادُ زوالُ الصُّورةِ عنِ المادَّةِ بعدَ أنْ كانتْ حاصلةً، وعندَ الفقهاءِ: مَا كانَ مشروعاً بأصلهِ، غيرَ مشروعٍ بوصفهِ، وهوَ مرادفٌ للبطلانِ عندَ الشَّافعِي"[3]، تقولُ هذَا عقدُ بيعٍ فاسدٍ لاختلالِ شروطهِ، فالبيعُ مشروعٌ، ولكنَّهُ غيرُ مشروعٍ بهذَا الوصفِ أيِ فسادهِ، وقالَ المناويُّ: "الفسادُ هوَ انتقاصُ صورةِ الشَّيءِ،.. وفسادُ الوضعِ: ألَّا يكونَ الدَّليلُ علَى الهيئةِ الصَّالحةِ لاعتبارهِ فِي ترتيبِ الحكمِ، وفسادِ الاعتبارِ: أنْ يُخالفَ الدَّليلَ نصًّا أوْ إجماعًا وهوَ أعمُّ منْ فسادِ الوضعِ"[4].

والفسادُ أعمُّ منَ الظُّلمِ، لأنَّ الظُّلمَ نقصٌ، أمَّا الفسادُ فيقعُ عليهِ "أيِ الظُّلمِ" وعلَى الابتداعِ واللَّهوِ واللَّعبِ[5].

---

(1) ينظر: المفردات للراغب 2: 192، بصائر ذوي التمييز 4: 192، التوقيف للمناوي ص556.

(2) نزهة الأعين النواظر ص469.

(3) ينظر: التعريفات ص214.

(4) ينظر: التوقيف للمناوي ص556.

(5) ينظر: الكليات لأبي البقاء ص1097.

وأمَّا الإفسادُ: فهوَ جعلُ الشَّيءِ فاسدًا خارجًا عمَّا ينبغِي أنْ يكونَ عليهِ، وعنْ كونهِ مُنتَفعًا بهِ، والإفسادُ فِي الحقيقةِ: إخراجُ الشَّيءِ عنْ حالةٍ محمودةٍ لَا لغرضٍ صحيحٍ[1].

وأنواعُ الفسادِ والإفسادِ التِي نهَى اللهُ تعالَى عنهَا كثيرةٌ، منهَا:

الكفرُ باللهِ سبحانهُ تعالَى:

منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[البقرة: 27] فإفسادهمْ فِي الأرضِ: باستدعائهمْ إلَى الكفرِ، والتَّرغيبِ فيهِ، وحملِ النَّاسِ عليهِ، وتعويقهمْ وصدِّهمْ للنَّاسِ عنِ الإيمانِ، والاستهزاءِ بالحقِّ، وقطعِ الوُصلِ التِي بهَا نظامُ العالمِ وصلاحهِ[2].

والنِّفَاقُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[البقرة: 11 –12] فالآيتانِ وردتَا فِي سياقِ ذكرِ المنافقينَ، وأنَّ منْ صفاتهمْ وأخلاقهمْ إذَا قالَ لهمْ أهلُ الإيمانِ: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصِي والتَّعويقِ عنِ الإيمانِ، وإغراءِ أهلِ الكفرِ والطُّغيانِ علَى أهلِ الإسلامِ والإيمانِ، وتهييجِ الحروبِ والفتنِ، وإظهارِ الهرجِ والمرجِ والمحنِ، وإفشاءِ أسرارِ المسلمينَ إلَى أعدائهمُ الكافرينِ، ﴿قَالُوا﴾ فِي جوابهمُ الفاسدِ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فِي ذلكَ، فلَا

---

(1) ينظر: الكليات لأبي البقاء ص220.

(2) ينظر: تفسير ابن عطية 1: 99، تفسير القرطبي 1: 247، تفسير البيضاوي 1: 267، تفسير أبي حيان 1: 274، تفسير ابن عجيبة 1: 66.

تصحُّ مخاطبتنَا بذلكَ، فإنَّ منْ شأننَا الإصلاحُ والإرشادُ، وحالنَا خالصٌ منْ شوائبِ الفسادِ، فردَّ اللهُ عليهمْ مَا ادَّعوهُ منَ الانتظامِ فِي سلكِ المصلحينَ بأبلغِ ردٍّ، منْ وجوهِ الاستئنافِ الذِي فِي الجملةِ، والاستفتاحِ بالتَّنبيهِ، والتَّأكيدِ بإنَّ وضميرَ الفعلِ، وتعريفِ الخبرِ، والتَّعبيرِ بنفيِ الشُّعورِ، إذْ لوْ شعرُوا أدنَى شعورٍ لتحقَّقُوا أنَّهمْ مفسدونَ[1].

والمعاصِي العامَّةُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف: 56] أي: لَا تفسدُوا فِي الأرضِ بالمعاصِي الموجبةِ لفسادِ العالمِ بالقحطِ والفتنِ، بعدَ إصلاحهَا بالخصبِ والأمانِ، بمَا يحقِّقُ منافعَ الخلقِ ومصالحِ المكلَّفينَ، فالنَّهيُ هنَا عامٌّ يشملُ كلَّ فسادٍ قلَّ أو كَثُرَ، ومنْ أنواعهِ: إفسادُ النُّفوسِ والأنسابِ والأموالِ والعقولِ والأديانِ[2].

وخرابُ العالمِ وفسادِ نظامهِ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[الأنبياء: 22] أي: لوْ تعدَّدتِ الآلهةُ لكانَ بينهمَا التَّنازعُ والتَّغالبُ، ممَّا يؤدِّي إلَى فسادِ نظامِ العالمِ، وفسادِ السَّماءِ والأرضِ: هوَ خرابهمَا وهلاكُ منْ فيهمَا، وذلكَ بسببِ وقوعِ التَّنازعِ بالاختلافِ الواقعِ بينَ

(1) ينظر: البحر المديد لابن عجيبة 1: 51.

(2) ينظر: تفسير البغوي 3: 238، تفسير ابن عطية 2: 277، تفسير القرطبي 7: 226، تفسير أبي حيان 4: 313، تفسير ابن عجيبة 2: 499.

الشُّركاءِ، فيبغِي بعضُهمْ علَى بعضٍ، ويذهبُ كلُّ إلهٍ بمَا خلقَ، واقتضابُ القولِ فِي هذَا: أنَّ الإلهينِ لوْ فُرضَا فوقعَ بينهمَا الاختلافُ فِي تحريكِ جرمٍ وتسكينهِ، فمُحالٌ أنْ تتمَّ الإرادتانِ، كمَا هوَ مُحالٌ ألَّا تتمَّ جميعًا، وإذَا تمَّتْ إحدَى الإرادتينِ كانَ صاحبُ الأخرَى عاجزًا، وهذَا ليسَ بإلهٍ، وجوازُ الاختلافِ عليهمَا بمنزلةِ وقوعهِ منهمَا[1].

والمنكرُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ"[هود: 116] أي: فهلَا وُجِدَ فيمنْ كانَ قبلكمْ منَ القرونِ منْ فيهِ بقيَّةٌ منَ العقلِ والحزمِ والثُّبوتِ والدِّينِ، ينكرونَ علَى أهلِ الفسادِ فسادهمْ، ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: لكنَّ قليلاً ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهَوا عنِ الفسادِ فِي الأرضِ[2].

والحِرَابةُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا}[المائدة: 33] وهوَ بيانٌ للحِرابةِ، أي: ويسعونَ بحرابتهمْ مفسدينَ، وهيَ علَى درجاتٍ؛ أدناهَا: إخافةُ الطَّريقِ، ثمَّ أخذُ الأموالِ، ثمَّ قتلُ الأنفسِ[3].

---

(1) ينظر: المحرر الوجيز 4: 95، الجامع لأحكام القرآن 11: 279، البحر المديد 4: 499، روح المعاني 17: 25، التحرير والتنوير 17: 39.

(2) ينظر: تفسير الطبري 15: 527، تفسير القرطبي 9: 113، تفسير ابن عجيبة 3: 344.

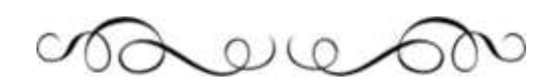
(3) ينظر: تفسير ابن عطية 2: 215، تفسير ابن عجيبة 2: 241.

والسّحرُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}[يونس: 81] فسحرهمْ هوَ منْ قبيلِ عملِ المفسدينَ، وإضافةِ ﴿عَمَلَ﴾ إلَى ﴿المثفْسِدِينَ﴾ يُؤذِنُ بأنَّهُ عملٌ فاسدٌ، لأنَّهُ فِعْلُ مَنْ شأنُهمُ الإفسادُ، فيكونُ نسجاً علَى منوالهِمْ، وسيرةً علَى معتادهمْ، واللهُ لَا يؤيِّدُ هذَا العملَ الفاسدَ ولَا يثبِّتهُ ولَا يقوِّيهِ[1].

وأنواعُ الفسادِ فِي الكتابِ والسنَّةِ كثيرةٌ، منهَا أيضًا: الفاحشةُ وأكلُ أموالِ النَّاسِ بالباطلِ، ومنعِ الفقيرِ منَ الزَّواجِ ومَا ينجرُّ عنهُ المفاسيدِ العظيمةِ، منَ ذلكَ انقطاعُ الأنساب، ومنهُ الزنَى، مَا ينجرُّ عنهُ اختلاطُ الأنسابِ، وغيرِ ذلكَ.

(1) ينظر: تفسير القرطبي 8: 368، تفسير البيضاوي 3: 211، تفسير الطاهر بن عاشور 11: 256.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أثنَى اللهُ علَى اليقينِ، وعلَى الموقنينَ، وأنَّهمْ همُ المنتفعونَ بالآياتِ القرآنيَّةِ، والآياتِ الأفقيَّةِ.

واليقينُ أخصُّ منَ العلمِ، فهوَ: العلمُ الرَّاسخُ، المثمرُ للعملِ والطُّمأنينةِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

ومنْ ذلك قولهُ تعالَى: {الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}[البقرة: 1 – 2 – 3 – 4]

وقالَ سبحانهُ: {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}[النمل: 22].

وقالَ جلَّ جلاهُ: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[البقرة: 118].

وقالَ جلَّ وعلَا: {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}[النساء: 157].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[المائدة: 50].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَالْمُوقِنِينَ}[الأنعام: 75].
~~~~~~~~~~~

واليقينُ لغةً:

اليقينُ مشتقٌّ منَ الفعلِ يَقِنَ وأيقنَ يوقنُ إيقانًا، وييقنُ يقنًا ويقينًا، فهوَ موقنٌ. واليقينُ نقيضُ الشكِّ، فهوَ العلمُ وتحقيقُ الأمرِ وإزاحةُ الشكِّ، فكمَا أنَّ العلمَ نقيضُ الجهلِ، فكذلكَ اليقينُ نقيضُ الشكِّ، يقالُ: علَّمتهُ يقينًا، أيْ علمًا لَا شكَّ فيهِ[1].

وليسَ هوَ منَ الفعلِ وَقَنَ وأَوْقَنَ، فإنَّ معنَى وقنَ وأوقنَ: اصطادَ الطَّيرَ منْ وقنتِهِ، أيْ وكنتِهِ (محضنه)، فالوقنةُ موضعُ الطَّائرِ فِي الجبلِ، ويقالُ توقَّنَ وأوقنَ فِي الجبلِ: صعدَ فيهِ[2].

ونخلصُ ممَّا سبقَ أنَّ اليقينَ مشتقٌّ منَ الفعلِ يقنَ وأيقنَ بمعنَى علمَ علماً لَا شكَّ فيهِ تطمئنُّ إليهِ النَّفسُ اطمئنانًا يزيلُ الشكَّ ويدفعُ للعملِ بالموقنِ بهِ.

والعربُ تسمِّي اليقينَ ظنًا (فِي الغالبِ) والشَّك ظنًا (أحيانًا)، ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا}[الكهف: 53] أيْ فأيقنُوا أنَّهمْ مواقعوهَا[3].

بلْ قالَ بعضُ المفسِّرينَ: "كلُّ ظنٍّ فِي القرآنِ فهوَ علمٌ ويقينٌ، كمَا ذكرَ ذلكَ الطبرِي بسندهِ عنْ مجاهدٍ، وذكرَ ابنُ كثيرٍ صحَّةَ سندهِ عنهُ[4].

وأمَّا منْ قالَ بأنَّ الظنَّ يأتِي فِي القرآنِ بمعنَى الشكِّ وبمعنَى اليقينِ، نقولُ: الصَّحيحُ أنَّ فِي القرآنِ وفِي لغةِ العربِ إنْ كانَ لفظُ الظنِّ وردَ فِي السِّياقِ قبلَ

---

(1) ينظر: لسان العرب – ومعجم مقاييس اللغة – والصحاح.

(2) ينظر: لسان العرب.

(3) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسَّعدي.

(4) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن للشيرازي – وتفسير القرآن العظيم لابن كثير.

ترجيحهِ فهوَ شكٌّ، وإنْ كانَ بعدَ ترجيحهِ فهوَ يقينٌ، هذَا لأنَّ الظنَّ هوَ: تجوزُ أمرينِ أحدهمَا أرجحُ منَ الآخرِ، فالرَّاجحُ هوَ الظنُّ ومرجوحهُ هوَ الوهمُ، فيقابلُ الظَّنَّ الوهمَ، كمَا يقابلُ اليقينَ الشكَّ، ومنْ هنَا فإنْ كانَ الظنُّ مرجَّحًا فهوَ يقينٌ خالصٌ، قالَ تعالَى: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ}[القيامة: 26 – 27 – 28] قالَ الطَّبري: وقولهُ: (وظنَّ أنَّهُ الفراقُ) يقولُ تعالَى ذكرهُ: وأيقنَ الذِي قدْ نزلَ ذلكَ بهِ أنَّهُ فراقُ الدُّنيَا والأهلِ والمالِ والولدِ[1].

وهنَا كانَ أمامَ المحتضرِ أمرينِ، إمَّا أنَّهُ هالكٌ أو لَا، فلمَّا بلغتِ التَّراقِي رجَّحَ أنَّهُ هالكٌ وأيقنَ ذلكَ.

وأمَّا الزَّركشِي فقالَ: وكلُّ ظنٍّ يتَّصلُ بهِ "إنَّ" المشدَّدةُ فهوَ يقينٌ، كقولهِ تعالَى: {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ}[6][سورة الحاقة: 20]، قلتُ: وإنْ وردَ لفظُ الظنِّ دونَ ترجيحٍ فهوَ شكٌّ، هذَا لأنَّ الشَّكَّ تجويزُ أمرينِ لَا أحدَ فيهمَا أرجحُ من الآخرِ، أي استوَى فيهِ الأمرانِ ولَا راجحَ بينهمَا، منهَا قولهُ تعالَى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[البقرة: 78].

قالَ الطَّبرِي: ومعنَى قولهْ: (إِلَّا يَظُنُّونَ): إلَّا يشكوُّنَ، ولَا يعلمونَ حقيقتهُ وصحَّتهُ. و"الظنُّ" فِي هذَا الموضعِ، الشكُّ.

فمعنَى الآيةِ: ومنهمْ منْ لَا يكتبُ ولَا يخطُّ ولَا يعلمُ كتابَ اللهِ ولَا يدرِي مَا فيهِ، إلَّا تخرُّصًا وتقوُّلًا علَى اللهِ الباطلَ...[7].

---

(1) تفسير الطَّبري.

(2) الإتقلان في علوم القرءان للسيوطي.

(3) تفسير الطَّبري.

وعلَى هذَا همْ لمْ يرجِّحُوا بينَ المسائلِ، لأنَّهمْ أمِّيُّونَ لَا يعلمونَ الكتابَ، والتَّرجيحُ لَا يكونُ إلَّا بالعلمِ فبذلكَ كانَ ظنُّهمْ شكًّا، والسِّياقُ الذِي يُقاسُ عليهِ لمعرفةِ الظنِّ أهوَ شكٌّ أو يقينٌ؟ هوَ سياقُ الآيةِ، فيُنظرُ فِي سياقهَا إنْ كانَ لفظُ الظَّنِ جاءَ بعدَ ترجيحٍ فهوَ يقينٌ، وإنْ كانَ قبلَ التَّرجيحِ فهوَ شكٌّ.

واليقينُ اصطلاحًا:

هوَ الإدراكُ الجازمُ بعلمٍ وطمأنينةٍ واستقرارِ نفسٍ، بكلِّ مَا جاءَ فِي الكتابِ والسنَّةِ عنِ اللهِ تعالَى، يقينًا يدفعُ المرءَ إلَى العبوديَّةِ للهِ تعالَى معَ حرصٍ شديدٍ علَى إخلاصِ النيَّةِ لهُ سبحانهُ، واتِّباعُ مَا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ.

أوْ تقولُ: هوَ أنْ تتيقَّنَ بكلِّ مَا وردَ منَ الحقِّ، فيكونُ عندكَ كالشَّاهدِ.

فاليقينُ هوَ: إتقانُ العلمِ بانتفاءِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ، وهوَ العلمُ الجازمُ الذِي لَا شكَّ فيهِ المؤدِّي إلَى استقرارِ القلبِ وطمأنينتهِ، الدَّافعِ إلَى العملِ، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "اليقينُ هوَ طمأنينةُ القلبِ، واستقرارُ العلمِ فيهِ، وضدُّ اليقينِ الرَّيبُ وهوَ نوعٌ منَ الحركةِ والاضطرابِ"[1].

ويقولُ السَّعدِي: "اليقينُ هوَ العلمُ التَّامُ الذِي ليسَ فيهِ أدنَى شكٍّ، الموجبُ للعملِ"[2].

وقدْ تعدَّدتْ تعريفاتُ العلماءِ لليقينِ وهيَ علَى النَّحوِ:

1) اعتقادُ الشَّيءِ بأنَّهُ كذَا معَ اعتقادِ أنَّهُ لَا يمكنُ إلَّا كذَا، مطابقًا للواقعِ غيرَ ممكنِ الزَّوالِ والقيدِ[3].

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي.

(3) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٩، تاج العروس، الزبيدي، ٣٦/ ٣٠٠.

2) وقيلَ: هوَ إيقانُ العلمِ بنفيِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ بالاستدلالِ.

3) وقيلَ: هوَ سكونُ النَّفسِ معَ إثباتِ الحكمِ.

4) وقيلَ: الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ.

5) وقيلَ: عبارةٌ عنِ العلمِ المستقرِّ فِي القلبِ؛ لثبوتهِ منْ سببٍ متعيِّنٍ لهُ بحيثُ لَا يقبلُ الانهدامَ[1].

6) وقيلَ: العلمُ الحاصلُ عنْ نظرٍ واستدلالٍ[2].

ولعلَّ هذهِ التَّعريفاتِ متقاربةٌ فِي أداءِ المعنَى المرادِ لليقينِ، وخلاصتهَا الاعتقادُ الجازمُ والعلمُ الثَّابتُ فِي القلبِ، معَ نفيِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ.

وأحسنُ مَا قيلَ فِي اليقينِ هوَ القولُ الثَّانِي وهوَ: "إيقانُ العلمِ بنفيِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ بالاستدلالِ"

وخلاصةً اليقينُ هوَ: أنَّهُ الإدراكُ الجزامُ.

اليقينُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (يقن) فِي القرآنِ الكريمِ (28) مرَّةً[3].

وجاءتْ كلمةُ اليقينِ فِي الاستعمالِ القرآنِي علَى خمسةِ أوجهٍ:

الأوَّلُ: التَّصديقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}[البقرة: 4]، أي: بالبعثِ يصدِّقونَ، (يصدِّقونَ بعلمٍ جازمٍ).

الثَّانِي: الصِّدقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}[النمل: 22]، أي: بخبرٍ صدقٍ، (بخبرٍ صدقٍ علِمتُهُ يقينًا).

(1) الكليات، الكفوي، ١/٩٨٠.

(2) المصباح المنير، الفيومي، ٢/٦٨١.

(3) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤٨-٧٤٩.

الثَّالثُ: المشاهدةُ والعيانُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[التكاثر:٥]، أي: علمُ العيانِ، (يأتِي بالمشاهدةِ والنَّظرِ).

الرَّابعُ: الموتُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[الحجر: 99]، يعنِي: الموتُ.

الخامسُ: العلمُ المتيقَّنُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}[النساء: ١٥٧]، أي: ومَا قتلوهُ علمًا[1]، (يقينيًّا، بلْ وهمًا).

وممَّا ينبغِي أنْ يُعلمَ أنَّ اليقينَ أعلَى درجاتِ الإدراكِ، قالَ ابنُ تيميَّةَ: "ينبغِي أنْ يُعلمَ أنَّ كلَّ واحدٍ منْ صفاتِ الحيِّ، التِي هيَ العلمُ والقدرةُ والإدراكُ ونحوهَا، لهُ منَ المراتبِ مَا بينَ أوَّلهِ وآخرهِ مَا لَا يستنبطهُ العبادُ، كالشكِّ ثمَّ الظنِّ ثمَّ العلمِ ثمَّ اليقينُ ومراتبهُ، وكذلكَ الهمُّ والإرادةُ والعزمُ..."[2].

والعبدُ يعرفُ منْ نفسهِ بلوغهُ درجةَ اليقينِ بالشَّيءِ كمَا يعرفُ أنَّهُ رأَى الشَّيءَ أوْ سمعهُ، يقولُ ابنُ تيميَّةَ: "العلمُ واليقينُ يجدهُ الإنسانُ منْ نفسهِ كمَا يجدُ سائرَ إدراكاتهِ وحركاتهِ مثلمَا يجدُ سمعهُ وبصرهُ وشمَّهُ وذوقهُ، فهوَ إذَا رأَى الشَّيءَ يقينًا يعلمُ أنَّهُ رآهُ، وإذَا علمهُ يقينًا يعلمُ أنَّهُ علمهُ، وأمَّا إذَا لمْ يكنْ مستيقنًا، فإنَّهُ لَا يجدُ مَا يجدهُ العالمُ، كمَا إذَا لمْ يستيقنْ رؤيتهُ لمْ يجدْ مَا يجدهُ الرَّائي، وإنَّمَا يكونُ عندهُ ظنٌّ ونوعُ إرادةٍ توجبُ اعتقادهُ"[3].

وبابُ اليقينِ وأقسامهِ ودرجاتهِ واسعٌ جدًّا وكلامُ فيهِ يطولُ، والمقامُ لَا يحتملُ ذلكَ، لكنْ وجبَ منْ تعريفِ اليقينِ، تعريفُ نظائرهِ وأضدادهِ، وبهذَا يتَّضحُ أكثرَ.

---

(1) انظر: الوجوه والنظائر، الدمغاني ص ٤٧٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٦٣٥، ٦٣٦، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٥١٠ – بتصرف.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

(3) جامع الرسائل لابن تيمية.

مراتبُ الإدراكِ:

أوَّلًا: الأدراكُ لغةً:

مصدرُ أدركَ[1]، وأدركَ الصبيُّ والفتاةُ: إذَا بلغَا، ويطلقُ الإدراكُ فِي اللُّغةِ ويرادُ بهِ: اللَّحاقُ، يقالُ: مشيتُ حتَّى أدركتهُ، ويرادُ بِهِ أيضًا: البلوغُ فِي الحيوانِ والثَّمرِ، كمَا يستعملُ فِي الرُّؤيةِ فيقالُ: أدركتهُ ببصرِي: أيْ رأيتهُ، وقدْ استعملَ الفقهاءُ الإدراكَ بمعنَى: بلوغِ الحلمِ، فيكونُ مساويًا للفظِ البلوغِ بهذَا الإطلاقِ، ويطلقُ بعضُ الفقهاءِ الإدراكَ ويريدونَ بِهِ أوانُ النضجِ[2].

ثانيًا: الإدراكُ اصطلاحًا:

وصولُ النَّفسِ إلَى المعنَى بتمامهِ[3]، والإدراكُ هوَ العلمُ.

وللإدراكِ مراتبٌ ستٌّ[4]:

1) العلمُ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ عليهِ إدراكًا جازِمًا[5]، كأنْ ترَى شجرةً فتدركُ أنَّهَا شجرةٌ، و ترَى جملًا فتدركُ أنَّهُ جملٌ.

والعلمُ نوعانِ:

1 – علمٌ ضروريٌّ، وهوَ مَا يكونُ إدراكُ المعلومِ فيهِ ضروريًّا، بحيثُ يضطرُّ إليهِ منْ غيرِ نظرٍ ولَا استدلالٍ، كالعلمِ بأنَّ النَّارَ حارَّةٌ مثلًا.

2 – وعلمٌ نظريٌّ: وهوَ مَا يحتاجُ إلَى نظرٍ واستدلالٍ، كالعلمِ بوجوبِ النِّيَّةِ للوضوءِ والغسلِ منَ الجنابةِ[6].

---

(1) معجم المعاني.

(2) الموسوعة الفقية موقع اسلام واب.

(3) شرح نظم العمريطي.

(4) محمد بن صالح العثيمين في شرحه لثلاثة الأصول مراتب الإدراك. وينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

(5) السابق

(6) السَّابق نفسه.

والإدركُ الجازمُ أوِ العلمُ بقسميهِ، هوَ الذِي يعبَّرُ عنهُ باليقينِ.

والیقينُ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

1 – علمُ اليقينِ.

2 – عينُ اليقينِ.

3 – حقُّ اليقينِ.

ويجمعهَا قولهُ تعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[سورة التَّكاثر 5/6/7].

وقولهُ تعالَى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[سورة الواقعة 95].

فالأوَّلُ: هوَ العلمُ بالشَّيءِ عِلمًا جازمًا وهوَ اليقينُ، لقولهِ تعالَى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}[النَّمل: 14]، قالَ الطَّبري: وقولهُ: (وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) يقولُ: وأيقنتهَا قلوبهمْ، وعلمُوا يقينًا أنَّهَا منْ عندِ اللهِ...[1].

والثَّاني: هيَ الرُّؤيةُ التِي تحقِّقُ درجةً منَ اليقينِ أعلَى منَ علمِ اليقينِ، والثَّالثُ: هيَ الحقيقةُ الملموسةُ، وهوَ بدخولِهمْ للجحيمِ، حينهَا يتحقَّق مَا عِلموهُ يقينًا ثمَّ رأوهُ، وهوَ حقُّ اليقينِ، ومنهُ قولهُ تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا}[سورة الأعراف: 44].

أيْ وجدُوا مَا وعدهمْ ربُّهمْ حقَّ اليقينِ، وكانُوا قدْ علموهُ فِي دنياهُمْ علمَ اليقينِ، ثمَّ رأوهُ يومَ القيامةِ عينَ اليقينِ، ثمَّ دخلُوا الجنَّةَ فتحقَّقَ اليقينُ.

2) الظَّنُّ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالٍ ضدٍّ مرجوحٍ[2]، وهوَ تجويزُ أمرينِ أحدُهُمَا أرجَحُ منَ الآخرِ، فالرَّاجِحُ هوَ الظَّنُّ.

3) الشَّكُّ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالٍ مساوٍ[3]، وهوَ تجويزُ أمرينِ لَا أحدَ فيهمَا أرجحُ منَ الآخرِ، ولَا مزيَّةَ لأحدهمَا علَى الآخرِ، أيْ استوَى طرفاهُ.

---

(1) تفسير الطبري.

(2) محمد بن صالح العثيمين في شرحه لثلاثة الأصول مراتب الإدراك. وينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

(3) ينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

وهذَا الذِي أخطأَ فيهِ الكثيرونَ حينَ اختلطَ عليهمُ الأمرُ بينَ الشَّكِ والظَّنِّ والفرقُ بينهمَا شاسعٌ، وهوَ نقيضُ اليقينِ.

فالشَّكُّ هوَ أنْ يبقَى الشَّاكُّ متذبذبًا بينَ أمرينِ ولَا يدرِي الحقيقةَ فِي أيِّهمَا، وأمَّا الظنُّ فهوَ مَا قُرِّرَ بعدَ النَّظرِ.

4) الوهمُ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالِ ضدٍّ راجحٍ[1]، وهوَ مرجوحُ الظَّنِّ. كمنْ رأَى ماءً منْ بعيدٍ، فدقَّقَ النَّظرَ فرجَّحَ أنَّهُ ماءٌ، فترجيحهُ هذَا هوَ الظنُّ، فلمَّا اقتربَ منَ الماءِ وجدهُ سرابًا، فهذَا ضدُّ الظنِّ ومرجوحهُ، ويسمَى وهمًا، فيقولُ: "ظننتُ أنِّي رأيتُ ماءً لكنَّني وهمتُ ذلكَ"، لذلكَ سميَّ مرجوحَ الظَّنِّ وهمًا.

5) الجهلُ البسيطُ: وهوَ عدمُ إدراكِ الشَّيئِ بالكلِّيَّةِ[2].

كمنْ سألتهُ عنْ شيءٍ، فقالَ: لَا أدرِي، وهوَ لَا يدرِي حقيقةً.

6) الجهلُ المركَّبُ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ علَى خلافِ مَاهوَ عليهِ[3]، وهوَ شرُّ مَا فِي البابِ، بحيثُ رُكِّبَ علَى صاحبهِ العديدُ منَ الأمورِ، أوَّلُهَا: أنَّهُ جاهلٌ بالشَّيءِ، الثَّاني: أنَّهُ جاهلٌ بأنَّهُ جاهلٌ، الثَّالثُ: أنَّهُ مدركٌ للشَّيءِ علَى خلافِ مَاهوَ عليهِ، فرُكِّبَ عليهِ جهلانِ وعلمٌ مخالفٌ للحقيقةِ، لذلكَ سمِّيَ جهلًا مركَّبًا، وفيهِ كتَبَ أحدهمْ بيتينِ بشكلِ طُرافةٍ حيثُ قالَ:

قالَ حمارُ الحكيمِ تومَا:

لوْ أنصفَ الدَّهرُ لكنتُ أركَبُ – لأنَّنِي –

جاهلٌ بسيطُ وصاحبِي جاهلٌ مركَّبُ

---

(1)ينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

(2) السابق

(3) السابق نفسه.

ونحنُ لَا نقولُ لوْ أنصفَ الدَّهرُ، فالدَّهرُ هوَ اللهُ تعالَى كمَا نصَّ علَى ذلكَ الحديثُ حيثُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فِي مَا يخبرُ بهِ عنْ ربِّهِ: "يؤذِينِي ابنُ آدمَ يسبُّ الدَّهرَ وأنَا الدَّهرُ..."[1].

ولكنَّنَا نقولُ "لو أنصفَ القومُ لكنتُ أركبُ"، وما كتبناهَا إلَّا للأمانةِ العلميَّةِ.

وقلت في نفس المقام:

قال حمار يُركــــبُ * لو أنصفوا سأركَـــــبُ

هذا عَلَيْ مُستَركـبُ * أفٍّ لهُ ذا الجاهـــــلُ

جهلي بسيطٌ أعلـمُ * أعلمْ بِنِي لا أعلـــــمُ

من ذا الذي لا يعلمُ * مُركَّبٌ لا أحمـــــــلُ

إذْ يصدَّق بالبنـــاتْ * على الرِّجال الشاهياتْ

قصدَ علوَّ الدَّرجات * في جنَّة قد يحصـــــلُ[2].

وتومَا هذَا كانَ رجلًا يدَّعِي الحكمةَ، وهوَ فِي أصلهِ جاهلٌ جهلًا مركَّبًا، ومنْ حكمِهِ أنَّهُ أفتَى يومًا النَّاسَ وقالَ: "تصدَّقُوا ببناتكمْ علَى شبابِ المسلمينَ"، وهوَ لَا يدرِي أنَّ النِّكاحَ لهُ شروطٌ يصحُّ بهَا العقدُ، وإنِ اختلَّتِ الشُّروطُ فهوَ زنًا.

(1) أخرجه البخاري (7491)، ومسلم (2246).

(2) ألفيَّة علم الأصول تنوير العقول بألفيَّة الأصول – للدكتور: عصام الدين إبراهيم النُّقيلي.

فقالَ: المحبِّيُ فِي ذلكَ:

تصدَّقَ بالبناتِ علَى البنينِ * يريدُ بذلك جنَّةَ النَّعيمِ[1].

وتومَا هذَا كانَ أبوهُ طبيبًا وبعدَ وفاتهِ ورثَ كتبَ أبيهِ وبدأَ يشتغلُ بهَا، وكانَ يقرأُ "الحبَّةُ السَّوداءُ شفاءٌ منْ كلِّ داءٍ"، غيرَ أنَّ النُّسخةَ التِي كانَ يقرأُ منهَا فيهَا خطأٌ املائيٌ بسيطٌ، حيثُ استُبدِلَتْ كلمةُ "الحبَّةُ" بـ "الحيَّةِ" فقرأهَا "الحيَّةُ السَّوداءُ شفاءٌ منْ كلِّ داءٍ"، وقيلَ أنَّهُ كانَ يبحثُ عنْ حيَّةٍ سوداءَ فلدغتهُ وماتَ، وفِي روايةٍ قيلَ أنَّهُ تسبَّبَ بموتِ خلقٍ كثيرٍ.

وقد قال أبو حيَّان النَّحوي:

يظنُّ الغَمرُ أنَّ الكتْبَ تهدِي * أخَا فهمٍ لإدراكِ العلـــــومِ

ومَا يدرِي الجهولُ بأنَّ فيهَـا * غوامضَ حيَّرتْ عقلَ الفهيـمِ

إذَا رُمـتَ العلومَ بغيرِ شيـــخٍ * ضللتَ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ

وتلتبسُ الأمورُ عليكَ حتَّى * تكونَ أضلّ منْ تومَا الحكيمِ[2].

(1) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.

(2) الأداب الشرعية لابن مفلح (2/ 152).



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أمرَ اللهُ بالصَّبرِ، وأثنَى علَى الصَّابرينَ، وذكرَ جزاءهمْ العاجلَ والآجلَ فِي عدَّةِ آياتٍ، نحوَ تسعينَ موضعًا، وهوَ يشملُ أنواعهُ الثَّلاثةِ: الصبرُ علَى طاعةِ اللهِ، حتَّى يؤدِّيهَا كاملةً منْ جميعِ الوجوهِ، والصَّبرُ عنْ محارمِ اللهِ حتَّى ينهَى نفسهُ الأمَّارةَ بالسُّوءِ عنهَا، والصَّبرُ علَى أقدارِ اللهِ المؤلمةِ، فيتلقَّاهَا بصبرٍ وتسليمٍ، غيرِ متسخِّطٍ فِي قلبهِ ولَا بدنهِ ولَا لسانهِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى فِي بابِ الأمرِ: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}[الأحقاف: 53].

وقالَ تعالَى فِي الثنَّاء علَى الصَّابرينَ: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[البقرة: 155 – 156 – 157].

وقالَ تعالَى فِي ذكرِ جزاءِ الصَّابرينَ: {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا}[الإنسان: 12].

ذكر الصبر في القرآن الكريم:

وقدْ وردَ ذكرُ الصَّبرِ ومشتقَّاتهِ (مائةً وثلاثَ) مرَّاتٍ فِي القرآنِ الكريمِ، فنجدُ أنَّهُ ذُكرَ فِي (خمسةٍ وأربعينَ) سورةٍ تُمثِّلُ بمجموعهَا (أربعينَ بالمئة) منْ مجموعِ سورِ القرآنِ الكريمِ البالغِ عددهَا (مائةً وأربعةَ عشرَ) سورة.

وأمَّا السُّورُ التِي يتكرَّرُ فيهَا ذكرُ كلمةِ "الصَّبرِ" عدَّةَ مرَّاتٍ فهيَ: البقرةُ (9 مرَّات)، آلِ عمرانَ (8 مرَّات)، الكهفُ (8 مرَّات) النَّحلُ (7 مرات)، وتشكِّلُ هذهِ بمجموعهَا ثلثَ المرَّاتِ التِي يردُ فيهَا ذكرُ الصَّبرِ، وتحتوِي (ثلاثةٌ وتسعينَ) آيةً علَى كلمةِ الصَّبرِ، و(عشرَ) منَ هذهِ الآياتِ يردُ فيهَا ذكرُ الصَّبرِ مرَّتينِ كمَا تردُ كلمةُ "اصبرْ" (تسعةَ عشرَ مرَّةً) و"اصبرُوا" (خمسةَ عشرَ مرَّةً)، و"الصَّابرينَ" بعددِ المرَّاتِ نفسهَا.
~~~~~~~~~~~

والصَّبرُ لغةً:

نقيضُ الجَزَعِ، وصَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا فهوَ صابِرٌ وصَبَّارٌ وصَبِيرٌ وصَبُورٌ، والأُنثَى صَبُورَ أَيضًا بغيرِ هاءٍ، وجمعهُ صُبُرٌ، وأَصلُ الصَّبْرِ الحَبْسُ وكلُّ منْ حَبَسَ شيئًا فقدْ صَبَرَهُ، والصَّبرُ: حبسُ النَّفسِ عنِ الجزعِ[1].

الصَّبرُ اصطلاحًا:

هوَ حبسُ النَّفسِ عنْ محارمِ اللهِ تعالَى، وحبسهَا علَى فرائضهِ، وحبسهَا عنِ التَّسخُّطِ والشِّكايةِ لأقدارهِ[2].

وقيلَ هوَ: تركُ الشَّكوَى منْ ألمِ البلوَى لغيرِ اللهِ، لَا إلَى اللهِ[3].

وقيلَ الصَّبرُ: حبسُ النَّفسِ علَى مَا يقتضيهِ العقلُ والشَّرعُ، أوْ عمَّا يقتضيانِ حبسهَا عنهُ[4].

وللصَّبرِ أقسامٌ ثلاثةٌ، لَا يُسمَى الإنسانُ صابرًا حتَّى يأتِي بهَا:

وقدْ ذكرهَا الشَّيخُ السَّعدِي وقالَ: "الصبرُ علَى طاعةِ اللهِ، حتَّى يؤدِّيهَا كاملةً منْ جميعِ الوجوهِ، والصَّبرُ عنْ محارمِ اللهِ حتَّى ينهَى نفسهُ الأمَّارةَ بالسُّوءِ عنهَا، والصَّبرُ علَى أقدارِ اللهِ المؤلمةِ، فيتلقَّاهَا بصبرٍ وتسليمٍ، غيرِ متسخِّطٍ فِي قلبهِ ولَا بدنهِ ولَا لسانهِ".

(1) الصحاح للجوهري (ص 706) – ولسان العرب لابن منظور (437/4).

(2) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص 18).

(3) التعريفات)) للجرجاني (ص 131).

(4) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني (474) – وقريب منه تعريف ابن القيم الصبر بأنه: ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية. (الروح) (ص 241).

وذكرهَا ابنُ القيِّمِ علَى مَا يلِي:

1) الصَّبرُ علَى الأوامرِ والطَّعاتِ حتَّى يُؤدِّيهَا.

2) الصَّبرُ علَى المناهِي والمخلافاتِ حتَّى لَا يقعَ فيهَا.

3) الصَّبرُ علَى الأقدارِ والأقضيةِ حتَّى لَا يتسخَّطهَا[1].

أهميَّةُ الصَّبرِ:

قالَ زينُ العابدينَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهمَا: إذَا جمعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ ينادِي منادٍ: أينَ الصَّابرونَ ليدخلُوا الجنَّةَ قبلَ الحسابِ؟ قالَ: فيقومُ عُنقٌ منَ النَّاسِ – أيْ جماعةٌ منَ النَّاسِ – فتتلقَّاهمُ الملائكةُ فيقولونَ: إلَى أينَ يَا بنِي آدمَ؟ فيقولونَ: إلَى الجنَّةِ، فيقولونَ: قبلَ الحسابِ؟ قالُوا: نعمْ، قالُوا: منْ أنتمْ؟ قالُوا: نحنُ الصَّابرونَ، قالُوا: ومَا كانَ صبركمْ؟ قالُوا: صبرنَا علَى طاعةِ اللهِ، وصبرنَا عنْ معصيةِ اللهِ حتَّى توفَّانَا اللهُ، قالُوا: أنتمْ كمَا قلتمْ، ادخلُوا الجنَّة فنعمَ أجرُ العاملينَ[2].

والصَّابرُ هوَ المتوكِّلُ: قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: خرجَ علينَا النَّبيُّ ﷺ يوماً فقالَ: "عُرضتْ عليَّ الأممُ، فجعلَ يمرُّ النَّبيُّ معهُ الرَّجلُ، والنَّبيُّ معهُ الرَّجلانِ، والنَّبيُّ معهُ الرَّهطُ، والنَّبيُّ ليسَ معهُ أحدٌ، ورأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفقَ، فرجوتُ أنْ تكونَ أمَّتِي، فقيلَ: هذَا موسَى وقومهُ، ثمَّ قيلَ لِي: انظرْ، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفقَ، فقيلَ لِي: انظرْ هكذَا هكذَا، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفقَ فقيلَ: هؤلاءِ أمَّتكَ، ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ؛ فتفرَّقَ النَّاسُ، ولمْ يبيِّنْ لهمْ فتذاكرَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ، فقالُوا:

(1) مدارج السالكين لابن القيم.

(2) ينظر مختصر ابن كثير في تفسيره (143/1) والحلية لأبي نعيم (139/3).

أمَّا نحنُ فولدنَا فِي الشِّركِ، ولكنَّا آمنَّا باللهِ ورسولهِ، ولكنْ هؤلاءِ همْ أبناؤنَا، فبلغَ النَّبيُّ ﷺ فقالَ: همُ الذينَ لَا يتطيَّرونَ ولَا يكتوونَ ولَا يسترقونَ وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلونَ، فقامَ عكاشةُ بنُ محصنٍ، فقالَ: أمنهمْ أنَا يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: نعمْ، فقامَ آخرُ، فقالَ: أمنهمْ أنَا؟ فقالَ: سبقكَ بهَا عكاشةَ[1].

وعندَ الإمامِ مسلمٍ منْ حديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ، قالَ: قالَ نبيُّ اللهِ ﷺ: يدخلُ الجنَّةَ منْ أمَّتِي سبعونَ ألفاً بغيرِ حسابٍ، قالُوا: ومنْ همْ يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: همُ الذينَ لَا يكتوونَ ولَا يسترقونَ وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلونَ، فقامَ عكاشةُ، فقالَ: ادعُ اللهَ أنْ يجعلنِي منهمْ، قالَ: أنتَ منهمْ[2].

والمتوكِّلونَ همْ فِي أعلَى درجاتِ الصَّابرينَ علَى البلايَا، حتَّى أنَّهمْ لَا يطلبونَ منْ يرقيهمْ لمرضٍ ماديٍّ أوْ معنويٍّ أوْ روحيٍّ، ولَا يكتوونَ لأنهُ منهيٌّ عنهُ، ولَا يتطيَّرونَ أيْ لَا يتشائمونَ منْ شيءٍ لعلمهمْ أنَّ الأمرَ كلُّهُ بيدِ اللهِ تعالَى وحدهُ، وبهذَا فهمْ لَا يشتكونَ لمخلوقٍ قطُّ، وهذَا هوَ عين الصَّبرِ والرِّضَى.

والصَّبرُ لَا يمنعُ الشَّكوَى إلَى اللهِ تعالَى ولكنْ يمنعُ الشَّكوَى لغيرهِ، فقدِ اشتكَى أنبياءُ عدَّةٌ إلَى اللهِ تعالَى منهمْ يعقوبُ عليهِ السَّلامُ، قالَ تعالَى: "قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"[يوسف: 86].

قالَ الطَّبري: "يقولُ تعالَى ذكرهُ: قالَ يعقوبُ للقائلينَ لهُ منْ ولدهِ: "تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ": لستُ إليكمْ أشكُو بثِّي وحزنِي، وإنَّمَا أشكُو ذلكَ إلَى اللهَ.

ويعنِي بقولهِ: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي)، مَا أشكُو هَمِّي وحزنِي إلَّا إلَى اللهِ[3].

وهذهِ دلالةٌ علَى أنَّ الشَّكوَى للمخلوقينَ مكروهةٌ، وتحرمُ فِي حالتٍ، إنْ كانَ الشَّاكِي متسخِّطٌ علَى أقدارِ اللهِ تعالَى، وهيَ للهِ مندوبةٌ، وواجبةٌ فِي حالاتٍ، لدلالةِ الآياتِ علَى وجوبِ الدُّعاءِ، والشَّكوَى للهِ هيَ دعاءٌ.

(1) رواهُ البخاري.

(2) رواه مسلم.

(3) تفسير الطبري.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكذلكَ أثنَى اللهُ علَى الشُّكرِ، وذكرَ ثوابَ الشَّاكرينَ، وأخبرَ أنَّهمْ أرفعُ الخلْقِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

وحقيقةُ الشُّكرِ هوَ: الاعترافُ بجميعِ نعمِ اللهِ، والثَّناءُ علَى اللهِ بهَا، والاستعانةُ بهَا علَى طاعةِ المنعمِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالشُّكرِ فِي مواقعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[البقرة: 172].

وقالَ تعالَى: {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[النحل: 114].

وأثنَى اللهُ تعالَى علَى الشُّكرِ والشَّاكرينَ بقولهِ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ}[النحل: 120].

وذكرَ تعالَى ثوابَ الشَّاكرينَ فِي نفسِ الآيةِ السَّابقةِ ذاكرًا ثوابَ وجزاءَ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ فِي الدُّنيَا والأخرَى فقالَ: {اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[النحل: 121 – 122].

وقالَ فِي حقِّ لوطٍ عليهِ السَّلامُ: "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ}[القمر: 34 – 35].
~~~~~~~~~~

والشُّكرُ لغةً:

منْ شكَرَ، يَشكُرُ، شُكْرًا وشُكرانًا وشُكورًا، فهوَ شاكرٌ، والمفعولُ مَشْكورٌ.

تقولُ: شكَرَ اللهَ وشكَر للهِ: أيْ حمِدهُ وذكرَ نعمتهُ وأثنَى عليهِ.

وشكَرَ فلانًا علَى نصائحهِ: أعربَ لهُ عنِ امتنانهِ بهَا[1].

ومادَّةُ (شكَرَ) تدلُّ فِي اللُّغةِ علَى الثَّناءِ علَى المحسنِ، والمجازاةِ، وعِرْفَانِ الإحسانِ، يُقالُ: شَكَرَهُ وشَكَرَ له يَشْكُرُ شُكْراً وشُكُوراً وشُكْراناً.

فالشُّكْرُ بالضمِّ: عِرْفانُ الإحسانِ ونَشْرُهُ، أوْ لَا يكونُ إلاَّ عنِ يَدٍ.

يقولُ الجرجانِي: والشُّكرُ اللُّغويُّ هوَ الوصفُ بالجميلُ علَى جهةِ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ علَى النِّعمةِ منَ اللِّسانِ والجنانِ والأركانِ[2].

الشُّكرُ اصطلاحًا:

يقولُ الجرجانِي: الشُّكرُ العرفيُّ هوَ: صرفُ العبدِ جميعَ مَا أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ منَ السمعِ والبصرِ وغيرهمَا إلَى مَا خلقهُ لأجلهِ[3].

وقيلَ فِي تعريفهِ: هوَ الاعترافُ بنعمةِ المنعمِ علَى وجهِ الخضوعِ.

وقيلَ: الثَّناءُ علَى المُحسنِ بذِكرِ إحسانهِ، فالعبدُ يشكرُ اللهَ أيْ يثنِي عليهِ بذكرِ إحسانهِ الذِي هوَ نعمةٌ، واللهُ يشكرُ العبدَ أيْ يثنِي عليهِ بقبولهِ إحسانهِ الذِي هوَ طاعتهُ.

---

(1) معجم المعاني.

(2) التعريفات للجرجاني.

(3) السابق.

وقالَ بعضهمْ: هوَ عُكُوفُ القَلْبِ علَى محبَّةِ المنعمِ، والجوارحِ علَى طاعتهِ، وجَريانَ اللسانِ بذِكْرِه والثَّناءِ عليهِ، وهذَا تعريفٌ للشُّكرِ بضروبهِ الثَّلاثةِ.

وقيلَ: هوَ إضافةُ النِّعمِ إلَى مَولاهَا، وقالَ بعضهمْ: الشُّكْرُ: اسْتِفْراغُ الطاقةِ يعنِي فِي الخدمةِ.

الفرقُ بينَ الشُّكرِ والحمدِ:

قدْ قالَ العلماءُ كثيرًا منَ الكلامِ فِي الفرقِ بينَ الشُّكرِ والحمدِ، ومنهمْ منْ لمْ يفرِّقْ بينهمَا.

فقدْ قالَ اللِّحيانِي: الحمدُ: الشُّكرُ، فلمْ يفرِّقْ بينهمَا.

وقالَ الأخفشُ: الحمدُ للهِ: الشُّكرُ للهِ، وقالَ: والحمدُ للهِ الثَّناءُ[1].

والصَّحيحُ أنَّ بينَ الشُّكرِ والحمدِ فرقٌ، وأوَّلُ دلالاتِ الفرقِ بينهمَا أنَّ كلَّ لفظٍ منهمَا ذُكرَ مستقلًّا فِي القرآنِ.

فالحمدُ لغةً:

نفيضُ الذمِّ؛ يقالُ: حمدتهُ علَى فعلهِ، ومنهُ المحمدةُ خلافُ المذمَّةِ[2].

وقالَ الجرجانِي: الحمدُ هوَ: الثَّناءُ الجميلُ منْ جهةِ التَّعظيمِ منْ نعمةٍ وغيرهَا[3].

وقالَ ثعلبةُ: الحمدُ يكونُ عنْ يدٍ وعنْ غيرِ يدٍ، والشُّكرُ لَا يكونُ إلَّا عنْ يدٍ[4].

---

(1) لسان العرب الجزء الثاني.

(2) السابق.

(3) التعريفات للجرجاني.

(4) لسان العرب الجزء الثاني.

الحمدُ اصطلاحًا:

الثَّناءُ بالكلامِ علَى الجَميلِ الاختيارِي علَى وجهِ التَّعظيمِ، فموردهُ: اللِّسانُ والقلبُ، والشُّكرُ يكونُ باللِّسانِ والجَنانِ والأركانِ؛ فهوَ أعمُّ منَ الحمدِ متعلَّقًا، وأخصُّ منهُ سببًا؛ لأنَّهُ يكونُ فِي مُقابلةِ النِّعمةِ، والحمدُ أعمُّ سببًا وأخصُّ متعلَّقًا؛ لأنَّهُ يكونُ فِي مقابلةِ النِّعمةِ وغيرِهَا، فبينهمَا عمومٌ وخصوصٌ وجهِيٌّ، يَجتمعانِ فِي مادَّة وينفرِدُ كلُّ واحدٍ عنِ الآخرِ فِي مادَّةٍ[1].

وقدْ قسَّمَ الجرجانِي الحمدَ إلَى أقسامٍ خمسةٍ وقالَ:

1) الحمدُ الحالِي هوَ: الذِي يكونُ بحسبِ الرُّوحِ والقلبِ كالاتصافِ بالكمالاتِ العلميَّةِ والعمليَّةِ والتخلُّقِ بالأخلاقِ الإلهيَّةِ.

2) الحمدُ العرفِيُّ هوَ: فعلٌ يُشعرُ بتعظيمِ المنعمِ بسببِ كونهِ منعمًا أعمُّ منْ أنْ يكونَ فعلُ اللِّسانِ أوالأركانِ.

3) الحمدُ الفعلِي هوَ: الإتيانُ بالأعمالِ البدنيَّةِ ابتغاءً لوجهِ اللهِ تعالَى.

4) الحمدُ القولِيُّ هوَ: حمدُ اللِّسانِ وثناؤهُ علَى الحقِّ بمَا أثنَى بهِ علَى نفسهِ علَى لسانِ أنبيائهِ.

5) الحمدُ اللُّغويُّ هوَ: الوصفُ بالجميلِ علَى جهةِ التَّعظيمِ والتبجيلِ باللِّسانِ وحدهُ.

---

(1) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي.

وفِي تاجِ العروسِ قالَ الزُّبيدِي: وقدْ تكلَّمَ النَّاسُ فِي الفرقِ بينَ الحمدِ والشُّكرِ أيُّهمَا أفضلُ؟ والفرقُ بينهمَا أنَّ الشُّكرَ أعمُّ منَ جِهةِ أنواعهِ وأسبابهِ وأخصُّ منْ جِهةِ مُتعلِّقاتهِ، والحمدُ أعمُّ منْ جهةِ المُتعلِّقاتِ وأخصُّ منْ جهةِ الأسبابِ، ومعنَى هذَا أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقلبِ خُضُوعاً واستكانةً وباللِّسانِ ثناءً واعترافاً، وبالجوارحِ طاعةً وانقياداً ومتعلِّقةُ النِّعمِ دونَ الأوصافِ ذاتيَّةِ، فلَا يقالُ: شَكرنَا اللهَ علَى حياتهِ وسَمعهِ وبصرهِ وعلمهِ، وهوَ المحمودُ بهَا كمَا هوَ محمودٌ علَى إحسانهِ وعدلهِ، والشُّكرُ يكونُ علَى الإحسانِ والنِّعمِ، فكلُّ مَا يتعلَّقُ بِهِ الشُّكرُ يتعلَّقُ بهِ الحمدُ منْ غيرِ عكسٍ، وكلُّ مَا يقعُ بهِ الحمدُ يقعُ بهِ الشُّكرُ منْ غيرِ عكسٍ، فإنَّ الشُّكرَ يقعُ بالجوارحِ والحمدُ باللِّسانِ[1].

وقالَ ابنُ منظورٍ فِي اللِّسانِ: فالحمدُ شكرٌ وزيادةٌ، وأمَّا الشُّكرُ فهوَ الثَّناءُ علَى المحسنِ، بسببِ مَا قدَّمَ منْ معروفٍ[2].

وأحسنُ منْ فرَّقَ بينَ الشُّكرِ والحمدِ "ثعلبةُ" حينَ قالَ: الحمدُ يكونُ عنْ يدٍ وعنْ غيرِ يدٍ، والشُّكرُ لَا يكونُ إلَّا عنْ يدٍ[3].

ويمكنُ أنْ نفرِّقَ بينَ الحمدِ والشُّكرِ بأنْ نقولَ: الحمدُ أعمُّ منَ الشُّكر، لأنَّ الحمدَ يقعُ علَى السرَّاءِ والضرَّاءِ، ويقعُ علَى مقابلِ النِّعمةِ ويقعُ علَى غيرِ مقابلِ النِّعمةِ، والشُّكرُ لَا يقعُ إلَّا علَى السرَّاءِ، ولَا يقعُ علَى الضرَّاءِ، لقولهِ تعالَى: {لَإِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمِ}[إبراهيم: 7] ولَا يقعُ إلَّا علَى مقابلِ النِّعمةِ، ولَا يقعُ علَى غيرِ مقابلِ النِّعمةِ[4].

(1) تاج العروس للزبيدي – والفروق – والمدارج لابن الجوزية.

(2) معجم لسان العرب لابن منظور.

(3) لسان العرب الجزء الثاني.

(4) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (وهو شرح الشوشاوي على شرح تنقيح الفصول للقرافي).

أنواعُ الشُّكرِ:

الشُّكرُ علَى ثلاثةِ أنواعٍ هيَ:

1) شكرُ القلبِ: وهوَ تصوُّرُ النِّعمةِ والتعرُّفِ علَى صاحبهَا.

2) وشكرُ اللِّسانِ: وهوَ الثَّناءُ علَى المنعمِ، ومنهُ قولُ النَّبِي ﷺ: "أفضلُ الذِّكرِ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأفضلُ الدُّعاءِ الحمدُ للهِ"[1]، ومنَ الشُّكرِ باللِّسانِ التَّحدُّثُ بنعمةِ اللهِ تعالَى عليكَ فعنْ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ علَى المنبرِ: "منْ لمْ يشكرِ القليلَ لمْ يشكرِ الكثيرَ، ومنْ لمْ يشكرِ النَّاسَ لمْ يشكرِ اللهَ عزَّ وجلَّ، والتَّحدُّثُ بنعمةِ اللهِ شكرٌ، وتركهَا كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ[2].

3) وشكرُ الجوارحِ: هوَ مكافأةُ النِّعمةِ بقدرِ استحقاقهِ، بمعنَى استعمالهَا فيمَا خُلقتْ لهُ.

ومنهُ قولهُ تعالَى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً}[سبأ: 13]، قالَ ابنُ كثيرٍ: "وقولهُ: (اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) أيْ: وقلنَا لهمْ اعملُوا شكرًا علَى مَا أنعمَ بهِ عليكمْ فِي الدُّنيَا والدِّينِ.

وشكرًا: مصدرٌ منْ غيرِ الفعلِ، أوْ أنَّهُ مفعولٌ لهُ، وعلَى التَّقديرينِ فيهِ دلالةٌ علَى أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالفعلِ كمَا يكونُ بالقولِ وبالنيَّةِ، كمَا قالَ الإمامُ الشَّيباني:

أفادتكمُ النِّعماءُ منِّي ثلاثةٌ * يدِي ولسانِي والضَّميرُ المحجبَا[3].

---

(1) رواه الترمذي وابن ماجه.

(2) مسند أحمد. (قال الألباني حسن صحيح).

(3) المظومة الشيبانية للإمام الشيباني الشافعي المولود: 703 المتوفى: 777.

قالَ أبُو عبدِ الرَّحمنِ الحُبلِي: الصَّلاةُ شكرٌ، والصِّيامُ شكرٌ، وكلُّ خيرٍ تعملهُ للهِ شكرٌ، وأفضلُ الشُّكرِ الحمدُ. رواهُ ابنُ جريرٍ...[1].

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: وحقيقةُ الشُّكرِ فِي العبوديَّةِ هيَ ظهورُ أثرِ نعمةِ اللهِ علَى لسانِ عبدِهِ: ثناءً واعترافًا، وعلَى قلبِهِ: شهودًا ومحبَّةً، وعلَى جوارحِهِ: انقيادًا وطاعةً[2].

مبانِي الشُّكرِ:

يُبنَى الشُّكرُ علَى خمسةِ قواعدَ يدورُ عليهَا الكلامُ فِي الشُّكرِ:

وأوَّلُ هذهِ القواعدِ هيَ: خضوعُ الشَّاكرِ للمشكورِ.

والثَّانيةُ: الحبُّ للمشكورِ.

والثَّالثةُ: اعترافُ الشَّاكرِ بنعمةِ المشكورِ.

الرَّابعةُ: ثناءُ الشاكرِ عليهِ.

والخامسةُ: استعمالُ هذهِ النِّعمِ فيمَا يرضيهِ، وعدمِ استعمالِهَا فيمَا يكرهُ[3].

وجاءَ فِي تاجِ العروسِ: الشُّكرُ مبنِي علَى خمسِ قواعدَ: خُضُوعُ الشَّاكرِ للمَشْكُورِ، وحُبُّهُ لهُ، واعترافهُ بنعمتهِ، والثَّناءُ عليهِ بهَا، وألَّا يَسْتَعْمِلهَا فيمَا يكرهُ، هذهِ الخمسةُ هيَ أساسُ الشُّكْرِ وبناؤهُ عليهَا، فإنْ عُدمَ منهَا واحدةٌ اختلَّتْ قاعدةٌ منْ قواعدِ الشُّكرِ، وكلّ منْ تكلَّمَ في الشُّكْرِ فإنَّ كلامهُ إليهَا يَرجعُ وعليهَا يدورُ[4].

(1) تفسير ابن كثير.
(2) مدارج السالكين لابن القيم.
(3) مدارج السالكين لابن القيم.
(4) تاج العروس للزبيدي.

فضلُ الشُّكرِ:

قدِ اشتقَّ اللهُ تعالَى لأهلِ الشُّكرِ اسماً منْ أسمائهِ، فمنْ أسمائهِ سبحانهُ الشَّكورُ، قالَ تعالَى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}[فاطر: 34].

وقالَ سبحانهُ: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}[الشورى: 23].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً}[النساء: 147].

قالَ ابنُ القيِّمِ: وسمَّى نفسهُ شاكرًا وشكورًا وسمَّى الشَّاكرينَ بهذينِ الاسمينِ فأعطاهمْ منْ وصفهِ وسمَّاهمْ باسمهِ وحسبكَ بهذَا محبَّةً للشَّاكرينَ وفضلًا[1].

درجاتُ الشُّكرِ:

1) شكرٌ علَى المحابِ.

2) شكرٌ علَى المكارهِ.

3) ألَّا يشهدَ إلَّا المنعمَ[2].

---

(1) مدارج السالكين.

(2) للمزيد ينظر مدارج السالكين لابن القيم.

ثمارُ الشُّكرِ:

وثمارُ الشُّكرِ التِي يجنيهَا الشَّاكرُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ كثيرةٌ، ولعلَّ منْ أهمِّهَا:

1) الشُّكرُ منْ كمالِ الإيمانِ وحسنِ الإسلامِ فهوَ نصفُ الإيمانِ.

2) الشُّكرُ اعترافٌ بالمنعمِ والنعمةِ.

3) الشُّكرُ سببٌ منْ أسبابِ حفظِ النِّعمةِ بلْ منَ الزيادةِ فيهَا.

4) الشُّكرُ منْ أسبابِ كسبِ المؤمنِ رضَا الربِّ تعالَى.

5) الشُّكرُ فيهِ دليلٌ علَى سموِّ النَّفسِ وعلوِّهَا.

6) الشَّكورُ قريرُ العينِ، يحبُّ الخيرَ للآخرينَ، ولَا يحسدُ منْ كانَ فِي نعمةٍ.

ومنْ فوائدِهِ وثمارِهِ أيضاً:

1) أنَّ الشُّكرَ يجعلُ صاحبهُ منْ خواصِ عبادِ اللهِ تعالَى وقليلٌ مَا همْ.

2) الجزاءُ الحسنُ علَى الشُّكرِ.

3) الاعتبارُ بآياتِ اللهِ تعالَى، والانتفاعُ بهَا.

4) حصولُ الآمانِ منْ عذابِ اللهِ تعالَى.

5) الاقتداءُ بالأنبياءِ الكرامِ فهمْ أهلُ الشُّكرِ، وغيرِ ذلكَ منَ الفوائدِ والثِّمارِ.

قال تعالى: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[النمل: 40].



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وذكرَ اللهُ الخوفَ والخشيةَ، فِي مواضعَ كثيرةٍ، أمرَ بهِ وأثنَى علَى أهلهِ، وذكرَ ثوابهمْ، وأنَّهمُ المنتفعونَ بالآياتِ، التَّاركونَ للمحرَّماتِ.

وحقيقةُ الخوفِ والخشيةِ: أنْ يخافَ العبدُ مقامهُ بينَ يدَي اللهِ، ومقامهِ عليهِ، فينهَى نفسهُ بهذَا الخوفِ عنْ كلِّ مَا حرَّمَ اللهُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الخوفَ والخشيةَ فِي القرآنِ فِي مواقعَ كثيرةٍ أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى فِي باب الأمرِ بالخوفِ:

{إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[آل عمران: 175].

وقال تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[البقرة: 150].

وقالَ تعالَى مثنيًا علَى أهلِ الخشيةِ وذاكرًا ثوابهمْ: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[الملك: 12].

وقالَ تعالَى ذاكرًا أهلَ الخوفِ منهُ: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}[الرحمن: 46].
~~~~~~~~~~~

الخوفُ لغةً: تدلُّ مادَّةُ (خ و ف) علَى الذُّعرِ والفزعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: الخاءُ والواوُ والفاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى الذُّعرِ والفزعِ، يقالُ خفتُ الشَّيءَ خوفًا وخيفةً[1].

الخوفُ اصطلاحًا: توقُّعُ حلولِ مكروهٍ أوْ فواتِ محبوبٍ[2].

أنواعُ الخوفِ:

1) الخوفُ منَ اللهِ تعالَى:

ويسمَى (خوفُ العبادةِ)، وهوَ الخوفُ المقترِنُ بالمحبَّةِ والتَّعظيمِ والتذلُّلِ والخضوعِ، وهوَ الذِي يحملُ العبدَ علَى الطَّاعةِ والبعدِ عنِ المعصيةِ.

حكمهُ: واجبٌ فِي حقِّ اللهِ تعالَى، وصرفهُ لغيرِ اللهِ تعالَى شركٌ أكبرٌ.

والخوفُ منَ اللهِ تعالَى قدْ يكونُ خوفًا ممدوحًا أوْ خوفًا مذمومًا:

أ) الخوفُ الممدوحُ هوَ: الباعثُ علَى العملِ، وهوَ الذِي يحملُ العبدَ علَى أداءِ الفرائضِ واجتنابِ المحرَّماتِ، فتكونُ نتيجتهُ طاعةُ اللهِ تعالَى، وحكمهُ واجبٌ، قالَ تعالَى: {إِنَّمَا يَخشَى اللّهَ منْ عبادهِ العلماءُ}[فاطر: 28].

ب) والخوفُ المذمومُ هوَ: المُقعِدُ عنِ العملِ، وهوَ مَا يحملُ العبدَ علَى اليأسِ والقنوطِ منْ رحمةِ اللهِ تعالَى، وحكمهُ: كبيرةٌ، قالَ تعالَى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الظَّالِمُونَ}[الحجر: 56].

---

(1) معجم مقاييس اللغة.

(2) التعريفات للجرجاني.

قالَ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: "الخوفُ المحمودُ هوَ مَا حجزكَ عنْ محارمِ اللهِ"[1]اهـ، أمَّا إذَا زادَ الخوفُ بحيثُ يؤدِّي إلَى القنوطِ واليأسِ، فهوَ خوفٌ مذمومٌ؛ لذلكَ لَا بدَّ أنْ تتوازنَ عبادةُ الخوفِ معَ عبادةِ الرَّجاءِ[2].

2) الخوفُ منْ غيرِ اللهِ تعالَى: وهوَ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

أ) الخوفُ الطبيعِي: وهوَ خوفُ الإنسانِ ممَّا يُؤذيهِ، مثلَ خوفِ المرءِ منَ السَّبعِ أنْ يأكلهُ، ومنَ النَّارِ أنْ تحرقهُ.

حكمهُ: مباحٌ إذَا وُجدتْ أسبابهُ.

وهذَا الخوفُ ليسَ بعبادةٍ، ووقوعهُ فِي القلبِ لَا ينافِي الإيمانَ، قالَ تعالَى عنْ موسَى: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}[القصص: 21]، ولكنْ يجبُ ألَّا يزيدَ عنِ الحدِّ، وألَّا يستقرَّ فِي القلبِ، بلْ يُذهبهُ العبدُ ويَدفعهُ عنْ قلبهِ بالتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى واللُّجوءِ إليهِ سبحانهُ، قالَ تعالَى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: 173].

فالخوفُ الطَّبيعيُّ لَا يُلامُ عليهِ العبدُ، بشرطِ ألَّا يؤدِّي إلَى تركِ واجبٍ أوْ فعلِ محرَّمٍ، أمَّا إذَا كانَ بلَا سببٍ، أوْ سببهُ ضعيفًا كمنْ يخافُ منَ الظَّلامِ، أوْ كانَ سببًا وهميًّا فهوَ مذمومٌ.

ب) الخوفُ المحرَّمُ: وهوَ الخوفُ الذِي يحملُ علَى تركِ واجبٍ أوْ فعلِ محرَّمٍ.

---

(1) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم الجوزية.

(2) شبكة الألوكة: موضوع الخوف من الله.

وهوَ الخوفُ منَ الخلقِ فِي حدٍّ منْ حدودِ اللهِ تعالَى، فيعصِي اللهَ تعالَى خوفًا منَ النَّاسِ، أوْ يتركَ واجبًا منَ الواجباتِ خوفًا منَ النَّاسِ؛ كمنْ يتركُ الصَّلاةَ فِي المسجدِ خوفًا منَ أنْ يُفصَلَ منْ عملِه، وبهذهِ الصِّفةِ حكمهُ: محرَّمٌ.

هذَا إنْ لمْ يكنِ الخائفُ مكرهًا؛ مُلجأً كاملًا أو حتَّى غيرَ ملجيءٍ ناقصًا، لمَا سيأتِي منَ الشَّرحِ.

وشروطُ الإكراهِ أربعةٌ:

الأوَّلُ: أنْ يكونَ فاعلهُ قادرًا علَى إيقاعِ مَا يهدِّدُ بهِ والمأمورُ عاجزًا عنِ الدَّفعِ ولوْ بالفرارِ.

الثَّانِي: أنْ يغلبَ علَى ظنِّهِ أنَّهُ إذَا امتنعَ أوقعَ بهِ ذلكَ.

الثَّالثُ: أنْ يكونَ مَا هدَّدهُ بهِ فوريًّا، فلوْ قالَ: إنْ لمْ تفعلْ كذَا ضربتكَ غدًا، لَا يُعدُّ مكرهًا، ويستثنَى مَا إذَا ذكرَ زمنًا قريبًا جدًّا أوْ جرتِ العادةُ بأنَّهُ لَا يُخلفُ.

الرَّابعُ: ألَّا يَظهرَ منَ المأمورِ مَا يدلُّ علَى اختيارهِ، كمنْ أُكرهَ علَى الزِّنَا فأولجَ وأمكنهُ أنْ ينزعَ ويقولُ أنزلتُ، لكنَّهُ تمادَى حتَّى أنزلَ، فهذَا كانَ باختيارهِ أنْ ينزعَ ولكنَّهُ تمادَى.

والإكراهُ علَى قسمينِ: فقدْ قسَّمَ جمهورُ الأصوليِّينَ والفقهاءِ الإكراهَ إلَى نوعينِ: إكراهٌ ملجئٌ، وهوَ الإكراهُ التَّامُ، المعبَّرِ عنهُ بالإلجاءِ الكاملِ، وإكراهٌ غيرُ ملجيءٍ، وهوَ الإكراهُ النَّاقصُ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بغيرِ الملجئِ النَّاقصِ.

الأوَّل: الإكراهُ الملجئُ (الكاملُ):

وهوَ الذِي يقعُ علَى نفسِ المكرهِ، ولَا يبقَى للشَّخصِ معهُ قدرةٌ ولَا اختيارٌ، كأنْ يُهدَّدَ الإنسانُ بقتلهِ أوْ بقطعِ عضوٍ منَ أعضائهِ كيدهِ أوْ رجلهِ، أوْ بضربٍ شديدٍ يفضِي إلَى هلاكهِ أوْ بإتلافِ جميعِ مالهِ، فمتَى غلبَ علَى ظنِّهِ أنَّ مَا

هُدِّدَ بهِ سيقعُ عليهِ، جازَ لهُ القيامُ بمَا دفعَ إليهِ بالتَّهديدِ، باعتبارهِ فِي حالةِ ضرورةٍ شرعيَّةِ[1].

وهوَ حيثُ ينعدمُ الرِّضَا والاختيارُ، وتنتفِي الإرادةُ والقصدُ، وذلكَ بالوقوعِ تحتَ التَّعذيبِ الشَّديدِ أوْ نحوِ ذلكَ، وهذهِ الحالةُ قالَ تعالَى فيهَا: "مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ"[سورة النحل: 106].

وهذَا النَّوعُ منَ الإكراهِ اسمُ صاحبهِ ملجَئٌ كامِلٌ، وهذَا النَّوعُ يعطِي صاحبهُ الرُّخصةَ حتَّى فِي قولِ كلمةِ الكفرِ، بشرطِ أنْ يكونَ قلبهُ مطمئنًّا بالإيمانِ، فهوَ يعطيهِ الرُّخصةَ فِي كلِّ شيءٍ إلَّا القتلِ قالَ أبُو إسحاقٍ الشِّيرازِي: انعقدَ الإجماعُ علَى أنَّ المكرهَ علَى القتلِ مأمورٌ باجتنابِ القتلِ والدَّفعِ عنْ نفسهِ وأنَّهُ يأثمُ إنْ قتلَ منْ أُكرهَ علَى قتلهِ...[2].

ومنهُ حديثُ أبِي عبيدةَ بنِ محمَّدٍ بنِ عمَّارَ بنِ ياسرٍ قالَ: "أخذَ المشركونَ عمَّارًا فعذَّبوهُ حتَّى قاربهمْ فِي بعضِ مَا أرادُوا، فشكَى ذلكَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فقالَ لهُ: كيفَ تجدُ قلبكَ؟ قالَ: مطمئنًّا بالإيمانِ، قالَ فإنْ عادُوا فعدْ "[3].

وخلاصةً هذَا النَّوعُ منَ الإكراهِ يعطِي صاحبهُ الرُّخصةَ فِي تركِ بعضِ العباداتِ العقائديَّةِ، بأنْ يأخذَ بالتَّقيَّةِ حفاظًا علَى نفسهِ، إلَّا أنَّ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلَ رضيَ اللهُ عنهُ، منعهَا عنِ الإمامِ المُتَّبَعِ بقولهِ: "إذَا أجابَ العالمُ تقيَّةً، والجاهلُ يجهلُ فمتَى يتبيَّنُ الحقُّ؟..."[4].

---

(1) ينظر الإكراه وأثره في عقود المفاوضات المالية – د. إبراهيم العروان – والبدائع للكاساني – حاشية ابن عابدين، وينظر الفرق بين الإكراه والضرورة، التشريع الجنائي، والإكراه وأثره في التصرفات، د. محمد المعيني.

(2) فتح الباري للعسقلاني.

(3) وهو مرسل ورجاله ثقات أخرجه الطبري وقبله عبد الرزاق وعنه عبد بن حميد ، وأخرجه البيهقي من هذا الوجه فزاد في السند فقال : " عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه " وهو مرسل أيضا ، وأخرج الطبري أيضا من طريق عطية العوفي عن ابن عباس نحوه مطولا وفي سنده ضعف.

(4) تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي.

وكذلكَ قالَ لهُ صاحبهُ أبُو جعفرَ الأنبارِي الذِي عبرَ الفراتَ للقائهِ قبلَ سفرهِ إلَى طرسوسَ للمناظرةِ والتَّعذيبِ فِي قضيَّةِ خلقِ القرآنِ، فقالَ: يَا هذَا أنتَ اليومَ رأسٌ، والنَّاسُ يقتدونَ بكَ، فواللهِ لئنْ أجبتَ إلَى خلقِ القرآنِ ليُجِيبَنَّ خلقٌ، وإنْ أنتَ لمْ تُجبْ ليَمْتَنِعَنَّ خلقٌ منَ النَّاسِ كثيرٌ، ومعَ هذَا فإنَّ الرَّجلَ إنْ لمْ يقتلكَ فإنَّكَ تموتُ، لابدَّ منَ الموتِ، فاتَّقِ اللهَ ولَا تُجبْ، فجعلَ الإمامُ أحمدُ يبكِي ويقولُ: مَا شاءَ اللهُ، ثمَّ قالَ: يَا أبَا جعفرَ أعدْ عليَّ، فأعادَ عليهِ، وأحمدُ يبكِي ويقولُ: مَا شاءَ اللهُ.

الثَّانِي: الإكراهُ غيرِ الملجئِ (النَّاقصِ):

وهوَ التَّهديدُ أوِ الوعيدُ بمَا دونَ تلفِ النَّفسِ أوِ العضوِ، كالتَّخويفِ بالضَّربِ أوِ القيدِ أوِ الحبسِ أوِ إتلافِ بعضِ المالِ، وهذَا النَّوعُ يُفسدُ الرِّضَا، ولكنَّهُ لَا يفسدُ الاختيارَ لعدمِ الاضطرارِ إلَى مباشرةِ مَا أُكرهَ عليهِ لتمكُّنهِ منَ الصَّبرِ علَى مَا هُدِّدَ بهِ[1].

وقدْ يلحقُ بهذَا النَّوعِ، التَّهديدُ بحبسِ الأبِ أوِ الابنِ أوِ الزَّوجةِ والأختِ والأمِّ والأخِ، وهناكَ نزاعٌ فِي اعتبارِ هذَا القسمِ منْ أقسامِ الإكراهِ[2]، فالقياسُ يقتضِي عدمَ اعتبارهِ منَ الإكراهِ لأنَّ الضَّررَ فيهِ لَا يلحقُ بالمكرهِ والأصلُ فِي اعتبارِ المكرهِ بهِ (وسيلةَ الإكراهِ) أنْ يلحقَ المُكرهُ بالتَّهديدِ بهِ الخوفُ والمشقَّةُ والضِّيقُ، أمَّا الاستحسانُ فيعدُّهُ منَ الإكراهِ، لأنَّ المكرهَ يلحقهُ الغمُّ والاهتمامُ والحزنُ والحرجُ إذَا أصابَ أحداً منْ محارمهِ مكروهٌ، فيندفعُ إلَى الإتيانِ بمَا أمرَ بهِ كمَا لوْ وقعَ الضَّررُ بهِ أوْ أشدُّ[3].

(1) ينظر كشف الأسرار للبزودي (383/4) – تبيين الحقائق للزيلعي (5/ 181) – حاشية ابن عابدين (5/ 109).

(2) ذهب بعض الأحناف إلى اعتبار هذا القسم نوعاً ثالثاً، أما بقية الفقهاء فقد أدخلوه في النوعين السابقين، ينظر كشف الأسرار (383/4) – الإكراه وأثره في التصرفات – د. عيسى شقره (ص: 61).

(3) ينظر الإكراه وأثره في التصرفات – د. عيسى شقره (ص: 60، 61) – وينظر في ترجيح ذلك المبسوط للسرخسي (143/24، 144).

وهذَا النَّوعُ لَا يُسترخصُ بهِ فِي تركِ بعضِ العباداتِ العقائديَّةِ بلْ لوْ قالَ كلمةَ الكفرِ تحتَ هذَا النَّوعِ منَ الإكراهِ فقدْ كفرَ علَى الحقيقةِ، قالَ فِي نظمِ نواقضِ الإسلامِ:

لَا فَرْقَ فِي جَمِيعِ مَا فِي نَظْمِهِ, * فِي خَوْفِهِ, وَهَزْلِهِ, وَجَـــدِّهِ,
إِلَّا الْمُكْرَهُ, رُفِعْ عَنْهُ الْقَلَـــــمْ * بِرَحْمَةٍ مِنَ الْإِلَهِ ذِي النِّعَـمْ
وَمُكْـرَهٌ تَقْسِيــمُهُ, لِاثْنَيــــــنِ,* مُكَمَّـلٌ وَنَاقِصٌ لَا بَـيْــــنِ,
أمَّا المُكَمَّـلُ عفَى عَنْهُ السَّـلَامْ * والثَّانِ لَنْ يُصِيبَهُ, إِلَّا الْمَلَامْ [1].

وقيلَ أنَّ هذَا النَّوعَ منَ الإكراهِ يبيحُ مادونَ الكفرِ والمساسِ بمصالحِ الغيرِ، كمنْ أُكرهَ بهذَا النَّوعِ علَى حلقِ لحيتهِ، فيجوزُ لهُ حلقهَا وقسْ علَى ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الفروقُ الأربعةُ بين المكرهِ والمضطرِّ:

يجبُ أنْ نعلمَ أوَّلًا أنَّ مصبّ الإكراهِ الفعلُ، ومصبَّ الإضطرارِ غيرهُ:

الأوَّلُ: أنَّ مصبَّ الإكراهِ هوَ الفعلُ نفسهُ، كمَا لوْ أُكرهَ علَى البيعِ، تحتَ وطأةِ السَّيفِ.

وأمَّا مصبُّ الاضطرارِ فهوَ غيرهُ لكنَّهُ سرَى منهُ إليهِ، كمَا لوْ اضطرَّ إلَى بيعِ دارهِ لإنقاذِ ابنهِ، فإنَّ مصبَّ الاضطرارِ فِي الواقعِ هوَ إنقاذُ ابنهِ، أيْ أنَّهُ مضطرٌّ لإنقاذِ ابنهِ، لكنْ حيثُ كانَ بيعُ دارهِ لتحصيلِ الأموالِ التِي بهَا يُنقذُ ابنهُ مقدمةً لإنقاذهِ، صارَ بيعهَا مضطراً إليهِ، فالإضطرارُ إلَى البيعِ بالتَّبعِ، أمَّا فِي الإكراهِ فإنَّهُ مكرهٌ علَى البيعِ نفسهِ، فهوَ مكرَهٌ عليهِ بالذَّاتِ.

(1) منظومة نواقض الإسلام للدكتور عصام الدين إباهيم النقيلي.

الإكراهُ متوقَّفٌ علَى وجودِ مُكرِهٍ، عكسُ الاضطرارِ:

الثَّانِي: أنَّ الإكراهَ متوقَّفٌ علَى وجودِ مُكرِهٍ، أمَّا الاضطرارُ فغيرُ متوقَّفٍ علَى وجودِ مضطَرٍّ (باسمِ الفاعلِ).

والحاصلُ: فِي الإكراهِ أنَّهُ يوجدُ شخصٌ أكرههُ علَى البيعِ، وأمَّا فِي الاضطرارِ فليسَ هناكَ شخصٌ اضطرَّهُ إلَى البيعِ، ولَا يقالُ عنِ ابنهِ الذِي لأجلهِ يبيعُ بيتهُ بِطَوعهِ أنَّهُ أكرههُ علَى البيعِ، أوِ اضطرَّهُ إلَى ذلكَ، ولوْ قيلَ فبتوسُّعٍ.

الاضطرارُ متوقَّفٌ علَى الاحتياجِ، دونَ الإكراهِ:

الثَّالثةُ: إنَّ الاضطرارِ متوقَّفٌ علَى الاحتياجِ، فإذَا لمْ يكنْ محتاجاً فباعَ فلَا يصحُّ أنْ يقولَ أنِّي اضطررتُ إلَى البيعِ فبعتُ، ولوْ قالَ فغلطَ أوْ قالهُ مجازًا، أمَّا الإكراهُ فلَا يتوقَّفُ علَى الاحتياجِ كمَا هوَ واضحٌ.

المكرَهُ غيرُ راضٍ والمضطرُّ راضٍ:

الرَّابعةُ: أنَّ الإكراهَ لَا رضَى فيهِ ولَا طيبَ نفسٍ بهِ، عكسُ الاضطرارِ فإنَّ فيهِ طيبَ نفسٍ ثانويًّا.

توضيحهُ: أنَّ المكرَهَ علَى بيعِ دارهِ ليستْ نفسهُ طيبةً بذلكَ، أمَّا المضطرُّ لبيعهَا لينقذَ ابنهُ منَ القتلِ أوِ الموتِ أوِ المرضِ فإنَّ نفسهُ طيِّبةٌ ببيعهَا، لكنْ لَا بالعنوانِ الأوَّلِي (لفرضِ أنَّهُ كارهٌ للبيعِ لولَا توقُّفِ إنقاذِ ابنهِ عليهِ) بلْ بالعنوانِ الثَّانوِي لأنَّهُ يجدهُ الأملَ لإنقاذِ ابنهِ، وبعبارةٍ أوضحَ: أنَّهُ بعدَ الكسرِ والانكسارِ بمرضِ ابنهِ الذِي سيسوقهُ إلى الموتِ المحتَّمِ، طيَّبَ نفسهُ ببيعِ بيتهِ، بلْ تجدهُ يتوسَّلُ بالغيرِ ليشترِي دارهِ ولوْ بنصفِ القيمةِ.

ويتفرَّعُ علَى هذَا الفرقِ، فرقٌ آخرُ فِي الصَّحيحِ والفاسدِ، وهوَ أنَّ بيعَ المضطرَّ صحيحٌ نافذٌ، وأمَّا بيعُ المكرَهِ فباطلٌ فاسدٌ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبَةِ نَفْسٍ مِنْهُ"[1] ولذَا افتَى الفقهاءُ بصحَّةِ بيعِ المضطرِّ لأنَّ لهُ طيبَ نفسٍ بهِ، وبطلانِ بيعِ المكرَهِ لأنَّهُ غيرُ راضٍ، فإنَّ المكرَهَ لَا يقولُ أنَا راضٍ حقيقةً بالذِي أكرهنِي عليهِ، وإلَّا لمَا كانَ مكرَهاً، أمَّا المضطرُّ فيقولُ أنَا راضٍ ببيعِ دارِي مادامَ قدْ توقَّفَ عليهَا إنقاذُ ابنِي.

ومنْ ذلكَ قاعدةُ: (الضَّروراتُ تبيحُ المحظوراتِ).

وهيَ قاعدةٌ أصوليَّةٌ مأخوذةٌ منَ النصِّ، وهوَ قولهُ تعالَى: {إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ}[الأنعام: 119].

والاضطرارُ: الحاجةُ الشَّديدةُ، والمحظورُ: المنهيُّ عنْ فعلهِ، ومعنَى القاعدةِ: أنَّ الممنوعَ شرعاً يباحُ عندَ الضَّرورةِ، وقدْ مثَّلَ الفقهاءُ لهذهِ القاعدةِ بأمثلةٍ منهَا:

1) إباحةُ أكلِ الميتةِ عندَ المخمصةِ، أيِ المجاعةِ.

2) إساغةُ اللُّقمةِ بالخمرِ لمنْ غصَّ، ولمْ يجدْ غيرهَا.

3) إباحةُ كلمةُ الكفرِ للمكرهِ عليهَا بقتلٍ أوْ تعذيبٍ شديدٍ.

وهذهِ القاعدةُ هيَ فرعٌ عنْ قاعدةٍ كليَّةٍ سمَّاهَا العلماءُ (الضَّررُ يزالُ)، فكلُّ ما أبيحَ اضطرارًا فمنْ بابِ أولَى أنْ يباحَ إكراهًا، وخلاصةً: قسمةُ المكرهِ علَى ثلاثٍ:

1) مكرهٌ ملجئٌ كاملٌ، وهذَا يبيحُ لهُ حتَّى قولَ كلمةِ الكفرِ بشروطهَا السَّابقةِ.

---

(1) صحيح أخرجه أحمد والبيهقي والدارقطني وغيرهم.

2) غيرُ ملجئٍ ناقصٍ، وهذَا يبيحُ لهُ تركُ بعضِ السُّننِ.

3) مضطرٌ أيْ لمْ يكرِهُّ أحدٌ وهوَ راضٍ عنْ ذلكَ، ولا يندرجُ الاضطرارُ تحتَ أي نوعٍ منَ الإكراهِ، معَ أنَّهُ يشملهُ لغةً، فلَا نقولُ أُكرِهتُ علَى أكلِ لحمِ الخنزيرِ إنْ لمْ يكنْ مكرهًا، بلِ اضطررتُ لأكلِ لحمِ الخنزيرِ منِ مخمصةٍ، ولَا نقولُ اضطررتُ لقولِ كلمةِ الكفرِ، بلْ أكرهتُ علَى قولِ كلمةِ الكفرِ أو أجبرتُ، معَ أنَّهُ يجوزُ لغةً.

والإجبارُ أعلَى منَ إكراهِ الإلجاءِ الكاملِ، فالمجبورُ علَى الفعلِ محمولٌ عليهِ حملًا، كمنْ قيَّدكَ وفتحَ فاكَ وصبَّ فيهِ الخمرَ صبًّا إلَى أنْ ابتلعتهُ جبرًا، وهذَا النوعُ ليسَ علَى صاحبهِ شيءٌ منْ قريبٍ ولَا منْ بعيدٍ.

والإرغامُ منْ جنسِ الإكراهِ لكنْ يتبعهُ ذلٌّ، قالَ فِي القاموسِ: رَغَّمَ الرَّجُلُ أَنْفَهُ : خَضَعَ، وذَلَّ.

نعودُ إلَى أنواعِ الخوفِ، والقسمِ الثَّالثُ:

ج) خوفُ السرِّ: وهوَ خوفُ غيرِ اللهِ تعالَى فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى، كمَنْ يخافُ مِنَ وليٍّ أوْ إنسٍ أوْ جنٍّ، أنْ يصيبهُ بمرضٍ أوْ مكروهٍ أو أذًى أوْ بليَّةٍ ممَّا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى.

وهذَا النَّوعُ كالخوفِ الواقعِ بينَ عبَّادِ القبورِ المتعلِّقينَ بالأولياءِ؛ قالَ تعالَى عنْ قومِ هودٍ: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}[هود: 54] وحكمهُ: شركٌ أكبرٌ.

دليلُ عدمِ جوازِ الخوفِ منْ غيرِ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ: قولهُ تعالَى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[آل عمران: 175]، قالَ الطَّبريُّ: يعنِي بذلكَ تعالَى ذكرهُ: إنَّمَا الذِي قالَ لكمْ، أيُّهَا المؤمنونَ: "إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ"، فخوَّفوكمْ بجموعِ عدوِّكمْ

ومسيرهمْ إليكمْ، منْ فعلِ الشَّيطانِ ألقاهُ علَى أفواهِ منْ قالَ ذلكَ لكمْ، يخوِّفكمْ بأوليائهِ منَ المشركينَ – أبِي سفيانَ (رضيَ اللهُ عنهُ) وأصحابهِ منْ قريشٍ – لترْهبوهمْ، وتجْبُنُوا عنهمْ.

ثمَّ قالَ: يقولُ: فلَا تخافُوا، أيُّهَا المؤمنونَ، المشركينَ، ولَا يعظُمَنَّ عليكمْ أمرهمْ، ولَا ترهبُوا جمعهمْ، معَ طاعتكمْ إيَّايَ، مَا أطعتموني واتَّبعتمْ أمرِي، وإنِّي متكفِّلٌ لكمْ بالنَّصرِ والظفرِ، ولكنْ خافونِ واتَّقُوا أنْ تعصوني وتخالفُوا أمرِي،

فتهلكُوا "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"، يقولُ: ولكنْ خافونِ دونَ المشركينَ ودونَ جميعِ خلقِي، أنْ تخالفُوا أمرِي، إنْ كنتمْ مصدِّقِي رسولِي ومَا جاءكمْ بهِ منْ عندِي[1].

وهذَا دليلٌ علَى أنَّ الخوفَ منْ غيرِ اللهِ تعالَى منهيٌّ عنهُ، وأنَّ الخوفَ منَ اللهِ تعالَى مأمورٌ بهِ، وهوَ شرطٌ فِي صحَّةِ الإيمانِ.

وأمَّا الخشيةُ:

الخشيةُ لغةً:

تدلُّ مادَّةُ "خ ش ي" فِي اللُّغةِ علَى خوفٍ ورهبةٍ، قالَ ابنُ فارسٍ: "الخاءُ والشِّينُ والحرفُ المعتلُّ يدلُّ علَى خوفٍ وذعرٍ، ثمَّ يُحملُ علَى المجازِ، فالخشيةُ الخوفُ... والمجازُ قولهمْ: خشيتُ بمعنَى علمتُ" واحتجَّ بقولِ الشَّاعرِ:

ولقدْ خشيتُ بأنْ منْ تبعَ الهدَى * سكنَ الجنانَ معَ النَّبيِّ محمَّدٍ[2]

ثمَّ فسَّرَ "خشيت" بقولهِ: أيْ: علمتُ[3].

---

(1) تفسير الطبري.

(2) البيت لجرير، وقال أحمد حسني في حاشية مجمع البحرين للطريحي: لم أظفر على من نسب هذا البيت إلى جرير – فيما اطلعت عليه من الكتب اللغوية – وهو أيضا غير موجود في ديوانه المطبوع –: وجرير – بفتح الجيم وكسر الراء – هو أبو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع، الشاعر الذي اشتهر بكثرة هجائه وقذفه، وفيه مع ذلك دين وعفة وحسن خلق ورقة طبع، وكان بينه وبين الفرزدق مناوشات شعرية وأهاجي كثيرة، ولد سنة 42 ه باليمامة ومات فيها سنة 114 ه. المؤتلف والمختلف ص 71، الشعر والشعرا. ص 108، جواهر الأدب ج 2 ص 150.

(3) معجم مقاييس اللغة.

الخشيةُ اصطلاحًا:

تألُّمُ القلبِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ فِي المستقبلِ يكونُ تارةً بكثرةِ الجنايةِ منَ العبدِ وتارةً بمعرفةِ جلالِ اللهِ تعالَى وهيبتهِ، وخشيةُ الأنبياءِ عليهمْ السَّلامُ منْ هذَا القبيلِ.

والخشيةُ خوفٌ يشوبهُ تعظيمٌ، وأكثرُ مَا يكونُ ذلكَ عنْ علمٍ بمَا يخشَى منهُ، ولذلكَ خصَّ اللهُ تعالَى العلماءَ بهَا فِي قولهِ تعالَى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ منْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ}[فاطر: 28].

الفرقُ بينَ الخوفِ والخشيةِ:

لَا يكادُ اللُّغويونَ يفرِّقونَ بينَ الخوفِ والخشيةِ والشَّفقةِ، ولَا شكَّ أنَّ الخشيةَ أعلَى منَ الخوفِ وهيَ أشدُّ الخوفِ فإنَّهَا مأخوذةٌ منْ قولهمْ: شجرةٌ خشيةٌ، أيْ: يابسةٌ، وهوَ فواتٌ بالكليَّةِ، والخوفُ مأخوذٌ منْ قولهمْ: ناقةٌ خوفاءٌ، أيْ: بهَا داءٌ، وهوَ نقصٌ، وليسَ بفواتٍ، ولذلكَ خُصَّتِ الخشيةَ باللهِ تعالَى، وخُصَّ الخوفُ بغيرهِ فِي قولهِ تعالَى فِي صفةِ المؤمنينَ:{وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ}[الرعد: 21].

ومنَ الفروقِ بينَ الخوفِ والخشيةِ أنَّ الخشيةَ تكونُ منْ عظمِ المُخْتَشَى، وإنْ كانَ الخاشِي قويًّا، ألمْ ترَ إلَى عمرٍ وعليٍّ ومَا لهمَا منْ قوَّةٍ جسديَّةٍ وعلميَّةٍ وسلطةٍ، وهمْ يبكونَ منْ خوفهمْ منْ خالقهمْ، فخوفهمْ هذَا يسمَى خشيةً، وأمَّا الخوفُ يكونُ منْ ضعفِ الخائفِ وإنْ كانَ المخوِّفُ أمرًا يسيرًا، ألمْ ترَ إلَى الجبانِ يخافُ كلَّ شيءٍ حتَّى قيلَ فيهِ أنَّهُ يخافُ منْ ضلِّهِ، ومنَ الأدلَّةِ علَى

ذلكَ أنَّ الخاءَ والشِّينَ والياءَ فِي تقاليبِهَا تدلُّ علَى العظمةِ، نحوَ قولنَا: شيخُ للسيِّدِ الكبيرِ، وخيشٌ لمَا غلظَ منَ اللِّباسِ، ولهذَا وردتْ الخشيةُ غالبًا فِي حقِّ اللهِ تعالَى، نحوَ قولهِ تعالَى: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}[البقرة: 74].

وقولهُ تعالَى: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}[ق: 33]، وهذَا يقتضِي أنْ الذِي يخشَى اللهَ تعالَى لَابدَّ أنْ يرجوهُ ويطمعَ فِي رحمتهِ فينيبَ إليهِ ويحبَّهُ ويحبَّ عبادتهُ وطاعتهُ فإنَّ ذلكَ هوَ الذِي ينجيهِ ممَّا يخشاهُ ويحصلُ بهِ مَا يحبُّهُ. كذلكَ قولهُ تعالُى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ}[فاطر:28]، قالَ السَّلفُ وأكثرُ العلماءِ أنَّهُ يدلُّ علَى أنَّ كلَّ منْ يخشَى اللهَ تعالَى فهوَ عالمٌ وأنَّ كلَّ منْ لمْ يخشَ اللهَ تعالَى فهوَ جاهلٌ.

وذلكَ أنَّ الحصرَ فِي معنَى الاستثناءِ، والاستثناءُ منَ النَّفيِ إثباتٌ عندَ جمهورِ العلماءِ، فنفَى الخشيةَ عمَّنْ ليسَ منَ العلماءِ وأثبتهَا للعلماءِ، فكلُّ عالمٍ يخشاهُ، فمنْ لمْ يخشَ اللهَ تعالَى فليسَ منَ العلماءِ بلْ منَ الجهَّالِ كمَا قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: كفَى بخشيةِ اللهِ علمًا، وكفَى بالاغترارِ باللهِ جهلًا[1].

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وخلاصةً: الخشيةُ لَا تكونُ إلَّا منَ اللهِ تعالَى وحدهُ خوفًا ومحبَّةً وطاعةً وتعظيمًا، والخوفُ يكونُ منَ اللهِ تعالَى، ومنَ غيرِ اللهِ تعالَى إنْ كانَ يتحمَّلُ أسبابهُ، قالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}[الرعد: 21].

وبمَا أنَّنا عرَّفنَا الخوفَ والخشيةَ والفرقَ بينهمَا وجبَ أنْ نعرِّفَ مَا يتقاربُ منهمَا فِي الألفاظِ والمعانِي:

الذُّعرُ: خَوْفٌ فُجائيٌّ شديدٌ، والمذعورُ منِ اسْتولَى عليهِ الخوفُ.

الهلعُ: جَزَعٌ شديدٌ، اِضْطرابٌ وانْزعاجٌ، وهَوْلٌ، وفزعٌ عظيمٌ، وقلقٌ شديدٌ، والهلِعُ والهلوعُ: خائفٌ جبانٌ جاحدٌ.

الجزعُ: مَا يُحسُّ بهِ المرءُ منَ القلقِ والاضطرابِ وضيقِ الصَّدرِ أوْ عدمِ الصَّبرِ، والجَزُوعُ: ضدُّ الصَّبُورِ علَى الشرِّ.

الرُّعبُ: فقدُ رباطةِ الجَأْشِ وثَبَاتِ القَلْبِ، والمرعوبُ خائفٌ فزعٌ.

الفزعُ: رعبٌ وخوفٌ إلَى درجةِ الاستغاثةِ بالغيرِ، والفزِعُ الخائفُ المُستغيثُ، والفزِعُ المُغيثُ، (تُطلقُ علَى المغيثِ والمستغيثِ، بكسرِ الزَّاي فِي الحالتينِ).

الرَّهبةُ: خوفٌ يَستَشعِرُ بهِ الشَّخصُ أمامَ منْ يجلُّهُ.

الشَّفقةُ: حُنوٌّ وعَطْفٌ، ورَحْمةٌ، والشَّفيقُ رقيقُ القلبِ.

الإجلالُ: التَّعظيمُ والإحترامُ، والمُجِلُّ المعظِّمُ للشيءِ.

الهيبةُ: الإجلالُ والمخافةُ[1].

(1) ينظر قواميس اللغة.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والرَّجاءُ: أنْ يرجُو العبدُ رحمةَ اللهِ العامَّةِ، ورحمتهُ الخاصَّةُ بهِ، فيرجُو قبولَ مَا تفضَّلَ اللهُ عليهِ بهِ منَ الطَّاعاتِ، وغفرانِ مَا تابَ منهُ منَ الزلَّاتِ، ويعلِّقُ رجاءهُ بربِّهِ فِي كلِّ حالٍ منْ أحوالهِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الرَّجاءَ فِي كثيرٍ منَ الآياتِ فِي كتابهِ العزيزِ، وأثنَى علَى أهلِ الرَّجاءِ وذكرَ سبحانهُ وتعالَى ثوابهمْ، وتوعَّدَ سبحانهُ الذينَ لَا يرجونهُ بعذابٍ أليمٍ، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}[الزمر: 9].

وقالَ سبحانهُ: {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء: 104].

وقالَ جلَّ وعلَا: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا}[الإسراء: 28].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا * لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا}[النبأ: 27/21].
~~~~~~~~~~~

الرَّجاءُ لغةً هوَ:

التَّوَسُّلُ، والتَّفَضُّلُ، ورجاءً: عبارةٌ تُستخدمُ كردٍّ إيجابيٍّ مهذَّبٍ لعرضٍ، وضدُّ الرَّجاءِ: اليأسُ[1].

والرجاءُ هوَ: الأملُ[2].

قالَ ابنُ فارسٍ: أصلُ الكلمةِ: الرَّاءُ والجيمُ والحرفُ المعتلُّ (الواو) أصلانِ متباينانِ: يدلُّ أحدهمَا علَى الأملِ ويدلُّ ثانيهمَا علَى ناحيةِ الشَّيءِ[3].

معنَى كلمةِ الرَّجاءِ (بالمدِّ): التوقُّعُ والأملُ يقالُ رجوتُ الأمرَ أَرْجُوهُ رَجاءً، ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}[الكهف: 110].

والرَّجَا (بالقصرِ):

ناحيةُ كلِّ شيءٍ وطرفهُ وحافَّتهُ، وخصَّهُ البعضُ بالنَّاحيةِ منَ البئرِ، وكلُّ ناحيةٍ رَجاً، والتَّثنيةُ منهَا رَجَوَانِ والجمعُ أرجاءٌ[4]، ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}[الحاقة: 17].

قالَ الطَّبريُّ: عنْ مجاهدٍ، قولهُ: (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) قالَ: أطرافهَا، وقالَ: عنْ قتادةَ (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا): علَى حافاتهَا، وقالَ: قالَ قتادةُ: علَى نواحيهَا.

وأمَّا الإرجاءُ (المهموزُ):

فإنَّهُ يدلُّ علَى التَّأخيرِ ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: {تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ}[الأحزاب: 51]، قالَ ابنُ كثيرٍ: وقدْ تقدَّمَ أنَّ البخاري رواهُ منْ حديثِ أبِي أسامةَ، عنْ هشامٍ بنِ عروةَ، فدلَّ هذَا علَى أنَّ المرادُ بقولهِ: (تُرْجِي) أي: تُؤَخِّرُ.اهـ

---

(1) المعجم العربي.

(2) التعريفات للجرجاني.

(3) المقاييس في اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور.

(4) السابق.

ومنهُ سمِّيتِ المرجئةُ[1]، لأنَّهمْ كانُوا يؤخِّرونَ العملَ عنِ النيَّةِ والعقدِ.

ومنْ أقوالهمْ: لَا تضرُّ معَ الإيمانِ معصيةٌ، كمَا لَا تنفعُ معَ الكفرِ طاعةٌ[2].

وقدْ جاءتْ مادَّةُ الرَّجاءِ فِي القرآنِ الكريمِ لعدَّةِ معانٍ منهَا:

1) الرَّجاءُ بمعنَى الخوفِ، قالَ اللهُ تعالَى: {مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}[نوح: 13].

والرَّجاءُ لَا يكونُ بمعنَى الخوفِ إلَّا إذَا سبقهُ نفيٌ[3].

2) الرَّجاءُ بمعنَى الطَّمعِ، قالَ تعالَى: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}[الإسراء: 57].

قالَ مكِّي القرطبِي فِي تفسيرِ الهدايةِ إلَى بلوغِ النِّهايةِ: وأصلُ الرَّجاءِ وبابهِ أنْ يأتِي معَ الذِي يقربُ منَ اليقينِ...[4].

3) الرَّجاءُ بمعنَى توقُّعِ الثَّوابِ، قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ}[فاطر: 29].

وبذلكَ قالَ البيضاوِي فِي تفسيرهِ فِي قولهِ تعالَى: {بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}[الفرقان: 41] قالَ: بلْ كانُوا كفرةً لَا يتوقَّعونَ نشورًا[5].

الرَّجاءُ فِي اصطلاحِ الشَّرعِ لهُ عدَّةُ تعريفاتٍ وكلُّهَا تدورُ علَى معنًى واحدٍ نذكرُ منهَا:

1) تعلُّقُ القلبِ بحصولِ محبوبٍ فِي المستقبلِ[6].

2) الطَّمعُ فيمَا يمكنُ حصولهُ، ويرادفهُ الأملُ[7].

---

(1) المقاييس في اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور.

(2) ينظر الشهرستاني في الملل والنحل.

(3) تهذيب اللغة للأزهري182/11.

(4) هو الإمام مكي بن أبي طالب القيسي القرطبي ت 437 هـ، ذكره ابن الجزري ضمن علماء القراءات، ينظر معجم حفاظ القرآن عبر التّاريخ، محمد سالم محيسن الجزء الثاني صفحة 406.

(5) تفسير البيضاوي، الجزء الرابع ص 125.

(6) التعريفات للجرجاني.

(7) الكليات للكفوي ص: 468.

3) ظنٌّ يقتضِي حصولَ مَا فيهِ مسرَّةٌ[1].

4) تأميلُ الخيرِ، وقربُ وقوعهِ[2].

5) توقُّعُ الخيرِ منَ اللهِ للعلمِ بأنَّهُ بيدهِ، ولَا مالكَ لهُ غيرهُ[3].

وهذهِ التَّعريفاتُ كلُّهَا متقاربةُ المعنَى، وتصدقُ علَى الرَّجاءِ، فهوَ تعلُّقُ القلبِ بحصولِ رحمةِ اللهِ وفضلهِ، وعدمِ اليأسِ والقنوطِ، ويشاركهُ التمنِّي فِي هذَا، ولكنَّ الفرقَ بينهمَا، أنَّ التَّمنِّي يكونُ معَ الكسلِ والخمولِ "والتَّسويفِ"، ولَا يسلكُ بصاحبهِ طريقَ الجدِّ والاجتهادِ [4]، والعزمِ والتوكُّلِ.

والتَّمنِي مذمومٌ وهوَ منْ صفاتِ المغرورينَ، وهوَ:

توقُّعُ الخيرِ منْ دونِ أخذٍ بأسبابهِ، قالَ تعالَى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[الحديد: 13 – 14].

فالرَّجاءُ هوَ: توقُّعُ الخيرِ معَ الأخذِ بأسبابهِ الدَّاخلةِ تحتَ اختيارِ المكلَّفِ، فالعبدُ إذَا بثَّ بذرَ الإيمانِ، وسقاهُ ماءُ الطَّاعاتِ، وطهَّرَ القلبَ منْ شَوْكِ الأخلاقِ الرَّديئةِ، وانتظرَ منْ فضلِ اللهِ تعالَى تثبيتهُ علَى ذلكَ إلَى الموتِ، وحُسْنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلَى المغفرةِ، كانَ انتظارهُ لذلكَ محمودًا باعثًا علَى المواظبةِ علَى الطَّاعاتِ والقيامِ بمقتضَى الإيمانِ إلَى الموتِ، وإنْ قطعَ بذرَ الإيمانِ عنْ تعهُّدهِ بماءِ الطَّاعاتِ، أوْ تركِ القلبِ مشحونًا

(1) المفردات للراغب ص: 195، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي46/3.

(2) فيض القدير للمناوي490/4.

(3) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي518/1.

(4) فيض القدير للمناوي 490/4، مدارج السالكين لابن القيم37/2.

برذائلِ الأخلاقِ، وانهمكَ فِي طلبِ لذَّاتِ الدُّنيَا، ثمَّ انتظرَ المغفرةَ، كانَ ذلكَ حمقًا وغرورًا[1].

قالَ اللهُ تعالَى: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[الأعراف: 169]، قالَ ابنُ كثيرٍ: ...يسوِّفونَ أنفسهمْ ويعدونهَا بالتَّوبةِ...[2].

والرغبة لغةً:

الإرادةُ[3].

والرَّغبةُ شرعًا:

سَفَرُ القلبِ فِي طلبِ المرغوبِ فيهِ[4].

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: "والفرقُ بينَ الرَّغبةِ والرَّجاءِ، أنَّ الرَّجاءَ طمعٌ، والرَّغبةُ طلبٌ، فهيَ ثمرةُ الرَّجاءِ، فإنَّهُ إذَا رجَا شيئًا طلبهُ"[5].

قالَ تعالَى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[الأنبياء: 90].

قالَ الطَّبرِي: (رَغَبًا) أنَّهمْ كانُوا يعبدونهُ رغبةً منهمْ فيمَا يرجونَ منهُ منْ رحمتهِ وفضلهِ (وَرَهَبًا) يعنِي رهبةً منهمْ منْ عذابهِ وعقابهِ، بتركهمْ عبادتهُ وركوبهمْ معصيتهُ[6].

---

(1) كتاب موقف الإسلام من الانحرافات المتعلقة بتوحيد العبادة لعبد الرازق محمد بشر.

(2) تفسير ابن كثير.

(3) مجمل اللغة لابن فارس388/1، مختار الصحاح للرازي ص: 105.

(4) مدارج السالكين لابن القيم550/1.

(5) مدارج السالكين لابن القيم58/2.

(6) تفسير الطبري.

فيقابلُ الرَّجاءَ الخوفُ، ويقابلُ الرغَّبةَ الرَّهبةُ، والرَّهبةُ هي: الخوفُ والفزعُ[1].

قالَ السَّعدِي: والرَّجاءُ: أنْ يرجُو العبدُ رحمةَ اللهِ العامَّةِ، ورحمتهُ الخاصَّةُ بهِ...:

معنَى الرَّحْمَةِ لغةً:

الرَّحمةُ: منْ رحمةٍ يرحمهُ، رحمةً ومرحمةً، إذَا رقَّ لهُ، وتعطَّفَ عليهِ، وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدلُّ علَى الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفةِ، وتراحمَ القومُ: رحمَ بعضهمْ بعضًا.

ومنهَا الرَّحِمُ: وهيَ عَلاقةُ القرابةِ، (وسمِّيةِ الرَّحمُ رحمًا، لأنَّ الأقرباءَ رحماءُ ببغضهمْ).

وقدْ تُطلقُ الرَّحْمَةُ، ويرادُ بهَا مَا تقعُ بهِ الرَّحْمَةُ، كإطلاقِ الرَّحْمَةِ علَى الرِّزقِ والغيثِ[2].

معنَى الرَّحْمَةِ اصطلاحًا:

الرَّحْمَةُ رقَّةٌ تقتضِي الإحسانَ إلَى الْمَرْحُومِ، وقدْ تُستعملُ تارةً فِي الرِّقَّةِ المجرَّدةِ، وتارةً فِي الإحسانِ المجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ[3].

وقيلَ: هيَ رِقَّةٌ فِي النَّفسِ، تبعثُ علَى سوقِ الخيرِ لمنْ تتعدَّى إليهِ[4].

وقيلَ: هيَ رِقَّةٌ فِي القلبِ، يلامسهَا الألمُ حينمَا تُدرِكُ الحواسُ أو تُدرَكُ بالحواسِ، أو يتصوَّرُ الفكرُ وجودَ الألمِ عندَ شخصٍ آخرَ، أوْ يلامسهَا السُّرورُ حينمَا تُدركُ الحواسُ أو تدركُ بالحواسِ أو يتصوَّرُ الفكرُ وجودَ المسرَّةِ عندَ شخصٍ آخرَ[5].

---

(1) معجم المعاني.

(2) ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (1929/5)، و((مقاييس اللغة)) لابن فارس (498/2)، و((لسان العرب)) لابن منظور (230/12)، و((مختار الصحاح)) للرازي (ص 120).

(3) ((مفردات القرآن)) للراغب (347/1).

(4) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (21/26).

(5) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (3/2).

معنَى رَحمةِ اللهِ تعالَى:

وصفَ اللهُ تعالَى نفسهُ بأنَّهُ الرَّحمنُ والرَّحيمُ، وهمَا صفتانِ منَ الرَّحمةِ[1].

فاللهُ تعالَى هوَ الرَّحيمُ بعبادهِ وحدهُ دونَ سواهُ، ورحمةُ اللهِ تعالَى لَا تُماثِلُ رحمةَ المخلوقينَ، ولَا شكَّ أنَّ رحمةَ اللهِ تعالَى لَا يضاهيهَا شيءٌ، فهيَ تفوقُ كلَّ شيءٍ، يقولُ تعالَى: {وَرَحمَتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ}[الأعراف: 156]، وقدْ شبَّهَ النَّبيُّ ﷺ للصَّحابةِ بمشهدٍ حقيقيٍّ حصلَ أمامهمْ، فِي حديثِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قدِمَ علَى رسولِ اللهِ ﷺ بسبْيٍ، فإذَا امرأةٌ منَ السَّبيِ تسعَى، إذَ وجدتْ صبيًّا فِي السَّبيِ فأخذتهُ وألصقتهُ ببطنِهَا وأرضعتهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أترونَ هذهِ طارحةً ولدَهَا فِي النَّارِ؟ قلنَا: لَا واللهِ، وهيَ تقدرُ ألَّا تطرحَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أرحمُ بعبادِهِ منَ المرأةِ بولدِهَا[2].

الفرقُ بينَ الاسمينِ: الرَّحمنِ والرَّحيمِ:

كلاهمَا مشتقٌّ منَ الرَّحمةِ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: همَا اسمانِ رقيقانِ أحدهمَا أرقُّ منَ الآخرِ[3].

وقالَ غيرهُ: الرَّحمنُ بمعنَى: أنَّ رحمتهُ عامَّةٌ تشملُ العالمينَ، المؤمنَ والكافرَ والبرَّ والفاجرَ، والمطيعَ والعاصِي وغيرَ هؤلاءِ، وأمَّا الرَّحيمُ فرحمتهُ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ؛ واستدلُّوا بقولِ اللهِ تعالَى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[الأحزاب:43]، ولمْ يقلْ: رحماناً.

وقالَ بعضهمْ: الرَّحمنُ صفةُ ذاتٍ، يعنِي: تعلُّقهَا بذاتِ اللهِ تعالَى، ولذلكَ قرنهُ اللهُ باستوائهِ علَى العرشِ فقالَ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: 5]، أمَّا الرَّحيمُ فتتعلَّقُ بصفتهِ أيْ بالفعلِ، أيْ تعلُّقهَا بمنْ يرحمُ.

وقيلَ: أنَّهُ رحمنٌ فِي ذاتهِ، ورحيمٌ بغيرهِ.

---

(1) عبدالرحمن الزجاجي (1986)، اشتقاق أسماء الله (الطبعة الثانية)، بيروت: مؤسسة الرسالة، صفحة 38. بتصرّف.

(2) رواه أبو نعيم في حلية الاولياء 3/264 وأخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: (5999)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: (2754).

(3) تفسير ابن كثير.

أنواعُ رحمةِ اللهِ تعالَى:

رحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ نوعانِ: رحمةٌ عامَّةٌ، ورحمةٌ خاصَّةٌ:

1 – أمَّا الرَّحمةُ العامَّةُ: فهيَ لجميعِ الخلقِ، فهوَ أوجدهمْ برحمتهِ، ربَّاهمْ برحمتهِ، رزقهمْ برحمتهِ، أمدَّهمْ بالنِّعمِ والعطايَا برحمتهِ جلَّ جلالهُ، فقدْ أصحَّ أبدانهمْ، وسخَّرَ المخلوقاتِ لهمْ، فالمخلوقاتُ مثلَ: الأنعامِ والدَّوابِ والشَّمسِ والقمرِ والمطرِ والبحارِ والجبالِ سخَّرهَا للنَّاسِ جميعاً، مؤمنهمْ وكافرهمْ، وهذَا تأويلُ قولِ ربِّنَا جلَّ جلالهُ علَى لسانِ الملائكةِ: "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا"[غافر: 7]، وكذلكَ قولهُ تعالَى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}[الأعراف: 156]، وكذلكَ شملتْ رحمتهُ العامَّةُ الدَّوابَ بأنواعهمْ فمنْ ذلكَ حديثُ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: جعلَ اللهُ الرَّحمةَ مائةَ جزءٍ، فأمسكَ عندهُ تسعةَ وتسعينَ، وأنزلَ فِي الأرضِ جزءًا واحدًا، فمنْ ذلكَ الجزءِ يتراحمُ الخلائقُ، حتَّى ترفعَ الدَّابةُ حافرهَا عنْ ولدهَا خشيةَ أنْ تصيبهُ[1].

2 – وأمَّا الرَّحمةُ الخاصَّةُ: فهيَ للمؤمنينَ، يرحمهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي الدُّنيَا بتوفيقهمْ وهدايتهمْ إلَى الصِّراطِ المستقيمِ، ويرحمهمْ فِي الآخرةِ بإدخالهمْ الجنَّةَ، وإنجائهمْ منْ نقمتهِ وعذابهِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "لنْ ينجِّي أحدًا منكمْ عملُهُ، قالُوا: ولَا أنتَ يَا رسولُ اللهِ؟ قالَ: ولَا أنَا، إلَّا أنْ يتغمَّدَنِي اللهُ برحمةٍ، سدِّدُوا وقاربُوا، واغدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ منَ الدُّلجةِ، والقصدَ القصدَ تبلغُوا"[2].

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم: (6000)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: (2752).

(2) رواه البخاري.

وأقسامُ رحمةِ اللهِ تعالَى العامَّةِ والخاصَّةِ لَا تُحصَى ولَا تعدُّ.

فيجبُ علَى العبدِ أنْ يرجُو رحمةَ اللهِ تعالَى العامَّةِ منْ عطايَا ورزقٍ وصحَّةٍ فِي الابدانِ وغيرِ ذلكَ، ويستعملهَا فِي طاعتهِ سبحانهُ كيْ يكونَ أهلًا لرحمتهِ الخاصَّةِ، ويرجُو رحمتهُ الخاصَّةِ بأنْ يهديهِ إلَى صراطهِ المستقيمِ ويوفِّقهُ للطَّاعاتِ ويتقبَّلَ منهُ أعمالهُ وأنْ يتوبَ عليهِ ويعفوَ ويغفرَ مَا فاتَ منَ الزلَّاتِ ويُنجيهِ منْ عذابهِ ويُدخلهُ جنَّتهُ، كيْ يفيضَ عليهِ منْ رحمتهِ العامةِ.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وذكرَ اللهُ الإنابةُ فِي مواضعَ كثيرةٍ، وأثنَى علَى المنيبينَ، وأمرَ بالإنابةِ إليهِ، وحقيقةُ الإنابةِ: انجذابُ القلبِ إلَى اللهِ، فِي كلِّ حالةٍ منْ أحوالهِ، ينيبُ إلَى ربِّهِ عندَ النّعماءِ بشكرهِ، وعندَ الضرَّاءِ بالتضرُّعِ إليهِ، وعندَ مطالبِ النُّفوسِ الكثيرةِ بكثرةِ دعائهِ فِي جميعِ مهمَّاتهِ، وينيبُ إلَى ربِّهِ، باللَّهجِ بذكرهِ فِي كلِّ وقتٍ.

والإنابةُ أيضًا: الرُّجوعُ إلَى اللهِ، بالتَّوبةِ منْ جميعِ المعاصِي، والرُّجوعُ إليهِ فِي جميعِ أعمالهِ وأقوالهِ، فيعرضهَا علَى كتابِ اللهِ، وسنَّةِ رسولهِ ﷺ، فتكونُ الأعمالُ والأقوالُ، موزونةً بميزانِ الشَّرعِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

ومنَ الآياتِ الواردةِ فِي لفظةِ الإنابة:

قولهُ تعالَى: {إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[هود:75].

وقولهُ تعالَى علَى لسانِ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ لقومهِ: {وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود:88].

وقالَ تعالَى: {وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ}[ص:24].

وقالَ تعالَى آمرًا بالإنابةِ: {وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ}[الزمر:54].

وأثنَى تعالَى علَى المنيبينَ قائلًا: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ}[الزمر:17].

وقالَ تعالَى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}[ق:31- 33].
~~~~~~~~~~~

وكذلكَ وردتْ أحاديثُ فِي الإنابةِ، منهَا:

عنْ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهِ عنهمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ إذَا قامَ إلَى الصَّلاةْ منْ جوفِ اللَّيلِ: "اللَّهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، ولكَ الحمدُ أنتَ قيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ، ولكَ الحمدُ أنتَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، أنتَ الحقُّ، ووعدكَ الحقُّ، وقولكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، والسَّاعةُ حقٌّ، اللَّهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وإليكَ "أنبتُ"، وبكَ خاصمتُ، وإليكَ حاكمتُ، فاغفرِ لِي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ، وأسررتُ وأعلنتُ، أنتَ إلهِي لَا إلهَ إلهَ أنتَ"[1].

وعنْ جابرٍ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهمَا عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ:

لا تمنُّوا الموتَ فإنَّ هولَ المطّلعِ شديدٌ، وإنَّ منَ السَّعادةِ أنْ يطولَ عمرُ العبدِ ويرزقهُ اللهُ الإنابةَ"[2].

ومنْ أقوالِ العلماءِ الواردةِ فِي الإنابةِ: قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: "الإنابةُ هيَ عكوفُ القلبِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ كاعتكافِ البدنِ فِي المسجدِ لَا يفارقهُ، وحقيقةُ ذلكَ عكوفُ القلبِ علَى محبَّتهِ، وذكرهِ بالإجلالِ والتَّعظيمِ، وعكوفِ الجوارحِ علَى طاعتهِ بالإخلاصِ لهُ والمتابعةِ لرسولهِ، ومنْ لمْ يعكفْ قلبهُ علَى اللهِ وحدهُ، عكفَ علَى التَّماثيلِ المتنوِّعةِ"[3].

وعنْ مجاهدِ فِي قولهِ تعالَى: {أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[هود:75]، حدَّثنَا بشرٌ قالَ: الأوَّابُ: القانتُ الرَّجَّاعُ[4].

وقالَ ابنُ زيدٍ، فِي قولهِ تعالَى: {وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ}[الزمر:54]: "الإنابةُ: الرُّجوعُ إلَى الطَّاعةِ، والنُّزوعُ عمَّا كانُوا عليهِ، ألَا تراهُ يقولُ: "مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ"[5].

---

(1) أخرجه البخاري.

(2) أخرجه أحمد.

(3) كتاب الفوائد لابن القيِّم.

(4) تفسير الطبري.

(5) السَّابق.

الإنابةُ لغةً:

تدورُ مادَّةُ (ن و ب) حولَ الرُّجوعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: "النُّونُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ علَى اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليهِ"(1).

وقالَ ابنُ الأثيرِ: "يقالُ أنابَ ينيبُ إنابةً، فهوَ منيبٌ، إذَا أقبلَ ورجعَ وفِي حديثِ الدُّعاءِ: "وَإليكَ أنبتُ""(2).

والإنابةُ اصطلاحًا:

قالَ الكفويُّ: "الإنابةُ: الرُّجوعُ عنْ كلِّ شيءٍ إلَى اللهِ تعالَى"(3).

وقالَ ابنُ القيِّمِ: "الإنابةُ: الإسراعُ إلَى مرضاةِ اللهِ تعالَى معَ الرُّجوعِ إليهِ فِي كلِّ وقتٍ، وإخلاصِ العملِ لهُ"(4).

وقالَ الرَّاغبُ: "الإنابةُ إلَى اللهِ تعالَى: الرُّجوعُ إليهِ بالتَّوبةِ وإخلاصِ العملِ"(5).

أنواعُ الإنابةِ: الإنابةُ إنابتانِ:

1) إنابةٌ لربوبيِّتهِ تعالَى: وهيَ إنابةُ المخلوقاتِ كلِّهَا، (فهيَ إنابةٌ عامَّةٌ)، يشتركُ فيهَا المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ، قالَ اللهُ تعالَى: {وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}[الروم:33]، فهذَا عامٌّ فِي حقِّ كلِّ داعٍ أصابهُ ضرٌّ، كمَا هوَ الواقعُ...

2) إنابةٌ لإلهيَّتهِ تعالَى: وهيَ إنابةُ أوليائهِ تعالَى (فهيَ إنابةٌ خاصَّةٌ) وهيَ إنابةُ عبوديَّةٍ ومحبَّةٍ.

وهيَ تتضمَّنُ أربعةَ أمورٍ: محبَّتهُ، والخضوعُ لهُ، والإقبالُ عليهِ، والإعراضُ عمَّا سواهُ، فلَا يستحقُّ اسمَ (المنيبِ) إلَّا منِ اجتمعتْ فيهِ هذهِ الأربعُ، وتفسيرُ السَّلفِ لهذهِ اللَّفظةِ يدورُ علَى ذلكَ(6).

(1) مقاييس اللغة لابن فارس: [367/5].

(2) النهاية لابن الأثير: [123/5].

(3) كتاب الكليات لأبي البقاء (308).

(4) مدارج السالكين لابن القيم (467/1) بتصرف.

(5) المفردات للراغب مادة (نوب) (529).

(6) مدارج السالكين لابن القيم – بتصرُّف.

منزلةُ الإنابةِ:

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: منْ نزلَ فِي منزلِ التَّوبةِ، وقامَ فِي مقامهَا نزلَ فِي جميعِ منازلِ الإسلامِ، فإذَا استقرَّتْ قدمهُ فِي منزلِ التَّوبةِ نزلَ بعدهُ فِي منزلِ الإنابةِ، وقدْ أمرَ اللُّه تعالَى بهَا فِي كتابهِ، وأثنَى علَى خليلهِ بهَا، فقالَ: {وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ}[الزمر:54] وقالَ تعالَى: {إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[هود:75]، وأخبرَ سبحانهُ أنَّ البُشرَى منهُ، إنَّمَا هيَ لأهلِ الإنابةِ فقالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى}[الزمر:17][1].

ومنْ فوائدِ الإنابةِ:

1) دليلُ كمالِ الإيمانِ وحسنِ الإسلامِ.
2) دليلٌ علَى سلامةِ النِّيَّةِ وحسنِ الطَّويَّةِ.
3) بشارةُ اللهِ تعالَى للمنيبينَ وهدايتهُ لهمْ.
4) معلمٌ علَى صلاحِ العبدِ وقربهِ منْ ربِّهِ تعالَى.
5) دليلٌ علَى حسنِ ظنِّ العبدِ بربِّهِ.
6) طريقُ موصلٌ إلَى الجنَّةِ.
7) المنيبُ يُرزَقُ خشيةَ اللهِ تعالَى[2].

(1) السابق.

(2) من كتاب: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أمرَ تعالَى بالإخلاصِ، وأثنَى علَى المخلصينَ، وأخبرَ أنَّهُ لَا يقبلُ إلَّا العملَ الخالصَ.

وحقيقةُ الإخلاصِ: أنْ يقصدَ العاملُ بعملهِ وجهِ اللهِ وحدهُ وثوابهُ، وضدُّهُ: الرِّياءُ، والعملُ للأغراضِ النَّفسيَّةِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالإخلاصِ فِي العديدِ منَ الآياتِ فِي كتابهِ العزيزِ وقالَ: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[الزمر: 2 – 3].

وقالَ تعالَى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي}[الزمر: 11–14].

وقالَ جلَّ ذكرهُ: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[غافر: 14].

وقالَ سبحانهُ: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[غافر: 65].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الزمر: 65].
~~~~~~~~~~~

والإخلاصُ لغةً واصطلاحًا، تحدَّثنَا عنهُ سابقا لكنْ لا بأسَ فِي الزِّيادةِ والإعادةِ.

الإخلاصُ لغةً:

مأخوذٌ منَ الفعلِ "أخْلَص" والذي مضارعهُ "يُخلِص" ومصدرهُ "إخلاصًا" أي أمحض الشَّيءَ، جعلهُ محضًا ولمْ يخلِطْ معهُ غيرهُ، وأخلصَ الرَّجلُ دينهُ للهِ أي: جعلهُ محضًا للهِ تعالَى ولمْ يخلطْ معهُ فِي دينهِ أحدًا.

وقالَ تعالَى: "إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِنَ"[الحجر: 40]، وقرئَ بالكسرِ "المُخْلِصِينَ".

قالَ ثعلبُ النَّحوِي رحمهُ اللهُ تعالَى: يعنِي بـ "المُخْلِصِينَ" (بالكسر على اللَّام) الذينَ أخلصُوا العبادةَ للهِ تعالَى، و"المُخلَصِينَ"(بالفتحة على اللَّام)الذينَ أخلصهمُ اللهُ تعالَى.

وقالَ الزجَّاج رحمهُ اللهُ تعالَى فِي قولهِ تعالَى: {وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا}[مريم: 51]، قُرئَ "مُخْلِصًا"، والمخلَصُ: الذِي أخلصهُ اللهُ فجعلهُ مختارًا خالصًا منَ الدَّنسِ، والمخلِصُ: الذِي وحَّد الله تعالَى خالصًا، ولذلكَ قيلَ لسورة "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" سورةُ الإخلاصِ.

وقالَ ابنُ الأثيرِ رحمهُ اللهُ تعالَى: سُمِّيتْ بذلكَ (أي سورة الإخلاصِ) لأنَّهَا خالصةٌ فِي صفةِ اللهِ تعالَى وتقدَّسَ، أو لأنَّ اللَّافظَ بهَا قدْ أخلصَ التَّوحيدَ عزَّ وجلَّ.

وكلمةُ الإخلاصِ هيَ كلمةُ التَّوحيدِ[1].

والشَّيءُ الخالصُ: هوَ الصَّافِي الذِي زالَ عنهُ شَوْبُهُ الذِي كانَ فيهِ[2].

---

(1) سلسلة القلوب كتاب الإخلاص لمحمد أعمال صالح المنجد.

(2) لسان العرب – وتاج العروس.

الإخلاصُ اصطلاحًا:

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: الإخلاصُ: هوَ إفرادُ الحقِّ سبحانهُ بالقصدِ والطَّاعةِ[1].

وقالَ الجرجانِي: الإخلاصُ: تصفيةُ الأعمالِ منَ الكدوراتِ[2].

وقالَ بعضهم: الإخلاصُ: ألَّا تطلبَ علَى عملكَ شاهدًا إلَّا اللهُ ولَا مُجازيًا سواهُ[3].

وقد عرَّفهُ شيخنَا السَّعدي اصطلاحًا فِي سنامِ البابِ وقال: وحقيقةُ الإخلاصِ: أنْ يقصدَ العاملُ بعملهِ وجهِ اللهِ وحدهُ وثوابهُ، وضدُّهُ: الرِّياءُ، والعملُ للأغراضِ النَّفسيَّةِ.

والمخلصُ: هوَ الذي لَا يُبالِي لو خرجَ كلُّ قدرٍ لهُ فِي قلوبِ النَّاسِ منْ أجلِ صلاحِ قلبهِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولَا يحبُّ أنْ يطَّلعَ النَّاسُ علَى مثاقيلِ الذرِّ منْ عملهِ[4].

حكمُ الإخلاصِ:

الإخلاصُ: فرضُ عينٍ فِي حقِّ كلِّ مكلَّف.

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى عبادهُ بالإخلاصِ فِي العبادةِ وقالَ تعالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[البينة: 5]، بلْ إنَّ اللهَ تعالَى أمرَ النَّبيَّ ﷺ ذاتَهُ بإخلاصِ العبادةِ للهِ تعالَى، قالَ تعالَى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}[الزمر: 2].

---

(1) مدارج السَّالكين.

(2) التَّعريفات للجرجاني.

(3) مدارج السَّالكين.

(4) كتاب الإخلاص لمحمد صالح المنجد.

والأمرُ عندنَا يقتضِي الوجوبَ حتَّى تأتِي قرينةٌ تخرجهُ منَ الوجوبِ إلَى غيرِ ذلكَ.

قالَ السَّعدِي: وَإِذَا وَرَدَ الأَمْرُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَالأَصْلُ أَنَّهُ لِلوُجُوبِ إلاَّ بِقَرِينَةٍ تَصْرِفُهُ إِلَى النَّدْبِ أَوِ الإِبَاحَةِ، إِذَا كَانَ بَعْدَ الحَظْرِ غَالِبًا[1].

والدُّعاءُ منَ العبادةِ بلْ هوَ العبادةُ، فعنِ النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "إنَّ الدُّعاءَ هوَ العبادةَ"، ثمَّ قرأَ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر: 60][2].

وقد تحدَّثنَا عنْ عبادةِ الدُّعاءِ وتعريفهِ والتَّحذيرِ منْ صرفهِ لغيرِ اللهِ تعالَى، ووجوبِ إخلاصهِ للهِ تعالَى وحدهُ، معَ بيانِ أقسامهِ سابقا.

قالَ تعالَى: {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[الأعراف: 29].

فضلُ الإخلاصِ:

منْ فضائلِ الإخلاصِ: قبولُ العملِ، فعنْ أبِي أمامةَ البهلي رضي الله عنهُ قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: "إنَّ اللهَ لَا يقبلُ منَ العملِ إلَّا مَا كانَ لهُ خالصًا، وابْتُغِيَ بهِ وجههُ"[3].

---

(1) تسهيل الوصول إلى الرسالة المختصرة في الأصول لعلامة القصيم عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

(2) رواه أحمد 4/ 267، 271، وأبو داود 2/ 76 (1479)، والترمذي 5/ 211 (2969)، والنسائي في الكبرى 6/ 450 (11464)، وابن ماجه 2/ 1258 (3828)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (1329).

(3) رواه النسائي وصححه الألباني.

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: مغفرةُ الذُّنوبِ، يقولُ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والنَّوعُ الواحدُ منَ العملِ قدْ يفعلهُ الإنسانُ علَى وجهٍ يكملُ فيهِ إخلاصهُ وعبوديَّتهُ للهِ، فيغفرُ اللهُ لهُ بهِ كبائرَ، كمَا فِي حديثِ عبد اللهِ بنِ عمرو بنِ العاص رضي اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: "يُصاحُ برجلٍ منْ أمَّتِي يومَ القيامةِ علَى رؤوسِ الخلائقِ، فيُنشرُ لهُ تسعةٌ وتسعونَ سجلًّا، كلُّ سجلٍّ مدَّ البصرِ، ثمَّ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: هلْ تُنكرُ منْ هذَا شيأً؟ فيقولُ: لَا يا ربِّ، فيقولُ: لَا ظلمَ عليكَ، فتُخرجُ لهُ بطاقةٌ قدرُ الكفِّ فيهَا شهادةُ ألَّا إلهَ إلَّا الله، فيقولُ: أينَ تقعُ هذهِ البطاقةُ معَ هذهِ السِّجلَّاتِ؟ فتوضعُ هذهِ البطاقةُ فِي كفَّةٍ والسِّجلَّاتُ فِي كفَّةٍ، فثقُلتِ البطاقةُ، وطاشتِ السِّجلَّاتُ"[1] فهذَا حالُ منْ قالهَا بإخلاصٍ وصدقٍ كمَا قالهَا هذَا الشَّخصُ، وإلَّا فأهلُ الكبائرِ الذينَ دخلُوا النَّار يقولونَ كلُّهمْ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ولمْ يترجَّح قولهمْ علَى سيِّئاتهمْ كمَا ترجَّحَ قولُ صاحبِ البطاقةِ.

وفِي الحديثِ: أنَّ امرأةً بغيًّا رأتْ كلبًا فِي يومٍ حارٍّ يطِيفُ ببئرٍ قدْ أدلعَ لسانهُ منَ العطشِ، فنزعتْ لهُ بِمُوقِهَا – أي سقتهُ بخفِّهَا – فغُفِرَ لهَا[2]، فهذهِ سقتِ الكلبَ بإيمانٍ خالصٍ كانَ فِي قلبهَا فغُفرَ لهَا، وإلَّا فليسَ كُلَّمَا بَغيٌّ سقتْ كلبًا يُغفرُ لهَا[3].

(1) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم وقال الذهبي على شرط مسلم.

(2) رواهُ مسلم.

(3) فتاوى ابن تيمية (6/218 – 92).

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: إدراكُ أجرِ العملِ وإنْ عجزَ عنهُ، بلْ يصلُ لمنازلِ الشُّهداءِ والمجاهدينَ وإنْ ماتَ علَى فراشهِ، قالَ تعالَى فِي وصفِ الذينَ لمْ يستطعِ النَّبيُّ ﷺ أخذهمْ معهُ إلَى الجهادِ: {وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[التوبة: 92].

وقدْ النَّبيُّ ﷺ عنْ هؤلاءِ المعذورينَ وقالَ: "إنَّ أقوامًا بالمدينةِ خلفنَا مَا سلكنَا شِعبًا ولَا واديًا إلَّا وهمْ معنَا فيهِ، حبسهمُ العذرُ"[1]. وفِي روايةٍ: "إلَّا شركوكمْ فِي الأجرِ"[2].

وعنْ أنسٍ بنِ مالكٍ رضي الله عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "منْ سألَ الشَّهادةَ بصدقٍ بلَّغهُ اللهُ منازلَ الشُّهداءِ، وإنْ ماتض فِي فراشهِ"[3].

وقدْ يحصلُ الرَّجلُ الفقيرُ علَى أجرِ الغنيِّ المتصدِّقِ بمالهِ إنْ أحسنَ النِّيَّةَ، فعنْ أبي كَبْشَةَ الأَنَّمَارِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : "إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ..."[4].

(1) رواه البخاري.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح ورواه أحمد وصححه الالباني في سنن الترمذي.

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: حصولُ الأجرِ علَى المباحاتِ والعاداتِ، إنِ احتسبهَا للهِ تعالَى، فعنْ سعدِ بنِ أبِي وقَّاصٍ رضيَ اللّهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "إنَّكَ لنْ تُنقَ نفقةً تبتغِي بهَا وجهَ اللهِ إلَّا أُجرتَ عليهَا، حتَّى مَا تجعلهُ فِي فمِ امرأتكَ"[1].

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ علاجُ القلبِ، فعن زيدِ بنِ ثابتٍ رضيَ اللّهُ عنهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "ثلاثٌ لَا يُغِلُّ عليهنَّ قلبُ امرئٍ مسلمٍ: إخلاصُ العملِ للهِ، والمناصحةُ لأئمَّةِ المسلمينَ، ولزومِ جماعتهمِ، فإنَّ دعوتهمْ تحيطُ مِنْ ورائهمْ"[2].

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: حمايةُ النَّفسِ منَ الشَّيطانِ، ومنْ فضائلهِ: انقطاعُ الوسواسِ والبُعدِ عنِ الرِّياءِ، ومنهُ أيضًا: النَّجاةُ منَ الفتنِ، وأيضًا: زوالُ الهمِّ وكثرةُ الرِّزقِ، كذلكَ تفريجُ الكروبِ، وتحلِّي صاحبهُ بالحكمةِ، قالَ مكحولٌ رحمهُ اللهُ تعالَى: "مَا أخلصَ عبدٌ قطُّ أربعينَ يومًا إلَّا ظهرتْ ينابيعُ الحكمةِ منْ قلبهِ علَى لسانهِ"[3].

وفضائلُ الإخلاصِ لَا تُحصَى ولَا تعدُّ، وخلاصةً فإنَّ كلَّ الخيرِ فِي الإخلاصِ.

(1) رواه البخاري وسلم.

(2) صحيح: أخرجه ابن ماجه (230)، وأحمد في (المسند) (5/ 183)، والدارمي، (229)، وابن حبان في (صحيحه) (67، 68)، وابن أبي عاصم في (السنة) (1087)، كلهم من طريق زيد بن ثابت. وفي الباب عن ابن مسعود: أخرجه الترمذي (2658)، وابن أبي عاصم في (السنة) (1086). وفي الباب أيضًا عن جُبَير بن مطعم: أخرجه أحمد (4/ 80، 82). وعن معاذ بن جبل أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة) (1088)، وصححه الشيخ الألباني في (صحيح الجامع).

(3) مدارج السالكين.

قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: وضدُّهُ: الرِّياءُ، والعملُ للأغراضِ النَّفسيَّةِ.أهـ
وضدُّ الإخلاصِ هوَ الشِّركُ: والرِّياءُ منْ أنواعِ الشِّركِ وهوَ شركٌ أصغرٌ يُحبطُ العملَ وَلَا يُخرجُ منَ الملَّةِ، فعنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ" قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً"[1].

الشركُ لغةً:

جاءَ فِي معجمِ مقاييسِ اللُّغة لابنِ فارسٍ: مادَّةُ الشِّركِ المكوَّنةِ منْ حرفِ الشِّينِ والرَّاءِ والكافِ أصلانِ:

أحدهمَا: يدلُّ علَى مقارنةٍ وخلافِ انفرادٍ.

والآخرُ: يدلُّ علَى امتدادٍ واستقامةٍ[2].

ونكتفِي بالأوَّلِ: وهوَ الذِي يدلُّ علَى مقارنةٍ وخلافِ انفرادٍ، والشِّركُ، بالتَّخفيفِ أي بإسكانِ الرَّاءِ، أغلبُ فِي الاستعمالِ، يكونُ مصدرًا واسمًا، تقولُ: شاركتهُ فِي الأمرِ وشرَّكتهُ فيهِ أشركهُ شِركاً، بكسرِ الأوَّلِ وسكونِ الثَّانِي، ويأتِي: شَرِكَةٌ، بفتحِ الأوَّلِ وكسرِ الثَّانِي فيهَا، ويقالُ: أشركتُهُ: أي جعلتهُ شريكاً[3].

(1) رواه أحمد والبيهقي، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة».

(2) معجم مقاييس اللغة مادة (شرك).

(3) انظر ما ذكره الجوهري الصحاح (4/1593-1594)، مادة (شرك) والفيومي المقري: المصباح المنير (1/474-475).

فهذهِ اشتقاقاتُ لفظِ الشِّركِ فِي اللُّغةِ علَى الأصلِ الأوَّلِ.

ويطلقُ حينئذٍ علَى المعانِي الآتيةِ:

المحافظةُ، والمصاحبةُ، والمشاركةُ.

قالَ ابنُ منظورٍ: الشَّرْكةُ والشَّرِكةُ سواءٌ؛ مخالطةُ الشَّريكينِ، يقالُ: اشتركنَا، بمعنَى تشاركنَا، وقدْ اشتركَ الرَّجلانِ وتشاركَا، وشاركَ أحدهمَا الآخرَ؛ والشَّريكُ: المشاركُ، والشركُ كالشَّريكُ، والجمعُ أشراكٌ وشركاءٌ[1].

وقالَ ابنُ فارسٍ: الشَّركةُ هوَ أنْ يكونَ الشَّيءُ بينَ اثنينِ لَا ينفردُ بهِ أحدهمَا، ويقالُ: شاركتُ فلاناً فِي الشَّيءِ، إذَا صِرتَ شريكهُ، وأشركتَ فلاناً، إذَا جعلتهُ شريكاً لكَ. قالَ تعالَى حكايةً عنْ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: {وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}[طه: 32]،...قالَ الرَّاغبُ: الشَّركةُ والمشاركةُ: خلطُ المُلْكَيْنِ، وقيلَ: هوَ أنْ يوجدَ شيءٌ لاثنينِ فصاعداً عيناً كانَ ذلكَ الشَّيءُ أو معنَى، كمشاركةِ الإنسانِ والفرسِ فِي الحيوانيَّةِ[2].

ويطلقُ علَى الكفرِ أيضاً، قالَ الزُّبيدِي: والشِّركُ أيضاً: الكفرُ[3].

الشِّركُ اصطلاحًا:

قالَ شيخُ الإسلامِ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ: هوَ صرفُ نوعٍ منَ العبادةِ إلَى غيرِ اللهِ، أوْ: هوَ أنْ يدعُو معَ اللهِ غيرهُ، أوْ يقصدهُ بغيرِ ذلكَ منْ أنواعِ العبادةِ التِي أمرَ اللهُ بهَا[4].

---

(1) لسان العرب (7/99)، وما بعدها، مادة (شرك)، وانظر ما ذكره الزبيدي في تاج العروس (7/148)، والأزهري في تهذيب اللغة (10/17)، والجوهري (4/1593-1594)، مادة (شرك).

(2) انظر قول الراغب في المفردات (ص: 259).

(3) انظر ما ذكره الزبيدي في تاج العروس (7/148) مادة: (شرك).

(4) كتاب مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (ص: 281)، والدكتور صالح عبد الله العبود في عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وقالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ الله تعالَى: هوَ أنْ يَجعلَ للهِ نداً يدعوهُ كمَا يدعُو اللهَ، أو يخافهُ، أو يرجوهُ، أو يحبُّهُ كحبِّ اللهِ، أو يصرفُ لهُ نوعاً منْ أنواعِ العبادة[1].

وقالَ أيضًا: حقيقةُ الشِّركِ باللهِ: أنْ يُعبدَ المخلوقُ كمَا يُعبدُ اللهُ، أوْ يُعظَّمُ كمَا يُعظمُ اللهُ، أو يُصرفُ لهُ نوعٌ منْ خصائصِ الرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ[2].

وهذَا التَّعريفُ شاملٌ لجميعِ مدلولاتِ الشِّركِ.

وقيلَ: هوَ كلُّ مَا ناقضَ التَّوحيدَ أوْ قدحَ فيهِ، ممَّا وردَ فِي الكتابِ والسنَّةِ تسميتهُ شركًا[3].

وقيلَ: هوَ أنْ يُثبتَ لغيرِ اللهِ تعالَى شيئاً منْ صفاتهِ المختصَّةِ بهِ، كالتَّصرُّفِ فِي العالمِ بالإرادةِ الذِي يُعبَّرُ عنهُ بـ"كنْ فيكونُ"، أوِ العلمِ الذِي هوَ منْ غيرِ اكتسابٍ بالحواسِ... أوْ الإيجادِ لشفاءِ المريضِ واللَّعنةِ لشخصٍ والسَّخطِ عليهِ حتَّى يَقْدِرَ عليهِ الرِّزقَ، أو يُمرضَ أو يشفَى لذلكَ السَّخطِ، أوِ الرَّحمةُ لشخصٍ حتَّى يبسطَ لهُ الرِّزقَ أو يصحَّ بدنهُ ويسعدَ...[4].

وقيلَ: هوَ أن يعتقدَ المرءُ فِي غيرِ اللهِ تعالَى صفةً منْ صفاتِ اللهِ تعالَى، كأنْ يقولَ: إنَّ فلانًا يعلمُ كلَّ شيءٍ، أوْ يعتقدَ أنَّ فلانًا يفعلُ مَا يشاءُ، أوْ يدَّعِي أنَّ فلانًا بيدهِ خيرِي وشرِي، أو يصرفَ لغيرِ اللهِ منَ التَّعظيمِ مَا لَا يليقُ إلَّا باللهِ تعالَى، كأنْ يسجدَ للشَّخصِ أو يطلبَ منهُ حاجةً أو يعتقدَ التصرُّفَ فِي غيرِ اللهِ تعالَى[5].

---

(1) عبد الرحمن السعدي: ((القول السديد في مقاصد التوحيد)) (ص: 24).

(2) عبد الرحمن السعدي: ((تفسير كلام المنان)) (499/2).

(3) أبو بكر الجزائري ((عقيدة المؤمن)).

(4) ولي الله الدهلوي: ((الفوز الكبير في أصول التفسير)) (ص: 3).

(5) محمد إسماعيل بن عبد الغني بن عبد الرحمن العمري: ((تقوية الإيمان)) (22، 23)، و ((رسالة التوحيد)) (ص: 32، 33).

وقالَ الشَّيخُ محمَّدٌ إسماعيلُ بن عبدِ الغنيِّ الدهلوِي رحمهُ اللهُ تعالَى: إنَّ الشِّركَ لَا يتوقَّفُ علَى أنْ يعدلَ الإنسانُ أحدًا باللهِ ويساوِي بينهمَا بلَا فرقٍ، بلْ إنَّ حقيقةَ الشِّركِ: أنْ يأتيَ الإنسانُ بخلالٍ وأعمالٍ خصَّهَا اللهُ تعالَى بذاتهِ العليَّةِ وجعلهَا شعاراً للعبوديَّةِ، لأحدٍ منَ النَّاسِ، كالسُّجودِ لأحدٍ، والذَّبحِ باسمهِ والنَّذرِ لهُ، والاستعانةِ بهِ فِي الشِّدَّةِ والاعتقادِ أنَّهُ ناظرٌ فِي كلِّ مكانٍ، وإثباتِ التَّصرُّفِ لهُ، كلُّ ذلكَ يثبتُ بهِ الشِّركُ ويصبحُ بهِ الإنسانُ مشركاً[1].

وهذَا التَّعريفُ فيهِ تصوُّرٌ كاملٌ لحقيقةِ الشِّركِ.

وقيلَ: هوَ إشراكُ غيرِ اللهِ معَ اللهِ فِي اعتقادِ الإلهيَّةِ، وفِي العبادةِ[2].

وقالَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى: إنَّ الشِّركَ هوَ دعاءُ غيرِ اللهِ فِي الأشياءِ التِي تختصُّ بهِ، أوِ اعتقادُ القدرةِ لغيرهِ فيمَا لَا يقدرُ عليهِ سواهُ، أوِ التقرُّبِ إلَى غيرهِ بشيءٍ ممَّا لَا يُتقرَّبُ بهِ إلَّا إليهِ[3].

والذِي يظهرُ منْ هذهِ الأقوالِ: أنَّ الشِّركَ حقيقتهُ فِي اتخاذِ النِّدِّ معَ اللهِ تعالَى، سواءٌ كانَ هذَا النِّدُّ فِي الرُّبوبيَّةِ أوِ الألوهيَّةِ.

وبهذَا تتفقُ أقوالُ العلماءِ المحقِّقينَ فِي حقيقةِ الشِّركِ معَ قولِ أصحابِ المعاجمِ بأنَّ أصلَ الشِّركِ اتِّخاذُ الأندادِ معَ اللهِ تعالَى.

---

(1) محمد إسماعيل بن عبد الغني بن عبد الرحيم العمري: ((تقوية الإيمان)) (22، 23)، و((رسالة التوحيد)) (ص: 32، 33).

(2) ابن عاشور: الطاهر: ((التحرير والتنوير)) (333/7).

(3) الشوكاني: ((الدر النضيد)) (ص: 34) ط مكتبة الصحابة الإسلامية.

فأصلُ الشِّركِ كمَا علمنَا منَ البيانِ السَّابقِ مَا هوَ إلَّا اتِّخاذُ الندِّ معَ اللهِ تعالَى، وهذَا مَا سيتضِّحُ لنَا أكثرَ عندَ بيانِ حقيقةِ الشِّركِ فِي نصوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ.

وإذَا نظرنَا إلَى حقيقةِ الشِّركِ فِي القرآنِ نرَى: أنَّ اللهَ تعالَى بيَّنهَا فِي كتابهِ بياناً شافياً واضحاً لَا لُبسَ فيهِ ولَا غموضَ. فقالَ تعالَى: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة: 22].

ومعنَى الآيةِ: النَّهيُ عنِ اتِّخاذِ الأندادِ معَ اللهِ تعالَى بأيِّ وجهٍ منَ الوجوهِ، وقدْ نُقلَ عنِ السَّلفِ فِي تفسيرِ الآيةِ مثلَ هذَا القولِ، فمثلاً:

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: الأندادُ: الأشباهُ"[1]، والندُّ: الشِّبهُ، يقالُ: فلانٌ ندُّ فلانٍ، ونديدهُ: أي مثلهُ وشبههُ، ومنهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ لمنْ قالَ لهُ: مَا شاءَ اللهُ وشئتَ: "أجعلتنِي للهِ ندًّا[2]، وكلُّ شيءٍ كانَ نظيراً لشيءٍ وشبيهًا فهوَ لهُ ندٌّ[3].

قالَ ابنُ مسعودٍ: الأندادُ: الأكفَّاءُ منَ الرِّجالِ تطيعونهمْ فِي معصيةِ اللهِ[4]، كمَا قالَ جلَّ ثناؤهُ: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا}[التوبة: 31].

---

(1) انظر هذا القول فيما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (126/1، 127).

(2) رواه أحمد – والبخاري في ((الأدب المفرد)) – والنسائي في ((السنن الكبرى)) , قال ابن القيم في ((مدارج السالكين)): صحيح. وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)): إسناده صحيح, وقال أحمد شاكر في ((مسند أحمد)): إسناده صحيح, وصححه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) .

(3) انظر ما نقله ((الطبري في تفسيره)) (127/1).

(4) الطبري: ((جامع البيان)) (127/1).

قالَ الطَّبريُّ: قالَ عديٌّ بنُ حاتمَ: أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وفِي عنقِي صليبٌ منْ ذهبٍ، فقالَ: يَا عدِي، اطرحْ هذَا الوثنَ منْ عنقكَ، فطرحتهُ وانتهيتُ إليهِ وهوَ يقرأُ فِي سورةِ براءةٍ، فقرأَ هذهِ الآيَةَ: "اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ"، قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّا لسنَا نعبدهمْ، فقالَ: أليسَ يحرِّمونَ مَا أحلَّ اللهُ فتحرِّمونهُ، ويحلُّونَ مَا حرَّمَ اللهُ فتحلُّونهُ؟ قلتُ: بلَى، قالَ: فتلكَ عبادتهمْ[1].

ففِي هذَا القولِ أيضاً: إثباتُ كونَ الشِّركَ هوَ اتِّخاذُ الندِّ، فإنَّ منْ أثبتَ حقَّ التَّشريعِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ لغيرِ اللهِ تعالَى فقدْ أثبتَ لهُ الندَّ.

وقالَ عكرمةُ: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً}[البقرة: 22] أيْ تقولُوا: لولَا كَلْبُنَا لدخلَ علينَا اللصُّ الدَّارَ، لولَا كلبنَا صاحَ فِي الدَّارِ، ونحوِ ذلكَ[2]، فنهاهمُ اللهُ تعالَى أنْ يشركُوا بهِ شيئًا، وأنْ يعبدُوا غيرهُ، أو يتَّخذُوا لهُ ندًّا وعدلًا فِي الطَّاعةِ، فقالَ: كمَا لَا شريكَ لِي فِي خلقكمْ وفِي رزقكُم الذِي أرزقكمْ، وملكِي إيَّاكمْ، ونعمتِي عليكمْ، فكذلكَ فأفردُوا لِي الطَّاعةَ، وأخلصُوا لِي العبادةَ، ولَا تجعلُوا لِي شريكاً وندًّا منْ خلقِي، فإنَّكمْ تعلمونَ: أنَّ كلَّ نعمةٍ عليكمْ منِّي[3].

(1) رواه الترمذي (3095) والطبري في ((تفسيره)) (210/14)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (ص: 1784) والطبراني في ((المعجم الكبير))(92/17)(218) والبيهقي(116/10)، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. وقال الذهبي في ((المهذب)) (4108/8): فيه غطيف ضعفه الدارقطني. وقال ابن عثيمين في ((مجموع فتاوى ابن عثيمين))(736/10): إسناده ضعيف. وحسنه ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (67/7) والألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (3293).

(2) رواه الطبري في تفسيره (369/1).

(3) الطبري: ((جامع البيان)) (127/1).

قالَ عبدُ الرَّحمنِ بنِ زيدٍ بنِ أسلمَ: الأندادُ: الآلهةُ التِي جعلوهَا معهُ، وجعلُوا لهَا مثلَ مَا جعلُوا لهُ[1].

فمعنَى الأندادِ علَى هذَا هيَ الآلهةُ، والآلهةُ عندَ الكفَّارِ حينذاكَ بمعنَى الشُّفعاءِ لهمْ عندَ اللهِ، وقدْ سمَّاهمْ اللهُ تعالَى شركاء، فقالَ تعالَى فِي الردِّ علَى اتِّخاذهمْ آلهةً بمعنَى شفعاءٍ لهمْ عندَ اللهِ: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء}[الأنعام: 94].

قالَ مجاهدٌ: الأندادُ: العدلاءُ[2].

والعدلاءُ هنَا أيضاً بمعنَى الشُّركاءِ للهِ تعالَى فِي عبادتهِ، قالَ اللهُ تعالَى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ}[الأنعام: 1] أي يشركونَ[3]، ويقالُ: منْ مساواةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ: عَدَلْتُ هَذَا بهذَا، إذَا ساويتهُ بهِ عدلاً.

قالَ الطَّبرِي فِي شرحِ هذهِ الآيةِ: يجعلونَ شريكاً فِي عبادتهمْ إيَّاهُ، فيعبدونَ معهُ الآلهةَ والأندادَ والأصنامَ والأوثانَ، وليسَ منهَا شيءٌ شاركهُ فِي خلقِ شيءٍ منْ ذلكَ، ولَا فِي إنعامهِ عليهمْ بمَا أنعمَ عليهمْ، بلْ هوَ المنفردُ بذلكَ كلِّهِ وهمْ يشركونَ فِي عبادتهمْ إيَّاهُ غيرهُ[4].

وقالَ الطَّبري: الأندادُ جمعُ ندٍّ، والندُّ: العدلُ، والمثلُ[5].

---

(1) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (127/1).

(2) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (127/1).

(3) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (92/7، 93).

(4) ((تفسير الطبري)) (252/11).

(5) الشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريَّا الجزء الأول.

والمقصودُ: أنَّ اتِّخاذِ الشَّبيهِ والكفئِ للهِ تعالَى يسمَى شركاً باللهِ تعالَى، ولهذَا أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لمْ يكنْ لهُ كفؤٌ ولَا شبيهٌ ولَا نظيرٌ، لأنَّهُ ليسَ كمثلهِ شيءٌ وهوَ السَّميعُ البصيرُ، قالَ تعالَى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[الإخلاص: 4].

قالَ أبُو العاليةِ فِي معنَى الآيةِ: لمْ يكنْ لهُ شبيهٌ ولَا عدلٌ وليسَ كمثلهِ شيءٌ)[1]، أي كيفَ يكونُ لهُ منْ خلقهِ نظيرٌ يساميهِ أو قريبٌ يدانيهِ، تعالَى وتقدَّسَ وتنزَّهَ[2]، وهوَ الواحدُ الأحدُ، لَا نظيرَ لهُ ولَا وزيرَ ولَا نديدَ، ولَا شبيهَ ولَا عديلَ[3].

هكذَا بيَّنَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ حقيقةَ الشِّركِ باللهِ تعالَى بيانًا واضحًا، وهوَ: اتِّخاذُ النِّدِّ معَ اللهِ تعالَى، وكلُّ مَا ذُكرَ فِي معانِي النِّدِّ منَ الكفؤِ، والشَّبيهِ، والمثلِ، والعدلِ، والآلهةِ، كلُّهَا معانٍ متقاربةٌ تدلُّ علَى معنَى الشِّركِ باللهِ تعالَى، والتِي تدلُّ صراحةً أنَّ الشِّركَ فِي الحقيقةِ: اتِّخاذُ النِّدِ بمعنَى الشبيهِ أوِ العدلِ أوِ المثلِ أوِ الكفؤِ للهِ عزَّ وجلَّ.

---

(1) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (224/12).

(2) انظر ما ذكره ((ابن كثير في تفسيره)) (570/4).

(3) انظر: ((تفسير ابن كثير)) (527/8).

الشركُ ظلمٌ عظيمٌ:

والشرِّكُ أكبرَ الذُّنوبِ لَا ذنبَ فوقهُ، ولَا قتلُ النَّفسِ ولَا العقوقُ ولَا حتَّى الزِّنَى بالمحارمِ، وصاحبُ الشِّركِ إنْ ماتَ قبلَ التوبةِ فهوَ هالكٌ لَا محالةَ خالدٌ مخلَّدٌ فِي النَّارِ والعياذُ باللهِ فقدْ سبحانهُ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[النساء: 116] قالَ الطبرِي: قالَ أبُو جعفرٍ: يعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤهُ: إنَّ اللهَ لَا يغفرُ لطعمةَ[1] إذْ أشركَ وماتَ علَى شركهِ باللهِ، ولَا لغيرهِ منْ خلقهِ بشركهمْ وكفرهمْ بهِ "ويغفرُ مَا دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ"، يقولُ: ويغفرُ مَا دونَ الشِّركِ باللهِ منَ الذُّنوبِ لمنْ يشاءُ. يعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤهُ: أنَّ طعمةَ لولَا أنَّهُ أشركَ باللهِ وماتَ علَى شركهِ، لكانَ فِي مشيئةِ اللهِ علَى مَا سلفَ منْ خيانتهِ ومعصيتهِ، وكانَ إلَى اللهِ أمرهُ فِي عذابهِ والعفوِ عنهُ، وكذلكَ حكمُ كلِّ منِ اجترمَ جُرْمًا، فإلَى اللهِ أمرهُ، إلَّا أنْ يكونَ جرمهُ شركًا باللهِ وكفرًا، فإنَّهُ ممَّنْ حَتْمٌ عليهِ أنَّهُ منْ أهلِ النَّارِ إذَا ماتَ علَى شركهِ، فأمَّا إذَا ماتَ علَى شركهِ، فقدْ حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنَّةَ ومأواهُ النَّارُ[2].

---

(1) هو طعمة بن أبيرق، الحارث بن عمرو بن حارثة بن الهيثم بن ظفر بن الخزرج بن عمر بن مالك الظفري، الأوسي.

وقيل: هو أبو طعمة بشير بن أبيرق...إلى آخر نسبه.

أحد منافقي صحابة النبي ﷺ، وكان شاعرا يهجو أصحاب النبي ﷺ.

يقال: إنه شهد مع النبي ﷺ واقعة أحد.

بعد أن سرق من عمه . قتادة بن النعمان . بعض الأشياء وشاع خبره بين أناس هرب إلى مكة في السنة الرابعة من الهجرة، وارتد عن الإسلام.

في أحد الأيام قام بنقب حائط في مكة ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله، وهلك كافرا.

(2) تفسير الطبري.

ومَا سبقَ هوَ عقيدةُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ أنَّ صاحبَ الشِّركِ إذَا ماتَ علَى شركهِ فهوَ محتَّمٌ عليهِ أنَّهُ منْ أهلِ النَّارِ ومحرَّمٌ عليهِ الجنَّةُ بمَا سبقَ ذكرهُ، وإنْ تابَ فِي الدُّنيَا يتوبُ اللهِ عليهِ، وأنَّ صاحبَ الكبيرةِ إنْ ماتَ دونَ توبةٍ فهوَ تحتَ المشيئةِ إنْ شاءَ عذَّبهُ وإنْ شاءَ غفرَ لهُ، عكسَ منْ تخبَّطَ فِي هذَا الأمرِ فقالُوا بأهوائهمْ، فمنهمْ منْ قالَ: أنَّ صاحبَ الكبيرةِ كافرٌ وهوَ مخلَّدٌ فِي النَّارِ وهمُ الخوارجُ، ومنهمْ منْ قالَ هوَ ليسَ بمسلمٍ ولَا كافرٍ بلْ فِي منزلةٍ بينَ المنزلتينِ وهوَ فِي الآخرةِ مخلَّدٌ فِي النَّارِ وهمُ المعتزلةُ، ومنهمْ منْ يقولُ لَا يضرُّ معَ الإيمانِ معصيةٌ فصاحبُ الكبيرةِ عندهمْ كاملُ الإيمانِ ولَا يدخلُ للنَّارِ أبدًا وهمُ المرجئَةُ، حتَّى أنهمْ قالُوا: لنْ يدخلَ النَّارَ منْ أهلِ التَّوحيدِ أحدٌ[1]، والصَّحيحُ أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالتَّقوَى وينقصُ بالمعصيةِ، وأنَّهُ لَا يخلدُ فِي النَّارِ أحدٌ منْ أهلِ التَّوحيدِ، ولكنَّهُ ممكنٌ دخولهُ.

أقسامُ الشِّركِ:

للشِّركِ قسمانِ: شركٌ أكبرٌ وشركٌ أصغرٌ:

أمَّا الشِّركُ الأكبرُ: حكمهُ مخرجٌ منَ الملَّةِ محبطٌ للعملِ، قالَ تعالَى:{إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}[المائدة: 72]، وقالَ تعالَى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الزمر: 65].

(1) للمزيد يُنظر فتاوي ابن تيمية.

تعريفُ الشِّركِ الأكبرِ: أمَّا الشِّركُ الأكبرُ فحقيقتهُ هيَ: أنْ يضرعَ الإنسانُ بعبادةٍ منَ العباداتِ إلَى غيرِ اللهِ تعالَى صلاةً أوْ نذراً أوِ استغاثةً فِي شدَّةٍ أوْ مكروهٍ فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى ونحوِ ذلكَ، مثالهُ فِي الاعتقاداتِ: اعتقادُ أنَّ غيرَ اللهِ يستحقُّ العبادةَ (أي نوعٍ منَ العبادةِ كانتْ) ومثالهُ فِي الأعمالِ: الذَّبحِ لغيرِ اللهِ، ومثالهُ فِي الأقوالِ: دعاءُ غيرِ اللهِ فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ. وهذَا هوَ الذِي وردَ فيهِ مثلُ قولِ اللهِ تعالَى: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: 97-98] وقولهُ تعالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}[البقرة: 165][1].

وأمَّا الشِّركُ الأصغرُ: فهوَ: كلُّ مَا كانَ ذريعةً إلَى الشِّركِ الأكبرِ ووسيلةً للوقوعِ فيهِ، ونهَى عنهُ الشَّرعُ وسمَّاهُ شركاً[2]، ولَا يخرجُ منَ الملَّةِ. وهوَ قدْ يكونُ فِي الأعمالِ، ومنْ ذلكَ يسيرُ الرِّياءِ كمَا قالَ الرَّسولُ ﷺ "أخوفُ مَا أخافُ علَى أمَّتِي الشِّركُ الأصغرُ - فسُئِلَ عنهُ فقالَ: الرِّياءُ"[3]، وقدْ يكونُ فِي الأقوالِ: ومنهُ الحلفُ بغيرِ اللهِ تعالَى كمَا ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ قولهُ: "منْ حلفَ بغيرِ اللهِ فقدْ أشركَ"[4]، وقدْ يصيرُ الشِّركُ الأصغرُ شركاً أكبرَ بحسبِ مَا يقومُ بقلبِ صاحبهِ[5].

(1) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف- 93/1.

(2) انظر: ((تيسير العزيز الحميد)) (ص: 45)، و((الفتوى رقم 1653 بتاريخ 1397/8/22هـ من فتاوى اللجنة الدائمة بمجلة البحوث الإسلامية عدد رقم 20)) - (ص: 151).

(3) رواه الطبراني (253/4) (4301). من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه. قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (225/10): رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن شبيب بن خالد، وهو ثقة.

(4) رواه أبو داود (3251)، والترمذي (1535)، وأحمد (125/2) (6072)، وابن حبان (199/10) (4358)، والحاكم (65/1). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وصحح إسناده عبدالحق الإشبيلي في ((الأحكام الصغرى)) (735).

(5) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف- 93/1.



ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: نهَى اللهُ عنِ التكبُّرِ، وذمَّ الكِبْرَ والمتكبِّرينَ، وأخبرَ عنْ عقوباتهمْ العاجلةَ والآجلةَ.

والتكبُّرُ هوَ: ردُّ الحقِّ، واحتقارُ الخلقِ، وضدُّ ذلكَ التواضعُ، فقدْ أمرَ بهِ، وأثنَى علَى أهلهِ، وذكرَ ثوابهمْ، فهوَ قبولُ الحقِّ ممَّنْ قالهُ، وأنْ لَا يحتقرَ الخلقَ، بلْ يرَى فضلهمْ، ويحبُّ لهمْ مَا يحبُّ لنفسهِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ التَّكبرِ وذمَّ المتكبِّرينَ وتوعَّدهمْ بالعذابِ فِي كتابهِ وقالَ سبحانه: {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}[النحل: 22، 23].

وقالَ تعالَى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا}[الفرقان: 21].

وقالَ: {وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ}[العنكبوت: 39].

وقال: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[لقمان: 7].

وقالَ: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[غافر: 76].

وقالَ: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[الجاثية: 7، 8].
~~~~~~~~~~~

الكِبْرُ لغةً:

الكِبْرُ: العَظَمَةُ والتَّجبُّرُ، كالكِبْرِياءِ، وقدْ تَكَبَّرَ واسْتَكْبَرَ وَتكابَرَ، والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ: التَّعَظُّمُ، والكِبْرُ بالكسرِ: اسمٌ منَ التكبُّرِ[1].

الكِبْرُ اصطلاحًا:

الكِبْرُ جاءَ تعريفهُ فِي حديثِ النَّبيِّ ﷺ فقدْ قالَ: "الكِبْرُ بطرُ الحقِّ، وغمطُ النَّاسِ[2].

وقالَ الزَّبيدي: الكِبْرُ: حالةٌ يتخصَّصُ بهَا الإنسانُ منْ إعجابهِ بنفسهِ، وأنْ يرَى نفسَهُ أَكْبَرَ منْ غيرهِ[3].

وقيلَ الكِبْرُ هوَ: استعظامُ الإنسانِ نفسهُ، واستحسانُ مَا فيهِ منَ الفضائلِ، والاستهانةُ بالنَّاسِ، واستصغارهمْ، والترفُّعُ علَى منْ يجبُ التَّواضعُ لهُ[4].

الفرقُ بينَ الكِبْرِ والكِبْرياءِ:

هوَ أنَّ الكِبْر: إظهارُ عظمِ الشَّأنِ، والكِبْرياءُ هيَ العزُّ والملكُ، وليستْ منَ الكِبْرِ فِي شيءٍ، والشَّاهدُ قولهُ تعالَى: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ"[يونس: 78]، يعنِي الملكُ، والسُّلطانُ، والعزَّةُ، وأمَّا التَّكبرُ فهوَ إظهارُ الكِبْرِ، مثلَ: التشجُّعِ، إظهارُ الشَّجَاعَةِ[5].

الفرقُ بينَ الاستنكافِ، والاستكبارِ، والتكبُّرِ:

الاستنكافُ: تكبُّرٌ فِي تركهِ أنفةٌ، والأنفةُ: عِزَّةٌ وحميَّةٌ[6]، لذلكَ قالَ تعالَى:

---

(1) (تاج العروس) للزبيدي (8/14)، ((المصباح المنير)) للفيومي (523/2).

(2) رواه مسلم.

(3) (تاج العروس) (8/14).

(4) (تهذيب الأخلاق) للجاحظ (ص 32).

(5) (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري (445/1).

(6) معجم اللغة العربية.

{لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا}[النساء: 172]، وليسَ فِي الاستكبارِ ذلكَ، وإنَّمَا يستعملُ الاستكبارُ حيثُ لَا استخفافَ، بخلافِ التَّكبرِ، فإنَّهُ قدْ يكونُ باستخفافِ.

والاستكبار: هو إرادة التكبُّر وطلبه، ولا يبلغ التكبُّر الحقيقي أحد، لأنَّه صفة خاصَّة بالله تعالى.

قال تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ}[غافر: 56].

قال الطنطاوي: هؤلاء المجادلون بالباطل ما حملهم على ذلك إلا التكبر والتعاظم والتطلع إلى الرياسة وإلى أن تكون النبوة فيهم أو فيمن يميلون إليهم وهم جميعا لن يصلوا إلى شئ من ذلك ، ولن يبلغوا ما تتوق إليه نفوسهم المريضة[1].

وقال البغوي: قال مجاهد: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر؛ لأن الله عز وجل مذلهم[2].

وعليه فإنَّ لفظ استكبر على وزن استغفر أي طلب المغفرة، فالاستكبار هو اللفظ الصحيح الذي يُطلق على (المتكبرين) لأنَّهم لن يبلغوا التكبر حقيقة ولا حكما، فما هو إلَّا طلب من أنفسهم المريضة للتكبر الذي هو مقام الألوهيَّة، فالله تعالى هو المتكبِّر الذي تتذلل له الخلائق، متوحد سبحانه في كبريائه، كما أنَّ المستكبر يظن أنَّه متكبر، وحقيقته أنَّه لم يبلغ ذلك ولن يبلغه ولكنَّه مستكبر.

(1) الوسيط للطنطاوي.

(2) تفسير البغوي.

من ذلك قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء: 172، 173].

فذكرهم سبحانه بلفظ الاستكبار لا بلفظ التكبر.

والتَّكبُّرُ: هوَ أنْ يرَى المرءُ نفسهُ أكبرَ منْ غيرِه، والاستكبارُ طلبُ ذلكَ بالتَّشبُّعِ وهوَ التزيُّنُ بأكثرِ مَا عندهُ[1].

الفرقُ بينَ الجَبَروتِ والجبريَّةِ والكِبْرِ:

أنَّ الجبريَّةَ أبلغُ منَ الكِبْرِ وكذلكَ الجبروتُ، ويدلُّ علَى هذَا فخامةُ لفظهَا، وفخامةُ اللَّفظِ تدلُّ علَى فخامةِ المعنَى، فيمَا يجرِي هذَا المجرَى[2].

الفرقُ بينَ العُجْبِ والكِبْرِ:

أنَّ العُجبَ بالشَّيءِ شدَّةُ السُّرورِ بِهِ حتَّى لَا يعادلهُ شيءٌ عندَ صاحبهِ، تقولُ: هوَ مُعجبٌ بفلانٍ، إذَا كانَ شديدَ السُّرورِ بِهِ، وهوَ معجبٌ بنفسهِ، إذَا كانَ مسرورًا بخصالهَا.

ولهذَا يقالُ: أَعْجَبَهُ، كمَا يقالُ: سُرَّ بهِ، فليسَ العُجبُ منَ الكِبْرِ فِي شيءٍ، وقالَ علِي بنُ عيسَى: "العُجبُ: عقدُ النَّفسِ علَى فضيلةٍ لهَا ينبغِي أنْ يتعجَّبَ منهَا، وليستْ هيَ لهَا"[3].

---

(1) كتاب (الكليات) لأبي البقاء الكفوي (18/1).

(2) (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري (154/1-155).

(3) السابق.

ذمُّ الكبرِ:

الكِبْرُ منْ أوَّلِ الذُّنوبِ التِي عُصيَ اللهُ تباركَ وتعالَى بهَا، قالَ اللهُ تعالَى مبيِّنًا سببَ امتناعِ إبليسَ عنِ السُّجودِ لآدمَ: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[البقرة: 34].

قالَ الطَّبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: وهذَا، وإنْ كانَ منَ اللهِ جلَّ ثناؤهُ خبرًا عنْ إبليسَ، فإنَّهُ تقريعٌ لضُربائهِ منْ خلقِ اللهِ الذينَ يتكبَّرونَ عنِ الخضوعِ لأمرِ اللهِ، والانقيادِ لطاعتهِ فيمَا أمرهمْ بهِ وفيمَا نهاهمْ عنهُ، والتَّسليمُ لهُ فيمَا أوجبَ لبعضهمْ علَى بعضٍ منَ الحقِّ[1].

وقالَ عوفُ بنُ عبدِ اللهِ للفضلِ بنِ المهلبِ: إنِّي أريدُ أنْ أعظكَ بشيءٍ، إيَّاكَ والكِبْرِ، فإنَّهُ أوَّلُ ذنبٍ عصَى اللهَ بهِ إبليسُ، ثمَّ قرأَ: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ}[البقرة: 34][2].

والكِبْرُ سببٌ رئيسٌ فِي هلاكِ الأممِ السَّابقةِ: فهؤلاءِ قومُ نوحٍ مَا منعهمْ عنْ قبولِ الدَّعوةِ، والاستماعِ لنداءِ الفطرةِ والإيمانِ، إلَّا الكِبْرُ، فقدْ قالَ اللهُ تعالَى علَى لسانِ نبيِّهمْ نوحٍ عليهِ وعلَى رسولِ اللهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}[نوح: 7].

(1) (جامع البيان) (510/1).
(2) (مفاتيح الغيب) (645/3).

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: "لَا يدخلُ الجنَّةَ منْ كانَ فِي قلبهِ مثقالُ ذرَّةٍ منْ كبرٍ، فقالَ رجلٌ: إنَّ الرَّجلَ يحبُّ أنْ يكونَ ثوبهُ حسنًا، ونعلهُ حسنةٌ؟ قالَ: إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكبرُ: بطرِ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ[1].

وعنْ حارثةَ بنِ وهبٍ الخزاعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "ألَا أخبركمْ بأهلِ الجنَّةِ؟ كلُّ ضعيفٍ متضاعفٍ، لوْ أقسمَ علَى اللهِ لأبرَّهُ، ألَا أخبركمْ بأهلِ النَّارِ؟ كلُّ عتلٍّ[2]، جواظٍ[3]، مستكبرٍ"[4].

وعنْ أَبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: "احتجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ، فقالتْ النَّارُ: فيَّ الجبَّارونَ والمتكبِّرونَ. وقالتِ الجنَّةُ: فيَّ ضعفاءُ النَّاسِ ومساكينهمْ، فقضَى اللهُ بينهمَا: إنَّكِ الجنَّةُ رحمتِي أرحمُ بكِ منْ أشاءُ، وإنَّكِ النَّارُ عذابِي أعذِّبُ بكِ منْ أشاءُ، ولكليكمَا عليَّ ملؤهَا"[5].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "ثلاثةٌ لَا يكلِّمهمُ اللهُ يومَ القيامةِ، ولَا يزكِّيهمْ، ولَا ينظرُ إليهمْ، ولهمْ عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ[6]،[7].

---

(1) رواه مسلم (91).

(2) العتل: قيل: الشديد الخصومة. وقيل: الجافي عن الموعظة. وقيل: الفظ الشديد من كل شيء وهو هنا الكافر. وقيل: العتل الفاحش الآثم وقيل: الغليظ العنيف، وقيل: السمين العظيم العنق والبطن. وقيل: الجموع المنوع. وقيل: القصير البطين. ((فتح الباري)) لابن حجر (8/663).

(3) الجواظ: قيل: الكثير اللحم المختال في مشيه. وقيل: هو الأكُول. وقيل: الفاجر. وقيل: الجواظ: الفظ الغليظ. (فتح الباري) لابن حجر (8/663).

(4) رواه البخاري (4918)، ومسلم (2853).

(5) رواه مسلم (2846).

(6) عائل مستكبر أي: فقير متكبر ((مرقاة المفاتيح)) (8/3190) وقيلَ هوَ صاحبُ العيال قليلِ المالِ.

(7) رواه مسلم (107).

يقولُ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: فهؤلاءِ الثَّلاثةُ: اشتركُوا فِي هذَا الوعيدِ، واشتركُوا فِي فعلِ هذهِ الذُّنوبِ معَ ضعفِ دواعيهِمْ؛ فإنَّ داعيةَ الزِّنَا فِي الشَّيخِ ضعيفةٌ، وكذلكَ داعيةُ الكذبِ فِي الملكِ ضعيفةٌ؛ لاستغنائهِ عنهُ وكذلكَ داعيةُ الكِبْرِ فِي الفقيرِ، فإذَا أتَوا بهذهِ الذُّنوبِ– معَ ضعفِ الدَّاعِي– دلَّ علَى أنَّ فِي نفوسهِمْ منَ الشرِّ الذِي يستحقُّونَ بهِ منَ الوعيدِ مَا لَا يستحقُّهُ غيرهمْ[1].

أثارُ الكبرِ:

1) الحرمانُ منَ النَّظرِ والاعتبارِ:

أيْ أنَّ الأثرَ الأوَّلَ الذِي يتركهُ التكبُّرُ علَى المسلمِ إنَّمَا هوَ الحرمانُ منَ النَّظرِ والاعتبارِ... ومنْ حَرُمَ النَّظرَ والاعتبارَ، كانتْ عاقبتهُ البوارُ والخسرانُ المبينُ؛ لأنَّهُ سيبقَى مقيمًا علَى عيوبهِ وأخطائهِ، غارقًا فِي أوحالهِ، حتَّى تنتهِي الحياةُ.

2) القلقُ والاضطرابُ النَّفسيُّ:

ذلكَ أنَّ المتكبِّرَ يحبُّ إشباعَ رغبةِ التَّرفُّعِ والتَّعالِي، وأنْ يحنِي النَّاسُ رؤوسهمْ لهُ، وأنْ يكونُوا دومًا فِي ركابهِ، ولأنَّ أعزَّةَ النَّاسِ وكرامهمْ يأبونَ ذلكَ، بلْ ليسُوا مستعدِّينَ لهُ أصلًا، فإنَّهُ يصابُ بخيبةِ أملٍ، تكونُ عاقبتهَا القلقُ والاضطرابُ النَّفسيُّ، هذَا فضلًا علَى أنَّ اشتغالَ هذَا المتكبِّرِ بنفسهِ يجعلهُ فِي إعراضٍ تامٍّ عنْ معرفةِ اللهِ تعالَى وذكرهِ، وذلكَ لهُ عواقبُ أدناهَا فِي هذهِ الدُّنيَا القلقُ والاضطرابُ.

---

(1) (مجموع الفتاوى) (14/18).

3) الملازمةُ للعيوبِ والنَّقائصِ:

وذلكَ أنَّ المتكبِّرَ لظنِّهِ أنَّهُ بلغَ الكمالَ فِي كلِّ شيءٍ لَا يفتِّشُ فِي نفسهِ، حتَّى يعرفَ أبعادهَا ومعالمهَا، فيُصلحُ مَا هوَ فِي حاجةٍ منهَا إلَى إصلاحٍ، ولَا يقبلُ كذلكَ نصحًا أو توجيهًا أو إرشادًا منَ الآخرينَ، ومثلُ هذَا يبقَى غارقًا فِي عيوبهِ ونقائصهِ، ملازمًا لهَا إلَى أنْ تنقضِي الحياةُ، ويدخلَ النَّارَ معَ الدَّاخلينَ.

4) الحرمانُ منَ الجنَّةِ واستحقاقِ العذابِ:

وذلكَ أمرٌ بدهيٌّ، فإنَّ منْ يعتدِي علَى مقامِ الألوهيَّةِ، ويظلُّ مقيمًا علَى عيوبهِ ورذائلهِ، ستنتهِي بهِ الحياةُ حتمًا ومَا حصَّلَ خيرًا يستحقُّ به ثوابًا أو مكافأةً، فيُحرمُ الجنَّةَ مؤبدًا أو مؤقَّتًا.

5) قلَّةُ كسبِ الأنصارِ بلْ والفرقةُ والتمزُّقُ، والشُّعورُ بالعزلةِ:

ذلكَ أنَّ القلوبَ جُبلتْ علَى حبِّ منْ ألانَ لهَا الجانبَ، وخفضَ لهَا الجناحَ، ونظرَ إليهَا منْ دونٍ لَا منْ علٍ.

6) الحرمانُ منَ العونِ والتَّأييدِ الإلهيِّ:

ذلكَ أنَّ الحقَّ سبحانهُ مضتْ سنَّتهُ أنَّهُ لَا يعطِي عونهُ وتأييدهُ، إلَّا لمنْ هضمُوا نفوسهمْ، حتَّى استخرجُوا حظَّ الشَّيطانِ منهَا بلْ حظَّ نفوسهمْ منْ نفوسهمْ، والمتكبِّرونَ قومٌ كبرتْ نفوسهمْ، ومنْ كانتْ هذهِ صفتهُ، فلَا حقَّ لهُ فِي عونٍ أوْ تأييدٍ إلهيٍّ إلَّا أنْ يتغمَّدهُ اللهُ برحمتهِ ويتوبَ عليهِ قبلَ موتهِ.

كيفيَّةُ الشِّفاءِ منْ مرضِ الكبرِ:

قالَ اللهُ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[المائدة: 54].

الشَّاهدُ قولهُ تعالَى: "أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين" قالَ ابنُ كثيرٍ: هذهِ صفاتُ المؤمنينَ الكُمَّلِ أنْ يكونَ أحدهمْ متواضعًا لأخيهِ ووليِّهِ، متعزِّزًا علَى خصمهِ وعدوِّهِ[1].

وقالَ القرطبِي: قولهُ تعالُى: "أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" (أذلَّةٌ) نعتٌ لقومٍ، وكذلكَ (أعزَّةٍ) أي: يرأفونَ بالمؤمنينَ ويرحمونهمْ ويلينونَ لهمْ، منْ قولهمْ: دابةٌ ذلولٌ أي: تنقادُ سهلةٌ، وليسَ منَ الذلِّ فِي شيءٍ، ويغلظونَ علَى الكافرينَ ويعادونهمْ، قالَ ابنُ عبَّاسَ: همُ للمؤمنينَ كالوالدِ للولدِ والسِّيدِ للعبدِ، وهمْ فِي الغلظةِ علَى الكفَّارِ كالسَّبعِ علَى فريستهِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: "أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، وَيجوزُ "أذلَّةٌ" بالنَّصبِ علَى الحالِ، أي: يحبُّهمْ ويحبُّونهُ فِي هذَا الحالِ[2].

فمَا ارتدَّ منِ ارتدَّ فِي الآيةِ الكريمةِ إلَّا بكبرٍ فِي نفسهِ، فأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ سيأتِي بنقيضهمْ، ونقيضُ الكبرِ التَّواضعُ[3]، ونقيضُ المتكبِّرِ هوَ المتواضعُ، وعلمنَا أنَّ منِ ارتدَّ فِي الآيةِ أنَّهُ متكبِّرٌ خاصَّةً، بذكرِ ضدِّهِ وهوَ الذَّليلِ بمعنَى المتواضعُ.

ومنْ هذهِ الآيةِ الكريمة علمنَا أنَّ الفضلَ كلَّ الفضلِ والعزَّ والشَّرفَ فِي التَّواضعِ للمؤمنينَ.

---

(10) تفسير ابن كثير.

(11) تفسير القرطبي.

(12) ينظر: المفهم لما اشكل من تلخيص شرح صحيح مسلم- لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي (ت 656هـ).

والمرادُ البذلِّ فِي الآيةِ الكريمةِ هوَ التَّواضعُ والرَّحمةُ والرأفةُ بالمؤمنينَ، فمنْ كانَ فيهِ مرضُ الكبرِ فمَا عليهِ إلَّا كسرُ نفسهِ بالذلِّ أمَامَ المحسنينَ والعلماءِ الربَّانيينَ والْتِمَاسِ رضاهمْ والعلمِ منهمْ، وأنْ يجاهدَ نفسهُ في ذلكَ، فهوَ فِي حربٍ معَ نفسٍ متعاليةٍ كانَ سندهَا الشيطانُ عليهِ لعنةُ اللهِ، فلَا سبيلَ لكسبِ هذهِ الحربِ إلَّا بكسرِ العدوِّ، والعدوُّ هوَ النَّفسُ، فوجبَ عليهِ كسرُ هذَا العدوِّ، وليتحمَّلْ مَا يظنُ أنَّهُ ألمٌ فِي ذلكَ، لأنَ التواضعَ لأهلِ اللهِ والذلِّ لهمْ لَا ألمَ فيهِ بلْ هوَ شرفٌ وعزَّةٌ ورفعةٌ، ولكنَّ النَّفسَ والشَّيطانَ يزيِّنانِ لصاحبِ هذَا المرضِ أنَّ فِي الانكسارِ ألمٌ، فليصبرْ، وليبتسمْ، لمنْ يكرهْ، وليكرمْ منْ يبغضْ، وليحسنْ لعدوِّهِ، وليُكثرْ منْ ذكرِ اللهِ تعالَى قائمًا وقاعدًا وعلَى جنبهِ، حتَّى يُصقلَ ذلكَ القلبُ المريضُ كمَا يُصقلُ الحديدُ الصَّدئُ فيعودُ برَّاقًا، حينهَا يعودُ قلبهُ كقلبِ الرَّضيعِ لَا كبرَ فيهِ ولَا كرهَ ولَا غيرِ ذلكَ، حينَ ذاكَ يصبحُ ذلكَ القلبُ وعاءً للحكمةِ والعلمِ، فالحكمةُ لَا تدخلُ قلبًا وسخًا، واللهُ أعلمُ.



ثمَّ قالَ رحمهُ تعالَى: العدلُ، هوَ: أداءُ حقوقِ اللهِ، وحقوقُ العبادِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالعدلِ فِي كتابهِ الكريمِ، وقالَ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[النساء: 58].

وقالَ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[النحل: 90].

وقالَ سبحانهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[المائدة: 8].

معنَى العدلِ لغةً:

العدلُ خلافُ الجورِ، وهوَ القصدُ فِي الأمورِ، ومَا قامَ فِي النُّفوسِ أنَّهُ مستقيمٌ، مِن عَدَلَ يَعْدِلُ فهوَ عادلٌ منْ عُدولٍ وعَدْلٍ، يقالُ: عَدَلَ عليهِ فِي القضيَّةِ فهوَ عادِلٌ. وبسطَ الوالِي عَدْلَهُ[1].

معنَى العدلِ اصطلاحًا:

العدلُ هوَ: أنْ تعطِي منْ نفسكَ الواجبَ وتأخذهُ[2].

وقيلَ هوَ: عبارةٌ عنِ الاستقامةِ علَى طريقِ الحقِّ بالاجتنابِ عمَّا هوَ محظورٌ دينًا[3].

---

(1) ((الصحاح في اللغة)) للجوهري (1760/5)، ((لسان العرب)) لابن منظور (430/11). ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص1030)، ((المصباح المنير)) للفيومي (396/2).

(2) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص 81).

(3) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 147).
~~~~~~~~~~~

وقيلَ هوَ: استعمالُ الأمورِ فِي مواضعهَا، وأوقاتهَا، ووجوههَا، ومقاديرهَا، منْ غيرِ سرَفٍ، ولَا تقصيرٍ، ولَا تقديمٍ، ولَا تأخيرٍ[1].

الفرقُ بينَ العدلِ والقسطِ:

القسطُ: هوَ العدلُ البيِّنُ الظَّاهرُ، ومنهُ سمِّيَ المكيالُ قسطًا، والميزانُ قسطًا؛ لأنَّهُ يصوِّرُ لكَ العدلَ فِي الوزنِ حتَّى تراهُ ظاهرًا، وقدْ يكونُ منَ العدلِ مَا يخفَى، ولهذَا قلنَا: إنَّ القسطَ هوَ النَّصيبُ الذِي بُيِّنتْ وجوههُ، وتقسَّطَ القومُ الشَّيءَ تقاسمُوا بالقسطِ[2].

الفرقُ بينَ العدلِ والإنصافِ:

الإنصافُ: إعطاءُ النصفِ، والعدلُ يكونُ فِي ذلكَ وفِي غيرهِ، ألَا ترَى أنَّ السارقَ إذَا قُطعَ قيلَ: إنَّهُ عدلَ عليهِ؟؟ ولَا يقالُ: إنَّهُ أنصفَ، وأصلُ الإنصافِ أنْ تعطيهُ نصفَ الشَّيءِ، وتأخذَ نصفهُ منْ غيرِ زيادةٍ ولَا نقصانٍ، وربَّمَا قيلَ: أطلبُ منكَ النِّصفَ، كمَا يقالُ: أطلبُ منكَ الإنصافَ. ثمَّ استُعملَ فِي غيرِ ذلكَ ممَّا ذكرناهُ، ويقالُ: أنصفَ الشَّيءَ، إذَا بلغَ نصفَ نفسهِ، ونصفَ غيرهِ إذَا بلغَ نصفهُ[3].

---

(1) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص 28).

(2) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 428).

(3) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 80).

أهميَّةُ العدلِ:

لقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى رسلهُ وأنزلَ معهمْ ميزانَ العدلِ ليقومَ النَّاسُ بالقسطِ، ومَا ذلكَ إلَّا لأهميَّتهِ، قالَ تعالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}[الحديد:25].

ووردتْ نصوصٌ قرآنيَّةٌ وأحاديثُ نبويَّةٌ كثيرةٌ تأمرُ بالعدلِ وترغِّبُ فيهِ، وتمدحُ منْ يقومُ بهِ.

يقولُ ابنُ القيِّمِ: ... إنَّ اللهَ سبحانهُ أرسلَ رسلهُ وأنزلَ كتبهُ ليقومَ النَّاسُ بالقسطِ، وهوَ العدلُ الذِي قامتْ بهِ الأرضُ والسَّمواتُ، فإذَا ظهرتْ أماراتُ العدلِ، وأسفرَ وجههُ بأيِّ طريقٍ كانَ؛ فثمَّ شرعَ اللهُ ودينهُ، واللهُ سبحانهُ أعلمُ وأحكمُ وأعدلُ أنْ يخصَّ طرقَ العدلِ وأماراتِه وأعلامهِ بشيءٍ، ثمَّ ينفِي مَا هوَ أظهرُ منهَا وأقوَى دلالةً وأبينَ أمارةً فلَا يجعلهُ منهَا، ولَا يحكمُ عندَ وجودهَا وقيامهَا بموجبهَا، بلْ قدْ بيَّنُ سبحانهُ بمَا شرعهُ منَ الطُّرقِ أنَّ مقصودهُ إقامةُ العدلِ بينَ عبادهِ، وقيامِ النَّاسِ بالقسطِ، فأيِّ طريقٍ استخرجَ بهَا العدلَ والقسطَ فهيَ منَ الدِّينِ وليستْ مخالفةً لهُ[1].

التَّرغيبُ فِي العدلِ:

لقدْ أقامَ النَّبيُّ ﷺ العدلَ، ورغَّبَ فيهِ، وقدْ وردتْ الأحاديثُ تدلُّ علَى تطبيق قواعد العدلِ، وإرسائهِ لمعالمهِ منهَا:

مَا رواهُ عبادةُ بنُ الصَّامتِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: بايعنَا رسولَ اللهِ ﷺ علَى السَّمعِ والطَّاعةِ فِي عسرنَا ويسرنَا، ومنشطنَا ومكارهنَا، وعلَى أنْ لَا ننازعَ الأمرَ أهلهُ،

(1) ((الطرق الحكمية)) (ص 19).

وعلَى أنْ نقولَ بالعدلِ أينَ كنَّا، لَا نخافُ فِي اللهِ لومةَ لائمٍ[1].

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ: "إنَّ المقسطينَ يومَ القيامةِ علَى منابرَ منْ نورٍ، عنْ يمينِ الرَّحمنِ، – وكلتَا يديهِ يمينٌ – الذينَ يعدلونَ فِي حكمهِمْ وأهليهِمْ ومَا وَلُوا"[2]،[3].

وقالَ ابنُ عثيمينَ: فالعدلُ واجبٌ فِي كلِّ شيءٍ، لكنَّهُ فِي حقِّ ولَّاةِ الأمورِ آكدُ وأولَى وأعظمُ، لأنَّ الظُّلمَ إذَا وقعَ منْ ولَّاةِ الأمورِ حصلتِ الفوضَى والكراهةُ لهمْ، حيثُ لمْ يعدلُوا[4].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "سبعةٌ يظلُّهمُ اللهُ تعالَى فِي ظلِّهِ يومَ لَا ظلَّ إلَّا ظلُّهُ: إمامٌ عدلٌ، وشابٌ نشأَ فِي عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبهُ معلَّقٌ فِي المساجدِ، ورجلانِ تحابَّا فِي اللهِ اجتمعَا عليهِ وتفرَّقَا عليهِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاهَا، حتَّى لَا تعلمَ شمالهُ مَا تنفقُ يمينهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناهُ[5].

قالَ ابنُ رجبٍ: وأوَّلُ هذهِ السَّبعةَ: الإمامُ العادلُ: وهوَ أقربُ النَّاسِ منَ اللهِ يومَ القيامةِ، وهوَ علَى منبرٍ منْ نورٍ علَى يمينِ الرَّحمنِ، وذلكَ جزاءٌ لمخالفتهِ الهوَى، وصبرهِ عنْ تنفيذِ مَا تدعوهُ إليهِ شهواتهُ وطمعهُ وغضبهُ، معَ قدرتهِ علَى بلوغِ غرضهِ منْ ذلكَ؛ فإنَّ الإمامَ العادلَ دعتهُ الدُّنيَا كلُّهَا إلَى نفسهَا، فقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ، وهذَا أنفعُ الخلقَ لعبادِ اللهِ، فإنَّهُ إذَا صلحَ صلحتْ الرعيَّةُ كلُّهَا، وقدْ رُويَ أنَّهُ ظلُّ اللهِ فِي الأرضِ، لأنَّ الخلقَ كلَّهمْ يستظلُّونَ بظلِّهِ، فإذَا عدلَ فيهمْ أظلَّهُ اللهُ فِي ظلِّهِ[6].

(1) رواه النسائي (4153)، وأحمد (441/3) (15691) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وصححه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (272/23)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (91/4)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (4164).

(2) أي: كانت لهم عليه ولاية. ((شرح النووي على مسلم)) (12/ 211).

(3) رواه مسلم (1827).

(4) (شرح رياض الصالحين)) (641/3).

(5) رواه البخاري (660)، ومسلم (1031).

(6) ((فتح الباري)) (59/4).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والظلمُ: عكسهُ، فهوَ يشملُ ظلمَ العبدِ لنفسهِ بالمعاصِي والشِّركِ، وظلمَ العبادِ فِي دمائهمْ وأموالهمْ وأعراضهمْ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

والظُّلمُ عكسهُ أي عكسُ العدلِ، وقدْ نهَى اللهُ تعالَى فِي كتابهِ عنْ ظلمِ النَّفسِ والعبادَ وتوعَّدَ الظَّالمينَ بسوءِ العاقبةِ وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا}[النساء: 168].

وقالَ تعالَى: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[التوبة: 70].

وقالَ سبحانهُ: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}[يونس: 13].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[يونس: 44].

وقالَ تباركَ وتعالَى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}[إبراهيم: 13].

وقالَ تقدَّستْ أسماؤهُ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[إبراهيم: 42].

وقالَ تنزَّهتْ صفاتهُ: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}[الكهف: 59].
~~~~~~~~~~

وقالَ: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[مريم: 38].

وقالَ: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}[طه: 111].

وقالَ: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}[الروم: 57].

الظلم لغةً:

أصل الظلم: الجور ومجاوزة الحد، يقال: ظَلَمه، يَظْلِمُه ظَلْمًا، وظُلْمًا، ومَظْلمةً، فالظَّلْمُ مَصْدرٌ حقيقيٌّ، والظُّلم الاسم، وهو ظالم وظَلوم. وأصل الظلم، وضع الشيء في غير موضعه[1].

الظلم اصطلاحًا:

هو: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إمَّا بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه[2].

وقيل: هو عبارة عن التعدِّي عن الحق إلى الباطل وهو الجور. وقيل: هو التصرُّف في ملك الغير، ومجاوزة الحد[3].

---

(1) ((النهاية)) لابن الأثير (161/3)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص 1134)، ((المصباح المنير)) للفيومي (ص 146).

(2) ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (537).

(3) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 186).

الفرقُ بينَ الظُّلمِ والجورِ:

الجورُ خلافُ الاستقامةِ فِي الحكمِ، وفِي السِّيرةِ السُّلطانيَّةِ تقولُ: جارَ الحاكمُ فِي حكمهِ، والسُّلطانُ فِي سيرتهِ، إذَا فارقَ الاستقامةَ فِي ذلكَ. والظُّلمُ ضررٌ لَا يستحقُّ ولَا يعقبُ عوضًا، سواءً كانَ منْ سلطانٍ، أوْ حاكمٍ، أوْ غيرهمَا، ألَا ترَى أنَّ خيانةَ الدانقِ[1] والدِّرهمِ تسمَّى ظلمًا، ولَا تسمَّى جورًا، فإنْ أُخذَ ذلكَ علَى وجهِ القهرِ أوِ الميلِ سمِّي جورًا وهذَا واضحٌ، وأصلُ الظُّلمِ نقصانُ الحقِّ، والجورُ العدولُ عنِ الحقِّ، منْ قولنَا: جارَ عنِ الطريقِ، إذَا عدلَ عنهُ، وخلفَ بينَ النقيضينِ، فقيلَ فِي نقيضِ الظلمِ الإنصافُ، وهوَ إعطاءُ الحقِّ علَى التَّمامِ، وفِي نقيضِ الجورِ العدلُ، وهوَ العدولُ بالفعلِ إلَى الحقِّ[2].

الفرقُ بينَ الظُّلمِ والغشمِ:

الغشمُ كرهُ الظُّلمِ، وعمومهُ توصفُ بهِ الولَّاةُ؛ لأنَّ ظلمهمْ يعمُّ، ولَا يكادُ يقالُ غشمني فِي المعاملةِ، كمَا يقالُ: ظلمنِي فيهَا، وفِي المثلِ: وَالٍ غشومٌ خيرٌ منْ فتنةٍ تدومُ، وقالَ أبُو بكرٍ: الغشمُ اعتسافكَ الشَّيءَ، ثمَّ قالَ: يقالُ: غشمَ السُّلطانُ الرَّعيَّةَ يغشمهمْ، قالَ الشَّيخُ أبُو هلالٍ رحمهُ اللهُ: الاعتسافُ خبطُ الطَّريقِ علَى غيرِ هدايةٍ، فكأنَّهُ جعلَ الغشمَ ظلمًا يجرِي علَى غيرِ طرائقِ الظُّلمِ المعهودةِ[3].

الفرقُ بينَ الظلمِ والهضمِ:

أنَّ الهضمَ نقصانُ بعضِ الحقِّ ولَا يقالُ لمنْ أُخذَ جميعُ حقِّهِ قدْ هُضِمَ.

والظُّلمُ يكونُ فِي البعضِ والكلِّ، وفِي القرآنِ {فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا}[طه:112]، أيْ: لَا يمنعُ حقَّهُ ولَا بعضَ حقِّهِ، وأصلُ الهضمِ فِي العربيَّةِ النُّقصانُ، ومنهُ قيلَ للمنخفضُ منَ الأرضِ: هضمٌ، والجمعُ أهضامٌ[4].

---

(1) الدانق هو: سدس الدرهم.

(2) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 385).

(3) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 172).

(4) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 557).

أقسامُ الظُّلمِ:

الظلمُ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: ظلمٌ بينَ الإنسانِ وبينَ اللهِ تعالَى: وأعظمهُ: الكفرُ، والشِّركُ، والنِّفاقُ، ولذلكَ قالَ تعالَى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[لقمان:13]، وإيَّاهُ قصدَ بقولهِ: {أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[هود:18]، وقولهُ تعالَى: {وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[الإنسان: 31]، فِي آيٍ كثيرةٍ. وقالَ تعالَى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ}[الزمر: 32]، وقالَ تعالَى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}[الأنعام: 93].

والثَّانِي: ظلمٌ بينهُ وبينَ النَّاسِ، وإيَّاهُ قصدَ بقولهِ: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ}[الشورى: 40، 41، 42]،

وبقولهِ تعالَى: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا}[الإسراء: 33].

والثَّالثُ: ظلمٌ بينهُ وبينَ نفسهِ، وإيَّاهُ قصدَ بقولهِ تعالَى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ}[فاطر: 32]، وقولهُ سبحانهُ: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ}[القصص: 16]، وقولهُ تعالَى: {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[النمل: 44]، وقولهُ تعالَى: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[البقرة:231].

وكلُّ هذهِ الثَّلاثِ فِي الحقيقةِ ظلمٌ للنَّفسِ، فإنَّ الإنسانَ فِي أوَّلِ مَا يهمُّ بالظُّلمِ فقدْ ظلمَ نفسهُ، إذْ أنَّ الظَّالمَ أبدًا مبتدئٌ فِي الظُّلمِ، ولهذَا قالَ تعالَى فِي غيرِ موضعٍ: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[النحل:33]، وقالَ

تعالَى: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[البقرة:57]، وقولهُ تعالَى: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}[الأنعام:82][1][2].

الآثارُ السَّلبيَّةُ للظُّلمِ:

للظُّلمِ آثارٌ سلبيَّةٌ تلحقُ الظَّالمَ فِي قلبهِ ودينهِ، أذكرُ منهَا:

1) **الظَّالمُ مصروفٌ عنِ الهدايةِ:**

قالَ تعالَى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[المائدة: 51].

2) **الظَّالمُ لَا يفلحُ أبدًا:**

قال تعالى: {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[الأنعام:21].

3) **الظَّالمُ عليهِ لعنةٌ منَ اللهِ تعالَى إنْ ماتَ بلَا توبةٍ:**

يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: {يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[غافر: 52].

4) **الظَّالمُ يحرمُ منَ الشَّفاعةِ:**

قالَ تعالَى: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ}[غافر: 18]، ويقولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "صنفانِ منْ أمَّتِي لنْ تنالهمَا شفاعتِي: إمامٌ ظلومٌ غشومٌ، وكلُّ غالٍ مارقٍ"[3].

5) **الظَّالمُ تصيبهُ دعوةُ المظلومِ ولَا تخطئهُ:**

قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "واتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنَّهُ ليسَ بينهَا وبينَ اللهِ حجابٌ"[4].

---

(1) ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (537-538).

(2) موقع الدرر السنية - بتصرف.

(3) رواه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (8079)، والخرائطي في ((مساوئ الأخلاق)) (ص 286) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (3798).

(4) رواه مسلم (19) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

6) بالظُّلمِ يرتفعُ الأمنُ:

قالَ اللهُ تعالَى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[الأنعام:82].

7) الظُّلمُ سببٌ للبلاءِ والعقابِ:

قالَ تعالَى: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ}[الحج:45].

وقالَ تعالَى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[هود:102].

وقالَ سبحانهُ: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا}[الكهف: 59].

8) توعُّدُ الظَّالمَ بدخولِ النَّارِ:

فعنْ خولةَ الأنصاريَّةَ رضيَ اللهُ عنهَا قالتْ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: "إنَّ رجالًا يتخوَّضونَ فِي مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، فلهمْ النَّارُ يومَ القيامةِ"[1].

قالَ ابنُ حجرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: قولهُ يتخوَّضونَ- بالمعجمتينِ- فِي مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، أي: يتصرَّفونَ فِي مالِ المسلمينَ بالباطلِ[2].

(1) رواه البخاري (3118).

(2) ((فتح الباري)) (219/6).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الصِّدقُ، هوَ: استواءُ الظَّاهرِ والباطنِ فِي الاستقامةِ علَى الصِّراطِ المستقيمِ، والكذبُ بخلافِ ذلكَ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الصِّدقَ فِي كتابهِ الكريمِ، وأمرَ بهِ، وأثنَى علَى الصَّادقينَ، وذكرَ مَا أعدَّ لهمْ منَ النَّعيمِ وقالَ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة: 119].

وقالَ تعالَى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[المائدة: 119].

وقالَ سبحانهُ: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الزمر: 33 – 35].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات: 15].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[الأحزاب: 23، 24].
~~~~~~~~~~~

الصِّدقُ لغةً:

الصِّدقُ ضدُّ الكذبِ، تقولُ: صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا، وصَدَّقهُ: قَبِل قولَهِ، وصدَقَهُ الحديثَ: أَنبأَهُ بالصِّدْقِ، ويقالُ: صَدَقْتُ القومَ، أي: قلتُ لهمْ صِدْقًا وتصادقَا فِي الحديثِ وفِي المودَّةِ[1].

الصِّدقُ اصطلاحًا:

الصِّدقُ: هوَ الخبرُ عنِ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ، وهوَ نقيضُ الكذبِ[2].

وقالَ الباجِي: الصِّدقُ: الوصفُ للمخبَرِ عنهُ علَى مَا هوَ بهِ[3].

وقالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: الصدقُ: مطابقةُ القولِ الضَّميرَ والمخبَرُ عنهُ معًا، ومتَى انخرمَ شرطٌ منْ ذلكَ لمْ يكنْ صدقًا تامًّا[4].

الفرقُ بينَ الحقِّ والصِّدقِ:

الحقُّ فِي اللُّغةِ:

هوَ الثَّابتُ الذِي لَا يسوغُ إنكارهُ، منْ حقَّ الشَّيءَ يحقُّ إذَا ثبتَ ووجبَ.

وفِي اصطلاحِ أهلِ المعانِي:

الحكمُ المطابقُ للواقعِ، يطلقُ علَى الأقوالِ، والعقائدِ، والأديانِ، والمذاهبِ باعتبارِ اشتمالِهَا علَى ذلكَ، ويقابلهُ الباطلُ.

وأمَّا الصِّدقُ، فقدْ شاعَ فِي الأقوالِ خاصَّةً، ويقابلهُ الكذبُ.

وقدْ يفرَّقُ بينهمَا بأنَّ المطابقةَ تعتبرُ فِي الحقِّ: منْ جانبِ الواقعِ، وفِي الصِّدقِ: منْ جانبِ الحكمِ.

---

(1) ((لسان العرب)) لابن منظور (193/10)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص 174).

(2) ((الواضح في أصول الفقه)) لابن عقيل (129/1).

(3) ((إحكام الفصول)) للباجي (ص 235).

(4) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص 270).

فمعنَى صدقَ الحكمَ: مطابقتهُ للواقعِ.

ومعنَى حقيتهُ: مطابقةُ الواقعَ إيَّاهُ، وقدْ يطلقُ الحقُّ علَى الموجدِ للشَّيءِ، وعلَى الحكمةِ، ولمَا يوجدُ عليهِ، كمَا يقالُ: اللهُ: حقٌّ، وكلمتهُ: حقٌّ[1].

الفرقُ بينَ الوفاءِ والصِّدقِ:

قيلَ: بينهمَا عمومٌ وخصوصٌ.

فكلُّ وفاءٍ صدقٌ، وليسَ كلُّ صدقٍ وفاءٌ.

فإنَّ الوفاءَ قدْ يكونُ بالفعلِ دونَ القولِ، ولَا يكونُ الصِّدقُ إلَّا فِي القولِ، لأنَّهُ نوعٌ منْ أنواعِ الخبرِ، والخبرُ قولٌ[2].

الفرقُ بينَ الصَّادقِ والصِّدِّيقِ:

قالَ الماورِدِي: والفرقُ بينَ الصَّادقِ والصِّدِّيقِ: أنَّ الصَّادقَ فِي قولهِ بلسانهِ، والصدِّيقُ منْ تجاوزَ صدقهُ لسانهُ إلَى صدقِ أفعالهِ فِي موافقةِ حالهِ لَا يختلفُ سرَّهُ وجهرهُ، فصارَ كلُّ صِدِّيقٍ صادقًا، وليسَ كلُّ صادقٍ صِدِّيقًا[3].

---

(1) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 194).

(2) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 575).

(3) ((تفسير الماوردي)) (43/3).

التَّرغيبُ فِي الصِّدقِ:

جاءتْ الأحاديثُ النَّبويَّةُ متضافرةً فِي الحثِّ علَى الصِّدقِ، والأمرِ بهِ، وأنَّهُ وسيلةٌ إلَى الجنَّةِ.

فعنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: "إنَّ الصِّدقَ يهدِي إلَى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدِي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجلَ ليصدقُ حتَّى يكونَ صِدِّيقًا، وإنَّ الكذبَ يهدِي إلَى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدِي إلَى النَّارِ، وإنَّ الرَّجلَ ليكذبُ حتَّى يكتبَ عندَ اللهِ كذَّابًا"[1].

قالَ النَّووِي فِي شرحهِ لهذَا الحديثِ: قالَ العلماءُ: هذَا فيهِ حثٌّ علَى تحرِّي الصِّدقَ، وهوَ قصدهُ والاعتناءُ بهِ، وعلَى التَّحذيرِ منَ الكذبِ والتَّساهلِ فيهِ؛ فإنَّهُ إذَا تساهلَ فيهِ كَثَّرَ منهُ، فَعُرِفَ بهِ، وكتبهُ اللهُ لمبالغتهِ صِدِّيقًا إنِ اعتادهُ، أوْ كذَّابًا إنِ اعتادهُ.

ومعنَى يُكتبَ هنَا يحكمُ لهُ بذلكَ، ويستحقُّ الوصفَ بمنزلةِ الصِّدِّيقينَ وثوابهمْ، أو صفةِ الكذَّابينَ وعقابهمْ، والمرادُ إظهارُ ذلكَ للمخلوقينَ، إمَّا بأنْ يكتبهُ فِي ذلكَ ليشتهرَ بحظِّهِ منَ الصفتينِ فِي الملأِ الأعلَى، وإمَّا بأنْ يلقيَ ذلكَ فِي قلوبِ النَّاسِ وألسنتهمْ، وكمَا يوضعُ لهُ القبولُ والبغضاءُ، وإلَّا فقدرُ اللهِ تعالَى وكتابهُ السَّابقُ بكلِّ ذلكَ[2].

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهمَا، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "أربعٌ إذَا كنَّ فيكَ فلَا عليكَ مَا فاتكَ فِي الدُّنيَا: حفظُ أمانةٍ، وصدقُ حديثٍ، وحسنُ خليقةٍ، وعفَّةٌ فِي طعمةٍ"[3].

(1) رواه البخاري (6094)، ومسلم (2607).

(2) ((شرح صحيح مسلم)) (16/241-243).

(3) رواه أحمد (2/177) (6652)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (6/449). وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (3/16)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (10/298)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (1718).

وعنْ عبادةَ بنِ الصَّامتِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "اضمنُوا لِي ستًّا منْ أنفسكمْ أضمنُ لكمْ الجنَّةَ: اصدقُوا إذَا حدَّثتمْ، وأوفُوا إذَا وعدتمْ، وأدُّوا إذَا ائتمنتمْ، واحفظُوا فروجكمْ، وغضُّوا أبصاركمْ، وكفُّوا أيديكمْ"[1].

أي: (اضمنُوا لِي ستًّا) منَ الخصالِ، (منْ أنفسكمْ) بأنْ تداومُوا علَى فعلهَا، (أضمنُ لكمْ الجنَّةَ) أي دخولهَا، (اصدقُوا إذَا حدثتمْ) أي: لَا تكذبُوا فِي شيءٍ منْ حديثكمْ، إلَّا إنْ ترجحَ علَى الكذبِ مصلحةٌ أرجحُ منْ مصلحةِ الصِّدقِ، فِي أمرٍ مخصوصٍ، كحفظِ معصومٍ...[2].

وعنْ أبِي محمَّدٍ، الحسنُ بنُ عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهمَا، قالَ: حفظتُ منْ رسولِ اللهِ ﷺ:

"دعْ مَا يَريبكَ إلَى مَا لَا يَريبكَ، فإنَّ الصِّدقَ طمأنينةٌ، والكذبُ ريبةٌ"[3].

(1) رواه أحمد (5/323) (22809)، والحاكم (4/399)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (12691). وقال الذهبي في ((المهذب)) (2/2451)، وحسن إسناده ابن كثير في جامع ((المسانيد والسنن)) (5807).

(2) ((فيض القدير شرح الجامع الصغير)) للمناوي

(3) رواه الترمذي (2518)، والنسائي (5711). وقال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه النووي في ((المجموع)) (1/181)، وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (318).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: حدودُ اللهِ هيَ: محارمهُ، وهيَ التِي يقولُ فيهَا: "تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا" ويرادُ بهَا مَا أباحهُ اللهُ وحلَّلهُ، وقدَّرهُ، وفرضهُ، فيقولُ فيهَا "تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا".

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى حدودهُ فِي القرآنِ الكريمِ فِي مواطنَ كثيرةٍ ونهَى عنْ تعدِّيهَا، وتوعَّدَ منْ يتعدَّاهَا، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[البقرة: 187].

وقالَ سبحانهُ: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[البقرة: 229].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[الطَّلاق: 1].

وقالَ: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا}[النِّساء: 14].
~~~~~~~~~~~

الحدودُ لغةً جمعُ حدٍّ:

قالَ ابنُ فارسٍ: "الحاءُ والدَّالُ أصلانِ: الأوَّلُ: المنعُ، والثَّانِي: طرفُ الشَّيءِ.
فالحدُّ: الحاجزُ بينَ الشَّيئين، وفلانٌ محدودٌ إذَا كانَ ممنوعاً.
قالَ: وحدُّ العاصِي سمِّيَ حدًّا لأنَّهُ يمنعهُ عنِ المعاودةِ"[1].

ويطلقُ الحدُّ علَى التَّعريفِ، فتقولُ: حدُّ علمِ الفقهِ هوَ: العلمُ بالأحكامِ الشَّرعيَّةِ العمليَّةِ، المكتسبةِ منْ أدلَّتهَا التفصيليَّةِ.

أيْ تعريفُ علمِ الفقهِ هو: العلمُ بالأحكامِ الشَّرعيَّةِ...

والحدُّ اصطلاحًا:

قالَ الجرجانِي: الحدُّ قولٌ دالٌّ علَى ماهيَّةِ الشَّيءِ وعندَ أهلِ اللهِ، الفصلُ بينكَ وبينَ مولاكَ كتعبُّدكَ وانحصاركَ فِي الزَّمانِ والمكانِ المحدودينِ[2].

وقالَ: الحدودُ جمعُ حدٍّ وهوَ فِي اللُّغةِ: المنعُ، وفِي الشَّرعِ عقوبةٌ مقدرَّةٌ وجبتْ حقًّا للهِ تعالَى[3].

وحدودُ اللهِ تعالَى هيَ: محارمهُ، والمَحْرَمُ: مَا حرَّمَ اللهُ تعالَى والجمعُ: مَحارِمُ[4]، ومنهَا الحريمُ وهوَ: مَا حُرِّمَ فلَا يُنتَهكُ[5]، ومنهُ الحِمَى وحِمَى اللهِ: مَحارِمهُ[6]، ومنْ ذلكَ قولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "...ألَا وأنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى، ألَا وإنَّ حمَى اللهِ محارمهُ..."[7]، أي: أنَّ الله سبحانهُ وتعالَى هوَ الملكُ حقًّا، وقدْ حمَى الشَّريعةَ بحدودٍ محكمةٍ متينةٍ، فحرَّمَ علَى النَّاسِ كلَّ مَا يضرُّهمْ فِي دينهمْ ودنياهمْ، ونهاهمْ عنِ الشُّبهاتِ، وأباحَ لهمْ مَا فيهِ نفعٌ لهمْ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، فتلكَ هيَ حدودُ اللهِ تعالَى ومحارمهُ.

---

(1) مقاييس اللغة (2/3-4).
(2) التعريفات للجرجاني.
(3) السابق.
(4) معجم المعاني.
(5) السابق.
(6) السابق.
(7) رواه البخاري ومسلم.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الأمانةُ هيَ: الأمورُ التِي يؤتمنُ عليهَا العبدُ، فيشملُ ذلكَ أداءَ حقوقِ اللهِ، وخصوصًا الخفيَّةُ، وحقوقِ خلقهِ كذلكَ.

~~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الأمانةَ فِي كتابهِ العزيزِ، وأمرَ بالمحافظةِ عليهَا، منهَا قولهُ تعالَى: {فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}[البقرة: 283].

وقالَ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[النساء: 58].

وقالَ سبحانهُ: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ}[المعارج: 32 – 35].
~~~~~~~~~~~~

الأمَانَةُ لغةً:

الأمانةُ ضدُّ الخيانةِ، وأصلُ الأَمْنِ: طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ، والأمانةُ مصدرُ أمِنَ "بالكسرِ" أمانةٌ فهوَ أمينٌ، ثمَّ استُعملَ المصدرُ فِي الأعيانِ مجازًا، فقيلَ الوديعةُ أمانةٌ ونحوهِ، والجمعُ أماناتٌ، فالأمانةُ اسمٌ لمَا يُؤمَّنُ عليهِ الإنسانُ، نحوَ قولهِ تعالَى: {وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ}[الأنفال: 27]، أي: مَا ائتُمنتمْ عليهِ، وقولهُ تعالَى: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[الأحزاب: 72][1].

الأمَانَةُ اصطلاحًا:

الأمانةُ: هيَ كلُّ حقٍّ لزِمَكَ أداؤهُ وحفْظهُ[2].

وقيلَ هيَ: التَّعفُّفُ عمَّا يتصرَّفُ الإنسانُ فيهِ مِنْ مالٍ وغيرهِ، ومَا يوثقُ بهِ عليهِ مِنَ الأعراضِ والحرمِ معَ القدرةِ عليهِ، وردُّ مَا يستودعُ إلَى مودعهِ[3].

وقالَ الكفويِ: كلُّ مَا افترضَ علَى العبادِ فهوَ أمانةٌ، كصلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وأداءِ دينٍ، وأوكدهَا الودائعُ، وأوكدُ الودائعِ كتمُ الأسرارِ[4].

---

(1) ((لسان العرب)) لابن منظور (21/13)، ((مفردات ألفاظ القرآن)) للرَّاغب الأصفهاني (90/1)، ((المصباح المنير)) للفيومي (24/1).

(2) ((فيض القدير)) للمناوي (288/1).

(3) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص 24).

(4) ((الكليات)) (ص 269).

الأمانةُ باعتبارِ متعلَّقِهَا تنقسمُ إلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

1) أمانةٌ تتعلَّقُ بحقِّ اللهِ تبارك وتعالَى علَى عبادهِ؛ بإخلاصِ الدِّينِ لهُ وامتثالِ أوامرِهِ والبعدِ عنْ نواهيهِ والحذرِ منْ الإشراكِ بهِ تباركَ وتعالَى، قالَ عبدُ اللهُ بنُ مسعودٍ: القتلُ فِي سبيلِ اللهِ كفَّارةُ كلِّ ذنبٍ إلَّا الأَمَانَةُ، وإنَّ الأَمَانَةَ الصَّلاةُ والزَّكاةُ والغسلُ مِنَ الجنابةِ والكيلُ والميزانُ والحديثُ، وأعظمُ مِنْ ذلكَ الودائعُ[1].

2) وأمانةٌ تتعلَّقُ بحقوقِ الرَّسولِ ﷺ؛ بمحبَّتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وامتثالِ أوامرِهِ والبعدِ عنْ نواهيهِ، وتصديقِ أخبارهِ وتعظيمهِ وتوقيرِه، والبعدِ عنِ الغلوِّ فيهِ.

3) وأمانةٌ تتعلَّقُ بحقوقِ النَّاسِ؛ كحقِّ الوالدينِ، وحقِّ الأبناءِ، وحقِّ الجيرانِ، وهكذَا.

وقدْ جُمعتْ هذهِ الأقسامُ الثَّلاثةُ فِي قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الأنفال:28].

---

(1) رواه الخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (159).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: العهودُ والعقودُ: يدخلُ فيهَا التِي بينهُ وبينَ اللهِ، وهوَ: القيامُ بعبادةِ اللهِ مخلصًا لهُ الدِّينَ، والتِي بينهُ وبينَ العبادِ منَ المعاملاتِ ونحوهَا.أهـ

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ الكريمِ العهودَ والعقودَ وأمرَ بالمحافظةِ عليهَا، حيثُ قالَ تعالَى:

{وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[البقرة: 177].

وقالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[آل عمران: 75].

وقالَ سبحانهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[المائدة: 1].

وقالَ جلَّ جلاهُ: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ}[الرعد: 20].

وقالَ تباركَ وتعالَى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[النحل: 91].

وقالَ: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}[الإسراء: 34].
~~~~~~~~~~

العهدُ لغةً:

العهدُ: الوصيَّةُ، والأمانُ، والموثقُ، والذمَّةُ، ومنهُ قيلَ للحربيِّ يدخلُ بالأمانِ: ذُو عهدٍ ومعاهدٍ، وقدْ عَهِدْتُ إليهِ، أي أوصيتهُ، ومنهُ اشتُقَّ العَهْدُ الذِي يكتبُ للوُلاةِ، وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدلُّ علَى الاحتفاظِ بالشَّيءِ[1].

العهدُ اصطلاحًا:

قالَ الجرجانيُّ: العهدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتهُ حالًا بعدَ حالٍ. هذَا أصلهُ ثمَّ استُخدمَ فِي الموثقِ الذِي يلزمُ مراعاتهُ[2].

(وضدُّهُ) عدمُ الوفاءِ بمَا أعلنَ الإنسانُ الالتزامَ بهِ، أوْ قطعهُ علَى نفسهِ منْ عهدٍ أوْ ميثاقٍ، سواءٌ فيمَا بينهُ وبينَ اللهِ تعالَى، أوْ فيمَا بينهُ وبينَ النَّاسِ[3].

ومنَ العهودِ المواثيقُ، وقدْ قالَ تعالَى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[الحديد: 8].

وقال تعالَى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ}[المائدة: 7].

وقالَ: {وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}[النساء: 153].

وقالَ: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}[البقرة: 84].

وقالَ: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[الأعراف: 169].

وقالَ:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}[البقرة: 83].

وكلُّ هذهِ مواثيقُ أخذَهَا اللهُ تعالَى علَى عبادهِ، ونهَى عنْ نقضهَا.

---

(1) ((الصحاح)) للجوهري (515/2)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (167/4)، ((المصباح المنير)) للفيومي (435/2).

(2) ((التعريفات)) (159).

(3) ((نضرة النعيم)) (5632/11).

العقودُ لغةً:

العقودُ جمعُ عقدٍ، قالَ ابنُ فارسٍ: العينُ والقافُ والدَّالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى شدٍّ وشدَّةِ وثوقٍ،...[1].

وعقدَ الحبلَ والبيعَ والعهدَ فانعقدَ...[2].

العقدُ اصطلاحًا:

هوَ ارتباطُ إيجابٍ بقبولٍ علَى وجهٍ مشروعٍ يثبتُ أثرهُ فِي محلِّهِ، أوْ تقولُ: تعلُّقُ كلامِ أحدِ العاقدينَ بالآخرِ شرعًا علَى وجهٍ يظهرُ أثرهُ فِي المحلِّ.

وجاءَ فِي الهدايةِ: الانعقادُ هاهنَا تعلُّقُ كلامِ أحدِ العاقدينَ بالآخرِ شرعًا علَى وجهٍ يظهرُ أثرهُ فِي المحلِّ[3].

الفرقُ بينَ: العهدِ، والعقدِ، والميثاقِ:

الميثاقُ: هوَ العهدُ المؤكَّدُ باليمينِ.

والعهدُ أيضًا: مَا أخذهُ اللّهُ تعالَى علَى بنِي آدمَ منَ الإقرارِ بربوبيَّتهِ ووحدانيَّتهِ، ويشملُ أيضًا مَا أخذهُ علَى هذهِ الأمَّةِ أنْ يوفّوا بهِ ممَّا أحلَّ وحرَّمَ وفوَّضَ، ويتضمَّنُ العهدُ أيضًا مَا يكونُ منِ اتّفاقٍ بينَ المسلمينَ والمشركينَ.

أمّا العقدُ: فهوَ مَا عقدهُ الإنسانُ علَى نفسهِ للآخرينَ منْ بيعٍ وشراءٍ ونحوهمَا، أوْ مَا عقدهُ للّهُ تعالَى منَ الطَّاعاتِ كالحجِّ والصَّومِ وغيرهمَا منَ العباداتِ، وقيلَ: العهدُ إلزامٌ (مطلقٌ)، والعقدُ إلزامٌ علَى سبيلِ الإحكامِ والاستيثاقِ، وقيلَ: العقودُ مَا أحلَّ اللّهُ وحرَّمَ وفرضَ وحدَّ فِي جميعِ الأشياءِ.

وكلُّ هذهِ الثَّلاثِ، لهَا قسمانِ إنِ اعتبرنَا عهودَ المؤمنينَ للرسولِ ﷺ منْ قسمِ عهودِ اللهِ تعالَى، فهيَ: مواثيقُ وعهودٌ وعقودٌ بيننَا وبينَ اللهِ تعالَى، ومثلهَا بيننَا وبينَ النَّاسِ، بمَا بيَّنَّا سابقًا.

---

(1) معجم مقييس اللغة.

(2) مختار الصحاح للرازي.

(3) العناية شرح الهداية للبابرتي.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الحكمةُ والقوام: فعلُ مَا ينبغِي علَى الوجهِ الذِي ينبغِي.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الحكمةَ فِي كتابهِ العزيزِ وقالَ:

{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: 269].

وقالَ سبحانهُ: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: 125].

وقالَ تباركَ وتعالَى: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} [الأحزاب: 34].

وقالَ تعالَى: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء: 39].

وذكرَ سبحانهُ القوامَ وقالَ: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67].

قالَ السُّيوطِي: (قوامًا) وسطًا[1].

---

(1) الدر المنثور للسيوطي.
~~~~~~~~~~~

الحِكمَة لغةً:

الحَكَمَةُ: مَا أحاطَ بحَنَكَي الفرسِ، سُمِّيتْ بذلكَ؛ لأنَّهَا تمنعهُ منَ الجري الشَّديدِ، وتُذلِّلُ الدَّابَّةَ لراكبهَا، حتَّى تمنعهَا منَ الجِماحِ[1]، ومنهُ اشتقاقُ الحِكْمَةِ؛ لأنَّهَا تمنعُ صاحبهَا منْ أخلاقِ الأراذلِ.

وأَحْكَمَ الأَمْرَ: أيْ أَتْقَنَهُ فاستَحْكَمَ، ومنعهُ عنِ الفسادِ، أوْ منعهُ منَ الخروجِ عمَّا يريدُ[2].

الحِكمَةُ اصطلاحًا:

قالَ أبُو إسماعيلَ الهرويِّ: الحِكْمَةُ اسمٌ لإحكامِ وضعِ الشَّيءِ فِي موضعهِ[3].

وقالَ ابنُ القيِّمِ: الحِكْمَةُ: فعلُ مَا ينبغِي، علَى الوجهِ الذِي ينبغِي، فِي الوقتِ الذِي ينبغِي[4].

وقالَ النَّوويُّ: الحِكْمَةُ: عبارةٌ عنِ العلمِ المتَّصفِ بالأحكامِ، المشتملِ علَى المعرفةِ باللهِ تباركَ وتعالَى، المصحوبِ بنفاذِ البصيرةِ، وتهذيبِ النَّفسِ، وتحقيقِ الحقِّ، والعملِ بهِ، والصدِّ عنِ اتِّباعِ الهوَى والباطلِ، والحَكِيمُ منْ لهُ ذلكَ[5].

---

(1) من جمح الفرس: إذا ذهب يجري جريًا غالبًا واعتز فارسه وغلبه. ((لسان العرب)) (426/2).

(2) ((القاموس المحيط)) للفيروز أبادي (ص 1415)، ((لسان العرب)) لابن منظور (143/12)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص 62) ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (119/1)، ((المصباح المنير)) للفيومي (145/1)، ((تاج العروس)) للزبيدي (253/8)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (288/1)، ((المعجم الوسيط)) (19/1).

(3) ((منازل السائرين)) للهروي (ص 78).

(4) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (449/2).

(5) ((شرح النووي على مسلم)) (33/2).

وتعريفُ الإمامِ النَّووِي أصحُّ وأشملُ التَّعريفاتِ.

والحكمةُ هيَ السنَّةُ المطهَّرةُ، ودليلهُ قولهُ تعالَى: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}[الأحزاب: 34].

قالَ الطَّبريُّ: واذكرنَ مَا يقرأُ فِي بيوتكنَّ منْ آياتِ كتابِ اللهِ والحكمةِ، ويعنِي بالحكمةِ: مَا أوحيَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ منْ أحكامِ دينِ اللهِ، ولمْ ينزلْ بهِ قرآنٌ، وذلكَ السنَّةُ، وبنحوِ الذِي قلنَا فِي ذلكَ قالَ أهلُ التَّأويلِ(1).

وقالَ السَّعدِي: والمرادُ بآياتِ اللهِ، القرآنُ، والحكمةُ، أسرارهُ وسنَّةُ رسولهِ ﷺ(2).

وقالَ ابنُ كثيرٍ: اعملنَ بمَا ينزلُ اللهُ علَى رسولهِ فِي بيوتكنَّ منَ الكتابِ والسنَّةِ؛ قالهُ قتادةُ وغيرُ واحدٍ(3).

وقالَ البغويُّ: (والحكمةُ) قالَ قتادةُ: يعنِي السنَّةُ(4).

وتأتِي الحِكْمَةُ بمعنَى النُّبُوَّةِ.

والحِكْمَةُ بمعنَى الفِقْهِ.

والحِكْمَةُ بمعنَى الفَهْمِ، وحُجَّةِ العقلِ وفقًا للشَّريعةِ.

والحِكْمَةُ بمعنَى العِظَةِ(5).

وخلاصةً: الحكمةُ هيَ: رؤيةُ الحقِّ واتِّباعهُ.

---

(1) تفسير الطَّبري.

(2) تفسير السَّعدي.

(3) تفسير ابن كثير.

(4) تفسير البغوي.

(5) الدرر السَّنية.

والقوامُ لغةً:

العَدْلُ: بمعنى وسطٌ بين الطَّرفينِ، ورُمحٌ قوامٌ: مستقيمٌ[1].

والقوامُ اصطلاحًا:

قالَ الطَّبري: أخبرنِي إبراهيمُ بنُ نشيطٍ، عنْ عمرَ مولَى غُفرة، قالَ: قلتُ لهُ: مَا القوامُ؟ قالَ: القوامُ أنْ لَا تنفقَ فِي غيرِ حقٍّ، ولَا تُمسكَ عنْ حقٍّ هوَ عليكَ. والقوامُ فِي كلامِ العربِ، بفتحِ القافِ، وهوَ الشَّيءُ بينَ الشَّيئينِ، تقولُ للمرأةِ المعتدلةِ الخلقِ: إنَّهَا لحسنةُ القوامِ فِي اعتدالهَا، كمَا قالَ الحُطَيئةُ: طافتْ أُمامةُ بالرَّكبِ آونة * يا حُسنهُ منْ قوامٍ مَّا ومنتقَبَا[2].

---

(1) معجم المعاني.

(2) تفسير الطَّبري صـ (314).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والإسرافُ والتَّبذيرُ: مجاوزةُ الحدِّ فِي الإنفاقِ، والتَّقتيرِ والبخلُ عكسهُ: التقصيرُ فِي النَّفقاتِ الواجبةِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الإسرافَ والتَّبذيرَ فِي كتابهِ العزيزِ وحذَّرَ منهمَا وأنذرَ وتوعَّد، وكذلكَ حذَّر منَ البخلِ والتَّقتيرِ، فقالَ تعالَى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف: 31].

وقالَ سبحانهُ: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ}[الأنبياء: 9].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}[غافر: 43].

وقالَ تعالَى فِي التَّبذيرِ: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[الإسراء: 26 – 27].

وذكرَ سبحانهُ البخلَ والتَّقتيرَ وقالَ: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[آل عمران: 180].

وقالَ سبحانهُ: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ
~~~~~~~~~~

نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[التوبة: **75-76- 77]**.

وقالَ جلَّ جلالهُ: {هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم}[محمد: **38]**.

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}[الليل: **8 – 9 – 10]**.

وقالَ: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا}[الفرقان: **67]**.

الإسرافُ لغةً:

الإسرافُ: مجاوزةُ القصدِ، مصدرٌ منْ أسرفَ إسرافًا، والسَّرَفُ اسمٌ منهُ، يقالُ: أسرفَ فِي مالِهِ: عجلَ منْ غيرِ قصدٍ، وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدُلُّ علَى تعدِّي الحدِّ، والإغفالِ أيضًا للشَّيءِ[1].

الإسرافُ اصطلاحًا:

الإسرافُ: هوَ صرفُ الشَّيءِ فيمَا لَا ينبغِي زائدًا علَى مَا ينبغِي[2].

وقالَ الرَّاغبُ: السَّرفُ: تجاوزُ الحدِّ فِي كلِّ فعلٍ يفعلهُ الإنسانُ، وإنْ كانَ ذلكَ فِي الإنفاقِ أشهرُ[3].

وقالَ الجرجانِي: الإسرافُ: هوَ إنفاقُ المالِ الكثيرِ فِي الغرضِ الخسيسِ. وقيلَ: تجاوزُ الحدِّ فِي النَّفقةِ، وقيلَ: أنْ يأكلَ الرَّجلُ مَا لَا يحلُّ لهُ، أوْ يأكلَ ممَّا يحلُّ لهُ فوقَ الاعتدالِ، ومقدارِ الحاجةِ. وقيلَ: الإسرافُ تجاوزٌ فِي الكمِّيةِ، فهوَ جهلٌ بمقاديرِ الحقوقِ[4].

التَّبذيرُ لغةً:

التَّبذيرُ: التَّفريقُ: مصدرُ بذَّرَ تبذيرًا، وأصلهُ إلقاءُ البذرِ وطرحهِ، فاستعيرَ لكلِّ مضيِّعٍ لمالهِ، وبذرَ مالهُ: أفسدهُ وأنفقهُ فِي السَّرفِ، وكلُّ مَا فرَّقتهُ وأفسدتهُ، فقدْ بذَّرتهُ، والمباذرُ والمبذِّرُ: المسرفُ فِي النَّفقةِ؛ وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدلُّ علَى نثرِ الشَّيءِ وتَفْرِيقهِ[5].

(1) مقاييس اللغة لابن فارس 153/3، لسان العرب لابن منظور 148/9، المصباح المنير للفيومي 274/1.

(2) ((الكليات)) للكفوي (ص113).

(3) ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب الأصفهاني (ص 407).

(4) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 24).

(5) مقايس اللغة لابن فارس 216/1 المفردات للراغب الأصفهاني 114 لسان العرب لابن منظور 148/9.

التَّبذيرُ اصطلاحًا:

قالَ الشَّافعِي: التَّبذيرُ إنفاقُ المالِ فِي غيرِ حقِّهِ[1].

وقيلَ: التَّبذيرُ صرفُ الشَّيءِ فيمَا لَا ينبغِي[2].

وقيلَ: هوَ تفريقُ المالِ علَى وجهِ الإسرافِ[3].

الفرقُ بينَ الإسرافِ والتَّبذيرِ:

الإسرافُ: صرفُ الشَّيءِ فيمَا ينبغِي زائدًا علَى مَا ينبغِي.

بخلافِ التَّبذيرِ؛ فإنَّهُ صرفُ الشَّيءِ فيمَا لَا ينبغِي[4].

فبينهمَا عمومٌ وخصوصٌ إذْ قدْ يجتمعانِ فيكونُ لهمَا المعنَى نفسهُ أحيانًا، وقدْ ينفردُ الأعمُّ وهوَ الإسرافُ[5].

---

(1) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (247/10).

(2) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 24)، و((الكليات)) للكفوي (ص113).

(3) ينظر ((التعريفات)) للجرجاني (ص51) و((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص 90)، ((لسان العرب)) لابن منظور (50/4).

(4) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 24)، وقال ابن عابدين: (التبذير يستعمل في المشهور بمعنى الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقًا). ثم ذكر نحو كلام الجرجاني. ((حاشية ابن عابدين)) (759/6).

(5) ((نضرة النعيم)) (4115/9).

الآثارُ السَّلبيَّةُ للإسرافِ والتَّبذيرِ:

1) عدمُ محبَّةِ اللهِ تعالَى للمسرفينَ والمبذرينَ:

قالَ تعالَى: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأنعام: 141].

قالَ ابنُ عاشورٍ: فبيَّنَ أنَّ الإسرافَ منَ الأعمالِ التِي لَا يحبُّهَا، فهوَ منَ الأخلاقِ التِي يلزمُ الانتهاءُ عنهَا، ونفيُ المحبَّةِ مختلفُ المراتبِ، فيعلمُ أنَّ نفيَ المحبةِ يشتدُّ بمقدارِ قوَّةِ الإسرافِ، وهذَا حكمٌ مجملٌ، وهوَ ظاهرٌ فِي التَّحريمِ[1].

2) يفضِي إلَى طلبِ المالِ بالكسبِ الحرامِ:

لأنَّ المسرفَ ربمَا ضاقتْ بهِ المعيشةُ، نتيجةً لإسرافهِ؛ فيلجأُ إلَى الكسبِ الحرامِ، قالَ ابنُ عاشورٍ: فوجهُ عدمِ محبَّةِ اللهِ إيَّاهمْ أنَّ الإفراطَ فِي تناولِ اللَّذَّاتِ والطيِّباتِ، والإكثارِ منْ بذلِ المالِ فِي تحصيلهَا، يفضِي غالبًا إلَى استنزافِ الأموالِ، والشَّرهِ إلَى الاستكثارِ منهَا، فإذَا ضاقتْ علَى المسرفِ أموالهُ؛ تطلَّبَ تحصيلُ المالِ منْ وجوهٍ فاسدةٍ، ليخمدَ بذلكَ نهمتهُ إلَى اللذَّاتِ، فيكونُ ذلكَ دأبهُ، فربَّمَا ضاقَ عليهِ مالهُ، فشقَّ عليهِ الإقلاعُ عنْ معتادهِ، فعاشَ فِي كربٍ وضيقٍ، وربَّمَا تَطَلَّبَ المالَ منْ وجوهٍ غيرِ مشروعةٍ، فوقعَ فيمَا يؤاخذُ عليهِ فِي الدُّنيَا أوْ فِي الآخرةِ، ثمَّ إنَّ ذلكَ قدْ يعقبُ عيالهُ خصاصةً، وضنكَ معيشةٍ، وينشأُ عنْ ذلكَ ملامٌ، وتوبيخٌ، وخصوماتٌ تفضِي إلَى مَا لَا يحمدُ فِي اختلالِ نظامِ العائلةِ[2].

---

(1) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (القسم الأول – 8/123).

(2) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (القسم الأول – 8/124).

3) كمَا أنَّ الإسرافَ فِي الأكلِ يضرُّ بالبدنِ:

قالَ عليٌّ بنُ الحسينِ بنِ واقدٍ: جمعَ اللهُ الطبَّ كلَّهُ فِي نصفِ آيةٍ فقالَ: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ}[الأعراف: 31][1].

وقالَ ابنُ عاشورٍ: ولَا تسرفُوا فِي الأكلِ بكثرةِ أكلِ اللُّحومِ والدَّسمِ؛ لأنَّ ذلكَ يعودُ بأضرارٍ علَى البدنِ، وتنشأُ منهُ أمراضٌ معضلةٌ.

وقدْ قيلَ: إنَّ هذهِ الآيةَ جمعتْ أصولَ حفظِ الصحَّةِ منْ جانبِ الغذاءِ، فالنَّهيُ عنِ السَّرفِ نهيُ إرشادٍ لَا نهيُ تحريمٍ[2].

وقالَ محمَّدٌ رشيدٌ رضَا: فمنْ جعلَ شهوةَ بطنهِ أكبرُ همِّهِ فهوَ منَ المسرفينَ، ومنْ بالغَ فِي الشَّبعِ وعرضِ معدتهِ وأمعاءهِ للتَّخمِ، فهوَ منَ المسرفينَ، ومنْ أنفقَ فِي ذلكَ أكثرَ منْ طاقتهِ، وعرضَ نفسهُ لذلِّ الدَّيْنِ أوْ أكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطلِ فهوَ منَ المسرفينَ، ومَا كانَ المسرفُ منَ المتَّقينَ[3].

4) المسرفُ والمبذِّرُ يشاركهُ الشَّيطانُ فِي حياتهِ:

إنَّ الذِي يسرفُ ويبذِّرُ معرَّضٌ لمشاركةِ الشَّيطانِ فِي مسكنهِ، ومطعمهِ، ومشربهِ، وفراشهِ، يقولُ النَّبيُّ ﷺ: "فراشٌ للرَّجلِ، وفراشٌ لامرأتهِ، والثَّالثُ للضَّيفِ، والرَّابعُ للشَّيطانِ"[4].

(1) ((معالم التنزيل)) للبغوي (189/2).
(2) ((التحرير والتنوير)) (القسم الثاني – 95/8).
(3) ((تفسير المنار)) (25/7).
(4) رواه مسلم (2084) وأبو داود، والنَّسائي.

5) الإسرافُ والتَّبذيرُ منْ صفاتِ إخوانِ الشَّياطين:

قالَ تعالَى: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: 26–27].

قالَ السَّعدِي: لأنَّ الشَّيطانَ لَا يدعُو إلَّا إلَى كلِّ خصلةٍ ذميمةٍ، فيدعُو الإنسانَ إلَى البخلِ والإمساكِ، فإذَا عصاهُ دعاهُ إلَى الإسرافِ والتَّبذيرِ، واللهُ تعالَى إنَّمَا يأمرُ بأعدلِ الأمورِ وأقسطهَا ويمدحُ عليهِ، كمَا فِي قولهِ عنْ عبادِ الرَّحمنِ الأبرارِ: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوالَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[الفرقان: 67][1].

6) الإسرافُ يجرُّ إلَى مذمَّاتٍ كثيرةٍ:

قالَ ابنُ عاشورٍ: والإسرافُ إذَا اعتادهُ المرءُ حملهُ علَى التوسُّعِ فِي تحصيلِ المرغوباتِ، فيرتكبُ لذلكَ مذمَّاتٍ كثيرةٍ، وينتقلُ منْ ملذَّةٍ إلَى ملذَّةٍ فلَا يقفُ عندَ حدٍّ. وقيلَ عطفٌ علَى وَآتُواْ حَقَّهُ أيْ: ولَا تسرفُوا فيمَا بقيَ بعدَ إتيانِ حقِّهِ، فتنفقُوا أكثرَ ممَّا يجبُ، وهذَا لَا يكونُ إلَّا فِي الإنفاقِ والأكلِ ونحوهِ[2]. (يقصدُ آيةَ: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأنعام: 141]).

---

(1) ((تيسير الكريم الرحمن)) (456).
(2) ((التحرير والتنوير)) (القسم الأول – 123/8).

7) التَّعرُّضُ للمساءلةِ والحسابِ عنْ مصارفِ مالهِ:

عنْ أبِي برزةَ الأسلميِّ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "لَا تزولُ قدمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عنْ عمرهِ فيمَا أفناهُ، وعنْ علمهِ فيمَا فعلَ، وعنْ مالهِ منْ أينَ اكتسبهُ وفيمَا أنفقهُ، وعنْ جسمهِ فيمَا أبلاهُ"(1).

أيْ: منْ موقفهِ للحسابِ حتَّى يُسألَ عنْ عمرهِ فيمَا أفناهُ أفِي طاعةٍ أمْ معصيةٍ، وعنْ عملهِ فيمَا عملهُ لوجهِ اللهِ تعالَى خالصًا أوْ رياءً وسمعةً، وعنْ مالهِ منْ أينَ اكتسبهُ، أمنْ حلالٍ أوْ حرامٍ؟ وفيمَا أنفقهُ أفِي البرِّ والمعروفِ أوْ الإسرافِ والتَّبذيرِ؟ وعنْ جسمهِ فيمَا أبلاهُ أفِي طاعةِ اللهِ تعالَى أوْ فِي معاصيهِ؟(2).

8) الإسرافُ والتَّبذيرُ فيهِ تضييعٌ للمالِ، وهذَا مشاهَدٌ محسوسٌ.

9) الإسرافُ والتَّبذيرُ عاقبتهمَا وخيمةٌ:

قالَ ابنُ الجوزِي: العاقلُ يدبِّرُ بعقلهِ عيشتهُ فِي الدُّنيَا، فإنْ كانَ فقيرًا، اجتهدَ فِي كسبٍ وصناعةٍ تكفُّهُ عنِ الذُّلِّ للخلقِ، وقلَّلَ العلائقَ، واستعملَ القناعةَ، فعاشَ سليمًا منْ مِنَنِ النَّاسِ عزيزًا بينهمْ، وإنْ كانَ غنيًّا، فينبغِي لهُ أنْ يدبِّرَ فِي نفقتهِ، خوفَ أنْ يفتقرَ، فيحتاجَ إلَى الذُّلِّ للخلقِ، ومنَ البليَّةِ أنْ يبذِّرَ فِي النَّفقةِ، ويباهِي بهَا ليكمدَ الأعداءَ، كأنَّهُ يتعرَّضُ بذلكَ - إنْ أكثرَ - لإصابتهِ بالعينِ... وينبغِي التوسُّطُ فِي الأحوالِ، وكتمانِ مَا يصلحُ كتمانهُ، وإنَّمَا التَّدبيرُ حفظُ المالِ، والتوسُّطُ فِي الإنفاقِ، وكتمانُ مَا لَا يصلحُ إظهارهُ(3).

(1) رواه الترمذي (2417)، والدارمي (452/1)، قال الترمذي حسن صحيح. وقال ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (41/2): إسناده جيد. وصحح إسناده الهيتمي في ((الزواجر)) (242/2). وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (7300).

(2) ((تطريز رياض الصالحين)) لفيصل المبارك (ص 275).

(3) ((صيد الخاطر)) (498).

التَّقتيرُ لغةً:

مصدرُ قَتَرَ، وهوَ: البُخلُ والتَّضييقُ.

والتَّقتيرُ علَى العيالِ: تضييقٌ عليهِمْ بالنَّفقةِ.

وقترَ الرَّجلُ، ضاقَ عيشهُ[1].

وعاشَ عيشَةَ تقتيرٍ وشَظَفٍ: عيشَةَ بُخلٍ وشُحٍّ

وهوَ فِي حالَةِ تقتيرٍ: القَليلُ منَ العَيشِ ومَا يُسَدُّ بِهِ الرَّمَقُ والحاجَةُ[2].

وقالَ ابنُ فارسِ: (قَتَرَ) القَافُ والتَّاءُ والرَّاءُ أَصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ علَى تجميعٍ وتضييقٍ، منْ ذلكَ القُتْرَةُ: بَيْتُ الصَّائِدِ; وَسُمِّيَ قُتْرَةً لِضِيقِهِ وَتَجَمُّعِ الصَّائِدِ فِيهِ; وَالْجَمْعُ قُتَرٌ. وَالْإِقْتَارُ: التَّضْيِيقُ، يُقَالُ: قَتَرَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَقْتُرُ، وَأَقْتَرَ وَقَتَّرَ. قَالَ اللَّهُ تَعالَى: {وَالذَّينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا}[الفرقان: 67].

ومنَ البَابِ: القَتَرُ: مَا يغشَى الوجهَ منْ كربٍ، قالَ اللهُ تعالَى: "وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ"[يونس: 26]، والقَتَرُ: الغُبَارُ. والقاترُ منَ الرِّحَالِ: الحسنُ الوُقُوعِ علَى ظهرِ البعيرِ، وهوَ منَ البابِ، لأَنَّهُ إِذَا وقعَ وقُوعًا حسَنًا ضُمَّ السَّنَامُ، فَأَمَّا القُتَارُ فَالْأَصلُ عِندَنَا أَنَّ صَيَّادَ الْأَسَدِ كَانَ يُقَتِّرُ فِي قُتْرَتِهِ بِلَحمٍ يَجِدُ الأَسَدُ رِيحَهُ فَيُقبِلُ إِلَى الزُّبيَةِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ رِيحُ اللَّحمِ المَشوِيِّ كَيفَ كَانَ قُتَارًا، قَالَ طَرَفَةُ:

وَتَنَادَى القَوْمُ فِي نَادِيهِمُ * أَقُتَارٌ ذَاكَ أَمْ رِيحُ قُطُرْ[3].

(1) جامع المعاني.

(2) السابق.

(3) معجم مقاييس اللغة.

والتَّقتيرُ اصطلاحًا:

متوافقٌ معَ تعريفهِ اللُّغويِّ، إذْ أنَّ التَّقتيرَ هوَ: حرمانُ النَّفسِ منَ الاستهلاكِ[1]، وإنْ كانَ التَّقتيرِ علَى منْ عليهِ نفقتهُ، فهوَ: تضييقٌ عليهِ فِي النَّفقاتِ، كالزَّوجةِ والعيالِ.

البُخلُ لغةً:

البُخلُ ضدُّ الكرمِ والجُودِ، وقدْ بَخِلَ بكذَا: أيْ ضنَّ بمَا عندهُ ولمْ يجُدْ، ويقالُ: هوَ بخيلٌ وباخلٌ، وجمعهُ بخلاءٌ، والبَخَّالُ: الشَّديدُ البُخْلِ[2].

البُخلِ اصطلاحًا:

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: البُخْلُ: إمساكُ المقتنياتِ عمَّا لَا يحقُ حبسهَا عنهُ[3].

وقالَ الجُرجانِي: البُخلُ هوَ: المنعُ منْ مالِ نفسهِ[4].

وقالَ ابنُ حجرٍ: البُخلُ هوَ: منعُ مَا يُطلبُ ممَّا يقتنَى، وشرُّهُ مَا كانَ طالبهُ مستحقًّا، ولَا سيَّمَا إنْ كانَ منْ غيرِ مالِ المسئولِ[5].

وقالَ الفيُّومِي: البُخلُ فِي الشَّرعِ: منعُ الواجبِ[6].

(1) النظام الاقتصادي في الإسلام.

(2) انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (62/28)، ((مختار الصحاح)) للرازي (73/1)، و((المعجم الوسيط)) (41/1-42).

(3) ((مفردات القرآن)) (109/1).

(4) ((التعريفات)) (ص42).

(5) ((فتح الباري)) (457/10).

(6) ((المصباح المنير)) (37/1).

الفرقُ بينَ التَّقتيرِ والبُخلِ:

وهوَ: أنَّ التَّقتيرَ هوَ الإنفاقُ بالتَّضييقِ، وأمَّا البُخلُ هوَ منعُ النَّفقةِ بالكليَّةِ، فالأوَّلُ منفقٌ بأقلِّ منْ قدرِ الحاجةِ، والثَّانِي ممسكٌ فلَا ينفقُ أبدًا.

الآثارُ السَّلبيَّةُ للبُخلِ:

1) الحرمانُ منَ الأجرِ المترتِّبِ علَى الإنفاقِ فِي أبوابِ الخيرِ.

2) سببٌ فِي ضعفِ الإيمانِ واضمحلالهِ، لمَا فيهِ منْ سوءِ الظنِّ باللهِ تعالَى.

3) كراهيةُ النَّاسِ للبخيلِ، فهوَ مبغوضٌ مكروهٌ حتَّى منْ أقربِ النَّاسِ إليهِ، بلْ قدْ يصلُ بهمُ الأمرُ إلَى أنْ يتمنُّوا موتهُ حتَّى يستطيعُوا التنعُّمَ بمَا حرمهمْ منهُ.

4) البخلُ سببٌ لحرمانِ الرِّزقِ، فكمَا أنَّ الإنفاقَ سببٌ فِي زيادةِ الرِّزقِ وسعتهِ، فإنَّ البخلَ والشُّحَّ سببٌ فِي تضييقهِ، وهوَ مَا يُعبَّرُ عنهُ بمفهومِ المخالفةِ عدَ الأصوليينَ.

5) الوقوعُ فِي الإثمِ بسببِ منعهِ لمَا يجبُ عليهِ منْ حقوقٍ وواجباتٍ.

6) حرمانُ البخيلِ الشَّحيحِ لنفسهِ ولغيرهِ منْ لذائذِ الدُّنيَا المباحةِ.

7) ومنْ ضررِ البخلِ والشُّحِّ فِي الدُّنيَا تعريضُ مالِ الغنيِّ للضياعِ والنَّهبِ والسَّرقةِ والأحقادِ، وفِي عصرنَا وغيرهِ ظهورُ الحملاتِ الشَّنيعةِ علَى الأغنياءِ المترفينَ، وانتشارِ الأفكارِ والنَّظريَّاتِ المسمَّاةِ بالاشتراكيَّةِ التِي ظهرتْ لتقويضِ أركانِ الرَّأسماليَّةِ[1].

(1) ((التفسير المنير)) للزحيلي (180/4).

8) البخلُ والشُّحُّ سببٌ لكشفِ عيوبِ المرءِ، وإظهارهَا للخلقِ.

قالَ شمسُ الدِّينِ السفيرِي: والسَّخاءُ والكرمُ سببٌ لسترِ العيوبِ، والبُخلُ والشُّحُّ سببٌ جالبٌ لكشفهَا كمَا أشارَ إليهِ بعضهمْ بقولهِ:

ويُظهرُ عيبَ المرءِ فِي النَّاسِ بخلهُ * ويسترهُ عنهمُ جميعًا سخـــاؤهُ

تغطَّ بأثوابِ السَّخـــــاءِ فإنَّنِـــــي * أرَى كلَّ عيبٍ والسَّخاءُ غطاؤهُ[1].

9) منْ آثارِ البخلِ والشُّحِّ، الحرصُ علَى ملازمةِ الأسواقِ لجمعِ المالِ، والأسواقُ هيَ معششُ الشَّياطينِ[2].

10) البخلُ صِنْوٌ لعددٍ منَ الأخلاقِ السَّيِّئةِ التِي يجرُّ بعضهَا بعضًا، كالجهلِ والحسدِ وسوءِ الظنِّ باللهِ تعالَى، وغيرهَا منَ الأخلاقِ الرَّديئةِ، (ولهذَا قيلَ فِي حدِّ البخلِ: جهلٌ مقرونٌ بسوءِ الظنِّ)[3].

11) والبخلُ صفةٌ غيرُ لائقةٍ بأهلِ الإسلامِ، بلْ هيَ سجيَّةٌ عُرفَ بهَا اليهودُ قديمًا وحديثًا، قالَ الشَّوكانِي: البخلُ قدْ لزمَ اليهودَ لزومَ الظلِّ للشَّمسِ، فلَا ترَى يهوديًّا، وإنْ كانَ مالهُ فِي غايةِ الكثرةِ، إلَّا وهوَ منْ أبخلِ خلقِ اللهِ[4].

12) البخلُ محوُ صفاتِ الإنسانيَّةِ، وإثباتُ عاداتِ الحيوانيَّةِ[5].

13) مَا ينتظرُ البخيلُ والشَّحيحُ منْ عقابٍ أخرويٍّ وطولِ حسابٍ، خاصَّةً إذَا كانَ بخلهُ قدْ أدَّاهُ إلَى عدمِ تأديةِ مَا فرضَ اللهُ تعالَى عليهِ منْ زكاةٍ، وإنفاقٍ علَى منْ تجبُ نفقتهمْ عليهِ.

(1) ((شرح صحيح البخاري)) (348/1).
(2) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (34/3).
(3) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (ص 116).
(4) ((فتح القدير)) (66/2).
(5) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 43).

14) إفسادُ العلاقاتِ بينَ النَّاسِ وإعاقةِ الصُّلحِ بينهمْ، قالَ تعالَى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[النساء: 128].

قالَ السَّعدِي: اعلمْ أنَّ كلَّ حكمٍ منَ الأحكامِ لَا يتمُّ ولَا يكملُ إلَّا بوجودِ مقتضيهِ وانتفاءِ موانعهِ، فمنْ ذلكَ هذَا الحكمُ الكبيرُ الذِي هوَ الصُّلحُ، فذكرَ تعالَى المقتضيَ لذلكَ ونبَّهَ علَى أنَّهُ خيرٌ، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلبهُ ويرغبُ فيهِ، فإنْ كانَ – معَ ذلكَ – قدْ أمرَ اللهُ بهِ وحثَّ عليهِ ازدادَ المؤمنُ طلبًا لهُ ورغبةً فيه. وذكرَ المانعَ بقولهِ: وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ أيْ: جُبلتْ النُّفوسُ علَى الشحِّ، وهوَ: عدمُ الرَّغبةِ فِي بذلِ مَا علَى الإنسانِ، والحرصِ علَى الحقِّ الذِي لهُ، فالنفوسُ مجبولةٌ علَى ذلكَ طبعًا، أيْ: فينبغِي لكمْ أنْ تحرصُوا علَى قلعِ هذَا الخلقِ الدنيءِ منْ نفوسكمْ، وتستبدلُوا بهِ ضدَّهُ وهوَ السَّماحةُ، وهوَ بذلُ الحقِّ الذِي عليكَ، والاقتناعُ ببعضِ الحقِّ الذِي لكَ، فمتَى وُفِّقَ الإنسانُ لهذَا الخلقِ الحسنِ سهلَ حينئذٍ عليهِ الصُّلحُ بينهُ وبينَ خصمهِ ومعاملهِ، وتسهَّلتْ الطَّريقُ للوصولِ إلَى المطلوبِ، بخلافِ منْ لمْ يجتهدْ فِي إزالةِ الشُّحِّ منْ نفسهِ، فإنَّهُ يعسرُ عليهِ الصُّلحُ والموافقةُ لأنَّهُ لَا يرضيهِ إلَّا جميعُ مالهِ، ولَا يرضَى أنْ يؤدِّي مَا عليهِ، فإنْ كانَ خصمهُ مثلهُ اشتدَّ الأمرُ[1].

---

(1) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص 206).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: المعروفُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا عُرِفَ حسنهُ ونفعهُ شرعًا وعقلًا والمنكرُ عكسهُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى المعروفَ فِي كتابهِ العزيزِ وأمرَ بهِ، ونهَى عنْ ضدِّه وهوَ المنكرُ، وقالَ تعالَى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[آل عمران: 104].

وقالَ سبحانهُ: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[البقرة: 263].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}[آل عمران: 114].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ}[الأعراف: 157].

وقالَ تباركَ وتعالَى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[الأعراف: 199].

وأمرَ اللهُ تعالَى بالنَّهيِ عنِ المنكرِ فِي عديدٍ منَ الآياتِ وقالَ: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[آل عمران: 104].

وقالَ تعالَى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[لقمان: 108].

وقالَ سبحانهُ: {وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[النور: 21].
~~~~~~~~~~~

المعروفُ لغةً:

المعروفُ فِي اللُّغةِ، يدورُ معناهُ غالبًا علَى مَا تعارفَ عليهِ النَّاسُ وعلموهُ ولمْ ينكروهُ.

قالَ فِي القاموسِ: عرفهُ يعرفهُ معرفةً وعرفانًا وعِرفةً بالكسرِ، وعِرِفّانًا بكسرتينِ مشدَّدةُ الفاءِ، علمهُ، والمعروفُ ضدُّ المنكرِ.

وقالَ فِي المعجمِ الوسيطِ: العرفُ المعروفُ وهوَ خلافُ النُّكرِ، ومَا تعارفَ عليهِ النَّاسُ فِي عاداتهمْ ومعاملاتهمْ[1].

المنكرُ لغةً:

المنكرُ فِي اللُّغةِ: يدورُ معناهُ غالبًا علَى مَا جهلهُ النَّاسُ واستنكروهُ وجحدوهُ[2].

والمنكرُ لغةً: الأمرُ المستقبحُ، وأتَى بمنكرٍ، أتَى بقولٍ أوْ فعلٍ مخالفًا للشَّرعِ[3]، أوِ العرفِ، أوِ العقلِ السَّليمِ.

والمنكرُ، مُنكَرٌ، والجمعُ منكراتٌ: اسمُ مفعولٍ منْ أنكرَ.

وهوَ كلُّ فعلٍ أوْ قولٍ تحكمُ العقولُ الصحيحةُ بقُبحهِ، أوْ يقبِّحهُ الشَّرعُ ويكرههُ، وعكسهُ معروفٌ[4].

وقالَ فِي لسانِ العربِ: عرفَ العرفانَ العلمَ... والمعروفُ ضدُّ المنكرِ، والعرفُ ضدُّ النُّكرِ، يقالُ: أولاهُ عرفًا أيْ معروفًا، والمعروفُ والعارفةُ خلافُ النُّكرِ، والمعرَّفُ كالعرفِ، وقولهُ تعالَى: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا

(1) القول البين الأظهر لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي – بتصرُّف.

(2) السَّابق.

(3) معجم اللغة العربية المعاصرة.

(4) المعجم الغني.

مَعْرُوفًا}[لقمان:15]، والإنكارُ الجحودُ، وقولهُ تعالَى: {إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[لقمان:19]، أيْ أقبحَ الأصواتِ[1].

المعروفُ اصطلاحًا (شرعًا):

كلُّ مَا يعرِّفهُ الشَّرعُ ويأمرُ بهِ ويمدحهُ ويثنِي علَى أهلهِ، ويدخلُ فِي ذلكَ جميعُ الطَّاعاتِ، وفِي مقدِّمتهَا توحيدُ اللهِ عزَّ وجلَّ والإيمانِ بهِ.

والمنكرُ اصطلاحًا (شرعًا):

كلُّ مَا ينكرهُ الشَّرعُ وينهَى عنهُ ويذمُّهُ ويذمُّ أهلهُ، ويدخلُ فِي ذلكَ جميعُ المعاصِي والبدعِ، وفِي مقدِّمتهَا الشِّركُ باللهِ عزَّ وجلَّ وإنكارُ وحدانيَّتهِ أو ربوبيَّتهِ أو أسمائهِ أو صفاتهِ.

وعباراتُ المفسِّرينَ فِي تفسيرِ المعروفِ والمنكرِ، لَا تتجاوزُ ذلكَ.

فقيلَ: المعروفُ: كلُّ قولٍ حسنٍ وفعلٍ جميلٍ وخلقٍ كاملٍ للقريبِ والبعيدِ.

وقيلَ: المعروفُ: الخيرُ كلُّهُ، والمنكرُ جميعُ الشرِّ.

وقيلَ: المعروفُ: مَا عُرفَ حسنهُ شرعًا وعقلًا، والمنكرُ: مَا عُرفَ قبحهُ شرعًا وعقلًا.

وقيلَ: المعروفُ: الإحسانُ والطَّاعةُ، وكلُّ مَا عُرفَ فِي الشَّرعِ والعقلِ حسنهُ[2].

وقيلَ: المعروفُ طاعةُ اللهِ تعالَى ومَا يعرِّفهُ الشَّرعُ وأعمالُ البرِّ كلِّهَا.

وقيلَ: المعروفُ: الإيمانُ، والمنكرُ الشِّركُ، وقيلَ المعروفُ السنَّةُ، والمنكرُ البدعةُ[3].

---

(1) القول البين الأظهر لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي – بتصرُّف.

(2) تفسير السعدي.

(3) تفسير البغوي.

وقيلَ: المعروفُ: خلعُ الأندادِ، ومكارمِ الأخلاقِ وصلةُ الأرحامِ، والمنكرُ: عبادةُ الأصنامِ وقطعُ الأرحامِ.

وقيلَ: المعروفُ: الطَّاعاتُ والفضائلُ أجمعُ.

وقيلَ: العرفُ، صلةُ الأرحامِ، وتقوَى اللهِ تعالَى فِي الحلالِ والحرامِ وغضِّ الأبصارِ والاستعدادُ لدارِ القرارِ.

وقيلَ: المعروفُ: عبادةُ (اللهِ تعالَى) وتوحيدهُ وكلُّ مَا أتبعَ ذلكَ، والمنكرُ، عبادةُ الأوثانِ وكلُّ مَا أتبعَ ذلكَ[1].

وهذهِ الأقوالُ كلُّهَا حقٌّ ولَا تنافٍ بينهَا.

وقالَ ابنُ الأثيرِ فِي النِّهايةِ فِي غريبِ الحديثِ:

(عَرَفَ) قدْ تكرَّرَ ذكرُ المعروفِ فِي الحديثِ، وهوَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا عُرفَ منْ طاعةِ اللهِ والتَّقرُّبِ إليهِ والإحسانِ إلَى النَّاسِ، وكلُّ مَا ندبَ إليهِ الشَّرعُ ونهَى عنهُ منَ المحسِّناتِ والمقبِّحاتِ، وهوَ منَ الصِّفاتِ الغالبةِ، أيْ أمرٌ معروفٌ بينَ النَّاسِ، إذَا رأوهُ لَا ينكرونهُ، والمعروفُ النصفةُ وحسنُ الصُّحبةِ معَ الأهلِ وغيرهمْ منَ النَّاسِ، والمنكرُ ضدُّ ذلكَ جميعهُ.

وقالَ: وقدْ تكرَّرَ ذكرُ الإنكارِ والمنكرِ فِي الحديثِ، وهوَ ضدُّ المعروفِ وكلُّ مَا قبَّحهُ الشَّرعُ وحرَّمهُ وكرههُ فهوَ منكرٌ. يقالُ: أنكرَ الشَّيءَ ينكرهُ إنكارًا فهوَ منكرٌ، ونكِرهُ ينكرهُ نكرًا فهوَ منكورٌ، واستنكرهُ فهوَ مستنكرٌ والنَّكيرُ الإنكارُ، والإنكارُ الجحودُ[2].

---

(1) تفسير القرطبي.

(2) القول البين الأظهر لعبد العزيز بن عبد الله الراجحي – ص:10.

وقالَ الشيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى: الاستقامةُ: لزومُ طاعةِ اللهِ، وطاعةِ رسولهِ ﷺ علَى الدَّوامِ.

~~~~~~~~~~~~*الشرح* ~~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الاستقامةَ فِي كتابهِ الكريمِ وأمرَ بهَا، وأثنَى علَى أهلهَا، وقالَ جلَّ جلالهُ: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[يونس: 89].

وقالَ سبحانهُ: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ}[فصلت: 6].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}[فصلت: 30 – 32].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأحقاف: 13، 14].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}[الجن: 16].
~~~~~~~~~~~~

الاستقامةُ لغةً:

اِستقامةٌ: مصدرُ اِستَقامَ، اِستقامَ الرَّجلُ، استقامَ يستقيمُ، اسْتَقِمْ، استقامةً، فهوَ مُسْتَقِيمٌ.

استقامَ الإنسانُ: اعتدلَ فِي سلوكهِ وكانتْ أخلاقُهُ فاضلة.

تقولُ: كانَ رَجُلاً في غايَةِ الاسْتِقامَةِ: أي في غايَةِ الصِّدْقِ وَالأَمانَةِ[1].

الاستقامةُ اصطلاحًا:

قالَ الجرجانِي: هيَ الوفاءُ بالعهودِ كلِّهَا وملازمةُ الصِّراطِ المستقيمِ برعايةِ حدِّ التَّوسُّطِ فِي كلِّ الأمورِ منَ الطعامِ

والشَّرابِ واللِّباسِ وفِي كلِّ أمرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ، فذلكَ هوَ الصِّراطُ المستقيمُ، كالصِّراطِ المستقيمِ فِي الآخرةِ... وأنْ

يجمعَ بينَ أداءِ الطَّاعةِ واجتنابِ المعاصِي.

وقيلَ الاستقامةُ ضدُّ الاعوجاجِ، وهيَ مرورُ العبدِ فِي طريقِ العبوديَّةِ بإرشادِ الشَّرعِ والعقلِ والمداومةِ[2].

وقالَ السَّعدِي: هيَ لزومُ طاعةِ اللهِ، وطاعةِ رسولهِ ﷺ علَى الدَّوامِ.

وتعريفُ السَّعدِي أصحُّ مَا فِي البابِ وأوضحُ.

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[مريم: **36].**

---

(1) قاموس المعاني.

(2) التعريفات للجرجاني.

قالَ الطَّبرِي: يقولُ: هذَا الذِي أوصيتكمْ بهِ، وأخبرتكمْ أنَّ اللهَ أمرنِي بهِ هوَ الطَّريقُ المستقيمُ، الذِي منْ سلكهُ نجَا، ومنْ ركبهُ اهتدَى، لأنَّهُ دينُ اللهِ الذِي أمرَ بهِ أنبياءهُ[1].

ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[يس: 61].

قالَ ابنُ كثيرٍ: ... وأمرتكمْ بعبادتِي، وهذَا هوَ الصِّراطُ المستقيمُ[4].

وقالَ الطَّبرِي: ... وإيَّايَ فأطيعُوا، فإنَّ إخلاصَ عبادتِي، وإفرادَ طاعتِي، ومعصيةَ الشَّيطانِ، هوَ الدِّينُ الصَّحيحُ، والطريقُ المستقيمُ[5].

فقدْ أوضحَ اللهُ تعالَى فِي الآيةِ الأولَى والثَّانيةِ أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ عبادةُ اللهِ تعالَى وطاعتهُ.

وقالَ تعالَى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[الزخرف: 61].

قالَ الطَّبريُّ: يقولُ تعالَى ذكرهُ: وأطيعونِ فاعملُوا بمَا أمرتكمْ بهِ, وانتهُوا عمَّا نهيتكمْ عنهُ، (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) يقولُ: اتِّباعكمْ إيَّايَ أيُّهَا النَّاسُ فِي أمرِي ونهيِ صراطٌ مستقيمٌ, يقولُ: طريقٌ لَا اعوجاجَ فيهِ, بلْ هوَ قويمٌ[6].

وأوضحَ اللهُ تعالَى فِي هذهِ الآيةَ أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ، هوَ اتِّباعُ أنبيائهِ والائتمارُ بأوامرهمْ.

وخرجنَا منْ هذَا بأنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ: عبادُ اللهِ تعالَى وطاعتهُ وطاعةُ رُسُلهِ علَى الدَّوامِ، فمنْ كانَ علَى هذَا، فهوَ فِي طريقِ الاستقامةِ الذِي هوَ الصَّراطُ المستقيمُ.

(1) تفسير الطبري.

(2) تفسير ابن كثير.

(3) تفسير الطبري.

(4) السَّابق.

وقالَ رحمهُ اللهُ: مرضُ القلبِ هوَ: اعتلالهُ، وهوَ نوعانِ: مرضُ شكوكٍ فِي الحقِّ، ومرضُ شهوةٍ للأمورِ المحرَّمةِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى مرضُ القلوبِ فِي كتابهِ العزيزِ، وتوعَّدَ أهلهُ وقالَ تعالى: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[البقرة: 10].

وقال سبحانه: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}[التوبة: 124 – 125].

وقال تبارك وتعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا}[الأحزاب: 32].

المرضُ لغةً:

المرضُ نواعانِ: مرضٌ حسِّيٌّ، ومرضٌ معنويٌّ.

1 – أمَّا المرضُ الحسِّيُّ: فهوَ كلُّ مَا خرجَ بالكائنِ الحيِّ عنْ حدِّ الصِّحَّةِ والاعتدالِ – بسببِ علَّةٍ حسِّيَّةٍ–[1].

2 – وأمَّا المرضُ المعنويُّ: فهوَ شكٌّ ونفاقٌ وفتورٌ عنْ تقبُّلِ الحقِّ[2].

المرضُ اصطلاحًا:

هوَ صفةٌ توجبُ وقوعَ الضَّررِ فِي الأفعالِ الصادرةِ عنْ موضعِ تلكَ الصِّفةِ، وهوَ نوعانِ:

الأوَّلُ: مرضٌ جسمانيٌّ: وهوَ تغييرٌ فِي النَّسيجِ، أوْ عضوٍ أوْ مجموعٍ، يوجبُ تشوُّشًا فِي عملِهِ، أوْ يمنعُ إتمامَ وظيفةٍ منَ الوظائفِ الجسديَّةِ.

ومنهُ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ}[البقرة: 184]، وكذلكَ قولُ اللهِ تعالَى: {لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}[النور: 61].

والثَّانِي: مرضٌ نفسانيٌّ: وهوَ عبارةٌ عنِ الظُّلمِ والجهلِ، والجبنِ والبخلِ والنِّفاقِ، وغيرِهَا منَ الرَّذائلِ الخُلقيَّةِ والسَّجايَا الخبيثةِ، وهذَا متعلِّقٌ بالقلبِ.

---

(1) معجم المعاني.

(2) السابق.

وذكرَ أهلُ التَّفسيرِ أنَّ المرضَ قدِ استُعملَ فِي القرآنِ علَى ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدهَا: مرضُ البدنِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ}[البقرة: 196].

الثَّانِي: مرضُ الشكِّ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}[التوبة: 125].

الثَّالثُ: الفجورُ: ومنهُ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}[الأحزاب: 32][1].

---

(1) شبكة الألوكة أمراض القلب وعلاجه في ضوء القرآن الكريم – د. محمد فضل الله شريف.

القلبُ لغةً:

عُضوٌ عَضَلِيٌّ أَجوفُ يستقبل الدَّمَ منَ الأَوردةِ ويدفعهُ فِي الشَّرايينِ، قاعدتهُ إِلَى أَعلَى معلَّقةٌ بنياطٍ فِي الجهةِ اليسرَى منَ التجويفِ الصدريِّ، وبهِ تجويفانِ: يَسَاريٌّ بهِ الدمُّ الأَحمرُ، ويمينيٌّ بهِ الدمُّ الأزرقُ المحتاجُ إلَى التَّنقيةِ؛ وبكلِّ تجويفٍ تجويفانِ فرعيَّانِ يفصلُ بينهمَا صمَّامٌ، ويسمَى التَّجويفُ العُلْوي: الأُذَينُ، والتَّجويفُ السُّفليُّ: البُطَينُ(1).

القلبُ اصطلاحًا (شرعًا):

هوَ مَا عرَّفهُ رسولُ اللهِ ﷺ بقولهِ: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"(2).

إذًا فالقلبُ مضغة عليهِ مدارُ صلاحِ الجسدِ وفسادهِ.

والقلبُ هوَ محلُّ العلمِ والفهمِ والإدراكِ ومحلُّ الإيمانِ، والتعقُّلِ، والسَّمعِ والبصيرةِ، وقدْ يعبَّرُ عنهُ فِي القرآنِ بعدَّةِ أشياءٍ منهَا:

1) يُعبَّرُ عنِ القلبِ بالصدرِ فِي القرآنِ، والصَّدرُ: هوَ محلُّ الإسلامِ ومحلُّ الوسواسِ، والحفظِ والذَّاكرةِ، قالَ تعالَى: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}[الأنعام: 125].

---

(1) معجم المعاني.

(2) متفق عليه.

2) ويُعبَّرُ عنهُ بالعقلِ: مثْلمَا أُطلقَ علَى الأذنِ السَّمعُ، فسمِّيتُ الجارحةُ "الأداة" بوظيفتهَا، وقد تُذكرُ الجارحةُ والمرادُ وظيفتهَا خاصَّةً فِي القرآنِ؛ فالقلبُ أداةٌ والعقلُ هوَ وضيفةُ تلكَ الأداةِ، وهناكَ الفكرُ والذَّاكرةُ والحافظةُ والفهمُ وغيرَ ذلكَ، قالَ تعالَى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}[الحج: 46].

3) الشّغافُ: وهوَ محلُّ محبَّةِ الخلقِ، قالَ تعالَى: {قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا}[يوسف: 30].

4) الفؤادُ: وهوَ محلُّ رؤيةِ الحقِّ، قالَ تعالَى:{مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى}[النجم: 11].

5) السّويداءُ: وهيَ محلُّ العلومِ الدِّينيَّةِ، قالَ تعالَى:{لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا}[الأعراف: 179].

6) مهجةُ القلبِ: وهيَ محلُّ تجلِّي الصِّفاتِ، قالَ تعالَى: {وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}[التغابن: 11].

7) حبَّةُ القلبِ: وهوَ محلُّ محبَّةِ الحقِّ، قالَ تعالَى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ}[الحجرات: 7].

وعلَى مَا تقدَّمَ فإنَّ أمراضَ القلوبِ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

1) الأمراضُ الحسِّيَّةُ للقلوبِ: بسببِ علَّةٍ ملموسةٍ وهذَا يُرجعُ فيهِ إلَى الأطبَّاءِ.

2) والأمراضُ المعنويَّةُ للقلوبِ: وهوَ بدورهِ علَى قسمينِ اثنينِ، أحدهمَا مرضُ الشُّكوكِ.

3) والثَّاني مرضُ الفجورِ والشَّهواتِ.

ومرادنَا هوَ أمراضُ القلبِ المعنويَّةِ، وهذهِ إشاراتُ قرآنيَّةٌ لبعضِ ما يطرأُ علَى القلبِ من عِلَلٍ وأدواءٍ، فمنْ ذلكَ: الغفلةُ، العمَى، الزَّيْغُ، التَّقلُّبُ، الاشمئزازُ، الإقفالُ، القسوةُ، اللَّهْوُ، الرِّياءُ، النِّفاقُ، الحسدُ، وهلمَّ جرًّا، والنَّتيجةُ أنْ يتعرَّضَ هذَا القلبُ للطَّبعِ والختمِ والموتِ بعدَ نزولِ هذهِ الأمراضِ، وعدمُ مدافعةِ الإنسانِ لهَا، فيكونُ قلبُهُ أسودًا[1].

فالذَّنوبُ والمعاصِي تضُرُّ القلبَ، وإنَّ ضررهَا فِي القلبِ كضررِ السُّمومِ فِي الأبدانِ، علَى اختلافِ درجاتهَا فِي الضَّررِ.

فمتَى مرِضَ القلبُ، وهوَ الملِكُ، أثَّرَ علَى بقيَّةِ الجوارحِ؛ كمَا قالَ النَّبيُّ ﷺ: "ألَا وإنَّ فِي الجسدِ مضغةً، إذَا صلَحتْ صلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذَا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّهُ، ألَا وهيَ القلبُ"[2].

وإنَّ الذُّنوبَ هيَ أوَّلُ سببٍ لأمراضِ القلبِ قالَ النَّبيُّ ﷺ: "إذَا أذنبَ العبدُ، نُكِتَتْ فِي قلبهِ نكتةٌ سوداءُ، فإنَ تابَ صُقلَ منهَا، فإنْ عادَ زادتْ حتَّى تعظُمَ فِي قلبهِ، فذلكَ الرَّانُ الذِي ذكَرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[المطففين: 14][3].

(1) امتحان القلوب، 10، الشيخ ناصر العمر.

(2) متفق عليه.

(3) المستدرك، كتاب الإيمان، حديث: 4244.

أنواعُ أمراضِ القلوبِ:

1) لَهْوُ القلبِ: وهوَ كلُّ مَا يشغلُ الإنسانَ عمَّا يعنيهِ ويهمُّهُ، وقدْ وردَ هذَا اللَّفظُ فِي القرآنِ بهذِهِ المعانِي فِي مواضعَ مختلفةٍ، وقدْ ذُكِرتْ هذهِ المادَّةِ فِي القرآنِ الكريمِ ستَّ عشرةَ مرَّةٍ، وارتبطَتْ بالقلبِ فِي قولِهِ تعالَى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}[الأنبياء: 1 – 3].

قالَ القرطبيُّ: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أيْ: ساهيةً قلوبهمْ، معرضةٌ عنْ ذكرِ اللهِ، متشاغلةً عنِ التأمُّلِ والتَّفهُّمِ[1].

2) القلبُ المغمورُ: ومادَّةُ (غَمَرَ) تكرَّرتْ فِي القرآنِ الكريمِ أربعَ مرَّاتٍ، وارتبطتْ بالقلبِ فِي قولِهِ تعالَى: {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ}[المؤمنون: 63]، والغَمْرَةُ: غطاءُ القلبِ عنْ فهمِ مَا أودعَ اللهُ فِي كتابهِ منَ المواعظِ والعِبرِ والحُججِ، وبهذَا قالَ الطَّبريُّ ومجاهدُ[2]، وإذَا بلغَ هذَا المبلغَ، فليسَ للقلبِ تعقُّلٌ صحيحٌ يفرِّقُ بينَ الحسنِ والقبيحِ، إلَّا بمَا تُمليهُ الأهواءُ والرَّغباتُ الناتجةُ عنْ جهلٍ عليهِ.

3) القلبُ المنكِرُ: وقدْ وصفَ اللهُ تعالَى القلبَ المنكرَ بقولِهِ: {فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}[النحل: 22]، قالَ المفسِّرونَ فِي القلوبِ المنكِرةِ: إنَّهَا التِي لَا تقبَلُ الوعظَ، ولَا ينجعُ فيهَا الذِّكرُ، فهمْ مستكبرونَ عنْ عبادةِ اللهِ، معَ إنكارِ قلوبهمْ لتوحيدِهِ[3].

---

(1) تفسير القرطبي.

(2) تفسير الطبري.

(3) تفسير ابن كثير.

والمقصودُ أنَّ القلبَ يتَّصِفُ بالإنكارِ النَّاتجِ عنِ الكبرِ والحسدِ، لَا لأجلِ شبهةٍ أوْ إشكالٍ، بلْ هيَ النّفرةُ عنِ الرُّجوعِ إلَى الحقِّ، وهوَ أعلَى درجةً منَ القلبِ المغمورِ وأدنَى درجةً منَ الاشمئزازِ.

4) اشمئزازُ القلبِ: وقدْ نُسِبَ الاشمئزازُ إلَى القلبِ فِي كتابِ اللهِ، وقالَ تعالَى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[الزمر: 45]، والاشمئزازُ: الانقباضُ، حالةٌ تمرُّ علَى القلبِ فيمتلئُ غيظًا وغمًّا يظهَرُ أثرُهُ علَى الجوارحِ، كمَا يشاهدُ فِي وجهِ العابسِ المحزونِ، يعنِي إذَا سارَ القلبُ فِي مراحلِ الموتِ لَا يسمعُ التوحيدَ إلَّا وظهرتْ آثارُ النّفرةِ علَى وجههِ، وهذهِ مرحلةٌ خطيرةٌ جدًّا.

5) أَكِنَّةُ القلبِ أوِ القلوبِ المكنَّنةِ: نُسِبَ إلَى القلبِ فِي القرآنِ الكريمِ فِي أربعةِ مواضعَ؛ كمَا فِي قولهِ تعالَى: {جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}[الأنعام: 25]، ومثلهَا فِي سورةِ الإسراء: {وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}[الإسراء: 46]، وفِي سورة الكهف: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}[الكهف: 57]، وفِي سورة فصلت: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}[فصلت: 5]، ويقالُ: أكننتُهُ فِي نفسِي؛ أيْ: أسررتُهُ، والأكنَّةُ: الأغطيةُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: {جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ}[الأنعام: 25]؛ أيْ: جعلنَا علَى قلوبهمْ أغطيةً وغشاوةً، مجازاةً علَى كفرهمْ، ومنَعْنَا الإيمانَ منْ أنْ يدخلَ قلوبهمْ وأسماعهمْ[1]؛ يعنِي مغاليقَ التفقُّهِ مقفلةٌ عليهِ، وأبوابُ السَّمعِ مؤصدةٌ، وغِلافُ الإدراكِ لَا ينفذُ إليهِ شيءٌ، وهوَ أدنَى درجةً منَ الارتيابِ.

6) القلبُ المرتابُ: وقدْ نُسِبَ الرَّيبُ إلَى القلبِ فِي مواضعَ متعدِّدةٍ؛ فِي مثلِ قولهِ تعالَى: "إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ[التوبة: 45]، فالرَّيبُ مرحلةٌ متقدِّمةٌ نحوَ موتِ القلبِ، فهوَ أعلَى حالاتِ المرضِ للقلبِ، فرَيْبُ القلبِ هوَ وجودُ شيءٍ واحدٍ فقطْ، وهوَ جانبُ الكرهِ، وهوَ مَا تمكَّنَ فِي القلبِ واستولَى عليهِ؛ ولهذَا نفاهُ اللهُ عنِ المؤمنينَ، وقالَ تعالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات: 15]، والرَّيبةُ تأكلُ القلبَ كمَا تأكلُ النَّارُ الحصيدَ، وتميتهُ تقطيعًا، أوْ لَا تزايلهُ حتَّى تميتهُ.

7) تقطيعُ القلبِ: قالَ اللهُ تعالَى: {لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[التوبة: 110]، وذكرَ بعضُ المفسِّرينَ أنَّ القطعَ فِي القرآنِ علَى أحدَ عشرَ وجهًا، وأوصلهَا الفيروز ابادِي إلَى اثنَيْ عشرَ وجهًا؛ منهَا: زوالُ الرَّجاءِ والأملِ، كمَا فِي قولِ اللهِ تعالَى المذكورِ: أيْ يئسُوا ممَّا رجُوا[2].

وتقطيعٌ ذُو مراحلَ: فهوَ موتُ أجزاءِ القلبِ، فبحَسَبِ تفاوتِ المعصيةِ يتفاوتُ الغطاءُ الذِي يُغشِّي القلبَ، حتَّى لَا يعِي شيئًا، ويسمَى غِلافًا، ويوصمُ بهِ القلبُ، فيقالُ: قلبٌ أغلفُ.

(1) تفسير القرطبي.

(2) سلمان زيد سلمان اليماني: القلب ووظائفه في الكتاب والسُّنة.

8) أغلفةُ القلبِ: وقدْ وردتْ هذهِ المادةُ فِي القرآنِ الكريمِ مرَّتين: فِي قولهِ تعالَى عنْ بنِي إسرائيلَ: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ}[البقرة: 88]، والثَّانيةُ فِي قولهِ تعالَى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء: 155].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا فِي معنَى قولهِ تعالَى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أيْ: فِي أكنَّةٍ، وفِي روايةٍ: أيْ لَا تفقهُ، وفِي أخرَى: هيَ القلوبُ المطبوعُ عليهَا[6].

9) إشرابُ القلبِ: وقدْ وُصِفَ القلبُ بالإشرابِ فِي قولهِ تعالَى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[البقرة: 93]، فيقالُ: أُشْرِبَ فلانٌ حبَّ فلانةَ؛ أيْ خالطَ قلبَهُ، وأُشرِبَ قلبُهُ محبَّةَ هذَا؛ أيْ حلَّ محلَّ الشرابِ، فمعنَى الآيةِ أنَّهُ داخَلَهمْ حبُّ العِجْلِ، ورسخَ فِي قلوبهمْ صورتُهُ؛ لفرطِ شغفهمْ بهِ، كمَا داخلَ الصبغُ الثَّوبَ.

10) الإسلاكُ فِي القلبِ: قالَ تعالَى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ}[الحجر: 9 – 13].

---

(1) تفسير ابن كثير.

والسَّلْكُ: مصدرُ سَلَكَ، وسلكَ الشَّيءَ فِي الشَّيءِ فانسلكَ؛ أيْ أدخلتهُ فيهِ فدخلَ، وهذهِ المادَّةُ قدْ وردتْ فِي القرآنِ الكريمِ اثنتيْ عشرةَ مرَّةٍ، ارتبطَتْ بالقلبِ فِي موضعينِ؛ الأوَّلُ فِي سورةِ الحجرِ السَّابقِ ذكرهَا، والثَّانِي فِي سورةِ الشُّعراءِ، قالَ تعالَى: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ *كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}[الشعراء: 198 – 201] أيْ: سلكَ اللهُ التَّكذيبَ فِي قلوبِ المجرمينَ الذينَ عاندُوا واستكبرُوا عنِ اتِّباعِ الهدَى.

11) صَرْفُ القلبِ: مَا دامَ العبدُ لَا يرعَى حقوقَ اللهِ، ولَا يرتدعُ عنْ غيِّهِ، سيصرفُ اللهُ قلبهُ عنِ الإيمانِ وعنْ طريقِ الهدايةِ؛ جزاءَ سلوكهِ، فلَا يؤمنُ بالآياتِ، وإنَّمَا يميلُ إلَى الشَّهواتِ والرَّغباتِ، ويغفلُ عنْ منافعِ الدُّنيَا والآخرةِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[الأعراف: 146].

12) حَوْلُ اللهِ بينَ العبدِ وقلبهِ: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[الأنفال: 24]، قالَ السُّدِّي: يحولُ بينَ الإنسانِ وقلبهِ: لَا يستطيعُ أنْ يؤمنَ ولَا يكفرَ إلَّا بإذنهِ[1].

(1) تفسير الطبري.

13) عمى القلبُ: كمَا يفقدُ البصرُ قوَّتهُ الباصرةَ، فالذُّنوبُ إذَا توالَتْ علَى العبدِ طمستْ منَ القلبِ تعقُّلهُ، وحجَبَتْ عنهُ نورَ الإيمانِ الذِي هوَ حياةُ القلوبِ، قالَ تعالَى فِي المكذِّبينَ بالرُّسلِ: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[الحج: 46].

14) الرَّانُ علَى القلبِ: فالذَّنبُ علَى الذَّنبِ معَ الإصرارِ وسوءُ الأدبِ، لَا بدَّ أنْ يكسبَ الإنسانُ حالةً أكبرَ منْ أنْ تنجلِي عنْ قلبهِ، فهِيَ حالةٌ منْ حالاتِ مراحلِ القلبِ الميِّتِ، فقدْ جاءَ فِي الحديثِ: "إنَّ العبدَ إذَا أخطأَ خطيئةً، نكتتْ فِي قلبهِ نكتةٌ، فإذَا هوَ نزعَ واستغفرَ وتابَ صُقلَ قلبهُ، وإنْ عادَ زِيدَ فيهَا، حتَّى تعلوَ قلبهُ، وهوَ الرَّانُ الذِي ذكرهُ اللهُ تعالَى"[1]؛ قالَ اللهُ تعالَى: {كَلَّا بَلْ رَّانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[المطففين: 14].

ومنْ ذلكَ قولُ أبِي العتاهيةِ:

لَهَونا لَعَمرُ اللَهِ حَتّى تَتابَعَت * ذُنوبٌ عَلى آثارِهِنَّ ذُنوبُ

فَيا لَيتَ أَنَّ اللَهَ يَغفِرُ ما مَضى * وَيَأذَنُ في تَوباتِنا فَنَتوبُ[2].

(1) الترمذي: كتاب التفسير.

(2) إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني ,العنزي (من قبيلة عنزة) بالولاء، أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية.(130هـ–211هـ/747م–826مم) شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم.

15) القفلُ علَى القلبِ: قالَ اللهُ تعالَى فِي وصفِ هذهِ الفئةِ منَ النَّاسِ: {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد: 20 – 24]؛ أيْ: أقفلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِمْ، فهمْ لَا يعقلونَ؛ لأنَّهمْ لمْ يتفهَّمُوا القرآنَ.

16) الطبعُ علَى القلبِ: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}[غافر: 35]، وأخيرًا يخبرهمْ بمقتِ اللهِ ومقتِ المؤمنينَ لمَنْ يجادلُ فِي آياتِ اللهِ بغيرِ حجَّةٍ ولَا برهانٍ، وإنَّمَا هوَ التجبُّرُ والتَّكبُّرُ، فعاقبتهُ الطبعُ علَى قلبهِ.

17) ختمُ القلبِ: وقدْ عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عنْ موتِ القلبِ بالختمِ عليهِ، فمَنْ بلغَ بهِ الكفرُ الحقيقِي آخرَ مداهُ، فهذَا لَا يؤمنُ، كمَا صرَّحَ بذلكَ الحقُّ تباركَ وتعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[البقرة: 6، 7]، وذُكِرَ الختمُ فِي كتابِ اللهِ تعالَى مرتبطًا بالقلبِ فِي أربعةِ مواضعَ، والختمُ وغيرهُ علَى القلوبِ لَا يكونُ إلَّا بعدَ تمادٍ فِي الكفرِ والعصيانِ.

18) القلبُ الغافلُ: فالقلبُ إذَا خُتمَ عليهِ بعدَ أنْ غطَّتهُ الذُّنوبُ، وعمَّهُ الصَّممُ وعمَى البصيرةِ، لَا بُدَّ أنْ يكونَ منَ الغافلينَ، قالَ اللهُ تعالَى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[الكهف: 28]؛ ولهذَا جاءَ فِي الحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ: "لينتهينَّ أقوامٌ عنْ ودعِهِمُ الجُمعاتِ، أوْ ليختمنَّ اللهُ علَى قلوبهمْ، ثمَّ ليكوننَّ منَ الغافلينَ"[1].

---

(1) صحيح الإمام مسلم.

بعدَ أنْ تعرَّفنَا علَى معنَى أمراضِ القلوبِ وأنواعهَا، لَا بُدَّ أنْ نبيِّنَ شيأً منَ العلاجِ كيْ يتمَّ البابُ علَى كمالهِ.

علاجُ أمراضِ القلوبِ:

أولاً: إنَّ أساسَ صحَّةِ القلبِ وسلامتهِ فِي إيمانهِ باللهِ تعالَى، ويتفرَّعُ عنهُ مَا يأتِي:

كمالُ محبَّةِ اللهِ: بأنْ يكونَ حبُّهُ للهِ وفِي اللهِ تعالَى، وأنْ يكونَ بُغضهُ ومعاداتهُ للهِ، وقدْ بيَّنَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ مِنْ أعظمِ وسائلِ علاجِ القلبِ أنْ يمتلئَ قلبُ الإنسانِ بحبِّ اللهِ؛ قالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}[البقرة: 165].

وأمَّا وسائلُ محبَّةِ اللهِ تعالَى، فكثيرةٌ؛ منهَا:

قراءةُ القرآنِ وتدبُّرهُ وفَهْمُ معانيهِ، والتقرُّبِ إلَى اللهِ تعالَى بالنَّوافلِ بعدَ الفرائضِ، منْ ذلكَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: "إنَّ اللهَ قالَ: منْ عادَى لِي وليًّا فقدْ آذنتهُ بالحربِ، ومَا تقرَّبَ إليَّ عبدِي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليهِ، ومَا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أحبَّهُ، فإذَا أحببتهُ كنتُ سمعهُ الذِي يسمعُ بهِ، وبصرهُ الذِي يبصرُ بهِ، ويدهُ التِي يبطشُ بهَا، ورجلهُ التِي يمشِي بهَا، وإنْ سألنِي لأعطينَّهُ، ولئنْ استعاذنِي لأعيذنَّهُ"[1].

---

(1) رواه البخاري.

ودوامُ ذكرِ اللهِ علَى كلِّ حالٍ، قالَ تعالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[الرَّعد: 28]، وإيثارُ محابِّهِ سبحانهُ علَى هوَى نفسهِ ومحابِّهَا، منْ ذلكَ قولُ النَّبيِّ ﷺ لَا يُؤمنُ أحدكمْ حتَّى يكونَ هواهُ تبعًا لمَا جئتُ بهِ"[1]، ومطالعةُ القلبِ لأسماءِ اللهِ وصفاتهِ ومشاهدتهَا ومعرفتهَا، (والتَّفكُّرُ فيهَا)، قالَ تعالَى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[آل عمران: 191]، وانكسارُ القلبِ بينَ يدِي اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}[الحديد: 16] وغيرهَا منَ الوسائلِ[2].

ثانيًا: الإخلاصُ: يقولُ عزَّ وجلَّ: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[الأنعام: 162، 163].

---

(1) كتاب الحجج. إسنادهُ فيهِ كلام – وقالَ ابنُ صححهُ جماعة ضعَّفهُ جماعة ولكن متنهُ صحيح.

(2) مدارج السَّالكين لابن القيم – بتصرف.

ثالثًا: حسنُ المتابعةِ: بأنْ يكونَ عملهُ واعتقادهُ وَفْقَ مَا أمرَ اللهِ بهِ ورسولهِ، يقولُ اللهُ تعالَى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}[آل عمران: 31]، ويقولُ عزَّ وجلَّ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[الحشر: 7]، وممَّا يُعِينُ علَى تحقيقِ هذهِ الأصولِ ليَسْلمَ القلبُ وينجوَ ممَّا يعرِضُ لهُ منَ ابتلاءٍ وامتحانٍ مَا يأتِي:

1) ذكرُ اللهِ: فإنَّهُ يجلُو صدأَ القلوبِ، ويُذهِبُ مَا رانَ عليهَا منْ آثامٍ ومعاصٍ، ويزيدُ منْ قُرْبِ العبدِ لربِّهِ، لَا سيَّمَا إذَا كانَ مستشعرًا للذِّكرِ، مصاحبًا لهُ فِي كلِّ أحوالِهِ وحركاتهِ وهيئاتهِ.

2) المراقبةُ والمحاسبةُ: وقدْ ذكرَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّهَا منْ أهمِّ العواملِ لعلاجِ القلبِ واستقامتهِ.

3) وسائلُ أخرَى: ومنهَا: العلمُ، وتحقيقُ التَّقوَى، وقيامُ اللَّيلِ، وكثرةِ الدُّعاءِ خاصَّةً فِي الثُّلثِ الأخيرِ منَ اللَّيلِ؛ فإنَّ سهامَ اللَّيلِ لَا تُخطئُ، فليُكثِرِ الإنسانُ فيهِ منَ التَّضرُّعِ إلَى اللهِ وسؤالهِ الصَّفحَ والمغفرةَ والسِّترَ والتَّجاوزَ، ومنهَا: إطابةُ المطعَمِ والملبَسِ والمسكنِ، وكثرةُ الصَّدقةِ؛ قالَ تعالَى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}[التوبة: 103]، ومنْ أعظمهَا غضُّ البصرِ؛ قالَ سبحانهُ: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ}[النور: 30].

وخلاصةُ القولِ: أنَّ علاجَ القلبِ منَ الأمراضِ المذكورةِ فيمَا قبلهُ، لَا بدَّ لهُ منْ صفاءِ القلبِ منْ درنِ الذُّنوبِ العظامِ، والتفكُّرِ فِي قدرةِ اللهِ، والتَّفانِي فِي طاعتهِ بعمارِ الدُّنيَا والآخرةِ، وجَعْلِ الدُّنيَا طريقَ الآخرةِ بإيمانٍ كاملٍ، ويقينٍ صادقٍ، ومداومةٍ علَى الطَّاعةِ فِي الحدودِ المشروعةِ، فينقلهُ ذلكَ منْ مرتبةِ الإخباتِ إلَى مرتبةِ الوجَلِ؛ لأنَّ المُخبِتَ إذَا ذُكَرَ اللهُ وَجِلَ قلبُهُ، فالقلوبُ مفطورةٌ علَى الإقرارِ باللهِ تصديقًا ودينًا لهُ، لكنْ يعرِضُ لهَا مَا يُفسِدهَا، ومعرفةُ الحقِّ تقتضِي محبَّتهُ، ومعرفةُ الباطلِ تقتضِي بُغْضهُ؛ لِمَا فِي الفطرةِ منْ حبِّ الحقِّ وبغضِ الباطلِ، فشياطينُ الإنسِ والجنِّ يعتمدونَ علَى نُقطِ الضَّعفِ الموجودةِ فِي التَّكوينِ البشريِّ، فيُحوِّلونَ الفطرةَ عنِ المنهجِ القويمِ، بطريقِ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، فلَا بدَّ منِ اختيارِ الفطرةِ السَّليمةِ واتِّباعهَا، واجتنابِ الغَوايةِ والشُّبهاتِ والشَّهواتِ؛ فبذلكَ يمكنُ أنْ يُعالجَ القلبُ المريضُ.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: النِّفاقُ: إظهارُ الخيرِ، وإبطانُ الشرِّ، فيدخلُ فيهِ النِّفاقُ الاعتقادِي والنِّفاقُ العمليُّ.

~~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~~

وقدْ أوفَى اللهُ تعالَى ذكرَ النِّفاقِ فِي كتابهِ الحكيمِ، محذِّرًا منَ الوقوعِ فيهِ متوعِّدًا أصحابهُ، وقالَ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء: 60 – 63].

وقالَ تعالَى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
~~~~~~~~~~~~

الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[النساء: 140 – 145].

وقالَ سبحانهُ: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}[التوبة: 64 – 68].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[التوبة: 73].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}[التوبة: 101].

وقالَ تقدَّستْ أسماؤهُ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[المنافقون: 1 – 8].

النِّفاقُ لغةً:

اختلفَ علماءُ اللُّغةِ فِي أصلِ النِّفاقِ، فقيلَ: إنَّ ذلكَ نسبةً إِلَى النَّفقِ وهوَ السربُ فِي الأرضِ، لأنَّ المنافقَ يسترُ كفرهُ ويغيِّبهُ، فتشبَّهَ بالذِي يدخلُ النَّفقَ يستترُ فيهِ.

وقيلَ: سميَّ بهِ منْ نافقاءِ اليربوعِ، فإنَّ اليربوعَ لهُ جحرٌ يقالُ لهُ: النَّافقاءُ، وآخرُ يقالُ لهُ: القاصعاءُ، فإذَا طُلبَ منَ القاصعاءِ قصعَ فخرجَ منَ النَّافقاءِ، كذَا المنافقُ يخرجُ منَ الإيمانِ منْ غيرِ الوجهِ الذِي يدخلُ فيهِ، وقيلَ: نسبةً إِلَى نافقاءِ اليربوعِ أيضاً، لكنْ منْ وجهٍ آخرَ وهوَ إظهارهُ غيرَ مَا يضمرُ، وذلكَ: أنَّهُ يخرقُ الأرضَ حتَّى إذَا كادَ يبلغَ ظاهرَ الأرضِ تركَ قشرةً رقيقةً حتَّى لَا يُعرفَ مكانَ هذَا المخرجِ، فإذَا رابهُ ريبٌ دفعَ ذلكَ برأسهِ، فخرجَ، فظاهرُ جحرهِ ترابٌ كالأرضِ، وباطنهُ حفرٌ، فكذلكَ المنافقُ ظاهرهُ إيمانٌ وباطنهُ كفرٌ[1].

ولعلَّ النِّسبةَ إِلَى نافقاءِ اليربوعِ أرجحُ منَ النِّسبةِ إِلَى النَّفقِ (لأنَّ النَّفقَ ليسَ فيهِ إظهارُ شيءٍ، وإبطالُ شيءٍ آخرَ، كمَا هوَ الحالُ فِي النِّفاقِ، وكونهُ مأخوذاً منَ النافقاءِ باعتبارِ أنَّ المنافقَ يظهرُ خلافَ مَا يبطنُ، أقربُ منْ كونهِ مأخوذاً منهُ باعتبارِ أنَّهُ يخرجُ منْ غيرِ الوجهِ الذِي دخلَ فيهِ، لأنَّ الذِي يتحقَّقُ فيهِ الشكُّ الكاملُ بينَ النَّافقاءِ والنِّفاقِ هوَ إظهارُ شيءٍ وإخفاءُ شيءٍ آخرَ، إضافةً إِلَى أنَّ المنافقَ لمْ يدخلْ فِي الإسلامِ دخولاً حقيقياً حتَّى يخرجَ منهُ)[2].

---

(1) انظر معاجم اللغة؛ مادة (نفق): ((لسان العرب)) (10/ 358)، و((تاج العروس)) (463/13)، و((معجم مقاييس اللغة)) (454/5)، و((مفردات القرآن)) (ص819). وانظر معنى النفاق في: ((شرح السنة النبوية)) للبغوي (71/1، 72)، و((تفسير القرطبي)) (195/1)، و((حاشية مختصر سنن أبي داود)) (52/7-53)، و((المنافقون في القرآن الكريم)) د. عبدالعزيز الحميدي.

(2) ((المنافقون في القرآن)) (ص13).

أمَّا النِّفاقُ فِي الاصطلاحِ الشَّرعِي فهوَ:

القولُ باللِّسانِ أوِ الفعلِ بخلافِ مَا فِي القلبِ منَ القولِ والاعتقادِ[1]، أوْ هوَ الذِي يسترُ كفرهُ ويظهرُ إيمانهُ، وهوَ اسمٌ إسلاميٌّ لمْ تعرفهُ العربُ بالمعنَى المخصوصِ بهِ، وإنْ كانَ أصلهُ فِي اللُّغةِ معروفاً[2] كمَا سبقَ.

والمنافقُ لابدَّ وأنْ تختلفَ سريرتهُ وعلانيتهُ وظاهرهُ وباطنهُ، ولهذَا يصفهمُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ بالكذبِ كمَا يصفُ المؤمنينَ بالصِّدقِ، قالَ تعالَى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[البقرة: 10]، وقالَ: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}[المنافقون: 1]، وأمثالُ هذَا كثيرٌ[3]، إذًا أخصُّ وأهمُّ مَا يميِّزُ المنافقينَ هوَ الاختلافُ بينَ الظاهرِ والباطنِ، وبينَ الدعوَى والحقيقةِ كمَا قالَ تعالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}[البقرة:8]، قالَ الإمامُ الطَّبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: أجمعَ جميعُ أهلِ التَّأويلِ علَى أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ فِي قومٍ منْ أهلِ النِّفاقِ، وأنَّ هذهِ الصِّفةَ صفتهمْ[4]، وقدْ يطلقُ بعضُ الفقهاءِ لفظَ الزِّنديقِ علَى المنافقِ، قالَ شيخُ الإسلامِ رحمهُ اللهُ تعالَى: ولمَّا كثرتْ الأعاجمُ فِي المسلمينَ تكلَّمُوا بلفظِ (الزِّنديق) وشاعتْ فِي لسانِ الفقهاءِ وتكلَّمَ النَّاسُ فِي الزِّنديقِ: هلْ تُقبلُ توبتهُ؟ ... والمقصودُ هنَا: أنَّ (الزِّنديقَ) فِي عرفِ هؤلاءِ الفقهاءِ، هوَ المنافقُ الذِي كانَ علَى عهدِ النَّبيِّ ﷺ،

(1) انظر: ((عارضة الأحوذي)) (97/10).
(2) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر 98/5 ولسان العرب 359/10 والإيمان لابن تيمية ص284.
(3) ((الإيمان الأوسط)) (ص: 162). وانظر: ((صفة النفاق)) للإمام الفريابي (ص29).
(4) ((تفسير الطبري)) (268/1).

وهوَ أنْ يُظهرَ الإسلامَ ويبطنَ غيرهُ، سواءٌ أبطنَ ديناً منَ الأديانِ كدينِ اليهودِ والنَّصارَى أوْ غيرهِمْ، أوْ كانَ معطِّلاً جاحداً للصانعِ، والمعادِ، والأعمالِ الصالحةِ...[1]، وقالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بيانِ مراتبِ المكلَّفينَ فِي الدَّارِ الآخرةِ وطبقاتهِمْ: الطَّبقةُ الخامسةُ عشرَ: طبقةُ الزَّنادقةِ، وهمْ قومٌ أظهرُوا الإسلامَ ومتابعةِ الرُّسلِ، وأبطنُوا الكفرَ ومعاداةَ اللهِ ورُسُلِهِ، وهؤلاءِ المنافقونَ، وهمْ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ[2][3].

(1) ((الإيمان الأوسط)) (ص13).

(2) ((طريق الهجرتين)) (ص374).

(3) نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد بن عبدالله بن علي الوهيبي صـ 308.

أنواعُ النِّفاقِ:

النِّفاقُ كالكفرِ والشِّركِ والفسقِ، فهوَ درجاتٌ ومراتبُ؛ منهَا مَا هوَ مخرجٌ منَ الإسلامِ، ومنهَا غيرُ مخرجٍ منهُ:

أوَّلاً: النِّفاقُ الأكبرُ: وهوَ المخرجُ منَ الملَّةِ، والموجبِ للخلودِ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ:

وهوَ إبطانُ الكفرِ فِي القلبِ، وإظهارُ الإيمانِ علَى اللِّسانِ والجوارحِ، ويترتَّبُ علَى هذَا النَّوعِ مَا يترتَّبُ علَى الكفرِ الأكبرِ منْ حيثُ انتفاءِ الإيمانِ عنْ صاحبِهِ، وخلودِهِ فِي جهنَّمَ والعياذُ باللهِ؛ لكنَّ المنافقَ أشدَّ عذاباً منَ الكافرِ؛ لأنَّهُ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ إذَا ماتَ عليهِ.

والمنافقُ إذَا لمْ يظهرْ مَا فِي باطنهِ منْ مخالفةِ الدِّينِ، وأظهرَ الأعمالَ الظاهرةَ منَ الإسلامِ؛ فهوَ فِي الظَّاهرِ مسلمٌ، وتجرِي عليهِ أحكامُ الإسلامِ الظَّاهرةِ فِي الدُّنيَا، ويعاملُ معاملةَ المسلمينَ؛ لأنَّنَا لمْ نؤمرْ بالشقِّ عنْ مَا فِي القلوبِ، وهذَا فِي الأصلِ خارجٌ عنْ نطاقِ وقدرةِ ابنِ آدمَ.

هذَا لأنَّ الإيمانَ الظَّاهرَ الذِي تجرِي عليهِ الأحكامُ فِي الدُّنيَا لَا يستلزمُ الإيمانَ الباطنِ الذِي يكونُ صاحبهُ منَ المؤمنينَ حقًّا.

والنِّفاقُ إذَا أُطلقَ ذكرهُ فِي القرآنِ فإنَّ المرادَ بِهِ النِّفاقُ الأكبرُ المنافِي للإيمانِ، بخلافِ الكفرِ فإنَّهُ يأتِي بمعنَى الكفرِ الأصغرِ، وكذلكَ الظُّلمُ والفسقُ والشِّركُ، أمَّا فِي السُّنَّةِ فقدْ وردَ النِّفاقُ الأصغرُ.

والمنافقونَ شرُّ وأسوأُ أنواعِ الكفَّارِ؛ لأنَّهمْ زادُوا علَى كفرهمْ الكذبَ والمراوغةَ والخداعَ للمؤمنينَ، ولذلكَ أخبرنَا اللهُ تعالَى عنْ صفاتهمْ فِي القرآنِ بالتَّفصيلِ، ووصفهمْ بصفاتِ الشرِّ كلِّهَا، لكيْ لَا يقعَ المؤمنونَ فِي حبائلهمْ وخداعهمْ، ومنْ صفاتهمْ:

الكفرُ وعدمُ الإيمانِ.

التولِّي والإعراضِ عنْ حكمِ اللهِ تعالَى وحكمِ رسولهِ .

الاستهزاءُ بالدِّينِ وأهلهِ والسُّخريةِ منهمْ.

الميلُ بالكلِّيَّةِ إلَى أعداءِ الدِّينِ، ومظاهرتهمْ ومناصرتهمْ علَى المؤمنينَ والمسلمينَ.

ومنْ أنواعِ النفاقِ الأكبر الكثيرةِ:

منْ أظهرَ الإسلامَ وهوَ مكذِّبٌ بمَا جاءَ بِهِ اللهُ تعالَى، أوْ بعضِ مَا جاءَ بِهِ اللهُ تعالَى، أْو كذّبَ الرَّسولَ ﷺ، أوْ بعضِ مَا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، وكمثلِ منْ لمْ يعتقدْ وجوبَ طاعتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، أوْ أبغضَ الرَّسولَ ﷺ، أوْ آذَى الرَّسولَ ﷺ، أوْ كرهَ الانتصارَ لدينِ الرَّسولِ ﷺ أوْ سُرَّ بكسرِ رايةِ الدِّينِ، أوِ الاستهزاءِ والسُّخريةِ بالمؤمنينَ لأجلِ إيمانهمْ وطاعتهمْ للهِ تعالَى ولرسولهِ ﷺ، أوِ التَّولِي والإعراضِ عنِ الشَّرعِ... إلَى غيرِ ذلكَ منَ الاعتقاداتِ الكفريَّةِ المخرجةِ منَ الملَّةِ.

وهذَا الصِّنفُ منَ المنافقينَ موجودونَ فِي كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

ثانياً: النِّفاقُ الأصغرُ: وهوَ غيرُ مخرجٍ منَ الملَّةِ:

وهوَ النِّفاقُ العمليُّ، واختلافُ السرِّ والعلانيةِ فِي الواجباتِ، وذلكَ بعملِ شيءٍ منْ أعمالِ المنافقينَ، معَ بقاءِ أصلِ الإيمانِ فِي القلبِ وصاحبهُ لَا يخرجُ منَ الملَّةِ، ولَا يُنفَى عنهُ مطلقُ الإيمانِ، ولَا مسمَّى الإسلامِ، وهوَ معرَّضٌ للعذابِ كسائرِ المعاصِي، دونَ الخلودِ فِي النَّارِ، وصاحبهُ ممَّنْ تنالهُ شفاعةُ الشَّافعينَ بإذنِ اللهِ تعالَى.

وهذَا النَّوعُ منَ النِّفاقِ مقدِّمةُ وطريقٌ للنِّفاقِ الأكبرِ؛ هذَا لمنْ سلكهُ وكانَ ديدنهُ.

وأمثلةُ ذلكَ: الكذبُ فِي الحديثِ، وإخلاف الوعدِ، وخيانة الأمانةِ، والفجور فِي الخصومةِ، والغدر بالعهودِ، وكالرِّياءِ الذِي لَا يكونُ فِي أصلِ العملِ، وإظهارِ المودَّةِ للغيرِ والقيامِ لهُ بالخدمةِ معَ إضمارِ عكسهِ فِي النَّفسِ.

قالَ النَّبيُّ ﷺ: "أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً خالصاً، ومنْ كانتْ فيهِ خصلةٌ منهنَّ كانتْ فيهِ خصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدعهَا: إذَا اؤتمنَ خانَ، وإذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا عاهدَ غدرَ، وإذَا خاصمَ فجرَ"[1].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: "آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا وعدَ أخلفَ، وإذَا اؤتمنَ خانَ"[2].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: "آيةُ الإيمانِ حبُّ الأنصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بغضُ الأنصارِ[3].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: "منْ ماتَ ولمْ يغزُ، ولمْ يحدِّثْ بهِ نفسهُ؛ ماتَ علَى شعبةٍ منَ نفاقٍ[4] [5].

---

(1) رواه البخاري (34)، ومسلم (58). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) رواه البخاري (33)، ومسلم (59). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) رواه البخاري (17)، ومسلم (74). من حديث أنس رضي الله عنه.

(4) رواه مسلم (1910). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(5) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن عبد الحميد الأثري – ص152.

وتختلفُ عباراتُ الأئمَّةِ فِي إيضاحِ هذينِ النَّوعينِ:

فبعضُ الأئمَّةِ كالإمامِ التِّرمذِي، والإمامِ ابنِ العربِي المالكِي، والحافظُ ابنُ كثيرٍ، وابنُ حجرٍ، يقسِّمونَ النِّفاقَ إِلَى نفاقٍ اعتقادِي، وهوَ المخرجُ منَ الملَّةِ وإِلَى نفاقٍ عمليٍّ، قالَ الإمامُ التِّرمذيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تعليقهِ علَى حديثِ: "أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً..."[1] وإنَّمَا معنَى هذَا عندَ أهلِ العلمِ نفاقُ العملِ، وإنَّمَا نفاقُ التَّكذيبِ علَى عهدِ رسولِ ﷺ هكذَا رويَ عنِ الحسنِ البصريِّ شيئاً منْ هذَا أنَّهُ قالَ: النِّفاقُ نفاقانِ، نفاقُ عملٍ ونفاقُ التَّكذيبِ[2].

والمقصودُ بنفاقِ التَّكذيبِ أنْ يُظهرَ الإيمانَ بلسانهِ أوْ فعلهِ وهوَ مكذِّبٌ بقلبهِ كالمنافقينِ علَى عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقالَ الإمامُ ابنُ العربيِّ: النِّفاقُ هوَ إظهارُ القولِ باللِّسانِ أوِ الفعلِ بخلافِ مَا فِي القلبِ منَ القولِ والاعتقادِ. (أصولهُ) وهيَ قسمانِ:

أحدهمَا: أنْ يكونَ الخبرُ أوِ الفعلُ فِي توحيدِ اللهِ وتصديقهِ أوْ يكونَ فِي الأعمالِ، فإنْ كانَ فِي التَّوحيدِ كانَ صريحاً، وإنْ كانَ فِي الأعمالِ كانتْ معصيةً، وكانَ نفاقاً دونَ نفاقٍ كمَا تقدَّمَ القولُ فِي كفرٍ دونَ كفرٍ...[3].

وقالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: النِّفاقُ هوَ إظهارُ الخيرِ وإسرارُ الشرِّ، وهوَ أنواعٌ: اعتقاديٌّ، وهوَ الذِي يخلدُ صاحبهُ فِي النَّارِ، وعمليٌّ وهوَ منْ أكبرِ الذُّنوبِ...[4].

(1) رواه البخاري (34)، ومسلم (58)، والترمذي (2632). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) ((عارضة الأحوذي)) (100/10).

(3) ((عارضة الأحوذي)) (100/10).

(4) ((تفسير ابن كثير)) (47/1).

وقالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: والنِّفاقُ لغةً: مخالفةُ الباطنِ للظَّاهرِ، فإنْ كانَ فِي تركِ اعتقادِ الإيمانِ فهوَ نفاقُ الكفرِ، وإلَّا فهوَ نفاقُ العملِ، ويدخلُ فيهِ الفعلُ والتَّركُ، وتتفاوتُ مراتبهُ[1].

وبعضُ الأئمَّةِ كالإمامِ ابنِ تيميَّةَ والإمامِ ابنِ القيِّمِ والحافظِ ابنِ رجبٍ يعبرونَ عنْ ذلكَ بتقسيمِ النِّفاقِ إلَى الأكبرِ المخرجِ منَ الملَّةِ وإلَى نفاقٍ أصغرٍ غيرِ مخرجٍ منَ الملَّةِ، يقولُ شيخُ الإسلامِ رحمهُ اللهِ تعالَى: فمنَ النِّفاقِ مَا هوَ أكبرٌ يكونُ صاحبهُ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ، كنفاقِ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ وغيرهِ بأنْ يظهرَ تكذيبَ الرَّسولِ...، فهذَا ضربُ النِّفاقِ الأصغرِ: فهوَ النِّفاقُ فِي الأعمالِ ونحوهَا...[2]، ويقولُ أيضاً: والنِّفاقُ كالكفرِ نفاقٌ دونَ نفاقٍ، ولهذَا كثيراً مَا يقالُ: كفرٌ ينقلُ عنِ الملَّةِ، وكفرٌ لَا ينقلُ، ونفاقٌ أكبرٌ، ونفاقٌ أصغرٌ، كمَا يقالُ: الشِّركُ شركانِ أصغرُ وأكبرُ...[3].

وكذلكَ قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بيانِ أقسامِ النِّفاقِ: وهوَ نوعانِ: أكبرٌ، وأصغرٌ؛ فالأكبرُ: يوجبُ الخلودَ فِي النَّارِ فِي دركهَا الأسفلِ، وهوَ أنْ يظهرَ للمسلمينَ إيمانهُ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، وهوَ فِي الباطنِ منسلخٌ منْ ذلكَ كلِّهِ مكذِّبٌ بهِ...[4].

---

(1) ((فتح الباري)) (89/1).

(2) ((مجموع الفتاوى)) (434/28-435).

(3) ((الإيمان الأوسط)) (ص: 66).

(4) ((مدارج السالكين)) (376/1)، وانظر في هذا التقسيم: ((الرياض النضرة)) للشيخ عبدالرحمن بن سعدي، رحمه الله (ص240)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص403).

وبينَ القولينِ تقاربٌ فمنْ حصرَ النِّفاقَ المخرجَ منَ الملَّةِ بالنِّفاقِ الاعتقاديِّ، فلعلَّهُ قصدَ بذلكَ نفاقَ التَّكذيبِ، وهوَ أنْ يظهرَ الإيمانَ وهوَ مكذِّبٌ بقلبهِ، أمَّا إنْ كانَ المرءُ فِي الأصلِ مؤمناً باللهِ تعالَى غيرَ مكذِّبٍ وطرأَ النِّفاقُ علَى بعضِ الأعمالِ المتعلِّقةِ بفروعِ الإيمانِ، فهذَا نفاقُ العملِ، وهناكَ احتمالٌ آخرُ وهوَ أنْ يُقصدَ بحصرِ ذلكَ بالنِّفاقِ الاعتقاديِّ اقترانُ المكفِّراتِ العمليَّةِ الصادرةِ منَ المنافقينَ بالجانبِ الاعتقاديِّ.

فِي الغالِبِ والأقربِ للصَّوابِ واللهُ تعالَى أعلمُ أنَّ تقسيمُ النِّفاقِ إلَى أكبرَ وأصغرَ لسببينِ:

الأوَّلُ: لأنَّ النِّفاقَ الأكبرَ لَا يختصُّ بالجانبِ الاعتقاديِّ فقطْ، ولذلكَ حينَ ذكرَ القرآنُ صفاتَ المنافقينَ ذكرَ منهَا تنقيصهمْ للرَّسولِ ﷺ، وسخريَّتهمْ بالمؤمنينَ، ومناصرتهمْ للكفَّارِ ونحوِ ذلكَ، وهذهِ الأمورُ وإنْ اقترنتْ غالباً بفسادٍ اعتقاديٍّ إلَّا أنَّ ذلكَ ليسَ بلازمٍ.

الثَّانِي: ليسَ كلُّ نفاقٍ اعتقاديٍّ يخرجُ منَ الملَّةِ، فقدْ يكونُ ذلكَ منْ جنسٍ يسيرِ الرِّياءِ ونحوهِ، وإليكَ إيضاحاً لنوعيْ النِّفاقِ:

النِّفاقُ الأصغرُ:

والأصلُ فِي ذلكَ مَا ثبتَ فِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو وأبِي هريرةَ وغيرهمَا منَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ، فِي ذكرِ آيةِ المنافقِ، فعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا وعدَ أخلفَ، وإذَا ائتمنَ خانَ[1].

(1) رواه البخاري (33)، ومسلم (59). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً خالصاً، ومنْ كانتْ فيهِ خصلةٌ منهنَّ كانتْ فيهِ خصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدعهَا: إذَا ائتمنَ خانَ، وإذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا عاهدَ غدرَ، وإذَا خاصمَ فجر"[1].

قالَ الإمامُ النَّوويُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحِ هذَا الحديثِ: هذَا الحديثُ ممَّا عدَّهُ جماعةٌ منَ العلماءِ مشكلاً منْ حيثُ إنَّ هذهِ الخصالِ توجدُ فِي المسلمِ المصدِّقِ الذِي ليسَ فيهِ شكٌّ، وقدْ أجمعَ العلماءُ علَى أنَّ منْ كانَ مصدِّقاً بقلبهِ ولسانهِ وفعلَ هذهِ الخصالَ لَا يُحكمُ عليهِ بكفرٍ، ولَا هوَ منافقٌ يخلدُ فِي النَّارِ فإنَّ إخوةَ يوسفَ ﷺ جمعُوا هذهِ الخصالَ وكذَا وجدَ لبعضِ السَّلفِ والعلماءِ بعضَ هذَا أوْ كلَّهُ، وهذَا الحديثُ ليسَ فيهِ بحمدِ اللهِ تعالَى إشكالٌ، ولكنِ اختلفَ العلماءُ فِي معناهُ، فالذِي قالهُ المحقِّقونَ والأكثرونَ وهوَ الصَّحيحُ المختارُ: أنَّ معناهُ أنَّ هذهِ الخصالَ خصالُ نفاقٍ، وصاحبهَا شبيهٌ بالمنافقينَ فِي هذهِ الخصالِ ومتخلِّقٌ بأخلاقهمْ، فإنَّ النِّفاقَ إظهارُ مَا يبطنُ خلافهُ، وهذَا المعنَى موجودٌ فِي صاحبِ هذهِ الخصالِ، ويكونُ نفاقهُ فِي حقِّ منْ حدَّثهُ ووعدهُ وائتمنهُ وخاصمهُ وعاهدهُ منَ النَّاسِ لَا أنَّهُ منافقٌ فِي الإسلامِ فيظهرهُ وهوَ يبطنُ الكفرَ، ولمْ يردَّ النَّبيُّ ﷺ، وقولهُ بهذَا أنَّهُ منافقٌ نفاقَ الكفَّارِ المخلَّدينَ فِي الدركِ الأسفلِ منَ النَّارِ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "كانَ منافقاً خالصاً" معناهُ شديدُ الشَّبهِ بالمنافقينَ بسببِ هذهِ الخصالِ، قالَ بعضُ العلماءِ هذَا فيمنْ كانتْ هذهِ الخصالُ غالبةً عليهِ فأمَّا منْ يندرُ ذلكَ منهُ فليسَ داخلاً فيهِ، فهذَا هوَ المختارُ فِي معنَى الحديثِ...[2].

---

(1) رواه البخاري (34)، ومسلم (58). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (2/46-47).

وقالَ الإمامُ الخطَّابيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: هذَا القولُ إنَّمَا خرجَ علَى سبيلِ الإنذارِ للمرءِ المسلمِ، والتَّحذيرِ لهُ أنْ يعتادَ هذهِ الخصالِ، فتُفضِي بهِ إلَى النِّفاقِ، لَا أنَّ منْ بدرتْ منهُ هذهِ الخصالُ، أوْ فَعَلَ شيئاً منْ ذلكَ منْ غيرِ اعتيادٍ أنَّهُ منافقٌ[1].

وقالَ الخطَّابيُّ أيضًا: ويدلُّ عليهِ التَّعبيرُ بـ (إذَا)، فإنَّهَا تدلُّ علَى تكرار الفعل[2]، وتعقَّبهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ فقالَ: والأولَى مَا قالهُ الكرمانيُّ: إنَّ حذفَ المفعولِ منْ (حدَّثَ) يدلُّ علَى العمومِ، أيْ: إذَا حدَّثَ فِي كلِّ شيءٍ كذبَ فيهِ، أوْ يصيرُ قاصراً، أيْ: إذَا وجدَ ماهيَةَ الحديثِ كذبَ، وقيلَ: محمولٌ علَى منْ غلبتْ عليهِ هذهِ الخصالُ وتهاونَ بهَا واستخفَّ بأمرهَا، فإنَّ منْ كانَ كذلكَ كانَ فاسدَ الاعتقادِ غالباً[3]، وقالَ الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمهُ اللهُ تعالَى بعدمَا شرحَ هذهِ الخصالَ: وحاصلُ الأمرِ أنَّ النِّفاقَ الأصغرَ كلُّهُ يرجعُ إلَى اختلافِ السَّريرةِ والعلانيةِ كمَا قالهُ الحسنُ...[4].

ومنْ هذَا البابِ الإعراضُ عنِ الجهادِ فإنَّهُ منْ خصالِ المنافقينَ[5]، قالَ النَّبيُّ ﷺ: "منْ ماتَ ولمْ يغزُ ولمْ يحدِّثْ نفسهُ بالغزوِ ماتَ علَى شعبةٍ منْ نفاقٍ[6]، ومنْ ذلكَ مَا رواهُ البخاريُّ فِي (بابِ مَا يُكرهُ منْ ثناءِ السُّلطانِ، وإذَا خرجَ قالَ غيرَ ذلكَ): قالَ أُناسٌ لعبدِ اللهِ بنِ عمرَ: إنَّا ندخلُ علَى سلطاننَا فنقولُ لهمْ بخلافِ مَا نتكلَّمُ إذَا خرجنَا منْ عندهمْ، قالَ: كنَّا نعدهَا نفاقاً[7].

(1) ((شرح السنة)) (76/1)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص407).

(2) ((فتح الباري)) (90/1).

(3) ((فتح الباري)) (91/1). وانظر أقوالاً أخرى حول الحديث في نفس الموضوع في ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (46/2-47)، و((حاشية مختصر المنذري)) (53/7)، و((شرح السنة)) (76/1)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص406))، و((عارضة الأحوذي)) (98/10، 99).

(4) ((جامع العلوم والحكم)) (ص406).

(5) ((مجموع الفتاوى)) (436/28)، و((شرح صحيح مسلم)) للنووي (56/13).

(6) رواه مسلم (1910) - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(7) رواه البخاري (7178).

وهذَا هوَ النِّفاقُ الذِي خافهُ الصَّحابةُ علَى أنفسهمْ، يقولُ ابنُ رجبٍ[1] ولمَّا تقرَّرَ عندَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ أنَّ النِّفاقَ هوَ اختلافُ السرِّ والعلانيةِ خشيَ بعضهمْ علَى نفسهِ أنْ يكونَ إذَا تغيَّرَ عليهِ حضورُ قلبهِ ورقَّتهُ وخشوعهُ عندَ سماعِ الذِّكرِ، برجوعهِ إلَى الدُّنيَا والاشتغالِ بالأهلِ والأولادِ والأموالِ أنْ يكونَ ذلكَ منهُ نفاقاً، كَمَا فِي صحيحِ مسلمٍ عنْ حنظلةَ الأسديِّ: أنَّهُ مرَّ بأبِي بكرٍ وهوَ يبكِي، فقالَ: مَا لكَ؟ قالَ: نافقَ حنظلةُ يَا أبَا بكرٍ، نكونُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ يذكِّرنَا بالجنَّةِ والنَّارِ كأنَّا رأيُ عينٍ، فإذَا رجعنَا، عافسنَا الأزواجُ والضَّيعةُ فنسينَا كثيراً، قاَلَ أبُو بكرٍ: فاللهِ إنَّا لكذلكَ، فانطلقنَا إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: "مالكَ يَا حنظلةُ؟" قالَ: نافقَ حنظلةُ يَا رسولَ اللهِ، وذكرَ لهُ مثلَ مَا قالَ لأبِي بكرٍ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "لوْ تدومونَ علَى الحالِ التِي تقومونَ بهَا منْ عندِي، لصافحتكمْ الملائكةُ علَى مجالسكمْ وفِي طرقكمْ، ولكنْ يَا حنظلةُ ساعةً وساعةً"[2].

وممَّا وردَ فِي هذَا المعنَى أيْ: خوفُ الصَّحابةِ منَ النِّفاقِ مَا قالهُ ابنُ أبِي مليكةَ: أدركتُ ثلاثينَ منْ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ كلُّهمْ يخافُ النِّفاقَ علَى نفسهِ مَا منهمْ أحدٌ يقولُ: إنَّهُ علَى إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ[3]، يقولُ الحافظُ ابنُ حجرٍ فِي تعليقهِ علَى هذَا الأثرِ: والصَّحابةُ الذينَ أدركهمْ ابنُ أبِي مليكةَ منْ أجلِّهمْ

(1) ((جامع العلوم والحكم)) (ص408).

(2) رواه مسلم (2750).

(3) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث رقم (48)، ورواه موصولاً الخلال في ((السنة)) (3/607-608)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (2/634). وانظر ((تغليق التعليق)) (2/52-53).

عائشةُ وأختهَا أسماءُ وأمُّ سلمةَ والعبادلةُ الأربعةُ وأبُو هريرةَ وعقبةُ بنُ الحارثِ والمسورُ بنُ مخرمةَ، فهؤلاءِ ممَّنْ سمعَ منهمْ، وقدْ أدركَ بالسنِّ جماعةً أجلَّ منْ هؤلاءِ كعليٍّ بنِ أبِي طالبٍ، وسعدٍ بنِ أبِي وقَّاصٍ، وقدْ جزمَ بأنَّهمْ كانُوا يخافونَ النِّفاقَ فِي الأعمالِ، ولمْ ينقلْ عنْ غيرهمْ خلافَ ذلكَ فكأنَّهُ إجماعٌ، وذلكَ لأنَّ المؤمنَ قدْ يعرضُ عليهِ فِي عملهِ مَا يشعرُ بهِ ممَّا يخالفُ الإخلاصَ، ولَا يلزمُ منْ خوفهمْ منْ ذلكَ وقوعهُ منهمْ، بلْ ذلكَ علَى سبيلِ المبالغةِ منهمْ فِي الورعِ والتَّقوَى رضيَ اللهُ عنهمْ[1].

وخلاصةُ القولِ فِي النِّفاقِ الأصغرِ: أنَّهُ نوعٌ منَ الاختلافِ بينَ السَّريرةِ والعلانيةِ ممَّا هوَ دونَ الكفرِ، وذلكَ كالرِّياءِ الذِي لَا يكونُ فِي أصلِ العملِ، وكإظهارِ مودَّةِ الغيرِ والقيامِ بخدمتهِ معَ إضمارِ بعضهِ والإساءةِ إليهِ وكالخصالِ الواردةِ فِي حديثِ شعبِ النِّفاقِ ونحوِ ذلكَ، فعلَى المسلمِ الحذرُ منَ الوقوعِ فِي شيءٍ منْ ذلكَ.

النفاقُ الأكبرُ:

سبقتِ الإشارةُ إلَى تعريفهِ عندَ الكلامِ عنْ أنواعِ النِّفاقِ، ويمكنُ اختصارُ تعريفهِ، بتعريفٍ ذكرهُ الحافظُ ابنُ رجبٍ حيثُ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: النِّفاقُ الأكبرُ وهوَ أنْ يُظهرَ الإنسانُ الإيمانَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، ويُبطنَ مَا يناقضُ ذلكَ كلَّهُ أوْ بعضهُ، وهذَا هوَ النِّفاقُ الذِي كانَ علَى عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، ونزلَ القرآنُ بذمِّ أهلهِ وتكفيرهمْ، وأخبرَ أنَّهمْ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ[2].

---

(1) ((فتح الباري)) (111/1)، وانظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص409)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص407).

(2) ((جامع العلوم والحكم)) (ص403).

قالَ تعالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[النساء: 145].

صورُ النِّفاقِ الأكبرِ:

ذكرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى بعضَ هذهِ الصُّورِ فقالَ: فمنَ النِّفاقِ مَا هوَ أكبرُ، ويكونُ صاحبهُ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ، كنفاقِ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ وغيرهِ، بأنْ يُظهرَ تكذيبَ الرَّسولِ ﷺ أوْ جحودَ بعضِ مَا جاءَ بهِ، أوْ بغضهِ، أوْ عدمِ اعتقادِ وجوبِ اتِّباعهِ، أوِ المسرَّةِ بانخفاضِ دينهِ، أوِ المساءةِ بظهورِ دينهِ، ونحوِ ذلكَ: ممَّا لَا يكونُ صاحبهُ إلَّا عدوًّا للهِ ورسولهِ، وهذَا القدرُ كانَ موجوداً فِي زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومازالَ بعدهُ، بلْ هوَ أكثرُ منهُ علَى عهدهِ...[1].

وقالَ فِي موضعٍ آخرٍ: فأمَّا النِّفاقُ المحضُ الذِي لَا ريبَ فِي كفرِ صاحبهِ، فإنَّهُ لَا يرَى وجوبَ تصديقَ الرَّسولِ ﷺ فيمَا أخبرَ بهِ، ولَا وجوبَ طاعتهِ فيمَا أمرَ بهِ، وإنِ اعتقدَ معَ ذلكَ أنَّ الرَّسولَ عظيمُ القدرِ– علماً وعملاً– وأنَّهُ يجوزُ تصديقهُ وطاعتهُ لكنَّهُ يقولُ: إنَّهُ لَا يضرُّ اختلافُ المللِ إذَا كانَ المعبودُ واحداً، ويرَى أنَّهُ تحصيلَ النَّجاةِ والسَّعادةِ بمتابعةِ الرَّسولِ ﷺ وبغيرِ متابعتهِ، إمَّا بطريقِ الفلسفةِ والصبوِ، أوْ بطريقِ التهوُّدِ والتنصُّرِ...[2].

---

(1) ((مجموع الفتاوى)) (434/28).

(2) ((الإيمان الأوسط)) (ص180).

ونقلَ هذهِ الأنواعَ الشَّيخُ محمَّدٌ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى فقالَ:... فأمَّا النِّفاقُ الاعتقاديُّ فهوَ ستَّةُ أنواعٍ، تكذيبُ الرَّسولِ ﷺ، أوْ تكذيبُ بعضِ مَا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، أوْ بغضُ الرَّسولِ ﷺ أوْ بغضُ مَا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، أوِ المسرَّةُ بانخفاضِ دينِ الرَّسولِ ﷺ، أوِ الكراهيةُ بانتصارِ دينِ الرَّسولِ ﷺ، فهذِهِ الأنواعُ السَّتَّةُ صاحبهَا منْ أهلِ الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ[1] فيتحصَّلُ ممَّا ذكرهُ هذانِ الإمامانِ بعدَ دمجِ الأنواعِ المتشابهةِ والمتقاربةِ، خمسُ صفاتٍ أوْ أنواعٍ وهيَ:

1) تكذيبُ الرَّسولِ ﷺ، أوْ تكذيبُ بعضِ مَا جاءَ بهِ.

2) بغضُ الرَّسولِ ﷺ، أوْ بغضُ مَا جاءَ بهِ، أوْ بغضُ بعضِ مَا جاءَ بهِ.

3) المسرَّةُ بانخفاضِ دينِ الرَّسولِ ﷺ، أوِ الكراهيَّةُ بانتصارِ دينِ الرَّسولِ ﷺ.

4) عدمُ اعتقادِ وجوبِ تصديقهِ فيمَا أخبرَ ﷺ، أو في بعض مما أخبر.

5) عدمُ اعتقادِ وجوبِ طاعتهِ فيمَا أمرَ ﷺ، أو في بعض مما أمر.

وبالنَّظرِ إلَى الآياتِ التِي ذكرتْ أحوالَ المنافقينَ، وكلامِ المفسِّرينَ حولهَا، يمكنُ أنْ يضافَ إلَى هذهِ الصِّفاتِ صفاتٌ أخرَى وهيَ:

6) أذَى الرَّسولِ ﷺ أوْ عيبهِ ولَمْزِهِ.

7) مظاهرةُ الكافرينَ ومناصرتهمْ علَى المسلمينَ.

8) الاستهزاءُ والسُّخريةُ بالمسلمينَ لأجلِ إيمانهمْ وطاعتهمْ للهِ ولرسولهِ ﷺ.

9) التولِّي والإعراضُ عنْ حكمِ اللهِ وحكمِ رسولهِ ﷺ.

فالوقوعُ فِي أيِّ صفةٍ منْ هذهِ الصِّفاتِ يُخرجُ منَ الملَّةِ، وهذهِ الصِّفاتُ أكثرهَا متعلِّقٌ بحقِّ الرَّسولِ ﷺ، يقولُ شيخُ الإسلامِ رحمهُ اللهُ تعالَى:... فالنِّفاقُ يقعُ كثيراً فِي حقِّ الرَّسولِ ﷺ، وهوَ أكثرُ مَا ذكرهُ اللهُ فِي القرآنِ منْ نفاقِ المنافقينَ فِي حياتهِ...[1] [2].

(1) ((مجموعة التوحيد)) (ص7).

(2) ((الإيمان الأوسط)) (ص181)، وانظر: ((الإيمان)) (ص285).

(3) نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي – ص: 253.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: القرآنُ: كلُّهُ محكمٌ، وأحكمتْ آياتهُ منْ جهةِ موافقتهَا للحكمةِ، وأنَّ أخبارهُ أعلَى درجاتِ الصِّدقِ، وأحكامهُ فِي غايةِ الحسنِ، وكلُّهُ متشابهٌ، منْ جهةِ اتِّفاقهِ فِي البلاغةِ والحسنِ، وتصديقِ بعضهِ لبعضٍ وكمالِ اتِّفاقهِ، ومنهُ محكمٌ ومتشابهٌ، منْ جهةِ أنَّ متشابههُ مَا كانَ فيهِ إجمالٌ أوِ احتمالٌ لبعضِ المعانِي، ومحكمهُ واضحٌ مبيَّنٌ صريحٌ فِي معناهُ، إذَا رُدَّ إليهِ المتشابهَ، اتَّفقَ الجميعُ، واستقامتْ معانيهُ.

~~~~~~~~~~~~ الشرح* ~~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى هذهِ القاعدةَ فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ بقولهِ: القرآنُ كُلّهُ مُحكمٌ باعتبارٍ، وكلُّهُ متشابهٌ باعتبارٍ، وبعضهُ مُحكمٌ وبعضهُ مُتشابهٌ باعتبارٍ ثالثٍ[1].

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ أنَّ القرآنَ كلَّهُ محكمٌ، وقالَ:

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[هود: 1].

وذكرَ سبحانهُ أنَّ القرآنَ كلَّهُ متشابهٌ وقالَ: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}[الزمر: 23].

وذكرَ سبحانهُ أنَّهُ محكمٌ ومتشابهٌ وقالَ: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}[آل عمران:7].

(1) القواعد الحسان للسعدي.
~~~~~~~~~~~~

المحكمُ لغةً:

قَالَ ابنُ فارسٍ فِي مقاييسِ اللُّغةِ: (ح ك م) الحاءُ والكافُ والميمُ، أصلٌ واحدٌ، وهوَ المنعُ، وأوَّلُ ذلكَ الحكمُ، وهوَ المنعُ منَ الظلمُ. وسمِّيت حكَمةُ الدّابةِ لأنَّهَا تمنعهَا، يقالُ: حكمتُ الدّابّةَ وأحكمتهَا، ويقالُ: حكمتُ السفيهَ وأحكمتهُ، إذَا أخذتُ علَى يديهِ... والحِكمةُ هذَا قياسهَا، لأنَّهَا تمنعُ منَ الجهلِ[1].

ومنهُ قولُ الشَّاعرِ:

أَبَني حَنيفَةَ أَحكِموا سُفَهاءَكُم * إِنّي أَخافُ عَلَيكُمُ أَن أَغضَبا[2].

أيْ امنعُوا سفهاءكمْ.

ويدخلُ فِي مَا سبقَ معنَى الإتقانِ، فيقالُ: أحكمَ الأمرَ، أتقنهُ. ويقالُ: أحكمَ الرَّأيَ: أتقنهُ ومنعهُ منَ الفسادِ.

لأنَّ المنعَ منَ الفسادِ يؤدِّي إلَى الإتقانِ.

والقرآنُ الكريمُ: بهذَا المعنَى اللُّغوي محكمٌ كلُّهُ، أيْ: متقنٌ ممتنعٌ عنِ النَّقصِ والخللِ، لَا يأتيهِ الباطلُ منْ بينِ يديهِ ولَا منْ خلفهِ، قالَ تعالَى: {الرَ كِتَاب أُحِكَمْت آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِنْ لَدُن حِكيمٍ خِبيرٍ}[هود: 1].

المتشابهُ لغةً:

قالَ ابنُ فارسٍ فِي مقاييسِ اللُّغةِ: (ش ب هـ) الشِّينُ والباءُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى تشابهِ الشَّيءِ وتشاكلهِ لونًا ووصفًا. يقالُ شِبهٌ وشَبهٌ وشبيهٌ. والشّبهُ منَ الجواهرِ: الذِي يشبهُ الذَّهبَ. والمشبّهاتُ منَ الأمورِ: المشكلاتُ. واشتبهَ الأمرانِ، إذَا أشكلَا[3].

وهوَ نوعٌ منَ المماثلةِ حيثُ توجدُ مطابقةٌ منْ وجهٍ ومخالفةٌ منْ وجهٍ آخرَ، ومنهُ فِي القرآنِ الكريمِ قولهُ سبحانهُ وتعالَى وصفًا لرزقِ الجنّةِ: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}[البقرة: 25]، ومنهُ قولهُ تعالَى حكايةً عنْ بني إسرائيلَ: {إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا}[البقرة: 70].

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

(2) جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفي بن بدر الكلبيّ اليربوعي، من تميم.

(3) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

المحكمُ شرعا:

ما لا يحتمل إلَّا معنى واحدا.

المتشابهُ شرعا:

ما يحتمل أكثر من معنى[1].

قال السعدي: القرآنُ كُلّهُ مُحكمٌ باعتبارٍ، وكلُّهُ متشابهٌ باعتبارٍ، وبعضهُ مُحكمٌ وبعضهُ مُتشابهٌ باعتبارٍ ثالثٍ[2].

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ أنَّ القرآنَ كلَّهُ محكمٌ، وقالَ:

{الرَ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[هود: 1].

وذكرَ سبحانهُ أنَّ القرآنَ كلَّهُ متشابهٌ وقالَ: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}[الزمر: 23].

وذكرَ سبحانهُ أنَّهُ محكمٌ ومتشابهٌ وقالَ: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}[آل عمران:7].

وعلى هذا فإنَّه إذا ذكر المحكم دون المتشابه فهو عام، وكذلك المتشابه، وإذا ذكرا في نفس السياق، فهو المحكم والمتشابه الخاص.

وعلى هذا فإنَّ المحكمُ فِي القرآنِ الكريمِ علَى قسمينِ:

محكمٌ عامٌّ، و محكمٌ خاصٌّ.

1 – فالمحكمُ العامُّ:

إتقانهُ بتمييزِ الصِّدقِ منَ الكذبِ فِي أخبارهِ، والرُّشدُ منَ الغيِّ فِي أوامرهِ، ولا يحتاج إلى بيان فيه، كقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[آل عمران: 2]، فهذا اتقان، وتمييز الصدق عن الكذب، كما أنَّه لا يحتاج إلى بيان.

---

(1) ينظر: الفصول في الأصول للرازي 1/373.

(2) القواعد الحسان للسعدي.

2 – والمحكمُ الخاصُّ:

هوَ الفاصلُ بينَ الأمرينِ بحيثُ لَا يشتبهُ أحدهمَا بالآخرِ، كقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: 5]، فهذه الآية تفصل بين المتشابهات، كما في التشابه الخاص التالي.

والمتشابهُ فِي القرآنِ الكريمِ علَى قسمينِ:

متشابهٌ خاصٌّ، و متشابهٌ عامٌّ.

1 – فالمتشابهُ الخاصُّ:

هوَ مشابهةُ الشَّيءِ لغيرهِ منْ وجهٍ معَ مخالفتهِ لهُ منْ وجهٍ آخرَ، بحيثُ يشتبهُ علَى بعضِ النَّاسِ أنَّهُ هوَ أوْ هوَ مثلهُ، كقوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}[الأنعام: 3]، فهذه الآية تتشابه عند بعض الناس، فيقول: الله موجود في السماء، وفي الأرض، فهو في كل المكان، فيأتي المحكم الخاص، فيفصل الأمر بقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: 5]، فيُفهمُ أنَّه سبحانه على عرشه بذاته بدليل إحكام الآية، وهو في كل مكان بعلمه بدليل تشابه الآية.

2 – والمتشابهُ العامُّ:

هوَ تماثلُ الكلامِ وتناسبهُ بحيثُ يصدِّقُ بعضهُ بعضًا، ويشبه بعضه بعضًا في الحسن والفصاحة والبلاغة والإتقان، كتكرار وصف الجنَّة، ورحمة الله تعالى وغيره، كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}[النساء: 57].

وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ}[التوبة: 72].

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[يونس: 9].

فالقسمة على أربعة:

1) محكم عام: بمعنى الإتقان.

2) محكم خاص: بمعنى الفاصل بين الأمرين.

3) متشابه عام: بمعنى التناسب والتماثل.

4) متشابه خاص: بمعن التشابه من وجه واختلاف من وجه، وما لم يستقل بنصه ببيان معناه إنما يحتاج إلى غيره؛ ليفهم المراد منه.

والمتشابه العام لا ينافي الإحاكم العام، بل هو مصدِّق له، ولا يناقض بعضه بعضا، وأمَّا الإحكام الخاص فإنَّهُ ضد التشابه الخاص.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: وهذَا التَّشابهُ العامُ لَا ينافِي الإحكامَ (العام)، بلْ هوَ مصدِّق لهُ، فإنَّ الكلامَ المحكمَ المتقنَ يصدِّقُ بعضهُ بعضهُ، لَا يناقضُ بعضهُ بعضاً، بخلافِ الإحكامِ الخاصِ، فإنَّهُ ضدُّ التَّشابهِ الخاصِ. فالتَّشابهُ الخاصُّ هوَ مشابهةُ الشَّيءِ لغيرهِ منْ وجهٍ معَ مخالفتهِ لهُ منْ وجهٍ آخرَ، بحيثُ يشتبهُ علَى بعضِ النَّاسِ أنَّهُ هوَ أوْ هوَ مثلهُ، وليسَ كذلكَ[1].

وعلى هذا فإنَّه إذا اختلف الإحكام الخاص، والتشابه الخاص، فإنَّه يُحمل المتشابه على المحكم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: طريقة الصحابة والتابعين وأئمَّة الحديث ... أنَّهم يردُّون المتشابه إلى المحكم، ويأخذون من المحكم ما يُفسِّر لهم

---

(1) ((التدمرية)) (ص: 102-106) باختصار.

المتشابه ويُبيِّنه لهم، فتتَّفق دلالته مع دلالة المحكم، وتُوافق النصوص بعضها بعضا، ويُصدِّق بعضها بعضا، فإنَّها كلها من عند الله تعالى، وما كان من عند الله تعالى فلا اختلاف فيه ولا تناقض، وإنَّما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره(1).

وقال: إنَّ الله سبحانه قسم الأدلَّة السمعيَّة إلى قسمين: محكم، ومتشابه، وجعل المحكمات أصلا للمتشابه، وأُمًّا له يُردُّ إليه، فما خالف ظاهر المحكم فهو متشابه يردُّ إلى المحكم، وقد اتَّفق المسلمون على هذا، وأنَّ المحكم هو الأصل، والمتشابه مردود إليه(2).

وقوله رحمه الله تعالى: {وأُمًّا لهُ" تحقيقا لقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}[آل عمران: 7].

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[الزمر: 53]، فهذا الآية لها احتمالات، وتناقضات.

أمَّا الاحتمالات فهي: أنَّ الله يغفر الذنوب جميعا، لمن تاب ولمن لم يتب.

أو أنَّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب فقط.

وأمَّا التناقضات: ففي قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}[النساء: 48].

فهنا نفي مطلق لمغفرة الشرك، وهو يحمل كثيرا من الاحتمالات أيضا.

فالاحتمال الأوَّل ممتنع، وكذلك التناقض في كلام الله ورسوله ﷺ ممتنع، فلم يبقى إلَّا الاحتمال الثاني، وهو أنَّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب، لكن هذا الترجيح وجب له مستند، لذا تعيَّن أن تُردَّ الآيات المتشابهات إلى أصل محكمٍ، وهو قوله تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ}[طه: 82].

فقيِّدت المغفرة بالتوبة، وهي تحمل الشرك وما دونه.

---

(1) يُنظر: اعلام الموقِّعين 209-2/210.

(2) الصواعق المرسلة 2/772.

وينقسم المتشابه أيضا إلى عدَّة أقسام أخرى منها:

متشابه مطلق: وهو المسمى بالمتشابه الحقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عزَّ وجلَّ فإننا وإن كنَّا نعلم معاني هذه الصفات لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها، لقوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}[طه: 110]، وقوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الأنعام: 103]، ولهذا لما سُئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: 5]، كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهولٍ، والكيف غيرُ معقولٍ، والإيمان به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ.

وهذا النوع لا يُسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

ويفهم من قول مالكٍ أنَّ كيفية الاستواء مجهولة لنا، ومعنى الاستواء معلوم وهو العلو.

ومتشابه نسبي: فهو يخفى على بعض الناس ولا يخفى عن غيرهم، وهو يكون محكم عند من لم يخفى عليه، ومتشابه على من خفى عليه.

قال القاضي ابن أبي العز: والمتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشتبه على إنسان مالا يشتبه على غيره وقد يكون في القرآن آيات كثيرة لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلا عن غيرهم وليس ذلك في آية معينة بل قد يشكل على هذا ما يعرفه ذلك وذلك تارة قد يكون لغرابة في اللفظ وتارة لاشتباه المعنى بغيره وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق وتارة لعدم التدبر التام وتارة لغير ذلك من الأسباب ولكن ذلك لا يعني أن معرفة المقصود من هذه الايات مستحيل لا يمكن دركه كما يدعي ذلك من يدعيه من المتكلمين[1].

وبناءً علَى هذَا التَّقسيمِ ينبغي الوقفُ فِي قولهِ تعالَى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}[آل عمران: 7]،

فعلَى الوقوفِ علَى (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ) يكونُ المرادُ بالمتشابهِ أيْ المتشابهُ المطلقِ، وعلَى الوصلِ فِي قولهِ تعالَى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يكونُ المرادُ بالمتشابهِ أيْ المتشابهُ النِّسبِيُّ، وللسَّلفِ فِي ذلكَ قولانِ:

القولُ الأوَّلُ: الوقفُ علَى قولهِ تعالَى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ)، وعليهِ أكثرُ السَّلفِ، وعلَى هذَا، فالمرادُ بالمتشابهِ المتشابهُ المطلقُ الذِي لَا يعلمهُ إلَّا اللهُ تعالَى، وذلكَ مثلَ كيفيَّةِ وحقائقِ صفاتِ اللهِ تعالَى، وحقائقِ مَا أخبرَ اللهُ تعالَى بهِ منْ نعيمِ الجنَّةِ وعذابِ النَّارِ، قالَ اللهُ تعالَى فِي نعيمِ الجنَّةِ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[السجدة: 17]، أيْ: لَا تعلمُ حقائقَ ذلكَ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: ليسَ فِي الجنَّةِ شيءٌ ممَّا فِي الدُّنيَا إلَّا الأسماءُ[2].

والقولُ الثَّانِي: الوصلُ، فيقرأُ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}[آل عمران:7]، وعلَى هذَا، فالمرادُ بالمتشابهِ المتشابهُ النِّسبِي، وهذَا يعلمهُ الرَّاسخونَ فِي العلمِ ويكونُ عندَ غيرهمْ متشابهاً، ولهذَا يُروَى عنِ ابنِ عباسٍ أنَّهُ قالَ: "أنَا منَ الرَّاسخينَ الذينَ يعلمونَ تأويلهُ"[3]، ولمْ يقلْ رضيَ اللهُ

(1) شرح الطحاوية لابن أبي العز 1/27.

(2) رواه الطبري في تفسيره (1/392)، وابن أبي حاتم في تفسيره (1/66)، وأبو نعيم في ((صفة الجنة)) (119)، وابن حزم في ((الفصل)) (2/86)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (4/77)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (322). قال ابن حزم: هذا سند غاية في الصحة. وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (4/408): رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد. وقال الألباني في ((صحيح الجامع)) (5410): صحيح.

(3) رواه ابن كثير من طريق ابن أبي نجيح ، عن مجاهد.

تعالَى عنهُ هذَا مدحاً لنفسهِ أوْ ثناءً عليهَا، ولكنْ ليعلمَ النَّاسُ أنَّهُ ليسَ فِي كتابِ اللهِ تعالَى شيءٌ لَا يُعرفُ معناهُ، فالقرآنُ معانيهِ بيِّنةٌ، لكنْ بعضُ القرآنِ يشتبهُ علَى ناسٍ دونَ آخرينَ، حتَّى العلماءُ الرَّاسخونَ فِي العلمِ يختلفونَ فِي معنَى القرآنِ، وهذَا يدلُّ علَى أنَّهُ خفيَ علَى بعضهِمْ، والصَّوابُ بلَا شكٍّ معَ أحدهِمْ، هذَا إذَا كانَ اختلافهمُ اختلافُ تضادٍ لَا اختلافَ تنوُّعٍ، أمَّا إذَا كانتِ الآيةُ تحتملُ المعنيينِ جميعاً بلَا منافاةٍ ولَا مرجِّحٍ لأحدهمَا، فإنَّهَا تُحملُ عليهمَا جميعاً.

وأمثلته من أمثله المتشابه العام، ولابأس أن نضرب مثلا آخر:

قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}[البقرة: 228]، فهذه الآية متشابهة، حيث إنَّ كلمة "قروء" تحتمل، أن تكون بمعنى الطهر، وتحتمل أن تكون بمعنى الحيض.

فيُحمل لفظ"القروء" على معنى الحيض، لقول النبي ﷺ: المستحاضةُ تدع صلاتها أيام أقرئها[1].

---

(1) صحيح رواه أبو داود 297، والترمذي 126، وابن ماجه 625، عن عدي عن جده، والنسائي 361، عن زينب بنت أبي جحش، وأحمد 26593، عن فاطمة بنت أبي حبيش.

تقسيم المتشابه إلى لفظي ومعنوي:

المتشابه اللفظي: فالمقصود به هو الآيات التي تكررت في القرآن الكريم في ألفاظ متشابهه وصور متعددة وفواصل شتى وأساليب متنوعة مع اتفاق المعنى العام.

مثال: قوله تعالى: {وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}[البقرة: 193].

وقوله تعالى: {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}[الأنفال: 39].

ويكون أحيانا باختلاف الحروف، وأحيانا باختلاف الألفاظ، وأحيانا باختلاف الجمل.

الاختلاف في الحروف:

قال تعالى: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}[الأعراف: 20]، وقال تعالى: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}[طه: 120]، الآيتان في ذكر قصة آدم -عليه السلام- عندما وسوس الشيطان له ولزوجه، وقد تعدّى الفعل (وسوس) باللام في آية الأعراف: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا}، وفي آية طه تعدّى بـ(إلى): {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ}.

الاختلاف في المفردة:

قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}[الأنعام: 112]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}[الأنعام: 137]، الآيتان في إثبات مشيئة الله النافذة وأن كلّ شيء تحت مشيئته من فعل خير أو خلافه، وعبّر عن ذلك في الآية الأولى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ}، وقال في الثانية: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ}.

الاختلاف في الجملة:

قال تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة: 284]، وقال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[المائدة: 40]، الآيتان في بيان مغفرة الله وعذابه، فقُدِّمَت المغفرة على العذاب في البقرة، وفي المائدة قُدّم العذاب على المغفرة، وقد بيَّن العلماء وجه ذلك، ولكل اختلاف سبب، يعرف من مظانه في كتب التفسير.

ولابأس أن ندلي ببعض أراء أهل العلم في الاختلاف اللفظي، ونختار المثال الثاني، في اختلاف الكلمات، أو المفردات:

ذكَر الإسكافي أنّ الآية الأولى التي جاء فيها قوله:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ}، ذكر الربّ؛ لما فيه من الحماية والرعاية والتربية له صلى الله عليه وسلم في سياق ما تعرّض له الأنبياء من أذًى وعداواتٍ، يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}، أمّا الآية الثانية فذكر فيها الاسم الأعظم؛ لأنه جاء قبلها إشراكُهم، فناسب إنزال هذا الاسم؛ لأنّ فيه عنوان الألوهية التي تقتضي التوحيد لا الإشراك[1]، ووافقه عليه الغرناطي، وابن جماعة[2].

أمّا الكرماني فله رأيٌ ثانٍ، فيرى أنّ قوله: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ}، وقع بعد آيات ذُكِر الربّ فيها أربع مرات، فختمها بما يوافق أوّلَها آخرُها، أمّا الآية الثانية فيرى أن قوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ}، وقع بعد قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ}[الأنعام: 136]، فختم بما بدأ[3]. ومثله قال الأنصاري[4].

وأمَّا التشابه المعنوي:

فهو الرابطة التي تجمع المتشابهات المعنوية، وهي الألفاظ التي تشترك في بعض المعاني دون كلها، ومبادلة بعضها بالبعض لا تجوز، مثل لفظتي الشيخ والعجوز، فهما يتشابهان بأنَّ كلاهما طاعن في السنِّ فهذا تشابه في بعض المعاني، إلَّا أنَّ لفظ العجوز يُطلق على المرأة كبيرة السن، ولفظ الشيخ يُطلق على الرجل كبير السن.

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل (1/ 508).

(2) ينظر: ملاك التأويل، (1/ 469)، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص165.

(3) ينظر: البرهان في متشابه القرآن، ص176.

(4) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص174.

قال تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}[الذاريات: 29].

وقال تعالى: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}[الصافات: 133-135].

أي امرأة لوط عليه السلام.

وقال تعالى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}[هود: 72].

وقال تعالى: {قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[يوسف: 78].

وقال: {وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}[قصص: 23].

ويُلاحظُ وجه التشابه أن كلاهما طاعن في السن، مع اختلاف الألفاظ.

والتشابه المعنوي عام، يشمل كل ما سبق، فيكون تشابها معنويا خاصا، فيُردُّ للمحكم، ويكون عاما، فيصدق بعضه بعضا، ويكون مطلقا، ككيِّفيَّات صفات الله تعالى، فلا يعلمها أحد، ويكون نسبيا، يعلمه البعض ويجهله البعض.

فائدة: إنَّ التشابه المطلق وتقييده بأنهُّ لا يعلمه أحد، هذا لا يدخله في الألفاظ، فما من لفظ في قرآن إلَّا وشرحه ساداتنا من أهل العلم، ولا يوجد لفظ في القرآن ليس له معنى أو سبب، ولكن المراد بالتشابه المطلق هو: هي كيفيَّات معيَّنة، لا يطلع عليها أحد، كيفيات صفات الله جل وعلا ومثل كيفيات القيامة وما غاب عن أذهاننا وما لم نره في هذه الدنيا فإنه لا يعلمها إلا الله جل وعلا ونحن نتحدث عن المكلفين لأن بعض الحقائق الغيبية

بالنسبة لنا هي ليست بغيب بالنسبة لغيرنا فالملائكة يطلعون على بعض الأمور التي لا نطلع عليها نحن فالحديث مع المكلفين، فهو مطلق عندنا نسبيٌّ عندهم.

وقال الشَّيخُ السَّعدِي فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ: القرآنُ كُلّهُ مُحكمٌ باعتبارٍ، وكُلّهُ متشابهٌ باعتبارٍ، وبعضهُ مُحكمٌ وبعضهُ مُتشابهٌ باعتبارٍ ثالثٍ، وقدْ وصفهُ اللهُ تعالَى بكلِّ واحدةٍ مِنْ هذهِ الأوصافِ الثلاثِ؛ فوصفهُ بأنّهُ مُحكمٌ في عِدّة آياتٍ، وأنّهُ: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[هود: 1]، ومعنَى ذلكَ أنّهُ غايةٌ فِي الإحكامِ وقوّةِ الاتِّساقِ، وأنّهُ بالغٌ فِي الحكمةِ أقصَى غايةٍ، فأخبارهُ كُلّهَا حَقٌّ وصِدقٌ، لَا تناقضَ فيهَا ولَا اختلافَ، وأوامرهُ كُلّهَا خيرٌ وهدىً وبركةٌ وصلاحٌ، ونواهيهِ عَنْ كلِّ مَا يعودُ علَى الإنسانِ بالشّرورِ والأضرارِ والأخلاقِ الرَّذيلةِ والأعمالِ السّيئةِ فهذَا إحكامهُ.

ووصفهُ بأنّهُ مُتشابهٌ فِي قولهِ مِنْ سورةِ الزُّمرِ: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً}[الزمر:23] أيْ: متشابهاً فِي الحُسنِ والصِّدقِ والهدَى والحقِّ، ووروده بالمعانِي النّافعةِ المُزكِّيَةِ للعقولِ، المُطهِّرةِ للقلوبِ، المُصلحةِ للأحوالِ، فألفاظهُ أحسنُ الألفاظِ ومعانيهِ أحسنُ المعانِي.

ووصَفهُ بأنَّ: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}[آل عمران: 7]، فهنَا وصفهُ بأنَّ بعضهُ هكذَا وبعضهُ هكذا، وأنَّ أهلَ العلمِ بالكتاب يَردّونَ المُتشابهَ منهُ إلَى المُحكَمِ، فيصيرُ كلّهُ مُحكَماً ويقولونَ: {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}[آل عمران: 7] أيْ: ومَا كانَ مِنْ عندهِ فلَا تناقضَ فيهِ، فمَا اشتَبهَ منهُ فِي موضعٍ، فسَّرَهُ الموضعُ الآخرُ المُحكَمُ، فحصلَ العلمُ وزالَ الإشكالُ(1).

(1) القواعد الحسان للسَّعدي.

الفهرس

تمَّ الجزء الأوَّل

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات